

● مؤتمر الأدباء العرب العاشر ومهرجان الشعر العربي الثاني عشر الذي انعقد في الجزائر الشقيقة كان فيضا من تسلسل العطاء العربي الشامل ، في هذه المرحلة الدقيقة ، الخطيرة ، المبشرة على تجهمها حيناً وآخر ، التي تجتازها الأمة العربية في أقطارها ، ويعانيها الأدباء والمثقفون العرب . مع جماهير الشعب ، فينفعلون بها ، ويحاولون أن يكونوا ذوي أثر فعال لصالح الأدب والمجتمع .

● وما أريد ، في كلمتي هذه ، أن أشير إلى جدوى هذا المؤتمر ـ المهرجان ، وإلى الفكر الواعي المسؤول الذي أشار ، ورسَمَ ، وأهاب ، وأراد أن يكون أصحابه المثال ، وإلى هذا الفنّ الذي كانَ فناً وحياةً ومجتمعاً . دون أن يفقد شيئاً من هذه الخصائص ـ المزايا ، بل ازدادَ غِنىً لأنّ هذه الأقانيمَ ازدادَتْ اقتراناً ؛ وإلى هذه اللقاءات ، التي هي ـ أولاً وأخيراً ـ تَنبُضُ نلمسه وندرك أنّ وراءَه عالماً مِنَ الصحّة والحركة في سبيل هَدف ، وهدف عظيم .

● ما أردته في هذه الكلمة هو تحيـة المؤتمر ـ المهرجان الذي خلعت عليه الجزائر البيضاء صفاءَ حبِّها ، وروعةَ إمكاناتها ، وكان اتحاد الكتاب الجزائريين وجهها الأغرّ ، ولسانها المبين •

وما أردته هو الاعتزاز بالمكانة التي تحظى بها « الآداب الأجنبية » في المغرب العربي الكبير ، الأمر الذي حَملَنا على عقد اتفاقية مع الجهات المختصة لارسال المجلة بكميات متزايدة إلى الجزائر الشقيقة ، لأن لها إسـهاما في معركة التعريب المقدَّسة ، ولأنها تعطي الدليلَ على لغة متطورة هي لغة الحداثة والمعاصرة ، علاوة على أنها لغة التراث والأصالة •

الرسائل التي أصبحت تصلني بازدياد من مغربنا العربي الكبير ، والترجمات التي غـدَتْ تتوالى ، نوع من الاستجابة لما دعونا اليه في عدد أسبق لتغدو هذه المجلة مجلة الوحدة الأدبية العربية الثقافية في اختصاصها •

وثقتنا كبيرة بالمثقف العربي ، بالقارىء العربي ، كي تتابع هـذه المجلة سيرتها ، متفوقةً عـلى نفسها ، مؤدية رسالتها كما نخطط لها ، من أجلِ تفاعل ثقافي ، لا بدَّ لنا منه ربحٌ عظيم •

رئيس التحرير

كاتبات أميركيات

تقديم . د منير صلاحي الأصبحي

ترجمة : رباب هاشم ● د . منير صلاحي الأصبحي

مقــدمة

ليس لمجرد ان عام ١٩٧٥ هو عام المرأة ـ وان كان هذا سببا كافيا بحد ذاته ـ وانما أيضا لأن الأدب القصصي والروائي قد يكون في جوهره أدبا نسائيا • هذا على الأقل ما اعتقده هـ•ل• منكن H. L. Mencken (١٨٨٠ ـ ١٩٥٦) ـ أحد كبار النقاد الأمريكيين في هذا القرن • فهو يقول في مقالته « الرواية » (١٩٢٢) أن النساء هن جمهور الرواية الرئيسي ، وهذه حقيقة يعرفها كل العاملين بالكتب، ولكنهن أيضا ـ وهذا مالا يلاحظه الكثيرون حسبما يضيف منكن ـ قد شققن طريقهن الى طليعة صف منتجي هذا النوع من الأدب ، وهو النوع الوحيد ـ باستثناء الشعر الوجداني ـ الذي أحرزن فيه في رأيه تقدما يذكر • وهو يتوقع أن يتزايد نجاح المرأة في الأدب الروائي •

ويعزي منكن هذا النجاح لأسباب قد لاتوافقه غالبية النساء على بعضها وغالبية الرجال على بعضها الآخر • فهو يقول أن النساء لديهن استعداد طبيعي أفضل للعرض الواقعي • فاهتمامهن في رأيه ينصب على أمور ذات « جوهر موضوعي : السقوف والوجبات والأجرة والملابس وولادة وتربية الأطفال • » ويضيف أن المرأة أقـل خيالا" ورومانتيكية من الرجل وأنها ترى الحياة بشـكل أكثر حدة ومطالبها أكثر اعتدالا" فليس لديها أحلام بالنقود تشتت فهمها للحياة وتفكيرها •

واذا كان من المحتمل ان تقابل تعليلات منكن او بعضها بشيء من المعارضة ،

فانه قد يكون من الصعب التصدي لفكرته الأساسية ، وهي أن الرواية فن نسائي • قد يعترض البعض قائلين ان الأغلبية الساحقة من عمالقة هذا النوع من الأدب مؤلفة من الأدباء الذكور • ولا بد أن هؤلاء سيستشهدون بأسماء مثل دوستويفسكي وجويس وفوكنر وپروست وآخرون • لكن مثل هـذا الاعتراض هو نتيجة رؤية سطحية للتاريخ والواقع • ان علينا أن ناخذ بعين الاعتبار حقيقة أن المرأة في الغرب لم تستطع قبل القرن التاسع عشر أن تخترق بشكل جدي الطوق المفروض على كل ما انتجته دور النشر منذ انتشار الطباعة ، ذلك الطوق الذي كان يمنع المرأة من المساهمة العملية في الانتاج الأدبي والفكري • ولئن بدا عدد النساء العاملات في حقـل الأدب القصصي والروائي ضئيلاً بعض الشيء بالمقارنة المجردة مـع عدد الرجال ، فان هذا العدد نفسه يبدو ضخما اذا ما أخذنا القيود التي فرضت على المرأة عبر القرون الطويلة بعين الاعتبار واذا لاحظنا ان آثار هذه القيود لا يمكن أن تختفي خلال فترة زمنية قصيرة • ونحن نجد أيضاً أن الفارق العددي يتضاءل باستمرار مع مرور الزمن وربما يكون قد انعدم الآن ، بعد أن تساقط الكثير من الحواجز والقيود •

ويمكننا من جهة اخرى ان نلاحظ ان بدء انطلاق المرأة الادبي توافت تقريباً مع بدء ازدهار الفن القصصي الروائي في اوروبا • لذا فاننا نجد أن انكلترا مثلاً انجبت عدداً من الروائيات اللواتي تسلقن الى قمة الابداع في هذا الفن مثل جين اوستن والأخوات برونتي •

ولا يمكن لهذه المجموعة القصصية أن تطمح لأن تكون كافية لتمثيل الأدب النسائي القصصي الأمريكي • ان كل ما نسعى اليه في هـذه المجموعة هو انجاز بداية نأمل ان نتبعها بترجمة أعمال أخرى تضاف الى هذه المجموعة في المستقبل •

ولقد قصدنا ان تعكس هذه القصص الى حد ما تطور الفن القصصي ـ الروائي النسوي في أمريكا • فبالرغم من ان قصة ايديث وارتون ، « حمى روماوية » ، نشرت بعد القصص الثلاث التي تليها في هذه المجموعة ، فان المؤلفة تنتمي الى جيل اسبق من زميلاتها وبدأت حياتها الفكرية قبلهن • بل انه من الممكن اعتبار ولا كيثر في مطلع حياتها الأدبية تلميذة لها •

وقد يلاحظ القارىء أن هذه المجموعة لا تحتوي أية قصص من القرن التاسع عشر ، والسبب في هذا هو انه بالرغم من ظهور بعض الكاتبات في الولايات المتحدة في ذلك القرن ، مثل سارا اورن جويت Sarah Orne Jewett (١٨٤٩ ـ ١٩٠٩) التي برزت في ميدان القصة القصيرة ، فقد كان على المرأة الأمريكية أن تنتظر حتى قرننا الحاضر قبل ان تثبت وجوداً محسوساً في الحقل الروائي ـ القصصي •

ولا شك أن ايديث وارتون (١٨٦٢ ـ ١٩٣٧) هي أولى الكاتبات الأمريكيات اللواتي حققن نجاحاً باهراً في هذا النوع من الأدب • وهي قد نشرت أولى مجموعاتها القصصية في عام ١٨٩٩ وأول رواية لها في ١٩٠٢ • واعتبرها بعض النقاد تلميذة للكاتب الأمريكي الكبير هنري جيمس ، الذي لا شك أنها تأثرت به تأثراً كبيراً ، ولكن معظم النقاد ومؤرخي الأدب يشهدون بأنها رغم هذا التأثر استطاعت أن تحقق استقلالها الأدبي وأن تطور أسلوبها الخاص المميز • والشبه بينها وبين جيمس قد يكون في العناية الفائقة التي يوليها كل منهما لمادته ، فالأسلوب في قصصهما يأخذ اهمية كبرى • وسيلحظ القارىء هذه العناية في القصة التي اخترناها هنا ، حيث تكتسب التفاصيل الصغيرة التي توردها الكاتبة في أوائل القصة معاني واضحة لدى اكتمال الحبكة ، ولا بد أن قراءة ثانية للقصة ستتيح للقارىء الاستمتاع بالابداع الكامن في هذه التفاصيل وفي التلاحم العضوي الذي يتضح تماماً عند النهاية •

وبينما تناولت ايديث وارتون في قصصها المجتمع الارستقراطي النيويوركي ، فان ولا كيثر (١٨٧٣ ـ ١٩٤٧) قامت بتصوير مجتمع مختلف تماماً هو مجتمع الغرب ، ولكنها لم تصور هذا المجتمع بالصورة الرومانتيكية التقليدية ، بل ركزت على الجدب الفكري والروحي فيه وعلى انشغاله بالمادة واعتبارها مقياساً للنجاح • والموضوع الذي اختارته في قصصها ورواياتها هـو موضوع مألوف : الصراع بين الفنان والجمهـور ، بين القلب وما يعتبره الناس نجاحاً ، بين الروح والمـادة • ونجد جميع هذه العناصر متوفرة في القصة التي اخترناها هنا ـ « جنازة النحات » ـ التي كانت ضمن أول مجموعة قصصية نشرتها الكاتبة • وقد كتبت ولا كيثر عدداً من الروايات كانت أولها « أيها الرواد ! » O Pioneers (١٩١٣) وأهمها « الموت يأتي في طلب الأسقف » Death Comes for the Archbishop (١٩٢٧) ، التي

تعتبر من الروائع الأدبية الأمريكية • وبينما ارتبط اسم ايديث وارتون باسم هنري جيمس فان غوستاف فلوبير هو الأديب الذي تاثرت ولا كيثر بـه والذي يعتبر أستاذها •

وولدت ايلين غلاسغو (١٨٧٤ـ١٩٤٥) في نفس الولاية التي ولدتفيها ولاكيثر ـ ولاية فرجينيا ـ وعاصرتها • لكن اهتمامها لم يكن ينصب كما هي الحال بالنسبة لزميلتها على مجتمع ناشيء ، بل على مجتمع في طريق الزوال • لقد أولت اهتمامها للمجتمع الأرستقراطي الزراعي الآفل في الجنوب • ونجد هـذا واضحاً تماماً في قصة « جوردانزإند ، » حيث تمثل عائلة جوردان هـذه الطبقة مثلما تمثلها عائلة كومبسون في رواية « الصخب والعنف » لوليم فوكنر • وقد كتبت غلاسغو تسع عشرة رواية ومجموعة واحدة من القصص القصيرة التي تضمنت القصة المترجمة هنا •

أما كاثرين آن بورتر ـ التي ولدت عـام ١٩٠٠ في ولاية تكساس ـ فقد حققت شهرة مختلفة عما يحققه غيرها من الأدباء ، فبالرغم من أنها لم تحقق نجاحا شعبيا كبيرا فان اعمالها مالوفة لدى معظم القراء الأمريكيين وتاثيرها واسـع على الكتاب الناشئين • وهي تمتاز بالقدرة على تحليل شخصياتها بعمق رغـم اتباعها اسلوبا شديد الموضوعية • وقد كتبت خمس روايات وثلاث مجموعات قصصية ، نشرت أولها عام ١٩٣٠ •

وتميل فلانري أوكونر (١٩٢٥ ـ ١٩٦٤) الى اختيـار موضوعات غريبة وسوقية كما اعترفت هي نفسها بذلك • ولكن قصة « الزنجي الاصطناعي » التي اخترناها لهذه المجموعة توضح أسلوبها الساخر والبعيد عن العاطفية • ورغم ذلك فان بامكاننا ان نشهد تعاطفها الموضوعي مع شخصياتها وقدرتها على الخروج من هذه الموضوعات بتجارب انسانية أساسية •

واذا كان القارىء يتوقع أن يجد في هـذه القصص دراسـة لعواطف المرأة وشخصيتها وطبيعتها ، فان بعض هذه القصص ستكون عند ظنه • لكنه قد يفاجا حين يجد أن قصة « الزنجي الاصطناعي » لا تكاد تحوي اية شخصية نسوية ، فهي منصبة على شخصيتين رئيسيتين فقط ـ شخصية الجد وحفيده ـ وكذلك فانـه

سيلحظ انه بالرغم من أهمية شخصية الأم في « جنازة النحات » فانها ليست شخصية رئيسية وأن الأحـداث تدور في عالم الرجال • وهكذا فبالرغم مـن أن الكاتبات الأمريكيات يوجهن اهتمامهن في بعض الحالات لدراسة شخصيات نسوية او لدراسة مراحل معينة من حياة المرأة ، كما هي الحال في قصة « التخلي عن الجدة وذرول » بشكل خاص ، فان افق هذه الكاتبات يمتد ليشمل التجربة الانسانية باكملها •

وبدلاً من الاستطراد في التعليق على قصص هـذه المجموعة ، سنتركها الآن للقارىء ليخوض تجربته الخاصة معها ويطلق عليها حكمه الشخصي(*) •

(*) بعض المعلومات المدرجة في هذه المقدمة مستقاة من الكتابين التاليين :

Robert E. Spiller et al., eds., **Literary History of the United States** (New York : MacMillan, 1963).

Sculley Bradley, Richmond Croom Beatty, and E. Hudson Long, eds., **The American Tradition in Literature** (New York : Grosset & Dunlap, 1967).

ايديث وارتن

حمى روماوية *

من الطاولة التي كانتا تجلسان إليها ، تحركت سيدتان امريكيتان في سن الكهولة الناضجة التي أحسنت رعايتها عبر الشرفة العالية في المطعم الروماوي ، واستندتا على حاجزها ونظرت احداهما الى الاخرى اولا ثم الى الاسفل الى امجاد الساحة والپالاتين(١) الممتدة ، ووجهاهما يعكسان نفس التعبير عن الرضى غير المحدد والكريم في نفس الوقت •

أثناء وقوفهما هناك جاء صدى لصوت بناتي مرح من الدرج الذي يقود الى الملعب في الاسفل • « اذن تعالي معي »، صاح الصوت ، لا يخاطبهما وانما يخاطب رفيقة غير مرئية ، « ولنترك الصغيرتان لحياكتهما » ؛ وكرر صوت له نفس الحيوية الضحك : « آه ، كوني عادلة يا بابس ، انهما لاتحيكان فعلا ـ » « حسناً ، انني اقصد تشبيهاً ، » قال الصوت الاول • « على كل حال ، اننا لم نترك لوالدتينا المسكينتين الكثير من الاشياء الاخرى التي تستطيعان القيام بها •• » وعند هذه النقطة ابتلع انعطاف الدرج بقية الحوار •

نظرت كل من السيدتين الى الاخرى مرة ثانية ، هذه المرة بمسحة من الحرج

(*) "Roman Fever" by Edith Wharton نشرت هذه القصة اول مرة في «مجلة الحرية» Liberty Magazine عام ١٩٣٤ • وكلمة « روماوية » في العنوان هي نسبة الى مدينة روما •

(١) الساحة Forum هي من الاماكن الاثرية الشهيرة في روما والبالاتين Palatine هي احدى هضاب روما السبع •

الباسم ، وهزت الاصغر جسما والاكـثر شحوبا بينهما رأسها واعتراها شيء مـن الاحمرار .

« باربرا ! » تمتمت ، مرسلة تأنيبا غير مسموع وراء الصوت الساخر عـلى الـدرج .

ضحكت السيدة الاخرى ـ التي كـانت اكثر سمنة وذات لون اكـثر تميزا وانف صغير ينم على التصميم ويدعمه حاجبان سوداوان مليئان بالحيوية ـ ضحكة تنم عن مزاج حسن . « هذه فكرة ابنتينا عنا ! »

أجابت رفيقتها باشارة مستنكرة . « ليس هنا شخصيا . يجب ان نتذكـر ذلك . هذه فقط الفكرة الجماعية الحديثة عن الامهات . وكما ترين ـ » بشيء مـن الشعور بالاثم اخرجت من حقيبة يدهـا السوداء الانيقة قطعـة مـن الحرير القرمزي غرست فيها سنارتا حياكـة دقيقتان . « لا يـدري المرء ابدا ، » قالت متمتمة . « لقد أعطانا النظـام الجديد بالتاكيد قدراً جيداً من الوقت لنقتله ؛ واحيانا اسأم مجرد التطلع ـ حتى الى هذا . » كانت اشارتها هـذه المرة موجهة الى المنظر المذهل عند قدميها .

ضحكت السيدة السمراء من جديد ، وعادتا كلتاهما الى المنظر ، تتأملانه في صمت ، بنوع من الصفاء المنتشر الذي ربما كان مستعارا من التـالق الربيعي في السموات الروماوية . كانت ساعة الغداء قـد مضت منذ فترة طويلة ، وانفردت الاثنتان في زاويتهما من الشرفة الشاسعة . في الطرف الآخر قامت مجموعات قليلة بقيت لتلقي نظرة مطولة عـلى المدينة الممتدة بجمع الادلـة السياحية وبالبحث في الجيوب عن بقشيش . تفرقت آخر هذه المجموعات وبقيت السيدتان وحيدتين في العلو الذي غسله الهواء .

« انني لا أرى سببا يمنعنا مـن البقاء هنا ، » قالت السيدة سليد ، السيدة ذات اللون المميز والحاجبان الحيويان . كان هناك كرسيان شبكيان مهجوران على القرب ، فقامت بدفعهما الى حافة الحاجز ، ووضعت نفسها على أحدهما ، ونظرتها مثبتة على البالاتين . « ففي الواقع ، لا يزال هذا أجمل مشهد في العالم . »

« وسيكون دائما ، بالنسبة لي ، » قالت صديقتها السيدة آنسلي موافقة ، بتشديد طفيف جـداً على كلمـة « لي » بحيث أن السيدة سليد رغـم أنها لاحظته

تساءلت مـا اذا كان مجـرد صدفة ، مثل الخطوط الاعتباطية تحت الكلمات التي يضعها كاتب رسالة من الطراز القديم ·

« كانت غريس آنسلي دائما من الطراز القديم ،» فكرت ؛ وأضافت بصوت عـال ، وبابتسامة استرجاعيـة : « انـه مشـهد ألفته كلتانا لعـدد كبـير من السنوات · حين التقينا هنا أول مرة كنا أصغر من بناتنا الآن · هل تذكرين ؟ »

« آه ، نعم ، أذكر ، » تمتمت السيدة آنسلي بنفس التشديد الذي لا يمكن تحديده · ـ « هاهو رئيس الخدم يتساءل هناك ، » قالت تكمل كلامهـا · مـن الواضح انها اقل ثقة بكثير بنفسها وبحقوقها في العالم من رفيقتها ·

« سأشفيه من التساؤل ؛ قالت السيدة سليد وهي تمد يدها الى حقيبة مظهرها مترف باحتشام مثل حقيبة السيدة آنسلي · منادية رئيس الخدم بصوت غنائي ، شرحت له انها وصديقتها من عشاق روما القـدامى ، وانهما تودان امضـاء فترة العصر ترقبان المشهد ـ هذا ، اذا لم يكن في ذلك من عرقلة للخدمة ؟ حنى رئيس الخدم رأسه لدى تناول بقشيشها وأكـد لها انه يرحب بالسيدتين أبلغ الترحيب ، وان هذا الترحيب سيكون أشد اذا ما تواضعتا وبقيتا لتناول العشاء · فالليلة ليلة قمر مكتمل ، كما لا بد انهما تذكران ····

تجمع حاجبا السيدة سليد الاسودان ، كما لو أن الاشارة الى القمر لم تكن في مكانها بل وغير محبذة · لكنهـا ازاحت عبوسها بابتسامة لـدى تقهقر رئيس الخدم · « لكن ، لم لا ؟ هناك أشياء أسوء من ذلك قد نقوم بها · لامجال هناك ، حسبما أعتقد ، لمعرفة موعد عودة الفتاتين · بـل هل تعرفين العودة من أين ؟ أنا نفسي لا أعرف ! » ·

تخضبت بشرة السيدة آنسلي بشكـل طفيف للمرة الثانية · « أعتقـد أن هاذين الطيارين الايطاليـين الـذين التقينا بهما في السفارة قـد قاما بدعوتهمـا للطيران الى تاركوينيا لتناول الشـاي · أظن أنهم سيرغبون في الانتظار والعودة طائرين في ضوء القمر · »

« ضوء القمر ! ضوء القمر ـ يا له من دور لا يزال يقوم به · هل تعتقدين انهما عاطفيتان بنفس القدر الذي كنا به ؟ »

« لقد توصلت الى نتيجة هـي أنني لا أعرف بناتنا ما همـا ،» قالت السيدة انسلي · « وربما لم نكن نعرف واحدتنا عن الاخرى اكثر من ذلك بكثير ·»

« لا ، ربما لم نكن نعرف · »

نظرت صديقتها اليها نظرة خجولة · « لم يكن ليخطر لي أبدا انـك كنت عاطفية يا اليدا · »

« اذن ، ربما لم أكن · » أغمضت السيدة سليد جفنيها وهي تستعيد الماضي' وليضع دقائق فكرت السيدتان ـ اللتان كانتا صديقتين حميمتين منذ طفولتهما ـ مليا في ندرة ما تعرفانه عن بعضهما · لقد كان لدى كل واحدة منهما بالطبع تحت جاهز لا لصاقـه باسم الاخرى ؛ فالسيدة دلفين سليد ، مثلا ، ستقـول لنفسها ، أو لأي شخص يسألها ، أن السيدة هوراس آنسلي كانت قبـل خمسة وعشرين عاما حلوة جدا ـ لا ، لن تصدقي هذا ، أليس كذلك ؟ ·· رغم انها بالطبع لا تزال فاتنة ، متميزة ··· حسنا في صباها كانت شديدة الحلاوة ؛ أجمل بكثير من ابنتها باربرا ، رغم أن بابس ـ على الاقل حسب المقاييس الجديدة ـ هي أكثر تاثيرا ـ أرقى ، كما يقولون · من المضحك أن تكون كذلك ، وأبواها عتيقان بهذا الشكل · نعم' لقد كان هوراس آنسلي ـ أوه ، نسخة مماثلة لزوجته · نموذجان متحفيان من نيويورك القديمة · حسنا المظهر ، لا انتقـاد عليهما ، مثاليان · لقد عاشت السيدة سليد والسيدة آنسلي قبالة بعضهما ـ فعليا وكذلك معنويا لسنوات عدة · حين كـان يتم تجديد ستائر غرفة الاستقبال في المنزل رقم ٢٠ بالشارع الثالث والسبعـين ، فان المنزل رقم ٢٣ في الطرف المقابـل كـان دائما عـلى علم بذلك واطلاع عـلى التبديلات والمشتريات والرحلات وأعياد الذكـرى والأمراض ـ التاريخ الوديـع لزوجين محترمين · لم يغب الكثير منه عـن السيدة سليد · لكنها غـدت تسأمه في الوقت الذي قام زوجها فيه بانقلابه الكبير في وولستريت(٢) ، وحين اشتريا منزلا في شارع بارك أفنيو الاعلى أخذت تفكر « اني افضل السكنى قبالة حانة غير مرخصة من باب التغيير ؛ على الاقل قد يتاح للمرء أن يشاهد الشرطة تهاجمها ·»

---

(٢) شارع في قسم مدينة نيويورك الذي تقوم فيه المؤسسات المالية ، ويطلق الاسم ايضا على العالم المالي الأمريكي ·

فكرة رؤية الشرطة تهاجم منزل غريس كانت مسلية بحيث أنها (قبل أن تنتقل) مرضتها في وليمة غداء نسائية • نجحت تماما ، وتنوقلت كالعادة ـ وقد تساءلت عما اذا كانت عبرت الشارع ، ووصلت للسيدة آنسلي • تمنت ألا تكون وصلت ، ولكنها لم تهتم كثيرا • كانت تلـك هي الايام التي فيها حسم على المظهر المحترم ، ولم يكن يضير اولئك الـذين هم أبعد من المتناول أن يكونوا هدفاً للقليل مـن الضحك •

بعد بضع سنوات ، وبفاصل لا يزيد عن بضعة شهور ، فقدت كلتا السيدتين زوجيهمـا • تـم تبادل مناسب للباقات والتعزيات ، وتجديد وجيز للألفة في ظل حدادهما ؛ والآن ، بعد فاصل آخر ، تلاقتا في روما ، في نفس الفندق ، كل منهما تابعة متواضعة لابنة بارزة • جذبهما التماثل في وضعهما ، الواحدة للاخرى ، من جديد ، مثيرا بعض النكات المعتدلـة ، والاعتراف المتبادل بأنه اذا كانت مجاراة البنات شيئاً متعباً في الايام العابرة فانه الآن ـ أحيانا ـ من الممل عدم مجاراتهن •

لا شك ـ أخذت السيدة سليد تفكر ـ انها كانت تشعر بفراغها اكثر مما يمكن لغريس المسكينة أن تشعر به أبداً • ان التحول من كونها زوجة دلفين سليد الى كونها ارملته هو سقوط كبير • لقد اعتبرت دائما نفسها (بنوع من الاعتزاز الزيجي) مساوية له في المواهب الاجتماعية ، مساهمة بحصتها الكاملة في جعلهما زوجين غير عاديين مثلما كانا لكن ليس من علاج للاختلاف بعد موته • كزوجة لمحامي الشركات الشهير ـ الذي كانت دائما بـين يديه قضية عالمية أو قضيتان ـ كان كل يوم يجلب واجباته المثيرة وغير المتوقعة : الاستقبال المرتجل لزملاء بارزين من الخارج ، الاندفاع المستعجل من أجل أعمال قانونية الى لنـدن او باريس أو روما ، حيث كان الاستقبال يُرَدُّ بشكل بديع جداً ، التسلية في أن تستمع اثر ابتعادها : « ماذا ، تلك السيدة ذات الملابس والعيون الجميلة هي السيدة سليد ـ زوجة سليد ؟ حقاً ؟ عادة تكون زوجات المشاهير بعيدات عن الاناقة • »

نعم • كونها أرملة سليد كان أمراً مسئما بعد تلك الأشياء • في مجاراتهـا لزوج مثل زوجهـا كل طاقاتهـا كانت مجندة ؛ الآن ليس لديها من تجاريه سوى ابنتهـا ، فالابن الذي بدا انه ورث مواهب أبيه مات فجأة في صباه • لقد كافحت

للتغلب على ذلك الأسى لأن زوجها كان هناك ، يتلقى المساعدة ويقوم بالمساعدة ؛ بعد موت الاب ، أصبح التفكير بالابن لا يحتمل • لم يبق شيء سوى أن تكون أما لابنتها ؛ وجيني العزيزة ابنة مثالية لا تحتاج الى عناية أمومية مفرطة • « لو كانت بابس آنسلي ابنتي لا أظن انني أكون هادئة الى هذا الحد ، » كانت السيدة سليد تفكر أحيانا بشيء من الحسد ؛ لكن جيني ـ التي كانت أصغر من صديقتها اللامعة ـ كانت تلك الصدفة النادرة ، فتاة بالغة الجمال استطاعت بطريقة ما أن تجعل الشباب والجمال يبدوان باعثا على الطمأنينة مثل غيابهما • كان الأمر بأكمله محيرا ـ وبالنسبة للسيدة سليد مملا بعض الشيء • تمنت لو أن جيني تقع في الحب ـ بل في حب الشخص غير المناسب • بحيث تحتاج لأن تكون موضع مراقبة وان تداور وان تنقذ • و بدلا عن ذلك ، كانت جيني هي التي تراقب امها وتحميها من تيارات الهواء وتتأكد من أنها تناولت دواءها المقوي ••

لم تكن السيدة آنسلي في فصاحة صديقتها ، وكانت صورتها العقلية للسيدة سليد أكثر ضمورا ومرسومة بلمسات أشد ضعفا • « ان أليدا سليد لامعة جدا ، ولكنها ليست لامعة الى الدرجة التي تظنها • » هذه العبارة تلخص تلك الصورة تلخيصا وافيا ؛ رغم انها كانت لتضيف ، لتنوير الغرباء ، ان السيدة سليدكانت في شبابها فتاة ساحرة ؛ اكثر سحرا بكثير من ابنتها التي هي جميلة ـ بالطبع ـ وذكية نوعا ما ، ولكن ليس لديها شيء من ـ « حيوية » أمها ، كما وصفها أحدهم ذات مرة•كانت السيدة آنسلي عادة تتناول كلمات دارجة مثل هذه ، وتستعملها بين قوسين ، كتهورات لم يسمع بها • كلا • ليست جيني مثل أمها • احيانا كانت السيدة آنسلي تعتقد أن أديلا سليد تشعر بخيبة الامل ؛ بالاجمال كانت حياتها حياة محزنة • مليئة بالفشل والاخطاء ؛ كانت السيدة آنسلي دائما تشعر بالرثاء نحوها •••

هكذا نظرت هاتان السيدتان لبعضهما ، كل منهما من الطرف الخاطيء من منظارها المقرب الصغير •

لفترة طويلة استمرتا في الجلوس جنبا الى جنب دون أن تتحدثا • يبدو وكأنه ـ بالنسبة لكليهما ـ كانت هناك راحة في حضرة « المنتوموري » (نصب الموت)

الشاسع الذي واجههما • جلست السيدة سليد في سكون تام ، عيناها ثابتتان على المنحدر الذهبي لقصر القياصرة ، وبعد فترة توقفت السيدة أنسلي عن التنقيب في حقيبتها ، وغرقت هي أيضاً في التأمل • مثل الكثير من الأصدقاء الحميمين ، لم تتح للسيدتين من قبل الفرصة قط لأن تكونا صامتتين معاً ، وشعرت السيدة أنسلي بشيء من الحرج لما بدا ، بعد هذه السنوات الطويلة ، مرحلة جديدة في مودتهما ، ومرحلة لم تكن تدري بعد كيف تتعامل معها •

فجأة امتلأ الهواء بقعقعة الأجراس العميقة تلك التي تغطي روما بين الحين والآخر بسقف من الفضة • نظرت السيدة سليد الى ساعة معصمها • « صارت الساعة الخامسة بهذه السرعة » قالت ، كما لو دهشت لذلك •

اقترحت السيدة أنسلي بلهجة تساؤلية : « هناك اجتماع للعب البريدج في السفارة • » لفترة طويلة لم تجب السيدة سليد • بدت ضائعة في تأملاتها ، واعتقدت السيدة أنسلي أن العبارة فاتتها • لكن بعد برهة قالت ، مثل شخص يتكلم وهو في حلم : « هل قلت بريدج ؟ كلا ، الا اذا أردتِ ذلك ••• لكن لا أعتقد أنني سأذهب • »

« آه ، كلا ، » سارعت السيدة أنسلي تؤكد لها • « لا رغبة لدي في ذلك على الاطلاق • المكان هنا جميل جداً ؛ غاص" بالذكريات القديمة ، كما تقولين ، » أراحت نفسها في كرسيها ، وبشبه اختلاس تناولت حياكتها • أخذت السيدة سليد ملاحظة جانبية من هذا العمل ، لكن يديها اللتين تلقتا عناية جميلة بقيتا دون حراك على ركبتيها •

« كنت الآن أفكر ، » قالت ببطء ، «بالأشياء المختلفة التي تمثلها روما بالنسبة لكل جيل من المسافرين • بالنسبة لجداتنا - حمى روماوية ؛ لأمهاتنا : أخطار عاطفية ــ كيف كنا تحت الحراسة ! ــ لبناتنا : لا أخطار تزيد على ما يوجد في منتصف الشارع الرئيسي في الوطن • انهما لاتدريان ذلك ــ ولكن أشياء كثيرة تفوتهما ! »

كان النور الذهبي الطويل قد بدأ يشحب ، ورفعت السيدة أنسلي حياكتها أقرب قليلاً" الى عينيها • « نعم ؛ كم كنا تحت الحراسة ! »

« لقد اعتدت أن أفكر ، » تابعت السيدة سليد ، « أن وظيفة أمهاتنا كانت

أصعب كثيرا من جداتنا . فحين كانت الحمى الروماوية تختال في الشوارع لابد أن جمع الفتيات في ساعة الخطر كان أمراً سهلاً نسبياً ؛ لكن حين كنا أنت وأنا شابتين ، ونملك ذلك القدر من الجمال ، مع بهار من عدم الطاعة مضافاً إليه ، وليس من خطر أكبر من الاصابة بالزكام في الساعة الرطبة بعد الغروب ، كانت أمهاتنا يبذلن جهداً كبيراً لمنعنا من الخروج ـ أليس كذلك ؟ »

التفتت ثانية نحو السيدة آنسلي ، ولكن الأخيرة كانت قد وصلت الى نقطة حساسة في حياكتها . « واحدة ، اثنتان ، ثلاثة ـ تمرر اثنتين ؛ نعم ، لابد أنهن فعلن ، » وافقت ، دون أن ترفع بصرها .

استقرت عينا السيدة سليد عليها بانتباه متعمق . « بامكانها أن تحيك ـ في مكان كهذا ! كم ينسجم هذا مع طبيعتها ... »

انحنت السيدة سليد الى الوراء ، تفكر بكآبة ، عيناها تنتقلان من الآثار التي تواجهها الى التجويف الكبير الأخضر للساحة ، والبريق الخافت لواجهات الكنائس وراءه وضخامة الكولوزيوم (المدرج الكبير) القصية . فجأة ، خطر لها : « من الحسن جداً القول أن بناتنا تخلصن من العاطفة وضوء القمر . ولكن اذا لم تكن بابس آنسلي تخطط للايقاع بذلك الطيار الشاب ـ الماركيز بينهما ـ فانني لا أدرك شيئاً اذن . وليست لدى جيني أية فرصة الى جانبها . انني أدرك ذلك أيضاً . هل يا ترى ذلك هو السبب في أن عريس آنسلي تحب أن تذهب الاثنتان الى كل مكان معاً ؟ ابنتي جيني المسكينة تستعمل وسيلة للظهور ـ ! » ضحكت السيدة سليد ضحكة تكاد لا تسمع ، ولدى صدور ذلك الصوت تركت السيدة آنسلي حياكتها .

« نعم ـ ؟ »

« انني ـ آه ، لا شيء . كنت فقط أفكر كيف أن ابنتك بابس تحمل كل شيء أمامها . ذلك الفتى كامبوليري هو واحد من أفضل الشبان الصالحين للزواج في روما . لا تظهري بريئة هكذا ، يا عزيزتي ـ أنت تعلمين أنه كذلك . وكنت ... أتساءل كيف تدبر شخصان مثاليان مثلك ومثل هوراس انتاج شيء له كل هذه الديناميكية . » ضحكت السيدة سليد من جديد ، بمسحة من القسوة .

جمدت يدا السيدة آنسلي على صنارتيها • اتجهت نظرتها مباشرة الى حطام العاطفة والروعة العظيم المتراكم تحت قدميها • لكن وجهها الصغير لم يحمل أي تعبير • بعد برهة طويلة قالت • « أعتقد أنك تبالغين في تقدير مواهب بابس ، يا عزيزتي • »

غدت لهجة السيدة سليد أخف وطأة • « كلا ؛ لا أبالغ • انني أقدرها حق قدرها • وربما أحسدك • أوه ، ابنتي مثالية ؛ لو كنت مريضة مزمنة فانني-حسناً، اعتقد أنني أفضل أن أكون في رعاية جيني • لابد أن هناك أوقاتاً ••• لكن هاك ! لقد كنت دائماً أريد ابنة لامعة ••• ولم أفهم تماماً أبداً لم حصلت على ملاك بدلاً من ذلك • »

أعطت السيدة آنسلي صدى لضحكتها في دمدمة خافتة • « ان بابس ملاك أيضاً • »

« بالطبع ـ بالطبع ! لكن لها جناحان قزحيان • واذن ، انهما تتجولان قرب البحر مع شابيهما ؛ ونحن ها هنا ••• وهذا كله يرجع الماضي بشكل فيه حدة زائدة قليلاً • »

كانت السيدة آنسلي قد استأنفت حكايتها • ربما كاد المرء أن يتخيل (اذا كانت معرفته بها أقل ، حسبما خطر للسيدة سليد) أنه بالنسبة لها أيضاً برزت ذكريات أكثر مما يجب من الطلال المتطاولة لهذه الآثار المهيبة • لكن كلا ؛ كانت ببساطة منهمكة في عملها • ماذا كان لديها ليقلقها ؟ انها تعرف أنه من المؤكد تقريباً أن تعود بابس وهي مخطوبة لكامبولبري المناسب جداً • « وستبيع بيتها في نيويورك ، وتستقر على قرب منهما في روما ، ولا تعترض طريقهما أبداً ••• ان لديها الكثير من اللباقة • لكن ستكون عندها طباخة ممتازة ، وسيزورها فقط الناس المناسبون للعب البريدج وتناول الكوكتيل ••• وشيخوخة آمنة بشكل تام بين أحفادها • »

انتزعت السيدة سليد نفسها من هذا الجنوح التنبوئي منكمشة باشمئزاز من نفسها • لم يكن هناك من يستحق منها أن تفكر به تفكيراً طيباً أكثر من غريس آنسلي • ألن تشفي نفسها أبداً من الشعور بالحسد نحوها • ربما كانت قد بدأت ذلك منذ زمن أطول مما ينبغي •

نهضت وانحنت فوق الحافة ، تملأ عينيها المُزْعَجَتَيْن بسحر تلك الساعة المسكّن • لكن بدلاً من أن يسكنها ، بدا المشهد وكأنه يزيد من ضيقها وتوترها • انتقلت نظرتها الى الكولوزيوم • كان جانبه الذهبي قد غرق في الظل البنفسجي ، وانحنت السماء فوقه صافية صفاء البلور ، دون ضوء أو لون • كانت اللحظة هي اللحظة التي يقف العصر والمساء في توازن في منتصف السماء •

استدارت السيدة سليد ووضعت يدها على ذراع صديقتها • كانت الحركة مفاجئة تماماً بحيث أن السيدة أنسلي رفعت بصرها مجفلة •

« لقد غربت الشمس • أنت لست خائفة ، يا عزيزتي ؟ »

« خائفة ـ ؟ »

« من الحمى الروماوية أو ذات الرئة ؟ أذكر كم كنت مريضة ذلك الشتاء • في صباك كانت حنجرتك شديدة الحساسية ، أليس كذلك ؟ »

« أوه ، انني على ما يرام في هذا المكان العلوي • في الأسفل ، في الساحة ، يصير الطقس بارداً بشكل مميت ، بشكل مفاجيء ••• لكن ليس هنا • »

« آه ، طبعاً أنت تعرفين لأنه كان عليك أن تحترسي كثيراً • » التفتت السيدة سليد الى الحافة ثانية • فكرت : « علي أن أقوم بجهد إضافي جديد كي لا أكرهها • » بصوت عال قالت : « كلما نظرت الى الساحة من هذا المكان العلوي ، تذكرت تلك الحكاية عن عمتك الكبيرة ، أليس كذلك ؟ عمة كبيرة خبيثة بشكل مرعب ؟ »

« أوه ، نعم ! العمة هارييت ، التي يقال أنها أرسلت أختها الصغرى الى الساحة بعد الغروب لقطف زهرة من الأزهار التي تفتح في الليل لتضعها في ألبومها • كل عماتنا الكبيرات وجداتناكن يحفظن ألبومات من الأزهار الجافة • »

أحنت السيدة سليد رأسها موافقة • « لكنها في الواقع أرسلتها لأنهما كانتا تعشقان نفس الرجل ـ »

« كان هذا هو المعروف بين الأسرة • قالوا أن العمة هارييت اعترفت بذلك بعد

مضي سنين • على كل حال ، أصيبت الأخت بالحمى وماتت • كانت أمي تخوفنا بهذه القصة حين كنا أطفالاً • »

« وأنت خوفتني بها ، في ذلك الشتاء الذي كنا فيه أنت وأنا هنا في صبانا • الشتاء الذي تمت فيه خطبتي لدلفين • »

صدرت عن السيدة آنسلي ضحكة خافتة • « أوه ، حقاً ؟ هل أخفتك حقاً ؟ لا أعتقد أن بالامكان اخافتك بسهولة • »

« لا يحدث ذلك كثيراً ؛ لكنني خفت حينذاك • لقد خفت بسهولة لأنني كنت سعيدة جداً • انني اتساءل ما اذا كنت تدركين ماذا يعني ذلك ؟ »

« انني ـ نعم ••• » تلعثمت السيدة آنسلي •

« حسناً ، انني أعتقد أن ذلك هو السبب أن حكاية عمتك الشريرة أحدثت في ذلك التأثير • وقد خطر لي لم يبق هناك حمى رومانية ، ولكن الساحة باردةبشكل مميت بعد الغروب ـ خاصة بعد يومحار • والكولوزيوم أكثر برودة ورطوبةحتى• »

« الكولوزيوم ـ ؟ »

« نعم • لم يكن الدخول اليه سهلاً ، بعد أن تقفل البوابات في المساء • لم يكن سهلاً بتاتاً • ومع ذلك ، ففي تلك الأيام كان يمكن تدبر ذلك ؛ كان يحدث ذلك ، كثيراً • كان العشاق الذين لا يستطيعون اللقاء في مكان آخر يلتقون هناك • كنت تعلمين ذلك ؟ »

« انني ـ أظن • لا أذكر • »

« لاتذكرين ؟ ألا تذكرين قيامك بزيارة احدى هذه الآثار ذات مساء ، تماماً بعد حلول الظلام ، والاصابة بزكام سيء ؟ المفروض أنك ذهبت لرؤية بزوغ القمر• لقد ردد الناس دائماً أن تلك المغامرة هي التي سببت مرضك • »

حلت لحظة من الصمت ؛ ثم أجابت السيدة آنسلي : « هل قالوا ذلك ؟ لقد حدث كل هذا منذ زمن بعيد جداً • »

« نعم . وتحسنت صحتك من جديد ـ لذا لم يكن للأمر أهميـة . لكنني أظن انه أدهش أصدقاءك ـ أعني السبب المعلن لمرضك ـ لأن الجميع كانوا يعرفون أنك كنت رصينة جداً بسبب حنجرتك ، وأن أمك وجهت لك عناية كبيرة ... لقد خرجت من البيت للتفرج في وقت متأخر ، ألم تفعلي ذلك في تلك الليلة ؟ »

« ربما فعلت . ليست أكثر البنات رصانة رصينات دائماً . مـا الذي جعلك تفكرين بالأمر الآن ؟ »

لم يبد أن السيدة سليد كان لديها جواب جاهز . لكنها بعد لحظـة انفجرت : « لانني ببساطة لا أستطيع تحمله أكثر من ذلك ـ ! »

رفعت السيدة أنسلي رأسها بسرعة . كانت عيناها واسعتين وشديدتي الشحوب . « ما الذي لاتستطيعين تحمله ؟ »

« ماذا ـ أنت غير مدركة أنني كنت دائماً أعرف لم ذهبتِ . »

« أوه لقد ذهبتُ ـ »

« نعم . انك تعتقدين أنني أبغضك ، أليس كذلك ؟ فاذن ، لقد ذهبت للقاء الرجل الذي كنت أنا مخطوبة له ـ وانني أستطيع أن أعيد كل كلمة من كلمات الرسالة التي دفعتك أن تذهبي هناك . »

أثناء حديث السيدة سليد ، وقفت السيدة أنسلي مترنحة على قدميها . انزلقت حقيبتها وحياكتها وقفازها وسقطت في كومة مذعورة على الأرض . نظرت الى السيدة سليد كما لو كانت تنظر الى شبح .

« لا ، لا ـ لاتفعلي ، » قالت متلعثمة .

« لم لا ؟ اسمعي ، ان كنت لاتصدقيني . حبيبتي الوحيدة ، لايمكن أن تستمر الأمور بهذا الشكل . لابد أن أراك وحدك . تعالي الى الكولوزيوم فوراً بعد حلـول الظلام غداً . سيكون هناك شخص يدخلك . لست بحاجة للخشية من ذلك الشخص ـ لكن ربما قد نسيتِ ما جاء في الرسالة ؟ »

تلقت السيدة آنسلي التحدي بتمالك غير متوقع • استندت مرتكزة على الكرسي ونظرت الى صديقتها وأجابت : « لا ، انني أحفظها عن ظهر قلب أنا أيضاً • »

« والتوقيع ؟ ـ لك وحدك ، د • س • ـ ألم يكن كذلك ؟ انني مصيبة، أليس كذلك ؛ تلك كانت الرسالة التي جعلتك تخرجين بعد الظلام في ذلك المساء ؟ »

كانت السيدة آنسلي لا تزال تنظر إليها • بدا للسيدة سليد أن صراعاً بطيئاً يدور خلف القناع المتماسك الطوعي على وجهها الصغير الهادىء • « لم يكن ليخطر لي أنها ستتمالك نفسها الى هذا الحد ، » دار ذلك في ذهن السيدة سليد ، بشيء من الغضب • لكن في تلك اللحظة تكلمت السيدة آنسلي • « لا أعرف كيف علمت • لقد أحرقت تلك الرسالة في الحال • »

« نعم • هذا ما يتوقع منك ، بالطبع ـ انت رصينة جداً ! » أصبح الهزء مكشوفاً الآن • « وطالما أنك أحرقت الرسالة فانك تتساءلين كيف بحق الله أعرف ما الـذي احتوته • الأمر كذلك ، أليس هذا صحيحاً ؟ »

انتظرت السيدة سليد ، لكن السيدة آنسلي لم تتكلم •

« حسناً ، يا عزيزتي ،انني اعرف ما احتوته تلك الرسالة لأنني أنا كتبتها ! »

« أنت كتبتها ؟ »

« نعم • »

وقفت السيدتان لحظة تحدق الواحدة منهما في الأخرى تحت آخر شعاع ذهبي• ثم سقطت السيدة آنسلي من جديد على كرسيها • « آه ، » تمتمت ، وغطت وجههـا بيديها •

انتظرت السيدة سليد بعصبية كلمة أو حركة أخرى • لكن لم تصدر أية كلمة او حركة ، وبعد فترة طويلة انفجرت : « انني أرعبك • »

سقطت يدا السيدة آنسلي على ركبتها • كان الوجه الذي كشفتا عنه مبللاً بالدموع • « لم أكن أفكر بك • كنت أفكر ـ لقد كانت الرسالـة الوحيـدة التي استلمتها منه قط ! »

« وأنا كتبتها ٠ نعم ؛ أنا كتبتها ! لكنني كنت الفتاة المخطوبة له ٠ هل حدث أن تذكرت ذلك ؟ »

انحنى رأس السيدة انسلي من جديد ٠ « انني لا أحاول تبرير نفسي ٠٠٠ لقد تذكرت ٠٠٠ »

« ومع ذلك ذهبت ؟ »

« مع ذلك ذهبت ٠ »

وقفت السيدة سليد تنظر نحو الاسفل الى الشخص المحني الضئيل الى جانبها ٠ كانت شعلة غضبها قد دوت ، وتساءلت لم خطر لها أنه سيكون هناك أي شعور بالرضى ناجم عن تسبيب جرح عديم المعنى بهذا الشكل لصديقتها ٠ ولكن اضطرت أن تبرر موقفها ٠

« انك تقدرين الأمر ؛ لقد اكتشفت' ــ وكرهتك ، كرهتك٠عرفت أنك مغرمة بدلفين ــ وشعرت بالخوف ؛ بالخوف منك ، من أساليبك الهادئة ، عذوبتك ٠٠٠ من ٠٠٠ اذن ، أردت ابعادك من الطريق ، ذلك كل شيء ٠ فقط لبضعة أسابيع ؛فقط الى أن أتأكد منه ٠ وهكذا في سورة عمياء من الغضب كتبت تلك الرسالة ٠٠٠ لاأدري لم أخبرك بذلك الآن ٠ »

« أعتقد ، » قالت السيدة آنسلي ببطء ، « لأنك استمررت دائماً في كرهي ٠»

« ربما ٠ أو لأنني أردت أن أزيح الشيء بكليتـه من تفكيري ٠ » تـوقفت ٠ « يسرني أنك تخلصت من الرسالة ٠ بالطبع لم أفكر أبداً أنك قد تموتين ٠ »

خلدت السيدة آنسلي الى الصمت ؛ وشعرت السيدة سليـد بشعـور غريب من العزلة ، وهي تنحني فوقها ، شعور بكونها انفصمت عن تيار العلاقات الانسـانيـة الدافيء ٠ « أنت تفكرين أنني وحش ! »

« لا أدري ٠٠٠ انها الرسالة الوحيدة التي استلمتهـا ، وأنت تقولين أنـه لم يكتبها ؟ »

« آه ، كم أنك لا تزالين تهتمين بأمره ! »

« لقد اهتممت بتلك الذكرى ، » قالت السيدة آنسلي ٠

استمرت السيدة سليد تنظر إليها ٠ بدت أن الصدمة قد أضمحتها جسدياً ـ كما لو أن الريح ستبعثرها ، حين تنهض ، مثل نفخة من الغبـار ٠ فجـأة اضطرمت غيرة السيدة سليد من جديد لرؤية ذلك ٠ طوال هذه السنين عاشت هذه المرأة على تلك الرسالة ٠ يالمدى الحب الذي لابد أنها شعرت به تجاهـه ، كي تجـد ذخراً في مجرد ذكرى رمادها ٠ رسالة الرجل الذي كانت صديقتها مخطوبة له ٠ أليست هي الوحش؟

« لقد حاولت جهدك أن تأخذيه مني ، أليس كذلك ؟ لكنك فشلت ! واحتفظت أنا به ٠ ذلك كل ما في الأمر ٠ »

« نعم ٠ ذلك كل شيء ٠ »

« أتمنى الآن لو انني لم أخبرك ٠ لم تكن لدي أية فكرة أنك ستشعرين نحـو القضية بهذا الشكل ؛ ظننت أنها ستكون تسلية لك ٠ لقد حدث كل شيء منـذ أمـد بعيد ، كما تقولين ؛ وعليك أن تكوني عادلة نحوي بان تتذكري أنه لم يكن لدي أي سبب لأعتقد أنك ستحملين الأمر بجدية ٠ كيف كان بامكاني ، في حين أنك تزوجت هوراس آنسلي بعد ذلك بشهرين ؟ حالما أمكنك مغادرة السرير أسرعت أمك بـك الى فلورنسا وزوجتك ٠ لقد دهش الناس بعض الشيء ـ تساءلوا عن تلـك العجلـة بالزواج ؛ لكنني ظننت أنني أفهم ٠ ظننت أن دافعك كـان الغيظ ـ كي تستطيعي القول أنك سبقتني أنا ودلفين ٠ للبنات أسباب سخيفة بهذا الشكل للقيام بـأكثـر الأشياء جدية ٠ وزواجك بهذه السرعة أقنعني أنك لم تحفلي حقاً قط ٠ »

« نعم ، أعتقد أنه يعطي مثل هذا الانطباع ، » وافقت السيدة آنسلي ٠

خلت السماء الصافية فوقهما من ذهبها ٠ انتشر الغسق فيها ، معتماً الهضـاب السبع بشكل مفاجيء ٠ هنا وهناك بدأت الأضواء تبرق بين الأشجار تحت أقدامهما ٠ كانت الخطوات تروح وتجيء على الشرفة المهجورة ـ خـدم ينظرون من الباب عنـد أعلى الدرج ، ثم يظهرون من جديد يحملون صواني وفوطاً وزجاجات نبيذ ٠ حُرِّكت بعض الطاولات ، وعُدِّل وضع الكراسي ٠ ومض خيط واهن من الأضواء الكهربائية ٠

أزيحت بعض المزهريات ذات الزهور الذاوية ، وأعيدت وقد ملئت من جديد • فجأة ظهرت سيدة ممتلئة ترتدي معطفاً أغبر ، تسأل بايطالية مكسرة اذا كان أحـد قـد رأى ربطة المطاط التي كانت تحزم دليلها السياحي • تحسست بعصاها تحت الطاولة التي تناولت غداءها عليها والخدم يساعدونها •

كانت الزاوية التي جلست السيدة سليد والسيدة أنسلي فيها لاتزال مظللة ، مهجورة • لم تتكلم أية منهما لفترة طويلة • أخيراً بدأت السيدة سليد من جديـد : « اعتقد أنني فعلت هذا كنوع من النكتة ـ »

« نكتة ؟ »

« حسناً ، الفتيات شرسات أحياناً ، كما تعلمين • خاصة الفتيات العاشقـات • واذكر كيف ضحكت بيني وبين نفسي على فكرة أنك تنتظرين هناك في الظلام،متحاشية الأنظار ، مصغية الى كل صوت ، تحاولين الدخول ـ • بالطبع انزعجت حين سمعت أنك مرضت الى ذلك الحد فيما بعد • »

لم تكن السيدة آنسلي قد تحركت لوقت طويل • لكنها الآن التفتت يبطء نحو صاحبتها • « لكنني لم أنتظر • كان قد دبر كل شيء • لقد كان هناك • وأدخلناعلى الفور ، » قالت •

نهضت السيدة سليد فجأة من وضعها المحني • « دلفين هناك ؟ أدخلوكما ؟ ـ آه ، انك الآن تكذبين ! » انفجرت بعنف •

أصبح صوت السيدة آنسلي أكثر وضوحاً ، وممتلئاً بالدهشة • « لكنه بالطبع كان هناك • طبعاً أتى ـ »

« أتى ؟ كيف عرف أنه سيجدك هناك ؟ لابد أنك تهذين ! »

ترددت السيدة آنسلي ، كما لو كانت تفكر • « لكنني أجبت على الرسالـة • أخبرته أنني ساكون هناك • وهكذا أتى • »

قذفت السيدة سليد كفيها على وجهها • « أوه ، يا الهي ـ أجبت ! لم يخطر لي قط • قيامك بالاجابة ••• »

« من الغريب انك لم تفكري بذلك قط ، اذا كنت كتبت الرسالة • »

« نعم • كنت قد أعماني الغضب • »

نهضت السيدة آنسلي ، ولفت نفسها بمنديلها القراني • « المكان بارد هنا • الأفضل أن تذهب ••• انني أسفة لك ، » قالت ، وهي تحكم الفرو حول حنجرتها •

سببت هذه الكلمات غير المتوقعة غصة في نفس السيدة سليد • « نعم ؛ الأفضل أن نذهب•» لملمت حقيبتها ورداءها • « لا أدري لم تشعرين بالأسف نحوي ، » قالت متمتمة •

وقفت السيدة آنسلي تنظر بعيداً عنها الى كتلة الكلوزيوم السرية المعتمة • « حسناً ــ لأنني لم أضطر للانتظار تلك الليلة • »

ضحكت السيدة سليد ضحكة غير هادئة • « نعم ؛ لقد هُزمتُ في ذلك • لكن لايحق لي أن أحسدك على ذلك ، على ما أظن • بعد مضي كل هذه السنوات • فرغم كل ذلك ، حصلت أنا على كل شيء ؛ حصلت عليه لمدة خمس وعشرين سنة • ولم تحصلي أنت على شيء سوى تلك الرسالة التي لم يقم بكتابتها •

صمتت السيدة آنسلي من جديد • في النهاية استدارت نحو بـاب الشرفـة • خطت خطوة والتفتت من جديد ، مواجهة رفيقتها •

« لقد حصلت على باربرا ، » قالت ، وبدأت تسير أمام السيـدة سليـد نحـو الدرج •

ولا كيثر

جنازة النحات *

وقفت مجموعة من أهالي البلدة على رصيف محطة مدينة صغيرة من مدن كانساس تنتظر قدوم القطار الليلي ، الذي تأخر عن موعده عشرين دقيقة حتى الآن. كان الثلج قد هطل سميكاً فوق كل شيء ؛ وفي نور النجوم الباهت ، قامت سلسلة من الأجراف المرتفعة على عرض السهول البيضاء الشاسعة جنوبي البلدة بتشكيل انحناءات لطيفة دخانية اللون في وجه السماء الصافية . وقف الرجال المجتمعون على الرصيف على قدم واحدة في البداية ، ثم على القدم الأخرى ، ملقين بأيديهم في عمق جيوب بناطيلهم ، ومعاطفهم الخارجية مفتوحة وأكتافهم محدودبة من البرد ؛ ومن وقت لآخر القوا نظرة تجاه الجنوب الشرقي حيث كان الخط الحديدي يحتني حذاء النهر . كانوا يتحدثون بنبرات منخفضة ويتحركون بصبر نافذ هنا وهناك ، تاركين انطباعاً بأنهم لايدرون ما الذي يتوقع منهم . كان هناك شخص واحد فقط بين المجموعة يبدو وكأنه يعرف تماماً سبب وجوده هناك ، وكان يقف بعيداً عنهم بشكل يلفت النظر ، يتمشى الى الطرف البعيد من الرصيف ، ويعود الى باب المحطة ، ثم يسير من جديد بموازاة الخط الحديدي ، ذقنه غائصة في ياقة معطفه العالية وكتفاه العريضتان تتدليان الى الأمام وخطواته ثقيلة عنيدة . بعد فترة قصيرة ، اقترب منه رجل طويل

(*) "The Sculptor's Funeral" by Willa Cather . نشرت هذه القصة لاول مرة في عدد كانون الثاني ١٩٠٥ من مجلة **McClure's Magazine** ثم ظهرت في مجموعتين مختلفتين من قصص المؤلفة في ١٩٠٥ و ١٩٢٠ .

هزيل أشيب يرتدي ملابس عسكرية قديمة باهتة ، وكان قد انفلت من المجموعة واقترب بشيء من الاحترام ، يميل برقبته الى الأمام بحيث شكل ظهره معها زاوية كزاوية موسى مفتوحة ثلاثة أرباع الفتحة ·

« اتصور أنه سيتأخر تأخراً كبيراً هذه الليلة أيضاً ياجيم · » قال بصوت حاد عالي الطبقة · « أفترض أن الثلج هو السبب · »

« لا أدري ، » أجاب الرجل الآخر ، بمسحة من الانزعاج ، وصدر كلامه من داخل شلال يبعث على الدهشة من الشعر الأحمر الذي هو لحيته والذي نما نمواً متوحشاً وكثيفاً في جميع الاتجاهات ·

نقل الرجل الهزيل عود الأسنان الذي كان يمضغه الى جانب فمه الآخر · « ليس من المرجح أن يأتي أي شخص من الشرق مع الجثة ، على ما أعتقد ، » تابع كلامه متأملاً ·

« لا أدري ، » أجاب الآخر باقتضاب أشد من السابق ·

« من المؤسف أنه لم ينتم الى أي جمعية أو ناد · انني شخصياً أحب الجنازات المنظمة · انها تبدو أكثر ملاءمة للأشخاص ذوي الشهرة ، » تابع الرجل الهزيل ، وفي صوته الحاد تسليم متملق ، بينما وضع عود الأسنان بعناية في جيب صداره · كان هو الرجل الذي يحمل العلم دائماً في جنازات « جيش الجمهورية الكبير »(١) في البلدة ·

استدار الرجل الضخم دون أن يجيب ، ومشى على الرصيف · عاد الرجل الهزيل للانضمام الى المجموعة المضطربة · « ان جون محباً كالقرادة ، كالصدفة ، » قال معلقاً برثاء ·

في تلك اللحظة ، سُمع صوت صفارة بعيدة ، وتحركت الأقدام على الرصيف · ظهر عدد من الفتيان الطوال النحيفين ، من جميع الأعمار ، بشكل فجائي ومو حل كما تظهر أسماك الجنكليس التي يوقظها قصف الرعد ؛ أتى بعضهم من صالة الانتظار ، حيث كانوا يتدفأون بواسطة المدفأة الحمراء ، أو ينامون نصف نومة على المقاعد

(١) منظمة أسسها في الولايات المتحدة مجموعة من الرجال الذين اشتركوا في الحرب الأهلية مع القوى الشمالية ، وكان تأسيسها في عام ١٨٦٦ ·

القضبانية ؛ ونهض آخرون من عربات المتاع أو خرجوا من عربات القطار السريع • وهبط اثنان منهم من مقعد القيادة في عربة لدفن الموتى أوقفت بحيث كانت مؤخرتها عند الجدار الخشبي • رفعوا أكتافهم المائلة ورؤوسهم ، وسبب وميض الحيوية المؤقتة بريقاً في أعينهم الخابية لدى سماع تلك الصرخة المتموجة الباردة ، النداء الموجه للرجال في جميع أنحاء العالم • لقد دفعتهم الى الحركة مثل صوت بوق ؛ تماماً كما كانت تدفع الرجل العائد الى بلدته هذه الليلة ، في صباه •

اندفع قطار الليل السريع ، أحمر كالصاروخ ، خارجاً من الأراضي المستنقعية الشرقية والتف على ضفة النهر تحت الصفوف الطويلة من أشجار الحور المرتجفة التي وقفت خفيرة للمروج ، والبخار الهارب معلق في كتل رمادية في وجه السماء الشاحبة، ماحياً طريق المجرة • في لحظة اندفع الوهج الأحمر الصادر عن الأضواء الأمامية على السكة المغطاة بالثلج أمام المحطة ولمع على القضبان السوداء المبللة • سار الرجل الضخم ذو اللحية الحمراء الشعثة بخفة على الرصيف باتجاه القطار القادم ، كاشفاً رأسه أثناء سيره • ترددت مجموعة الرجال التي وقفت خلفه ، ونظر الواحد منهم الى الآخر يتساءل ، ثم حذوا حذوه مرتبكين • توقف القطار ، واندفع الجمهور الى عربة القطار تماماً حين انفتح بابها ، ومد الرجل المرتدي اللباس العسكري رأسه الى الأمام بفضول • ظهر الرجل المسؤول عن العربة عند الباب ، يصاحبه شاب يرتدي معطفاً فضفاضاً وقبعة سفر •

سأل الشاب : « هل أصدقاء السيد ميريك هنا ؟ »

تأرجحت المجموعة الواقفة على الرصيف بقلق • بوقار أجاب فيليب فلبس ، صاحب المصرف : « لقد أتينا لتولي أمر الجثمان • ان والد السيد ميريك ضعيف جداً وليس بامكانه التواجد هنا • »

« أحضروا الوكيل هنا ، » دمدم المسؤول عن العربة ، « واطلبوا من العامل أن يمد يد المساعدة • »

أُخرج الكفن من صندوقه الخشن ووضع على الرصيف المغطى بالثلج • تراجع أهل البلدة بشكل كاف ليفسحوا مكاناً له ، ثم شكلوا نصف دائرة متراصة حوله ، ينظرون بفضول الى ورقة الغار الموضوعة على الغطاء الأسود • لم يفه أي شخص

بكلمة . وقف الرجل المسؤول عن المتاع بجانب عربته ينتظر استلام الحقائب . لهث المحرك متثاقلا ، واندفع الوقاد داخلا وخارجاً بين المجلات حاملا شملته الصفراء وعلبة الريت الطويلة ، يغلق صناديق الوشائع . نظر الشاب القادم من بوسطن ــ احد تلاميذ النحات المتوفي رافق الجثمان ــ حوله بيأس . التفت الى صاحب المصرف، الشخص الوحيد بين المجموعة السوداء القلقة المحدودبة الأكتاف الذي بدا ذا شخصية متميزة الى حد يكفي لأن يقوم المرء بمخاطبته .

« الا يوجد أي من أشقاء السيد ميريك هنا ؟ » سأل مستريباً .

للمرة الأولى تقدم الرجل ذو اللحية الحمراء وانضم للآخرين . « لا ، انهم لم يأتوا بعد ؛ العائلة مبعثرة . سيؤخذ الجثمان الى البيت مباشرة . » انحنى وقبض على احد ممامسك الكفن .

« اصعد الطريق الهضبية الطويلة يا تومسن ، فانها ستكون اسهل للأحصنة ، » صاح صاحب العربة بينما قام الحانوتي بفتح باب عربة الدفن وتهيأ للصعود الى مقعد السائق .

التفت ليرد ، المحامي ذو اللحية الحمراء ، الى الغريب مرة ثانية . « لم نكن ندري ما اذا كان سيأتي أي شخص معه أم لا ، » أخذ يشرح . « ان المسافة طويلة ،فالأفضل أن تصعد الى العربة . » وأشار الى عربة محطمة الجوانب وحيدة ، ولكن الشاب أجاب بتصلب : « شكراً ، ولكن اظن أنني سأذهب مع عربة الدفن . اذا لم يكن لديك اعتراض ، » قال ملتفتاً الى الحانوتي ، « سأركب معك . »

تسلقا بجهد فوق المجلات ومضيا في ضوء النجوم على الهضبة البيضاء الممتدة باتجاه البلدة . كانت المصابيح تشع في القرية الهادئة من أسفل السقوف المنخفضة التي أثقل الثلج كاهلها ؛ ووراءها ، على كل جانب ، امتدت السهول حتى الحواء ، مسالمة ، شاسعة كالسماء الناعمة نفسها ، ويطويها هدوء أبيض ملموس .

عندما تراجعت عربة الدفن نحو ممشى خشبي أمام منزل عار عركه الدهر ، كانت نفس المجموعة المركبة التي يصعب وصفها والتي وقفت على رصيف المحطة متجمعة حول البوابة . كان الفناء الأمامي مستنقعاً ثلجياً ، وشكل لوحان خشبيان

ملتويان امتدا من المشى الى الباب ما يماثل جسراً متداعيا • كانت البوابـة ترتكز على مفصل واحد وتم فتحها فتحة تامة بصعوبة •

لاحظ ستيفنس ، الشاب الغريب ، أن شيئاً أسـود قـد ربط بمقبض البـاب الأمامي •

أجيب الصوت الخشن الذي أحدثه التابوت بينما كان يسحب من عربة الدفن بصرخة من المنزل ؛ انفتح الباب الأمامي واندفعت امرأة طويلة بدينة عارية الرأس خارجة في الثلج ورمت نفسها على النعش وهي تصرخ : « ابني ، ابني !وبهذهالطريقة عدت الى البيت إليّ ! »

بينما التفت ستيفنس مستعدا واغمض عينيه وهو يرتجف من الاشمئزاز الذي لا يمكن التفوه به ، اندفعت امرأة أخرى ، طويلة أيضا ولكنها مستوية القامة بارزة العظام ، ملابسها سوداء جميعها ، وخرجت من البيت وأمسكت بكتفي السيدة ميريك وهي تصيح بحدة . « تعالي ، تعالي يا أمي ، يجب ألا تستمري بهذا الشكل ! »تبدلت لهجتها الى لهجة وقار خنوع حين استدارت نحو صاحب المصرف . « الصالون جـاهـز يا سيد فيلبس • »

حمل الرجال النعش وساروا فوق اللوحين الضيقين ، بينما جرى الحـانـوتي أمامهم يحمل سنادات الكفن • حملوه الى حجرة واسعة غير مدفأة صدرت عنها رائحـة الرطوبة وعدم الاستعمال وسائل تلميع الأثاث الخشبي ، ووضعوه تحت مصباح معلق تزينه مواشير زجاجية رنانه وأمام احدى « مجموعات روجرز »(٢) تمثل جون آلدن وبرسكيلا وتزينها باقة من الأوراق النباتية • حدق هنري ستيفنس فيما حوله بيقين يشعره بالرغبة في التقيؤ بأن هناك خطأ ما ، وبأنه بطريقة من الطرق وصل الى هدف خاطىء • نظر الى السجادة ذات اللون المشبي ومفارش الأثاث السميكـة الطويلـة

---

(٢) جون روجرز (١٨٢٩ ـ ١٩٠٤) نحات أمريكي أصبح مشهوراً بسبب مجموعاته التمثيلية التي لها طابع عاطفي ووصفي عادة والتي شاعت شيوعاً هائلا في تزيين غرف الصالونات وخاصة في المناطق الريفية • وجون آلدن هو أحد المستوطنين الاوائل في أمريكا واستخدمه الشاعرالأمريكي لونغفلو كشخصية في احدى قصائده يحاول الدن فيها كسب ود برسكيلا •

الزغب وبين القطع الخشبية والمعدنية والمزاهر المرسومة باليد بحثاً عن علامة مميزة ـ عن شيء من المكر التفكير بأنه كان يوماً يحص هارفي ميريك • لم يشعر بالرغبة في السماح لأي من هؤلاء الناس بالاقتراب من الكفن الى أن تعرف على صديقه في اللوحة الشمعية لصبي صغير يرتدي تنورة اسكتلندية وشعره ذو لفائف معلقة فوق البيانو •

« أزح الغطاء ياسيد تومبسون ؛ دعني أرى وجه ابني ، » قالت المرأة المسنة وهي تحول بين نوبات بكائها • هذه المرة نظر ستيفنس بخوف ، تقريباً بتوسل في وجهها الأحمر المنتفخ تحت كتل الشعر الأسود اللامع • تورد وجهه ، وخفض عينيه ، ثم ، وبعدم تصديق تقريباً ، نظر ثانية • كان هناك نوع من القوة في وجهها ـ بل ونوع من الوسامةالوحشية ؛ ولكن كانت تشوبه ندوب وأخاديد من العنف ، وقد لونته وصلّبته عواطف أكثر شراسة بحيث أنه لم يبد أن الحزن قد مسه أبدا بيد حانية • كان الأنف الطويل متضخما ومتكوراً عند نهايته ، وأحاطت بـه خطوط عميقـة من جانبيه ؛ وكاد حاجباها السميكان الأسودان يلتقيان عبر جبينها ، وكانت أسنـانهـا كبيرة ، مربعة ، متباعدة ـ أسنان بامكانها أن تمزق • كانت تملأ الغرفة ؛ انمحى الرجال ، بدوا وكأنه ألقي بهم كقطع الأغصان في ماء هـادر ، وحتى ستيفنس شعر بأنه ينجرف نحو الدوامة •

أما الابنة ـ المرأة الطويلة المهزولة التي ارتدت ملابس الحداد ، والتيوضعت مشط حداد في شعرها أطال وجهها الطويل بشكل يدعو الى الاستغراب ـ فقد جلست بتصلب على الكنبة ، ويداها ـ اللتان تلفتان الانتباه لضخامة مفاصلهما ـ مطويتان في حجرها ، وفمها وعيناها منخفضة ، تنتظر بوقـار فتح النعش • قرب الباب وقفت امرأة نصف زنجية ، من الواضح أنها خادمة في البيت ، وقفة مستكينة ووجهها النحيل حزين ورقيق بشكل يستدر الشفقة • كانت تبكي بصمت ، وطرف وزرتها القطنيـة مرفوع الى عينيها ، يكتم بين الحين والآخر نشيجـاً طويلاً مرتعشـاً • خطا ستيفنس نحوها ووقف الى جانبها •

سمع وقع أقدام ضعيف على الدرج ، ودخل بشيء من عدم الثقة رجل مسن ، طويل وضعيف ، تفوح منه رائحة دخان الغليون ، وله شعر رمادي مشعث غير مسرّح ، ولحية قذرة ملطخة قرب الفم بالتبغ•مشى ببطء نحو النعش ووقف يفتل منديلاً قطنياً

أزرق بين يديه ، ويبدو متألماً ومحرجاً بسبب عويل زوجته الصاخب بحيث لم يكن واعياً لأي شيء آخر .

« هاك ، هاك ، آني ، يا عزيزتي ، لاتتصرفي بهذا الشكل ، » ارتعش بمسكنة، ماداً يداً مرتجفة ربت بها بطريقة خرقاء على كوعها .التفتت وارتمت على كتفه بقدر من العنف جعله يترنح قليلاً . لم يلق حتى نظرة سريعة باتجاه النعش ، بل تابع النظر اليها وعيناه تحملان تعبيراً بليداً خائماً متوسلاً كتعبير الكلب حين ينظر الى السوط . احمرت وجنتاه الغائصتان ببطء واشتعلتا بشعور يائس بالعار . حين هرعت زوجته خارجة من الغرفة ، مشت ابنتها خلفها مضمومة الشفتين . تسللت الخادمة نحو النعش وانحنت فوقه للحظة ، ثم خرجت الى المطبخ تاركة ستيفنس والمحامي والأب وحدهم . وقف الرجل المسن ينظر الى وجه ابنه الميت . بدا رأس النحات الرائع أكثر نبلاً في سكونه القاسي مما كان في الحياة . كان الشعر الفاحم قد زحف هابطاً على الجبهة العريضة ، وبدا الوجه طويلاً بشكل غريب ، ولم يكن فيه ذلك السكون الذي نتوقعه في وجوه الموتى . كان الحاجبان مقطبان الى حد أن خطين عميقين تشكلا فوق الأنف المعقوف ، وبرزت الذقن الى الأمام بتحدٍ . كان الأمر كما لو أن جهد الحياة كان حاداً ومراً لدرجة أن الموت لم يستطع في الحال التخفيف من التوتر وأن يلطف تعبير الوجه في سلام كامل ـ كما لو أنه لا يزال يحرس شيئاً ثميناً ، من الممكن حتى تلك اللحظة أن يُنتزع منه .

كانت شفتا الرجل الهرم تعملان تحت لحيته الملطخة .التفت الى المحامي باحترام مستكين . « سيعود فلبس والآخرون للقاء مع هارف ، أليس كذلك ؟ » سأل . « شكراً لك ياجيم ، شكراً لك . » أزاح الشعر بحنان عن جبهة ابنه . « لقد كان ابناً طيباً ياجيم ؛ دائما ابناً طيباً . كان رقيقاً كطفل وأكثرهم حنواً ـ لكن لم يفهمه أحد ما على الاطلاق . » انحدرت الدموع ببطء على لحيته وسقطت على معطف النحات.

« مارتن ، يامارتن ! آه ، يامارتن ! تعال هنا ، » قالت زوجته معولة من أعلى الدرج . أجفل العجوز بهيبة « نعم يا آمي ، انني قادم . » التفت مبتعداً وتردد ووقف لحظة في تردد يائس ؛ ثم مد يده وربت بنعومة على شعر الرجل الميت ، وتعثر خارجاً من الغرفة .

« يا للعجوز المسكين ، لم أكن أعتقد أنه بقي لديه أية دموع . يبدو أنه من

المفروض أن تكون عيناه قد جفتا منذ أمد طويل • في مثل عمره لا يستطيع أي شيء أن يترك أثرا عميقاً . » قال المحامي •

شيء ما في لهجته جعل ستيفنس يرفع بصره • بينما كانت الأم في الغرفة ، لم يكد الشاب يرى أي شخص آخر ؛ لكن الآن ، منذ اللحظة التي رمق بها وجه جسون ليرد المتورد للمرة الأولى وعينيه المحمرّتين ، أدرك أنه قد وجد ما لم يجده من قبل وما سبب له الأسى ألا يجده ـ وهو الاحساس ، الفهم ، الذي لابد أن يوجد في شخص ما ، حتى هنا •

كان الرجل أحمر مثل لحيته ، منتفخ الملامح التي فقدت وضوحها من الانغماس في الشراب ، وذا عينين زرقاوين ملتهبتين • كان وجهه مجهداً ـ اجهاد رجل يكبح نفسه بصعوبة ـ وكان باستمرار ينتف لحيته بشيء من الغضب الوحشي • أخذ ستيفنس ـ الذي جلس قرب النافذة ـ يراقبه وهو ينوص المصباح الباهر بحركة غاضبة ، ثم يقف ويداه مشبوكتان وراءه ، محدقاً في وجه الأستاذ • لم يستطع منع نفسه من التساؤل عن الصلة بين وعاء البورسلان ومثل هذه الكتلة الهابية من معجون الخزف •

ترامى من المطبخ صوت جلبة ؛ وحين فتح باب غرفة الطعام ، اتضح مغزاه • كانت الأم تعنف الخادمة لأنها نسيت تحضير التوابل لسلطة الدجاج التي كانت تُعدّ للمعزين • لم يكن ستيفنس قد سمع أبداً أي شيء شبيه بذلك ولو شبهاً ضئيلاً ؛ كان تعنيفاً متوجماً عاطفياً دراميا فريداً بليغا في قسوته المفرطة ، عنيفا وغير مكبوح مثلما كان أساها قبل عشرين دقيقة • برعشة من القرف دخل المحامي غرفة الطعام وأغلق الباب الذي يصل بالمطبخ •

قال حين عاد : « بروكسي المسكينة تنال نصيبها الآن • لقد جاءت عائلة ميريك بها من دار الفقراء قبل سنوات ؛ ولولا أن اخلاصها للعائلة يكبحها لأمكنها كما أظن أن تقص قصصاً تخثر الدم في عروقك • انها المرأة النخاسية التي كانت تقف هنا قبل برهة ، ومئزرها على عينيها • ان المرأة العجوز دوامة من العنف ؛ ليس هناك من شخص شبيه بها أبداً • لقد حولت حياة هارفي الى جحيم حين كان يعيش في بلدته ؛

لقد انتابه الشعور بالعار المرضي من جراء ذلك • ليس بامكاني معرفة كيف استطاع المحافظة على عذوبة طبعه • »

« لقد كان رائعا » ، قال ستيفنس ببطء ، « رائعا ' ولكن حتى هذه الليلة لم أكن أدري الى أي حد كانت هذه الروعة • »

« ذلك هو الشيء الذي سيظل عجيبا أبداً ، على كل حال : أن بامكان ذلك الطبع أن يخرج من كومة روث مثل هذه » ، صاح المحامي ، بحركة شاملة بدا أنها تشير الى أكثر بكثير من الجدران الأربعة التي كانا يقفان بينها •

« أعتقد أنني سأحاول استنشاق بعض الهواء النقي•هذه الغرفة مغلقة الى درجة أنني قد بدأت أشعر بشيء من الدوار » ، تمتم ستيفنس ، وهو يحاول جاهداً فتح احدى النوافذ • لكن الاطار كان محكم الاغلاق وأبى أن ينفتح ، لذلك جلس بكآبة وبدأ يشد ياقته • اقترب المحامي وأطلق الاطار بضربة واحدة منقبضتهالحمراء ورفع النافذة بضع بوصات • شكره ستيفنس ، ولكن الغثيان الذي كان خلال نصف الساعة الماضي يصعد تدريجياً الى حلقه ترك لديه رغبة وحيدة ــ شعوراً يائساً بأن عليه أن يغادر هذا المكان مصطحباً ما تبقى من هارفي ميريك • آه ، انه يفهم الآنفهماً كافياً المرارة الهادئة في الابتسامة التي طالما رآها على شفتي أستاذه '

مرة عند عودة ميريك من زيارة لبلدته ، أحضر معه نقشاً بارزاً فريداً في انفعاليته وايحائه يمثل امرأة عجوزاً نحيلة ذاوية ، جالسة تحيك شيئاً موضوعاً على ركبتها ، بينما جلس الى جانبها غلام ممتلىء الشفتين مليء بالحيوية ، بنطاله مثبت بحمالة واحدة ، يشد رداءها بصبر نافذ ليلفت انتباهها الى فراشة اصطادها • سأل ستيفنس ــ الذي أثر فيه أثراً بالغاً التصميم الدقيق للوجه النحيل المتعب ما اذا كان وجه أمه • وهو يذكر التورد المعتم الذي التهب في وجه النحات •

كان المحامي يجلس على كرسي هزاز بجانب النعش ، رأسه ملقى الى الوراء وعيناه مغمضتان • نظر اليه ستيفنس بحرارة،وقد أثار عجبه شكل الذقن ،ومتسائلاً لماذا يخفي رجل من الرجال جزءاً صغيراً بهذا الشكل وراء صدمة اللحية المشوّهة • فجأة ، وكأنه أحس بنظرة النحات الشاب الحادة ، فتح جون ليرد عينيه •

« هل كان دائماً منطوياً الى حد كبير ؟ » سأل بشكل مفاجيء · « لقد كان خجولاً جداً في صباه · »

« نعم لقد كان منطوياً طالما اخترت هذا التعبير ، » أجاب ستيفنس · « رغم أنه كان يشغف ببعض الناس الى حد كبير ، كان دائماً يترك الانطباع بأنه منعزل · لم يكن يستسيغ العواطف العنيفة ؛ كان من النوع المتأمل ، والى حد ما لم يثق بنفسه ـ إلاّ فيما يتعلق بعمله بالطبع · كان لديه ثقة كافية في ذلك المجال · كان لـديـه عدم ثقة كاملة بالرجال وأكثر حتى بالنساء ، لكن بشكل ما دون أن يعتقد بـوجـود السوء فيهم · كان مصراً بالتأكيد على أن يعتقد حين اعتقاد ، ولكن كان يبدو خائفـاً أن يتحرى · »

« الكلب الذي عانى من الحرق يخشى النار ، » قال المحامي بعبوس ، وأغمض عينيـه ·

استرسل ستيفنس في أفكاره ، معيداً تركيب الصبا البائس بأكمله · لقد كانت كل هذه البشاعة الفجة القارصة نصيب الرجل الذي قدر لعقله معرض لاينضب من الانطباعات الجميلة ـ حساس الى حد أن مجرد خيال ورقة صفصاف ترتعش منعكساً على حائط مشمس كان يُحصر ويثبت الى الأبد · بالتأكيد اذا استحوذ أي رجل على كلمة السحر في أطراف أنامله ، فذلك الرجل هو ميريك · كان يكشف أقـدس أسرار أي شيء يلمسه ؛ يحرره من السحر ويعيد اليه جمالـه الأصلي · لقـد ترك سجـلاً جميلاً للتجربة على أي شيء تفاعل معه ـ نوع من التوقيع الاثيري ؛ رائحة ،صوت ، لون كان خاصاً به ·

فهم ستيفنس الآن المأساة الحقيقية في حياة استاذه ؛ لم تكن الحب ولا الخمر كما حسن الكثيرون ؛ ولكن ضربة هوت في زمن أسبق ، وجرحت جرحاً أعمق ممـا كان بامكان أي شيء آخر أن يفعله ـ شعور بالعار لايخصه ، ولكن مع ذلـك يخصـه جـداً وبشكل لا مهرب منه ، يحبئه في صدره منذ مطلع صباه · وفي الخارج ـ حرب الحدود؛ توق صبي ، ألقي به الى الشاطيء في صحراء من الجدة والبشاعة والوساخة ، لكـل ما هو طاهر وقديم ونبيل في التقاليد ·

في الساعة الحادية عشرة ، أعلنت المرأة الطويلة النحيلة المرتدية السواد أن المعزين قد وصلوا وطلبت منهما « التفضل الى غرفة الطعام » . حين نهض ستيفنس، قال له المحامي بجفاء : « اذهب انت ـ ستكون تجربة جيدة لك . أما أنا فليست لدي القوة لرؤية ذلك الحشد الليلة ؛ لقد تحملتهم مدى عشرين سنة . »

حين أغلق ستيفنس الباب وراءه نظر خلفه الى المحامي ، جالساً الى جانب الكفن في الضوء الخافت ، وذقنه مستندة الى يده .

دخلت غرفة الطعام نفس المجموعة الشبابية التي وقفت قبل ذلك أمام باب عربة القطار السريع . في ضوء مصباح الكاز تفرقوا وعدوا أفراداً . اتخذ القسيس ـ رجل شاحب ضعيف المظهر ذو شعر أبيض بينما كان الشعر الذي ينمو على ذقنه أشقر ـ مجلسه الى جانب طاولة جانبية صغيرة ووضع كتابه المقدس عليها . جلس رجل « جيش الجمهورية الكبير » خلف المدفأة وأمال كرسيه الى الوراء بحيث استند بشكل مريح الى الحائط ، ونقب جيب صداره بحثاً عن عود أسنانه . وجلس المصرفيان ـ فليس وألدر ـ منعزلين في زاوية خلف طاولة الطعام ، حيث كان بامكانهما متابعة بحثهما لقانون ربا جديد ولتأثيره على قروض الأموال المنقولة . سرعان ما انضم اليهما صاحب المكتب العقاري ، رجل مسن ذو وجه باسم سافق . وجلس تاجر الفحم والخشب وشاحن الماشية على طرفين متقابلين من موقد الفحم وقدماهما على صينية القصدير . أخرج ستيفنس كتاباً من جيبه وأخذ يقرأ . تناول الحديث الدائر حوله مواضيع مختلفة ذات أهمية محلية بينما أخذ البيت يخلد الى السكون . حين أصبح من الواضح أن أفراد العائلة خلدوا الى النوم ، حرك رجل « الجيش الكبير » كتفيه واذ حاول أن يفلت احدى رجليه الطويلتين عن الاخرى اشتبك كعباه بأطراف الكرسي .

« أعتقد أنه ستكون هناك وصية يافليس ؟ » سأل بصوته الحاد الضعيف .

ضحك المصرفي بشكل يبعث النفور وأخذ يقلم أظافره بموسى ذات مقبض لؤلؤي .

« لا يكد يكون من حاجة الى وصية ، أليس كذلك ؟ » سأل بدوره .

غير رجل « الجيش الكبير » وضعه من جديد ، رافعاً ركبتيه الى مكان أكثر قرباً

من ذلك • « لكن الرجل المسن يقول أن هارف قد حقق نجاحاً لا بـأس به مؤخراً ، » قال مزقزقاً •

تكلم المصرفي الآخر • « أظن أنه يعني بذلك أن هارف لم يطلب منه أن يرهن أية مزارع جديدة مؤخراً ، من أجل أن يتابع تعليمه • »

« لا يبدو أن عقلي يستطيع الرجوع الى زمن لم يكن هارف يتلقى فيه تعليمه ، » قال رجل « الجيش الكبير » مازئاً •

صدرت قهقهة عامة • أخرج القسيس منديله وتمخط بصوت رنـان • أعلق المصرفي فليبس موساه بطرقة • « من المؤسف أن أبناء الرجل المسن لم يكونوا أفضـل مما هم ، » علق بسلطة متأملة • « انهم لم يتكاتفوا معاً أبداً • لقد صرف على هارف مالاً كافيا لتزويد عشر مزارع لتربية الماشية • وكان كانه يصب هذا المال في ساند كريك (جدول الرمل) • لو بقي هارف في البلدة وساعد في العناية بـالقليل الذي كان لديه ، وأصبح شريكاً في مزرعة أبيه السفلى ، لربما غدوا جميعاً في حالة جيدة • ولكن اضطر العجوز لأن يعهد بكل شيء للمستأجرين وكـان يتعرض للغش يمنـة ويساراً • »

« لم يكن بامكان هارف تولي أمر الماشية قط ، » تدخل تاجر الماشيـة • « لم يكن لديه الذكاء الكافي • هل تذكرون حين اشترى بغال ساندرز على أنهما في الثامنة من العمر،في حين كان كل شخص في البلدة يعرف أن حما ساندرز قد أعطاهما لزوجته كهدية زفاف قبل ثمانية عشر عاماً ، وأنها كانت بغالاً مسنّة في ذلك الحين ؟ »

شحك الجمع بتأدب ، وفرك رجل « الجيش الكبير » ركبتيه في فورة من السرور الطفولي •

« لم يكن هارف يساوي الكثير في أي مجال عملي ، وبالتأكيـد لم يكن شغفـاً بالعمل ، » بدأ تاجر الفحم والخشب • « أذكر آخر مرة زار فيها البلـدة ؛ في يـوم مغادرته ، حين خرج العجوز الى المعلف ليساعد أجيره في اعداد عربة لأخـذ هارف الى القطار وكان كال موتس يصلح السياج ، خرج هارف ووقف على الدرج يغني بصوته الذي كان يشبه صوت السيدات : كال موتس ، كال موتس ! ارجو أن تـأتي وتربط حقيبتي • »

« هكذا كان هارف بالفعل ، » قال رجل « الجيش الكبير » موافقاً . « لا أزال أستطيع سماعه وهو يصيح ، عندما كان فتى كبير الحجم يرتدي البنطال الطويل وكانت أمه تجلده بالسوط في المعلف لتركه الأبقار تدخل حقل الذرة عندما كان يسوقها عائداً بها الى البيت من المرعى . لقد قتل احدى أبقاري بتلك الطريقة ذات مرة ـ بقرة أصيلة وأحسن حلوب كانت لدي ، واضطر المحور لتقديم بديل لها . أما هارف فقد كان يراقب غروب الشمس عبر الأراضي المستنقعية حين جنحت البقرة . »

« لقد ارتكب الأب خطيئته الأساسية حين أرسل الفتى للدراسة في الشرق ، » قال فلبس مربتاً على لحيته الصغيرة المشذبة ومتكلماً بلهجة مدروسة حكيمة . « لقد امتلأ عقله بالهراء هناك . ما كان هارف ـ من بين كل الناس ـ بحاجة اليه هو دورة في كلية تجارة في كانساس من كليات الدرجة الأولى . »

أخذت الحروف تسبح أمام عيني ستيفنس . هل من الممكن أن يكون هؤلاء الرجال لايفهمون ، أن ورقة الغار على النعش لم تعن شيئاً بالنسبة لهم ؟ كان اسم بلدتهم نفسه سيبقى الى الأبد مدفوناً في دليل دائرة البريد لولا أنه يذكر بين الحين والحين في العالم فيما يتعلق بهارفي مريك . تذكر ما قاله استاذه له يوم موته ، بعد أن أغلق احتقان كنتا الرئتين أي احتمال للشفاء ، وطلب النحات من تلميذه ارسال جسده الى بلدته . « انها ليست مكاناً لطيفاً ليستلقي فيه المرء بينما يتحرك العالم وينجز ويتحسن ، » كان قد قال وعلى فمه ابتسامة واهنة ، « ولكن يبدو وكأنه يجب علينا العودة الى المكان الذي قدمنا منه ، في النهاية . سيأتي أهل البلدة ليلقوا نظرة عليّ ؛ وبعد أن يقولوا ما لديهم ، لن يكون هناك ما أخشاه خشية كبيرة من قضاء الله ! »

استلم تاجر الماشية التعليق . « ليس من عادة فرد من عائلة مريك أن يموت صغيراً في الأربعين ؛ فهم عادة يعمرون بقدر جيد . قد يكون ساعد القدر بتناول الويسكي . »

« أهل أمه لم يعمروا طويلاً ، ولم يكن هارفي ذا بنية قوية قط ، » قال القسيس باستكانة . كان يود لو أنه يقول أكثر من ذلك . لقد كان هو أستاذ الصبي في مدرسة

الأحد(٣) وكان شغوفاً به ؛ لكنه شعر أنه لم يكن في مركز يؤهله لأن يتكلم · فابناؤه هو لم يفلحوا ، ولم تمض سنة بعد منذ قام أحدهم بآخر رحلة له الى البلدة في عربة القطار السريع ، بعد أن أطلق الرصاص عليه في دار للقمار في « الهضاب السود · »

« ومع ذلك ، فلا جدال في أن هارف كثيراً ما تطلع الى النبيذ لدى احمراره ، وتلونه بألوان أخرى ، وبالتأكيد جعله ذلك أحمقاً غير عادي ، » قال رجل الماشية واعظاً ·

في تلك اللحظة تماماً أحدث الباب الذي يقود الى الصالون اهتزازاً ذا ضجة وأجفل الجميع بشكل تلقائي ، ثم بدا عليهم الارتياح حين خرج جيم ليرد وحده · طأطأ رجل « الجيش الكبير » رأسه حين رأى الوميض في عينيه الزرقاوين المحمرتين · كانوا كلهم يخشون جيم ؛ كان سكيراً ، ولكن في مقدوره أن يدير القانون ليناسب متطلبات موكله بشكل لا يستطيعه أي شخص آخر في غرب كانساس بأكمله ، وقد حاول ذلك الكثيرون · أغلق المحامي الباب وراءه واستند اليه بظهره وشبك ذراعيه ورأسه يميل بعض الشيء الى أحد الجانبين · حين يتخذ هذه الوقفة في قاعة المحكمة ، فان الآذان كلها تصغي ، لأن هذا الوضع كان ينبيء أن سخرية مدمرة ستتبع ·

« لقد جلست في صحبتكم أيها السادة من قبل ، » بدأ حديثه بلهجة جافة مستوية ، « حين جلستم قرب نعوش فتية ولدوا ونشؤوا في هذه البلدة ؛ واذا كنت أذكر بشكل صحيح فانتم لم تكونوا قانعين كثيراً في أي من الحالات حين قمتم بتفحصهم · ما الأمر ، على كل حال ؟ ما السبب أن الشبان اللامعين نادرون ندرة أصحاب الملايين في ساندسيتي (مدينة الرمل) ؟ من المحتمل تقريباً أن يبدو للغريب أن هناك شيئ خاطئاً ما في بلدتكم التقدمية · لماذا أدمن روبن سير ــ الملع معام شاب خرج من بينكم ــ على الشراب بعد عودته لبلدته من الجامعة نزيهاً كالنرد ، وقام بتزوير شيك وأطلق الرصاص على نفسه ؟ لم مات ابن بيل ميريت مرتعشاً في حانة في أوماها ؟ لم أطلق الرصاص على ابن السيد توماس ، هذا ، في دار للقمار ؟ لم أحرق آدامز الشاب طاحونه لخداع شركات التأمين وانتهى في زنزانة ؟ »

---

(٣) تقوم الكنيسة باعطاء دروس دينية (وأحياناً دنيوية) يوم الاحد ويطلق على سلسلة الدروس هذه اسم مدرسة الأحد ·

توقف المحامي وفك ذراعيه عن بعضهما ، واضعاً قبضة من قبضتيه على الطاولة ·
« سأخبركم السبب · لأنكم لم تملأوا آذانهم بغير النقود والاحتيال منذ كانوا يرتدون البناطيل القصيرة ؛ لأنكم أسهبتم في انتقادهم مثلما أخذتم تنتقدون هنا الليلة ، واضعين صديقينا فلبس وإلدر كمثلين لهما ، مثلما اتخذ اجدادنا جورج واشنطن وجون آدامز · لكن الفتية كانوا صغاراً ، ولم تكن لديهم الخبرة في العمل الذي عهدتم به اليهم ، وكيف كان باستطاعتهم مجاراة فنانين مثل فلبس وإلدر ؟ لقد أردتموهم أن يكونوا محتالين ناجحين ؛ ولكنهم كانوا محتالين فاشلين ـ هذا هو كل الفرق ·كان هناك فتى واحد فقط نشأ في هذا الخط الفاصل بين الوحشية والحضارة لم ينته نهاية مؤسفة ، ولقد كرهتم هارفي ميريك لنجاحه اكثر مما كرهتم جميع الفتية الآخرين الذين وقعوا تحت العجلات ·

« يا الهي ، يا الهي ، كم كرهتموه ! ان فلبس ، هنا ، مولع بالقول بأنه يستطيع شراءنا وبيعنا جميعاً في أي وقت يشعر فيه بالرغبة في ذلك ؛ لكنه كان يعرف أن هارف لم يكن ليعطي درهما رائفاً مقابل مصرفه ومزارع ماشيته كلها اذا ما جمعت معاً ؛ وإن عدم التقدير ، بهذا الشكل ، له تأثير كبير على فلبس ·

نمرود العجوز يعتقد أن هارف أفرط في الشراب ؛ وهذا يصدر عن أمثال نمرود وأمثالي أنا !

« الأخ إلدر يقول أن هارف تصرف بحرية مسرفة بنقود العجوز ـ ربما لم يكن ابناً باراً · لكننا جميعاً نستطيع أن نتذكر حتى اللهجة التي أقسم الأخ إلدر بها أن والده نفسه كان كاذبا في محكمة الناحية ؛ وكلنا نعلم أن العجوز خرج من الشراكة مع ابنه عارياً كخروف اجتز صوفه · لكن ربما انني أتعرض لمسائل شخصية ،والأفضل أن أمضي رأساً الى ما أود قوله · »

توقف المحامي لحظة ، ورفع كتفيه العريضين وتابع كلامه : « لقد ذهبنا ـ هارفي ميريك وأنا ـ الى الجامعة معاً ، في الشرق · كنا مخلصين في نوايانا تماماً ، وأردناكم جميعاً أن تفخروا بنا يوماً ما · لقد عزمنا أن نكون رجلين عظيمين · حتى أنا ـ وانني لم أفقد روح الدعابة التي لدي أيها السادة ـ عزمت أن أكون رجلاً

عظيماً • ثم عدت هنا للتمرن ، ووجدت أنه لم تكن لديكم أدنى رغبة في أن أكـون رجلاً عظيماً • لقد أردتموني أن أصبح محامياً بارعاً ـ آه ، نعم ' محاربنا المتقاعد هنا أرادني أن أحصل له على زيادة في الراتب التقاعدي ، لأنـه يعاني سوء الهضم ؛ وأراد فلبس أن تمسح أراضي الناحية مسحاً جديداً بحيث توضع مزرعـة الأرملـة ويلسن الصغيرة الحصة داخل حدوده الجنوبية ؛ وأراد إلدر أن يقرض النقود بفائدة خمسة بالمئة في الشهر وأن تجبى هذه القروض ؛ وستارك هـنـا أراد اغراء النسـاء العجائز في ولاية فرمونت بأن يستثمرن مخصصاتهن في أملاك مرهونة لاتساوي الورق الذي تكتب عليه ، آه ، لقد كانت حاجتكم الي حاجة كبيرة بما فيه الكفاية ،وستبقون في حاجة الي" !

« اذن فقد عدت هنا وأصبحت المخاتل اللعين الذي أردتموني أن أكونه • انكم تتظاهرون انكم تحملون شيئ من الاحترام نحوي ؛ لكنكم تقفون وتلقون بالوحل على هارفي ميريك ، الذي لم تستطيعوا توسيخ روحه أو ربط يديه • آه ، انكم فئـة من المسيحيين المميّزين ' لقد مرت أوقات كانت رؤية اسم هارفي في احدى الصحف الشرقية تجعلني أطأطيء رأسي مثل كلب عوقب بالجلد ؛وكذلك أوقات كنت أحب فيها التفكير به طليقاً هناك في العالم ، بعيداً عن مرتع الخنازير هذا بأكملـه ، يتسلق الطريـق الصاعد النظيف الكبير الذي اختاره لنفسه •

« ونحن ؟ الآن بعد ما عاركنا وكذبنا وتصببنا عرقاً وسرقنا،وشمرنا بالكراهية كما يعرف ، وحدهم ، المكافحون الخائبون في بلـدة غربيـة صغيرة مرة ميتـة كيف يكرهون ، ما الذي جنيناه من ذلك ؟ لم يكن هارفي ميريك ليبادل غروب شمس واحد فوق أراضيكم المستنقعية بكل ما تملكونه مجتمعاً ، وأنتم تعرفون هذا • انه ليس في متناولي أن أعرف السبب الصادر عن حكمة الله الخفية في أن يبرز عبقري من مكـان الكراهية والمياه المرة هذا ' لكنني أريد لهذا الرجل القادم من بوسطن أن يعرف بأن التخريف الذي سمعه هنا الليلة هو الاجلال الوحيد الذي يمكن لأي رجل عظيم حقـاً أن يحصل عليه من حفنة من المفترسين المرضى المنحرفين المعسرين كرجـال المـال في ساندسيتي الحاضرين هنا ـ وليشمل الله هذه البلدة برحمته ! »

مد المحامي يده الى ستيفنس أثناء مروره به ، وأمسك بمعطفه في الممر ، وغادر

المنزل قبل أن يتاح المجال لرجل « الجيش الكبير » أن يرفع رأسه المحني ويدير عنقه الطويل حوله نحو زملائه ٠

في اليوم التالي كان جيم ليرد سكرانا ، غير قادر على حضور طقوس الجنازة ٠ ذهب ستيفنس مرتين الى مكتبه ، ولكنه اضطر للتوجه الى الشرق دون أن يراه ٠ كان لديه شعور أنه سيسمع منه ثانية ، وترك عنوانه على طاولة ليرد ؛ لكن اذا كان ليرد قد وجده ، فانه لم يعط أي اشعار بذلك ٠ ولا بد أن الشيء الذي كان هارفي ميريك يحبه فيه قد دفن تحت التراب مع نعش هارفي ميريك ، لأنه لم يجهر بالحديث ثانية ٠ وقد أصيب جيم بالزكام الذي أودى بحياته بسبب قطعه جبال كولورادو للدفاع عن واحد من أبناء فلبس كان قد تعرض للمتاعب هناك بسبب قطعه أشجاراً تملكها الحكومة ٠

ايلين
غلاسغو

جوردانز إند .. *

عند تفرع الطريق انتصبت الشجرة الميتة التي جثمت الصقور عليها ، ومن خلال أغصانها شاهدت آخر وميض للغروب • على كلا الجانبين ، ارتمت غابات تشرين في مجموعات متكسرة في وجه السماء • حين توقفتُ بدت وكأنها تقترب مني وتحيطني بأشكال مبهمة براقة • خيل لي أنني أمضيت ساعات في الطريق ؛ ولكن الزنجي العتيق الذي أوصل لي الخبر ، قال لي أن أتبع طريق «أولد ستيج » الى أن أصل الى « شجرة الصقور » عند التفرع • « من تلك النقطة تصبح قريباً جداً من بيت السيد جوردان ، » أكد العجوز لي ، مضيفاً برجفة ، « وتقول الآنسة(١) الشابة أن عليك المجيء بأسرع ما يمكنك • كنت شاباً حينذاك (كان ذلك قبل أكثر من ثلاثين عاماً) وكنت قبل فترة قصيرة قد بدأت ممارسة الطب في احدى مقاطعات فرجينيا الأكثر انعزالاً •

توقفت فرسي ، وانحنيت الى الأمام أتطلع عبر كل من الطريقين المتعرجين ، من نقطة بدء تفرعهما تحت أغصان نصف عارية ، واحدق في السديم الخريفي على البعد•

(*) من مجموعة The Shadowy Third and Other Stories by Ellen Glasgow التي نشرت عام ١٩٢٣ ، ويلاحظ هنا أن عنوان القصة هو اسم مكان ، ولكنه في ذات الوقت يعني « نهاية جوردان » ولابد أن القارىء سيلحظ قيمة هذا الازدواج في المعنى لدى قراءته للقصة •

(١) احدى صفات اللغة التي يستعملها أمثال هذا العجوز هي اطلاق كلمة « آنسة » على أية سيدة شابة •

بعد قليل سيتلاشى اللون الأحمر من السماء • وستجدني الليلة الباردة وأنا لا أزال أتردد بين هذين الطريقين المحيرين اللذين امتدا على ما يبدو الى عزلة هائلة • بينما أخذت أنتظر متردداً ، اهتزت الأغصان فوقي وسقطت ريشة صقر مستقرة على الرداء الذي كان يغطي ركبتي • في محاولة للتغلب على الكآبة ، ضحكت ضحكة عاليةوخاطبت فرسي بلهجة مرحة :

« سنختار أكثر الطريقين وحشة ، وسوف نرى أين يقودنا • »

أدهشتني ، جاءتني من الاشجار التي كانت خلفي جواب على كلماتي • « اذا كنت ذاهباً الى دكان ايشام ، فابق على طريق (أولد ستيج) • »

استدرت بسرعة ، ورأيت رجلاً عجوزاً جداً قلص الهرم شكلـه ، واحـدودب ظهره ، وكان يجر حملا من حطب الصنوبر ، ويخرج به من الغابة • رغم أنه انحنى بحيث لم يكد رأسه يعلو عن دولاب عربتي ، فقد بدا ذا حيوية غير معتادة لرجـل في مثل سنه وضعفه • كان يلبس معطفاً خشناً لونه بني كلون بعض الأخشاب،واستطعت أن أرى تحته وزرته وبنطاله الأزرق • لمعت عيناه الـدكيتـان بمكر تحت كتلـة من الشعر الشائب ، وبرزت ذقنه المثمثة الى الأمام بحيث كادت أن ترتطم بانحناء أنفه الهابط • أذكر كيف فكرت أن سنه قارب المئة عام حتماً ! فقد تغضن جلده ولاحت عليه آثـار تقلبات الطقس الى حد أنني على البعد ظننت خطأ أنه من الزنوج •

انحنيت بأدب وقلت مجيباً : « شكراً ، ولكنني أقصد (جوردانز إند) • »

قال بصوت منخفض يشبه صوت الدجاج ، « اذن عليك اتباع الطريق الرديئة• ذاك هو منعطف (جوردان) • » وأشار الى الطريق الغائرة الموحلة في الجهة اليمنى• « وإذا لم يكن لديك اعتراض على صحبة قصيرة ، فسأكون شاكراً ان أركبتني معك• انني ذاهب هناك أيضاً وعلي أن أجر قطع الحطب هذه مسافة طويلة • »

بينما كنت أسحب ردائي وأوسع مكاناً له ، أخذت بمراقبته وهو يكدس حطب الصنوبر الراتنجي في العربة ، ثم يتدفع برشاقة الى مكانه بجانبي •

« اسمي بيتركن ، » قال معرفاً نفسه • « انهم يدعونني الأب بيتركن مثلمـا

يقمل أحفادي • » اعتقدت أنه كان شخصاً مهذاراً ولن يكره اعطائي المعلومات التي أردتهـا •

« ليس هناك كثيرون يسلكون هذه الطريق ، » قلت مبتدئاً حديثي ونحن ننطلق من الفسحة المكشوفة الى نفق الأشجار العميق • طوقنا الشفق على الفـور ، رغم أن الاشعاع المسقي لم يزل يلوح جلياً في السماء بين الفينة والأخرى • كـان الهـواء قارساً بسبب لذعة الخريف وبسبب أبخرة الأوراق المفتة وهبوب دخان الحطب ونكهة التفاح المهروس الناضج •

« لا أستطيع تذكر أي شخص غريب قام بزيارة (جوردانترإند) حتى ولو كان طبيباً • ألست الطبيب الجديد ؟ »

« نعم أنا الطبيب • » نظرت الى الشبح الذي بدا شبيهاً بقزم من اقزام الجان في معطفه البني الحطبي • « هل لا زال المكان بعيداً ؟ »

« كلا يا سيدي ، سنكون تقريباً هناك حالما نخرج من غابة (وتس) • »

« اذا لم تكن الطريق مطروقة كثيراً ، فكيف صدف أنك ذاهب هناك ؟ »

دون أن يلفت رأسه ، هز العجوز وجهه الذي بدا من زاوية جانبية كالهلال •
« أوه ، انني أعيش هناك • ابني توني يعمل بعض الشيء في المزرعة محاصصة ، وأنا أساعد أيضاً وقت الحصاد أو حين تدرية الذرة • وبين الفينة والأخرى أقوم بالمساعدة في تحضير شراب التفاح • كان السيد الكبير يدير المكان بهذا الشكل قبل أن يصـاب بالحبل ، والآن بما أن الشاب مريض ، ليس هناك من يعني بالمزرعـة سوى الآنسـة جوديث • ليس لتلك السيدات الهرمات أي اعتبار • انهن ثلاث ولكنهن جميعاً مشوشات الفكر ويبدو منظرهن وكأن الصقور قامت بنقرهن • أظن أن هـذا نتيجة مكوثهن منغلقات مع أناس مجانين في ذلك البيت القديم المتداعي هناك • لم يصلـح السطـح منذ زمن بعيد ومعظم ألواحه قد تعفنت ، وهناك كما يقول توني بعض الأحيان التي يصعب عليك فيها أن تسمع شيئاً بسبب الضجيج الذي تحدثه العصافير والجرذان فوق رأسك • »

« ما الذي ألم بهم ـ أعني عائلة جوردان ؟ »

« مجرد أنهم تدهوروا كما أعتقد يا سيدي • »

« ألم يبق أي رجل في العائلة ؟ »

لفترة دقيقة لم يعط الأب بيتركن أية اجابة • ثم غير مكان حزمة أحطاب الصنوبر ، واستجاب للسؤال بحذر • « الشاب آلان ، فهو لا يزال يعيش في ذلك المكان القديم ، ولكنني سمعت أنه أصيب وسيرحل مثل جميع الآخرين • انها محنة قاسية للآنسة جوديث ، يالها من شابة مسكينة،ولها صبي في التاسعة هو صورة مطابقة تماماً لأبيه • آه ، انني أذكر الزمن البعيد حين كان السيد تيموثي جوردان أكثر الناس اعتزازاً في جميع هذه الأرجاء ؛ ولكن بدأت الأمور بعد الحرب تتدهور بالنسبة له بعض الشيء واضطر الى خلع قرونه • »

« هل لا زال على قيد الحياة ؟ »

هز العجوز رأسه • « ربما كان وربما لم يكن • لا أحد يعرف سوى الجوردان• وهم لايخبرون من يسألهم • »

« أعتقد أن الآنسة جوديث هي التي أرسلت في طلبي • »

« أغلب الاحتمال أنها هي يا سيدي • لقد كانت واحدة من آل باردلي الذين يعيشون هناك في (باردليز فيلد) • وحين بدأ السيد آلان يبدي اهتماماً نحوها ، كانت تلك أول مرة منذ زمن بعيد جداً يتودد فيها رجل من عائلة جوردان لفتاة من خارج العائلة • ذلك هو السبب في أن الدم فسد بالطريقة التي حدثت ، كما أعتقد • هناك قول سائد في هذه الأنحاء وهو أن الجوردان لا يمتزج مع الجوردان • »(٢) •

« هل مضى وقت طويل على زواجهما ؟ »

« عشر سنوات أو نحو ذلك يا سيدي • انني أتذكر كما لو كان البارحة اليوم الذي أحضرها آلان الشاب الى المنزل كعروس له ، ولم يكن هناك من شخص يستقبلها سوى تلك العجائز الخرفات الثلاث•لقد حضرا في عربة ابني توني القديمة ، ولكنها

---

(٢) يعلق راوي القصة هنا على طريقة لفظ العجور لاسم العائلة قائلا ان الأسماء قلما لفظت حسبما تكتب في فرجينيا • (ينطق العجوز اسم Jordan كما لو كان Jurdin) وقد اضطررنا الى حذف هذا التعليق القصير بسبب طبيعته اللغوية التي تستعصي على الترجمة •

كانت جديدة براقة في ذلك الحين • كنت ذاهبة الى البيت في مهمة ووقفت تماماً عند بركة الجليد هناك حين مرا • لم تزر هذه الأرجاء كثيراً ولم يرها أي منا من قبل• حين رفعت بصرها الى الشاب آلان كان وجهها متورداً بأكمله وعيناها تبرقان كالقمر • ثم انفتح الباب الأمامي واندفعت تلك العجائز ـ سوداً كالغربان ـ خارجات الى الشرفة • ما كان أبداً من شخص أكثر جمالاً من الآنسة جوديث حين قدمت هنا ؛ ولكنها سرعان ما بدأت بعد ذلك في الذبول ، رغم أنها لم تفقد أعصابها وتستسلم للكآبة مثل بقية النساء في جوردانز إند • لقد تزوجا زواجاً مفاجئاً ، ويقول الناس انها لم تعرف أي شيء عن العائلة ، وأن آلان الشاب لم يعرف أكثر منها بكثير• لقد أخفت العجائز السر عنها ، معتقدات الى حد ما أن عدم المعرفة يبعد الأذى ، وعلى كل لم يسمحن للأمر بالتسرب الا بعد ولادة الطفل • لم ينجبا أي طفل آخر ، وتقول العمة جوزلي العجوز انه ولد وغشاء يغطي وجهه(٣) ، فاذن قد تسير الأمور على ما يرام بالنسبة له في المستقبل • »

« ولكن من هن العجائز ؟ هل أزواجهن على قيد الحياة ؟ »

حين أجاب الأب بيتركن على السؤال خفض صوته الى همس أجش • «مخبولون• كلهم صاروا مخبولين ، » قال مجيباً •

شعرت بالقشعريرة،اذ بدا أن موجة من البرد قد انبثقت من الغابات التشرينية• بينما أخذنا نتابع طريقنا ، تذكرت حكايات كئيبة عن غابات مسحورة فيها وجوه شريرة وأصوات هامسة • هاجمت روائح أرض الغابة والأوراق المتعفنة ذهني مثل تعويذة سحرية • على كلا الجانبين كانت الغابة ساكنة كالموت • لم تهتز أية ورقة ولم يتحرك أي طائر ولم تصدر حركة عن أي مخلوق بري بين الشجيرات • أوراق القطّيم اللامعة وثماره القرمزية وحدها بدت على قيد الحياة بين أغصان الأشجار المتشابكة العارية • بدأت أتوق الى فسحة حريفية مكشوفة والى الضياء الأحمر الذي يأتي بعد التوهج الفسقي •

« لقد سمعت ثرثرة غريبة ، » أجاب العجوز اجابة عصبية ، « ولكن ليس

(٣) الاعتقاد السائد في امريكا هو ان ولادة طفل بهذا الشكل هي بشارة خير •

بإمكان أحد أن يجزم • يقول الناس ان والد الشاب آلان محبوس في مكان تحت الحراسة ، وأن جده مات هناك بعد تمضية ثلاثين عاماً • لقد جن أعمامه أيضاً ، وبدأ الخوف يظهر بين النساء • كان الرجال هم وحدهم الذين يصابون حتى الآن • اذكر مرة السيد بيتر جوردان يحاول حرق المكان في سكون الليل • ها هي نهاية الغابة ، يا سيدي • أرجو أن تدعني أنزل هنا ، فسأصل الى بيتي عبر الحقل القديم ، وشكراً لك • »

أخيراً انتهت الغابة نهاية مفاجئة عند حافة حقل مهجور انتشرت فيه بكثافة أشجار الصنوبر والزال القصيرة • كان الاشعاع في السماء قد تضاءل الآن وغدا اخضراراً مصفراً ضئيلاً • طغى على الطبيعة شفق كئيب • في ضوء هذا الشفق نظرت الى الأغنام القتيلة التي تلاصقت ببعضها على مرج مهترىء ، ورأيت المنزل المتداعي تحت اللبلاب المص الذي نما عليه • بينما أخذت أزداد قرباً انتابني شعور أن القفر المحيط بالبيت كان يجثم هناك وكأنه تأثير خبيث •

بالرغم من أن جوردانزإند بدت مهجورة لدى اقترابي الأول هذا،فقد استنتجت أن المكان حظي فيما مضى بالجمال والامتياز حتماً • كانت أبعاد المقدمة الجورجية تترك في النفس تأثيراً بالغاً ، وكان هناك جمال في تصميم المدخل القديم الطراز وفي الدرجات المصنوعة من أحجار مستديرة والتي زينتها الآن نماذج من الطحلب الزمردي اللون • لكن المكان بأكمله كان بحاجة ماسة للاصلاح • حين نظرت الى الاعلى لدى توقفي ، شاهدت أن الأفريز كان يتساقط ، وأن مصاريع النوافذ تدلت من مفصلات لم تعد ثابتة ، وأن قصاصات مختلفة من أكياس الخيش أو القماش الزيتي حشيت في النوافذ حيث كانت بعض الألواح الزجاجية ناقصة • عندما وطئت أرض الشرفة ، شعرت بالألواح العفنة تهبط تحت قدمي •

بعد قرع الباب قرعاً راعداً دون فائدة ، هبطت الدرجات ، ومشيت على الممر المطروق الذي دار حول جناح المنزل الغربي • حين تجاوزت شجرة بقس قديمة عند الزاوية ، رأيت امرأة وصبياً في حوالي التاسعة يخرجان من كوخ صغير ، استنتجت انه مخصص لتدخين اللحوم ، ويبدآن بتجميع الأخشاب من اكوام من الحطب • كانت المرأة تحمل في ذراعها سلة مصنوعة من خشب الصفصاف ، وبينما انحنت لملئها ،

أخذت تتحدث الى الطفل بصوت موسيقي خافت • ثم لـدى سمـاع صوت صدر عني وضعت السلة جانباً ونهضت واقفة لتواجهني في نور السماء الشاحب • كان رأسهـا يميل الى الخلف ، وفوق ثوبها القطني القاتم ، التف على جسمها شال رمادي ممزق • كان ذلك قبل ثلاثين عاماً ؛ لم أعد شاباً ، وقد زرت بلداناً كثيرة منـذ ذلك الحين ، ونظرت الى نساء كثيرات ؛ لكن وجهها بذلك الضوء الخافت الذي انعكس عليه هو آخر وجه سوف أنساه في حياتي • الجمال ؟ ان تلك المرأة ستكـون جميلة حتى حين تصبح هيكلاً عظيما ، كانت تلك هي الفكرة التي ومضت في ذهني •

كانت طويلة جداً ، ونحيلة الى حد أن لحمها بدا مشعاً اشعاعاً خفيفاً ، كما لو أن نوراً داخليا احترق المادة الشفافة • لم يكن الجمال جمال الأرض بل جمال الروح المنتصرة • انني أعتقد أن الكمال هو أكثر الأشياء ندرة ، من بين الأمور التي نحققها في عالمنا ، عالم الرضى ـ المتنازل باستمرار ـ بـالأشكـال الأدنى ؛ لكن المرأة التي وقفت هناك في ذلك المكان الغرب بدت لي وكأنها قدمت لتوها من أسطورة أو حكاية رمزية • كان محيط وجهها ايطالياً في بيضويته المتكاملة ؛ وشعرهـا مسرح بشكـل أجنحة من الغسق فوق جبهتها الصافية ؛ وكـانت العينـان اللتـان نظرتـا إلي من التجاويف تحت حاجبيها المظللة تظليلاً خفيفاً بنفسجيتين سوداوين ،مثل زهر البنفسج القـاتم •

« لقد قطعت الأمل من قدومك ، » بدأت تقول بصوت منخفض ، كما لو أنها تخشى أن يسمعها أحد • « أنت الطبيب ؟ »

« نعم،أنا الطبيب•لقد اتخذت الطريق الخاطئة وضعت•أنت مسز جوردان؟»

حنت رأسهـا • « مسز الآن جوردان • هناك ثلاث مسز جوردان أخريـات بالاضافة لي • جدة زوجي وزوجتا اثنين من أعمامه » •

« وزوجك هو الشخص المريض ؟ »

« زوجي ، نعم • لقد كتبت رسالة منذ بضعة أيام الى الدكتور كارستيرز • » (قبل ثلاثين عاماً كان كارستيرز ـ من مدينة بالتيمور ـ أهم طبيب أمراض عقلية في البلاد •) « انه سوف يحضر صباح الغد ؛ ولكن زوجـي غـدا مضطرباً ليلة

البارحة بشكل جعلني أستدعيك اليوم • « جعلني صوتهـا الفتي الذي تشـع منه المشاعر المكبوتة أفكر بالواجهات الزجاجية المزينة وبموسيقى الأرغن الخافتة •

سألت : « قبل أن ندخل ، هل لك أن تخبريني بكل ما تستطيعين تذكره ؟ »

بدلا من الاجابة على طلبي ، استدارت ووضعت يدهـا على كتف الصبي • قالت : « خذ الاخشاب الى العمة أغاثا يا بنجامين،وأخبرها أن الطبيب قد وصل •»

بينما التقط الطفل السلة وجرى صاعداً الدرجات الغائرة الى الباب،راقبته بقلق مكتوم الأنفاس • لم ترفع بصرها الى وجهي الا بعد أن اختفى في الممر • ثم تمتمت دون أن تجيب على سؤالي : « لقد كنا ذات مرة سعداء هنا • » كانت تحاول كما لاحظت أن تجعل قلبها فولاذياً يقاوم اليأس الذي تهدده •

ألقيت نظرة شاملة على الأفق القاتم ، ثم عدت ببصري الى كومـة الاخشاب المهترئـة حيث كنا نقف • كـان الاخضرار المصفر قـد ذوى في السماء ، والنور الوحيد جاء من البيت الذي اشتعلت فيه بضعة مصابيح متفرقة • استطعت من خلال الباب المفتوح أن أرى الممـر ، عاريا كما لو كان المنزل خاويا ، والدرج اللولبي الذي صعد الى الطابق الأعلى • كان المكان القديم جميلا ذات يوم ، ولكنه الآن يبعث على الاشمئزاز في تفسخه المدقع ، مثل دم كان شاباً في الأيام الغابرة وغدا خرفاً •

« هل بامكانك أن تحصلي على ما يقيم أودك من الأرض ؟ » ـ سألت ، لأنني لم أستطع التفكير بأية كلمات أخرى تظهر قدراً أدنى من الشفقة •

« القليل في البداية ، » أجابت ببطء • « لقد عملنا بجد ، بدأب يفوق دأب أي زنجي يعمل في الحقول ، لكي نحافظ على الأشياء كما هي ، ولكننا كنا سعداء • ثم أتى هذا المرض قبل ثلاث سنوات ، وبعد ذلك أخذ كل شيء يسير ضدنا • كان في البداية مجرد فترات من التأمل الطويل ، نوع من الكآبة ، وحاولنا أن نتخلص منها بالتظاهر بأنها لم تكن حقيقية ، أننا كنا نتخيلها • فقط مؤخراً ، حين غدت أسوأ بكثير ، اعترفنا بالحقيقة ، وواجهنا الواقع •• »

لم تكن هذه الهمهمة العاطفية ، التي كان لها تقريباً وقع انشاد صادر من

المزلة ، موجهة لي ، بل الى قوة مجردة لا سبيل الى تهدئتها - وبينما كانت تنوء بها مائل هدوءها سكينة الموتى • لم ترفع يدها لتمسك شالهـا ، الذي كان ينزلق دون أن تلاحظ ذلك من على كتفيها ، ولم تغادر وجهي عيناها الشبيهتان الى حـد كبير بزهرتين قاتمتين في نعومتهما •

« اذا أخبرتني كل شيء ، فقد أستطيع مساعدتكما ، » قلت •

« ولكنك تعرف قصتنا ، » أجابت • « لابد أنك سمعتها • »

« اذن فهي صحيحة ؟ وراثة ، تزاوج من نفس العائلة ، جنون ؟ »

لم تحفل من فظاظة كلامي • « ان جـد زوجي في مصح ، لا يزال حيـاً بعد مضي ما يقارب ثلاثين عاماً • وأبوه ـ أبو زوجـي أعني ـ مات هناك قبل بضع سنوات • واثنان من أعمامه هناك • لا أدري متى بـدأ الأمـر ولا الى أي زمن في الماضي يعود • اننا لم نتحدث عنه أبداً • حاولنا دائماً أن ننساه ـ وحتى الآن لا أستطيع أن أعبر عن الامر بكلمات ـ لقد ماتت والدة زوجي مكسورة القلب،ولكن الجدة والمرأتين لا زلن على قيد الحياة • ستراهن حين تدخل المنزل • انهن هرمات الآن ، ولا يشعرن بأي شيء • »

« وكانت هناك حالات أخرى ؟ »

« لا أدري • أليست أربع حالات كافية ؟ »

« هل تعلمين اذا كان المرض قد اتخذ دائماً نفس الصيغة ؟ » كنت أحاول أن أقتضب قدر الامكان •

أجفلت ، ورأيت أن هدوءهــا غير الطبيعي قد اهتز أخيراً • « نفسها ، على ما أعتقد • في البداية تظهر الكآبة ، الانقباض ـ كما تدعوه الجدة ـ ثم ••• » قذفت ذراعيها في اشارة يائسة ، ومرة أخرى تذكرت احدى الشخصيات الاسطورية المأساويـة •

« أعرف ، أعرف » كنت شابا ، وبالرغـم من كبريائي ، ارتعش صوتي • « هل خطرت أية حالة من الشفاء الجزئي ، الذي يتجدد على فترات ؟ »

« في حالة جده ، نعم . لكن ليس في أية من الحالات الاخرى . بالنسبة لهم كان الأمر ميؤوساً منه منذ البداية . »

« وكارستيرز قادم ؟ »

« في الصباح . كان عليّ أن أنتظر ، ولكن الليلة الماضية .. » تكسر صوتها ، وسحبت الشال الممزق تلف نفسها به وهي ترتجف . « الليلة الماضيةحدث شيء . حدث شيء ، » أعادت ولم تستطع الاستمرار . ثم استجمعت قوتها بجهد جعلها ترتعش مثل ورقة حشيش في الريح واستمرت بقدر أكبر من الهدوء ، « انه اليوم أفضل . لقد نام للمرة الاولى ، وتمكنت أن أتركه . هناك اثنان من عمال الحقول في الغرفة . » تغيرت لهجتها فجأة ، وساورها شيء من الحيوية . خلع تصميم غامض ما مسحة من اللون على خدها الشاحب . أضافت : « يجب أن أعرف ما اذا كانت هذه حالة ميؤوساً منها مثل الحالات الاخرى . »

مشيت خطوة نحو المنزل . « ان لرأي كارستيرز قيمة تفوق رأي أي رجل على قيد الحياة ، » أجبتها .

« ولكن هل سيخبرني بالحقيقة ؟ »

هززت رأسي . «انه سيخبرك بما يعتقده.ليس من انسان لا يخطىءحكمه».

مبتعدة عني ، تحركت بخطوات حيوية نحو المنزل . حين تبعتها الى الممر أصدرت العتبة صريراً تحت وطء قدمي ، وأصابني شيء من التوجس ، أو ، اذا شئتم ، من الرعب الخرافي من الارض فوقي . آه ، لقد تخلصت من هذا النوعمن المشاعر قبل مضي عدد كبير من السنوات ؛ رغم أنني في النهاية اعتزلت الطب ، واتجهت الى الأدب كمتنفس أكثر أمناً لمخيلة مكبوتة .

ولكن الرعب كان موجوداً في تلك اللحظة ، ولم تخفف منه اللمحة التيلمحتها عند أسفل الدرج اللولبي ، لغرفة ضئيلة الاثاث ، حيث تجمعت ثلاث نساء نحيفات يرتدين أثواباً سوداء ، ساكنات مثل الهات القدر ، أمام نار حطبية . كن يشتغلن بشيء ما بأيديهن ، يقمن بالحياكة أو بضفر القش .

عند رأس الدرج توقفت المرأة والتفتت الي . سقط عليها النور من مصباح

الكاز المعلق على الجدار ، ومن جديد استوقفتني روعة جمالها الأجنبية ، ولكن أكثر من ذلك نظرة الاخلاص ، الوقار المشبوب بالعاطفة الذي أضاء وجهها ٠

« انه قوي جداً ، » قالت هامسة ٠ « قبل أن يحل به هذا المصاب لم يمرض يوما واحداً في حياته قط ٠ كان أملنا أن ينقذنا العمل الشاق وعدم وجود الوقت للتفكير والتأمل ؛ ولكن ذلك جلب لنا الشيء الذي خشيناه بسرعة أكبر ٠ »

كان هناك سؤال في عينيها ، وأجبت أنا بنفس اللهجة الخافتة ٠ « صحته العامة حسبما تقولين جيدة ؟» ما الذي كان بامكاني أن أساله غير هذا في حين أنني فهمت كل شيء ؟

مرت رعدة في قوامها ، « كنا نظن أن هذه نعمة , ولكن الآن ٠٠ » توقفت ثم أضافت بصوت لا حياة فيه ، « اننا نبقي اثنين من عمال الحقول في الغرفة ليلا ونهاراً ، خشية أن ينسى واحد مراقبة النار أو يغلبه النوم ٠ »

صدر صوت من الغرفة عند نهاية الممر ودون أن تنهي جملتها ، تحركت بخفة نحو الباب الموصد ٠ كان التوجس أو الرعب أو أيما شئتم تسميته قوياً بالنسبة لي الى حد أن سيطر علي حافز يدفعني للاستدارة والتقهقر هابطاً على الدرج اللولبي ٠ نعم ، انني أعرف لم يصبح بعض الرجال جبناء في المعركة ٠

« لقد هدئ ، يا آلان ، » قالت بصوت عصر أوتار قلبي ٠

كانت الانارة خافتة في الغرفة ، ولبرهة بعد دخولي لم أستطع رؤية أي شيء بوضوح سوى وهج النار الحطبية التي كان أمامها زنجيان يجلسان على مقعدين خشبيين واطئين ٠ كان وجهاهما لطيفين ، هذان الرجلان ؛ كان هناك تواضع بدائي في تقاسيمهما ، ربما من تأثير أرض الحقول القاتمة ٠

نظرت حولي في اللحظة التالية ورأيت شاباً يجلس بعيداً عن النار ، جاثماً على كرسي مغطى بقماش «الكريتون» ، عالي المسند ، عميق الجناحين ٠ لدى دخولنا رفع الزنجيان بصرهما بدهشة ؛ ولكن الرجل الجالس في الكرسي المجنح لم يرفع رأسه ولا التفت بعينيه نحونا ٠ جلس هناك , ضائعاً في قفار المجانين التي لا سبيل الى سبرها ، بعيداً عنا وعن ضجيج أصواتنا كما لو كان يسكن في عالم غير مرئي٠

كان رأسه محنياً الى الامام ، وعيناه تحدقان بثبات في صورة ما لم نستطع رؤيتها ، وأصابعه تتحرك بلا استقرار تضفر وتفك طرف شال ذي نقشة مربعة • بالرغم من ذهوله ، كان لا يزال يملك وقار الكمال الجسدي المجرد • لابد أن طوله حين يقف منتصباً لم يكن يقل عن ستة أقدام وثلاث بوصات ، وكان شعره في لون القمح الناضج ؛ وعيناه ــ بالرغم من تحديقهما الثابت ــ زرقاوان مثل السماء بعدالمطر• وكانت هذه البداية فقط ، كما لاحظت • فبمثل هذه البنية وهذا القوام الجسدي قد يعيش حتى التسعين •

« آلان ! » تنفست زوجته ثانية في همهمتها المتوسلة •

اذا كان قد سمع صوتها ، فانه لم يبد أي دليل على ذلك • فقط حين مشت عبر الغرفة وانحنت فوق كرسيه ، مد يده لها ، في اشارة تدل على الضيق ، ودفعها بعيداً ، كما لوكانت حجاباً من الدخان وقف بينه وبين الشيء الذي كان ينظراليه• ثم سقطت يده من جديد الى مكانها القديم،وعاد هو الى ضفره الآلي لطرف الشال•

رفعت المرأة عينيها نحو عيني • « قام والده بفعل ذلك لمدة عشرين عاماً ،» قالت في همس لا يزيد على أنه عذاب •

عندما انتهيت من معاينتي المختصرة ، غادرنا الغرفة مثلما دخلنا ، وهبطنا الدرج معاً • كانت العجائز الثلاث لا يزلن يجلسن قرب النار الحطبية • لا أعتقد أنهن تحركن منذ صعدنا الى الطابق العلوي؛لكن ، حين وصلنا الى الممر في الأسفل، نهضت احداهن ــ أصغرهن ، كما أتصور ــ من كرسيهـا ، وخرجت لتلحق بنا - كانت تحيك شيئاً ناعما وصغيراً ــ طاقية طفل رضيع ، كما تبينت حين اقتربت ــ من الصوف القرنفلي • تدحرجت الكرة من حضنها حين نهضت ، وتبعتها ، مثل وردة من القطن ، على الأرض العارية • حين شدتهـا الخصلة ، التفتت وتوقفت لتلتقط الكرة ، وأعادت لفها بأصابع حانية • يا الهي ، طاقية طفل في ذلك المنزل !

« هل هو نفس الشيء ؟ » سألت •

« صه ! » أجابت المرأة الشابة برفق • والتفتت الي وقالت : « لا نستطيع

التحدث هنا ، » وفتحت الباب وخرجت الى الشرفة • لم تتكلم الا بعد أن وصلنا المرج ، ومشينا في صمت الى حيث وقفت عربتي تحت شجرة خرنوب قديمة •

ثم قالت فقط : « أنت تعرف الآن ؟ »

« نعم ، أعرف ، » أجبت ، متحاشيا النظر الى وجهها أثناء اعطائي توجيهاتي باقتضاب قدر ما يمكن • « سأعطيه مسكناً » قلت• « غداً ، اذا لم يحضر كارستيرز، أرسلي في طلبي ثانية • أما اذا أتى ، فسأتحدث معه ثم أراك فيما بعد • »

« شكراً ، » أجابت بلطف ؛ وأخذت الزجاجة من يدي والتفتت مبتعدة عائدة بسرعة الى المنزل •

راقبتها أطول فترة ممكنة ؛ ثم امتطيت عربتي ، وأدرت وجه فرسي باتجاه الغابة ، وسرت في ضوء القمر ، ماراً ب « شجرة الصقور » وعلى طريق «أولدستيج» الى بيتي • آخر فكرة في راسي تلك الليلة قبل أن أنام كانت : « يجب أن أرى كارستيرز غداً • »

ولكن مع ذلك رأيت كارستيرز لدقيقة واحدة فقط بينما كان يستقل القطار• الحياة في بدايتها وفي نهايتها ملأت صباحي ؛ وحين وصلت أخيراً الى المحطة الصغيرة، كان كارستيرز قد قام بزيارته ، وينتظر على الرصيف القطار السريع القادم • في البداية أبدى ميلا لتوجيه الأسئلة لي حول مسألة اطلاق النار ، ولكن حالما استطعت أن أوضح مهمتي ، تغضن وجهه •

« اذن كنت هناك ؟ » قال• « لم يخبروني • حالة مثيرة للاهتمام ، لولا وجود المرأة المسكينة• لا علاج لها ، حسبما أخشى ، اذا أخذت بالاعتبار الأسباب الوراثية• ان العرق قد تدهور الى حد كبير ، على ما اعتقد • يا الهي ! يا للعزلة ! لقد نصحتها أن ترسله بعيداً • هناك ثلاثة آخرون ، كما ذكروا لي ، في ستوانتن »•

أقبل القطار ؛ وقفز يركبه وأبعده الزحام بينما كنت أتابعه ببصري• بالرغم من شهرة كارستيرز العظيمة ، لم أزدد علماً أو معرفة •

لم أسمع أي خبر من جوردانز اند طيلة ذلك اليوم ؛ ثم في الصباح الباكر من اليوم التالي ، أحضر لي نفس الزنجي العاجز رسالة •

« الآنسة الشابة طلبت مني أن أسألك أن تأتي معي بأسرع ما يمكنك » ٠
« سأتوجه الى هناك أيها العم ، وسآخذك معي ٠ »

كانت عربتي وفرسي تقفان عند الباب ٠ كل ما احتجت أن أقوم بـه كان أن أرتدي معطفي ، وآخذ قبعتي ، وأترك كلمة لأي مريض محتمل أنني سأعود قبل الظهيرة ٠ كنت أعرف الطريق الآن ، وأخبرت نفسي وأنا أنطلق أنني سأجعل رحلتي سريعة بقدر ما يمكن ٠ طيلة ليلتين طاردتني ذكرى ذلك الرجل الجالس على الكرسي ، يصفر ويفك طرف الشال المصنوع من قماش ذو نقشة مربعة ٠ ولقد قام والده بفعل ذلك ، كما أخبرتني المرأة ، طيلة عشرين سنة !

كان صباحاً خريفيا بني اللون ، بارداً ، ساكناً ، سماؤه ملبدة ، ويخلق وهماً غريباً يجعل المسافات قريبة ٠ هبت ريح قوية طوال الليلة السابقة ، ولكنها سكنت فجأة عند الفجر ٠ والآن لم يكن هناك أي تموج في الأشجار فوق الحقول ٠ حين خرجنا من الغابـة ، كانت خيوط الدخـان الأزرق الرفيعة ساكنة مثل بيت العنكبوت ٠ بدا المرج المحيط بالمنزل أصغر مما كان قد بدا لي في الغسق،كما لو أن الحقول العارية زحفت الى مكان أقرب منذ زيارتي الاخيرة تحت الأشجار ، حيث كانت الاغنام القليلة ترعى ، ركدت أوراق الشجر التي جرفتهـا الريح وجمعتها في أكوام على طول الممشى الوعر وعلى حواف المنزل ٠

حين قرعت الباب فتحته احدى العجائز ممسكة بشريط من القماش الأسود او من « الكريب » (٤) الصدىء ٠

« تستطيع الصعود فوراً الى الطابـق العلـوي ، » قالت متوقفة ، ودون أن أنتظر أي تفسير ، دخلت الممر وصعدت الدرج بسرعة ٠

كان باب الغرفة مغلقاً ، ففتحته دون أن أحدث صوتاً وخطوت فوق العتبة ٠ كان أول مـا شعرت بـه لدى دخولي هو احساسي بالبرد ٠ ثم شاهدت أن النوافذ كانت مفتوحة على مصاريعها ، وأن الغرفة بدت غاصة بالناس ، رغـم أنه ــ كما لاحظت بعد وهلة قصيرة ــ لم يكن هناك أحـد سوى زوجة آلان جوردان وابنتهـا

(٤) قماش يستعمل في صنع ملابس الحداد ٠

الصبي والممتين العجوزين وزنجية هرمة شمطاء • على السرير كان هناك شيء ما تحت ملاءة صفراء من الكتان الفاخر (ما يسميه الزنوج « ملاءة دفن » ، على ما أعتقد) ، خلفتها جيل كان أكثر وفرة •

حين اقتربت ، بعد دقيقة ، وقلبت احدى زوايا الغطاء ، شاهدت أن مريضي الذي رأيته مساء يوم فائت قد مات • لم يشوه ملامحه أي تغضن سببه الألم ، لم يختلط بشعره الذهبي القمحي أي خيط من الشيب • لابد أنه بدا بهذا الشكل ـ كما فكرت ـ حين أحبته أول مرة • لم يغادر الحياة هرما وضعيفا ومثيرا للاشمئزاز ، وانما غادرها وتوهم عاطفتهما الرومانتيكية لا يزال يغلفه •

حين دخلت ، تراجعت العجوزان ، اللتان كانتا منهمكتين قرب السرير ، لافساح مكان لي ، ولكن الساحرة الزنجية لم تتوقف عن أغنيتها الغريبة ، التي كانت تعويذة من التعاويذ تهمهم بها • من على البساط أمام المدفأة الخاوية ، حدق الصبي ـ الذي كان له شعر أبيه وعينا أمه ـ بي بصمت ، بكآبة ، كما لو كنت متطفلا ؛ وبقرب النافذة ، وقفت الزوجة الشابة ساكنة ، وعيناها ترقبان النهار التشريني الرمادي ، بينما أخذت أنظر اليها طار طائر «كاردينال» من بين أغصان شجرة أرز ، وتبعته بنظرها •

« لقد أرسلت في طلبي ؟ » قلت لها •

لم تلتفت • كانت أبعد مما يصل اليه صوتي ، أو أي صوت ، كما أتخيل ولكن احدى النساء العجائز أجابت على سؤالي •

« هكذا كان حين وجدناه هذا الصباح ، » قالت • « لقد أمضى ليلة سيئة ، وسهرت جوديث والعاملان معه حتى طلوع الصباح • ثم بدا وكأنه أخلد للنوم ، وأرسلت جوديث العاملين ليتناولا الافطار • »

بينما كانت تتكلم وقع نظري على الزجاجة التي تركتها هناك • قبل ليلتين كانت ملأى ، والآن كانت فارغة ، بدون غطاء ، على الرف • لم يقوموا حتى بالتخلص منها • انه مما ينسجم مع التصور الذي خيم على المكان أن تبقى الزجاجة موضوعة هناك في انتظار زيارتي •

للحظة أفقدتني الصدمة القدرة على الكلام ؛ حين عثرت على صوتي أخيرا ، سألت:

« متى حدث ذلك ؟ »

تابعت المرأة التي تكلمت من قبل روايتها - « لا أحد يدري-انما لم نلمسه- لم يقترب منه أحد سوى جوديث - » تلاشت كلماتها في دمدمة غير مفهومة - اذا كانت لديها أية قدرة على التفكير ، فان خمسين عاماً في جوردانز إند قد أفقدتها هذه القدرة تماماً كما أتصور -

التفت الى المرأة عند النافذة - في وجه السماء الرمادية وأغصان الأرز السوداء المتقاطعة،كان وجهها ، بكماله الوقور ، محاطاً بجو الأساطير الحالم - من المحتمل أن أنتيغوني بدت هكذا في يوم التضحية بها ، كما خطر لي - لم أر قط أي مخلوق بدا منزوياً ومنعزلا عن جميع الروابط البشرية الى هذا الحد - كان الأمر كما لو أنه عزلة روحية فصلت بينها وبين أبناء جنسها -

« لا أستطيع القيام بأي شيء ، » قلت -

لأول مرة نظرت الي ، ولم يكن من الممكن سبر غور عينيها « لا ، لا تستطيع القيام بأي شيء ، » أجابت - « لقد مات واستراح - »

كانت الزنجية لا تزال تدندن ، والعجوزان تروحان وتقدمان بقنوط - كان من المستحيل ، أثناء وجودهما ، حسبما شعرت أن أعبر بالكلام عما أردت قوله -

« هل لك أن تنزلي معي ؟ » سألت - « خارج هذا المنزل ؟ »

التفتت بهدوء وخاطبت الصبي - « اخرج والعب أيها الغالي - هذا ما كان يود منك أن تفعله » -

ثم ، دون أن تلقي أية نظرة على السرير أو العجائز الملتفات حوله ، تبعتني فوق العتبة وعلى الدرج والى المرج المهجور في الخارج - لم يكن بامكان النهار الرمادي أن يمسها ، كما رأيت حينئذ - إما أنها كانت بعيدة جداً عنه أو جزءاً منه لا يتجزأ ، بحيث لم ينفذ حزنه اليها - لم يزدد وجهها الشاحب صفرة حين سقط النور عليه ، ولم تزدد عيناها المأساويتان عمقاً ، ولم يرتعش جسمها الناحل تحت الشال الرقيق في الهواء البارد - لاحظت فجأة انها لم تشعر بأي شيء -

ملتفة بذلك الصمت كما لو كان عباءة ، مشت عبر أكوام الشجر الى حيث كانت فرسي تنتظر - كانت خطواتها بطيئة جداً ، لا عجلة فيها بشكل أنني أذكر

كيف فكرت حينذاك بأنها كانت تتحرك مثل شخص لديه الأبد كلـه أمامه • آه ، ان المرء يكوّن انطباعات غريبة ، كما تعلمون ، في لحظات كهذه •

في وسط المرج ، حيث كانت الاشجار قد تعرت أثناء الليل،والأوراق مكدسة في أكوام طويلة مثل قبور مزدوجة ، وقفت ونظرت في وجهي • كان الهـواء ساكناً كما لو أن المكان بأكمله وقع في غيبوبة او سبات • لم يتحرك أي غصن ، لم تصدر اية ورقة حفيفاً عـلى الارض ، لـم يزقزق أي عصفور في الدغل ، حتى النسمات القليلة وقفت ساكنة ، وكأنها تحت تأثير السحر • في الأمكنة الأبعد ، خلف محيط أشجار البردي ، حيث لم تهب أية ريح ، رأيت عزلة الارض المسطحة • لم يتحرك شيء على وجه البسيطة ، ولكن في الأعلى،تحت السحب الرصاصية،كان صقر يحلق•

بللت شفتي قبل أن أتكلم • « الله يعلـم انني أود مساعدتك ! » كان سؤال بشع يقرع في مؤخرة ذهني • كيف حدث الأمـر ؟ أيمكن أنها قتلته ؟ هل سيطرت هذه المخلوقة الناعمة على أعصابها ، واستجمعت ارادتها للقيام بالفعل الذي لايمكن ذكره ؟ ذلك بعيد عن التصديق • ذلك بعيد عن التصور • ومع ذلك ••

« لقد انتهى أسوأ ما في الأمر ، » قالت بهدوء ، بذلك العذاب الذي لا دموع فيه والذي هو أقسى بكثير من اي انفجار من الحزن • « مهما حدث ، فلن أستطيع أبداً تحمل الأسوأ من جديد • مرة عند البداية أراد أن يموت • كان خوفه الأكبر أنه قد يعمر أطول مما يجب ، الى ان يفوت أوان انقاذه لنفسه • لقد جعلته ينتظر حينذاك • لقد أوقفته باعطائه وعداً » •

فكـرت : اذن فقد قتلته • تابعت كلامهـا بثبات ، بعد دقيقة ، وساورني الشك من جديد •

« الحمد لله،كان الأمر أسهل عليه مما خشي أن يكون ، » قالت متمتمة •

كلا ، كانت المسألة أبعد من التصور • لابد أنه رشى أحد الزنجيين • ولكن من وقف وراقب دون أن يعترضه أحد؟ من كان في الغرفة ؟ ولكن أياً كان الأمر ! « سأفعل كل ما بوسعي لمساعدتك ، » قلت •

لم ترتعش نظرتها الثابتة • « ليس هناك الكثير مما يمكن للمرء القيام به

الآن ، » أجابت ، وكأنها لم تفهم ما عنيت • فجأة ، دون التحذير الذي ينجم عن النحيب ، صدرت عنها صرخة يأس • كما لو أنها انشقت من صدرها • « كان هو حياتي ، » صرخت « وعلي أن أمضي الآن ! »

كان الصوت مملوءاً بالألم بحيث بدا وكأنه يسير كهبة من الريح فوق شجر البردي • انتظرت الى أن انفتح الهواء واحتواه • ثم سألت بقدر ما استطعت من الهدوء :

« ما الذي ستفعلينه الآن ؟ »

استجمعت نفسها برعشة من الألم• « انني مرتبطة هنا ، طالما بقيت المجانر على قيد الحياة • علي أن أتحمل حتى النهاية • حين يمت ، ساذهب بعيداً وأجد عملا ما•سأرسل ابني الى المدرسة•سيعني به الدكتور كارستيرز ، وهو سيساعدني حين يحين الوقت • طالما هو بحاجة الي ، لن يكون هناك أي فكاك • »

بينما كنت أستمع اليها ، عرفت أن السؤال الذي كان على شفتي لن يصدر أبداً • سأبقى دائماً على جهل بالحقيقة • أخشى ما خشيته ، وأنا واقف هناك وحدي معها ، أن تكشف صدفة ما السر قبل أن يتاح لي الهرب • تحولت عيناي عن وجهها وتجولت فوق الأوراق الميتة عند أقدامنا • كلا ، ليس لدي شيء أسأله •

« هل أجيء مرة أخرى ؟ » كان ذلك كل شيء •

هزت رأسها سلباً • « الا اذا أرسلت في طلبك • اذا احتجت اليك ، سأرسل في طلبك ، » أجابت ؛ ولكن في سري عرفت أنها لن ترسل في طلبي أبدا •

مددت يدي ، ولكنها لم تأخذها ؛ وشعرت انها قصدت أن أفهم من رفضها أنها أبعد من أية تعزية وأي تعبير عن الصداقة • كانت أقرب الى السماء القاتمة والحقول المهجورة منها الى أفراد جنسها •

حين التفتت مبتعدة ، انزلق الشال من على كتفيها ساقطاً على الأوراق الميتة التي كانت تسير فوقها ، ولكنها لم تتوقف لالتقاطه ، ولم أقم أنا بحركة لأتبعها • لفترة طويلة بعد دخولها المنزل وقفت هناك ، محدقاً في الرداء الذي أسقطته • ثم صعدت عربتي ، وسرت عبر الحقل الى الغابة •

كاترين آن بورتر

التخلي عن الجدة ودرول *

سحبت يدها بحذق من بين أصابع الدكتور هاري السمينة المتانية ورفعت الغطاء الى ذقنها • على هذا الطفل أن يرتدي بنطالاً قصيراً • يجوب البلاد مطياً وعلى أنفه نظارة • « امش من هنا الآن • خذ كتبك المدرسية واذهب • ليس بي من علة • »

وضع الدكتور هاري كفاً(١) دافئاً كالوسادة على جبينها حيث أخذ الوريد الأخضر المتفرع يرقص وجعل جفناها ينتفضان • « حسناً ، حسناً ، كوني فتاة مطيعة ، وسأجعلك تنهضين في أقصر وقت • »

« هذه ليست طريقة للتكلم مع امرأة تقارب الثمانين لمجرد أنها متوعكة • عليك أن تحترم من يكبرك سناً ، أيها الفتى • »

« حسناً يا أنستي ، اعذريني • » ربت الدكتور هاري على خدها • « ولكن علي أن احذرك ، أليس كذلك ؟ انك معجزة ، ولكن يجب أن تكوني حذرة والا ستشعرين بالأسف • »

(*) "The Jilting of Granny Weatherall" by Katherine Anne Porter من مجموعة **Flowering Judas and Other Stories** التي نشرت عام ١٩٣٠ وهي أول أعمال الكاتبة • وقد نشرت القصة قبل ذلك بعام في مجلة **Transition** • وكلمة **Jilting** في العنوان ـ والتي ترجمت هنا بكلمة « التخلي » ـ تستعمل لوصف هجر الفتاة أو نبذها لحبيب سابق •

(١) الكلمة المستعملة في الأصل هي كلمة "Paw" وتعني كف الحيوان •

« لا تقل لي ما الذي سوف أحسنه . انني أقف على قدمي الآن ، من الناحية المعنوية . انها كورنيليا . لقد اضطررت أن آوي الى السرير للتخلص منها . »

شعرت أن عظامها متفككة وأنها تسبح في داخل جلدها ، وسبح الدكتور هاري كالبالون حول رأس السرير . سبح وسحب صدارته الى الأسفل وأرجح نظارته على خيط . « حسناً ، ابق حيث أنت ، فمن المؤكد أن ذلك لن يؤذيك . »

« امض في سبيلك وطبب مرضاك ، » قالت الجدة ودزرول . « اترك امرأة صحيحة وشأنها . سأستدعيك حين أحتاجك .... أين كنت قبل أربعين عاماً حين تغلبت على ورم الولادة وذات الرئة المزدوجة ؟ لم تكن قد ولدت بعد . لاتدع كورنيليا تضللك ، » قالت صائحة ، لأن الدكتور هاري بدا وكأنه يطفو مرتفعاً الى السقف والى الخارج . « اسي أنا التي أدفع فواتيري ، وأنا لا أرمي نقودي على الترهات ! »

أرادت أن تلوح بيدها مودعة ، ولكن كان في ذلك عناء أكثر مما يجب . انطبقت عيناها تلقائياً ، وكان الأمر مثل ستار معتم أنزل حول سريرها . ارتفعت الوسادة وسبحت تحتها ، تبعث على الارتياح كأرجوحة في ريح خفيفة . أصغت الى حفيف أوراق الشجر خارج نافذتها . كلا ، ان شخصاً ما يحرك صفحات جريدة : كلا ، كورنيليا والدكتور هاري يتهامسان . فجأة استيقظت استيقاظاً كاملاً ، شاعرة أنهما يهمسان في أذنها .

« أبداً لم تكن مثل ذلك ، أبداً لم تكن كذلك ! » « لكن ، ما الذي يمكننا أن نتوقعه ؟ » « نعم ، في الثمانين ... »

وماذا في ذلك ؟ اذ لاتزال لها أذنان . ان من شيمة كورنيليا أن تتهامس قرب الأبواب . كانت دائماً تحفظ الأمور سراً بمثل هذه الطريقة العلنية . هي دائماً لبقة ولطيفة . ان لدى كورنيليا احساساً كبيراً بالواجب ؛ ذلك كان عيبها . طيبة وتحس بالواجب : « تحس بالواجب وطيبة الى حد أنني » ـ قالت الجدة ـ « أود لو أضربها » . تخيلت نفسها تضرب كورنيليا ، وتجعل من ذلك عملاً جيداً .

« ماذا قلت يا أمي ؟ »

شعرت الجدة بوجهها ينعقد باحكام .

« أود أن أعلم ، أليس بأمكان المرء أن يفكر ؟ »
« ظننت أنك قد تريدين شيئاً • »
« أريد • أريد أشياء كثيرة • أول شيء : ابتعدي من هنا ولا تهمسي• »

استلقت وغلبها النعاس ، متمنية وهي نائمة أن يبقى الأطفال في الخارج ويدعوها تستريح لحظة • لقد كان اليوم يوماً طويلاً • ليس أنها تعبت • فمن دواعي السرور دائماً أن تختطف لحظة بين الحين والآخر • هناك دائماً الكثير من الأشياء التي يجب القيام بها ، فلأفكر : غداً •

ان الغد بعيد وليس من شيء يستدعي ازعاج نفسها به • فالأشياء تُنجز بشكل ما حين يحين الوقت ؛ الحمد لله أن هناك دائماً هامشاً صغيراً يبقى للسلام والطمانينة . اذ أن بامكان المرء أن ينشر خطة الحياة وان يكفكف الأطراف بشكل منتظم • من الحسن أن يكون كل شيء نظيفاً ومطوياً ومرفوعاً ، وفراشي الشعر وزجاجات العقاقير المنشطة تقوم منتصبة على الملاءات البيضاء المطرزة : يبدأ النهار دون جلبة ورفوف حجرة المؤن ممتلئة بصفوف من كؤوس الحلوى الهلامية « الجيلي » وأباريق بنية اللون ومرطبانات بيضاء من الصيني الحجري ذات صحون زرقاء دوّارة طبعت عليها كلمات : قهوة ، شاي ، سكر ، زنجبيل ، قرفة ، فلفل حلو : والساعة البرونزية وقد مسحوا عنها الغبار مسحاً جيداً • ياللغبار الذي يمكن أن تجمعه في أربع وعشرين ساعة ! الصندوق في السقيفة بكل ما فيه من رسائل مربوطة ، حسناً ، عليها أن تستعرض ذلك غداً • كل تلك الرسائل ـ رسائل جورج ورسائل جون ورسائلها المتبادلة ـ كونها متروكة هناك لكي يجدها الأطفال جعلها تشعر بالانزعاج• نعم ، سيكون ذلك شغل الغد • لا فائدة من السماح لهم بمعرفة كم كانت سخيفةذات مرة •

بينما أخذت تنقب هنا وهناك عثرت على الموت في عقلها وكان ملمسه دبقاً وغريباً • لقد أمضت من الوقت تستعد للموت ما لم يترك من حاجة لطرحه منجديد• فليتول" أمر نفسه الآن • حين بلغت الستين شعرت أنها هرمت جداً ، انتهت ،ومضت تقوم بزيارات وداعية لترى أولادها وأحفادها ، وسر" يكمن في عقلها : هذا آخر عهدكم بأمكم يا أولاد ! ثم كتبت وصيتها وأصيبت بحمى طويلة • لقد كان كل ذلك

مجرد نزوة مثل الكثير من الأشياء ، ولكنه أيضاً كان ضربة حظ ، فقد تغلبت على فكرة الموت وانتهت منها لفترة طويلة • لايمكن لها أن تقلق الآن • انهـا تأمل أن يكـون مثلها أرجح الآن • لقد عاش والدها ليبلغ سن الثانية بعد المئة وفي آخر عيد مـيلاد له شرب كأساً من خمر « التودي » الحار المركز • وأخبر الصحفيين أن تلك عـادتـه اليومية ، وأنه مدين بحياته الطويلة لها • لقد أثار فضيحة ليست بـالصغيرة وسره ذلك سروراً كبيراً • فكرت في أن تقوم بتعذيب كورنيليا بعض الشيء •

« كورنيليا ! كورنيليا ! » لا وقع أقدام ،ولكن يد مباغتة على خدها-«ليباركك الله ، أين كنت ؟ »

« هنا يا أمي • »

« اذن كورنيليا ، أريد كأساً من (التودي) الحار • »

« هل تشعرين بالبرد يا حبيبتي ؟ »

« انني أشعر بالقشعريرة • الاستلقاء في السرير يوقف الدورة الدموية • لابد أنني قلت ذلك لك ألف مرة • »

انها تستطيع تماماً أن تتخيل كورنيليا وهي تخبر زوجها أن والدتهـا تتصرف بشكل طفولي بعض الشيء وان عليهما أن يجارياها • كان أكثر الأشياء ازعـاجـاً لها أن كورنيليا ظنتها طرشاء وخرساء وعمياء -ألقيت نظرات صغيرة سريعة واشارات ضئيلة حولها وفوق رأسها تقول : « لا تغضبها ، دعها تفعل ما تشاء ، انها في الثمانين من العمر ، » وهي جالسة هناك كما لو أنها تعيش في قفص من الزجاج الرقيـق • أحياناً كانت الجدة تكاد أن تصمم أن تحزم حوائجها وتعود الى بيتها حيث ليس بامكان أي شخص أن يذكرها كل دقيقة أنها هرمة • انتظري ، انتظري ياكورنيليا ، الى أن يهمس أطفالك أنت وراء ظهرك !

في صباها كانت ترتب منزلها بشكل أفضل وكانت تنجز أشياء أكثر • انها لم تهرم بعد الى حد يمنع ليديا من أن تقطع ثمانين ميلاً بسيارتها لتطلب النصيحة حين ينحرف أحد أطفالها عن الطريق ، ولا زال جيمي يأتي ليبحث الأمور معها : « انت يا أمي ذات عقل تجاري جيد ، وأود أن أعرف رأيك في هذا ؟••• » هرمة • ان كورنيليا لا تستطيع تغيير ترتيب الأثاث دون سؤال • أشياء صغيرة ، أشياء صغيرة !

لقد كانوا شديدي العذوبة حين كانوا صغاراً . تمنت الجدة لو أن الأيام الغابرة تعود من جديد ويعود الأولاد صغاراً وتضطر للقيام بكل شيء مرة أخرى . لقدكان عناء شاقاً ، ولكن ليس أشق مما تستطيع تحمله . حين فكرت بكل الطعام الذي طبخته ، وكل الملابس التي قصتها وخاطتها ، وكل الجنائن التي زرعتها — آه ، ان ذلك واضح في الأولاد . هاهم هناك ، قد صُنعوا منها ، ولا مهرب لهم من هذه الحقيقة . أحياناً كانت تود أن ترى جون ثانية وأن تشير اليهم وتقول : اذن ، لم تكن نتيجة عملي سيئة ، أليس كذلك ؛ ولكن على ذلك الأمر أن ينتظر . انه من أمور الغد . اعتادت أن تفكر به كرجل ، لكن الآن كل الأولاد أكبر سناً من أبيهم، وسيكون طفلا الى جانبها الآن لو تم لها أن تراه . بدا ذلك غريب ، وكان ثمة من خطأ في الفكرة . أوه ، لا احتمال هناك بأن يتمكن من التعرف عليها . لقد قامت مرة بتسييج مئة « أكرة » ، وحفرت حفر الأعمدة بنفسها ، وثبتت الأسلاك دون أن يساعدها أحد سوى صبي زنجي . ان ذلك يغير المرأة . التنقل فوق الطرق الريفية في الشتاء عند ولادة النساء لاطفالهن كان شيئاً آخر : السهر في الليالي مع الجياد المريضة والزنوج المرضى والاطفال المرضى وتقريباً عدم فقدان أي منها أو منهم قط.جون ، انني تقريبا لم أفقد أياً منهم ! سيلحظ جون ذلك في لحظةواحدة، فذلك شيء بامكانه أن يفهمه ، ولن تحتاج لشرح أي شيء !

جعلها ذلك تشعر بالرغبة في أن ترفع أكمامها وأن تصحح وضع المكان بأكمله وترتبه . لا بأس اذا كانت كورنيليا مصممة على أن تكون في كل مكان في نفس اللحظة ، فهناك أشياء كثيرة جداً تركت ولم يقم بها أحد في هذا المكان ستبدأ غداً وتقوم بها . من الجيد أن يكون لدى المرء القوة الكافية لكل شيء ، حتى ولو ذاب كل شيء تقوم به وانزلق بين يديك ، بحيث حين تنتهي تكاد أن تنسى ماهو الشيء الذي كنت تعمل لأجله . ماهو الشيء الذي شرعت في القيام به ؟ سألت نفسها باكتئاب ، ولكنها لم تستطع أن تتذكر. تشكل ضباب فوق الوادي ، رأته يسير عبر الجدول ملتهماً الأشجار ومتسلقاً الرابية مثل جيش من الأشباح. سيصل سريعا الى حافة البستان القريبة ، وعندئذ سيحين وقت الدخول الى البيت واشعال المصابيح. ادخلوا أيها الأطفال ، لا تبقوا خارجاً حيث هواء الليل .

اشعال المصابيح كان جميلا • تجمع الاطفال والتصقوا بها وأخذوا يتنفسون كمجول صغيرة تنتظر عند قضبان البوابة وقت الشفق• تابعت أعينهم عود الكبريت وراقبت الشمعة ترتفع وتستقر على شكل قوس ازرق ، ثم ابتعدوا عنها • لقد أشعل المصباح ، لم يعد هناك موجب لأن يخافوا ويتعلقوا بأمهم • لم يعد من موجب أبداً ، أبداً ، أبداً • يا الهي ، لحياتي كلها أشكرك • بدونك يا الهي ، لم أكن لأستطيع القيام بما قمت به • السلام عليك يامريم ، أيتها المليئة بالحسن •

أريدكم أن تلتقطوا كل الفاكهة هذا العام وأن تنتبهوا ألا يترك شيء للضياع • هناك دائماً من يستطيع استعمالها • لا تتركوا الأشياء الجيدة تتعفن بسبب عدم الاستعمال • انكم تضيعون الحياة حين تضيعون الغذاء الجيد • لاتدعوا الأشياء تضيع • اضاعة الاشياء أمر مر • لا يجب أن أغرق في التفكير الآن وأنا تعبة وأخلد الى النوم نومة قصيرة قبل تناول العشاء ••

ارتفعت الوسادة حول كتفيها وضغطت على قلبها وأخذت تنعصر منه الذكرى: اه ، ليقم شخص بالضغط على الوسادة : ستخنقها اذا حاولت الامساك بها• ياللنسيم المليل الذي يهب ويالالنهار الاخضر الذي لا انذارات فيه • ولكنه بالرغم من ذلك لم يأت • ماذا تفعل امرأة حين ترتدي الخمار الأبيض وتعد قالب «الكاتوه» الابيض من أجل رجل ولا يأتي ذلك الرجل ؟ حاولت أن تتذكر • لا ، أقسم أنه لم يسيء اليّ الا في ذلك • لم يسيء الي الا في ذلك •• وماذا لو فعل ؟ كان هناك اليوم ، اليوم ، ولكن ارتفعت دوامة من الدخان وغطته ، زحفت الى الأعلى وفوق الحقل المشرق حيث زرع كل شيء بعناية في صفوف منتظمة • كان ذلك الجحيم ، انها تعرف الجحيم حين تراه • طوال ستين سنة كانت تصلي كيلا تتذكره وكيلا تضيع روحها في هوة الجحيم العميقة ، والآن اختلط الامران وأصبحا شيئاً واحداً وكانت ذكراه غمامة دخانية من الجحيم تتحرك وتتسلل الى عقلها في الوقت التي تخلصت فيه لتوها من الدكتور هاري وكانت تحاول أن تستريح دقيقة • كبرياء مجروحة ياايلين ، قال صوت حاد في أعلى عقلها • لا تدعي كبرياءك المجروحة تسيطر عليك• يتعرض الكثير من الفتيات للنبذ • لقد نبذت (٢)، أليس كذلك ؟ اذن كوني كفوءاً

(٢) الكلمة المستعملة هنا هي كلمة "Jilted" وهذه صيغة اخرى من نفس الكلمة المستعملة في العنوان •

للوضع • ارتعش جفناها وتركا أشرطة من النور الرمادي ـ الأزرق تشبه سادبل الورق تتدلى فوق عينيها • عليها أن تنهض وتنزل الستار وإلا فانها لن تنام قط • كانت في السرير ثانية ولم يكن الستار مرخيا•كيف أمكن أن يحدث ذلك ؟ الأفضل أن تستدير ، أن تختبىء من النور ، النوم في النور يسبب الكوابيس • « أمي ، كيف تشعرين الآن؟ » ورطوبة قارصة على جبينها • لكنني لا أحب أن يغسل وجهي بالماء البارد !

هابسي ؟ جورج ؟ ليديا ؟ جيمي ؟ لا ، كورنيليا ، وكانت ملامحها منتفخة ومملوءة بالبرك الصغيرة • « سيأتون ياحبيبتي ، سيكونون جميعاً هنا في الحال • » اذهبي واغسلي وجهك ياطفلتي ، ان منظرك مضحك •

بدل أن تطيع ، انحنت كورنيليا ووضعت رأسها على الوسادة • كان يبدو أنها تتكلم ولكن لم يكن هناك أي صوت • « أوه ، هل أنت مربوطة اللسان ؟ عيد ميلاد من هذا ؟ هل ستقيمين حفلة ؟ »

تحـرك فـم كورنيليا بالحـاح وبأشكـال غريبة • « لا تفعلي ذلك ، أنت تضايقينني يا ابنتي • »

« آه ، لا يا أمي ، آه ، لا ••• »

هراء • أمر الأولاد عجيب • انهـم يناقشون كل كلمـة من كلماتك • « لا ماذا ياكورنيليا ؟ »

« هاهو الدكتور هاري • »

« لن أرى ذلك الصبي من جديد • لقد غادر قبل خمس دقائق فقط • »

« كان ذلك في الصباح يا أمي • الوقت الآن هو الليل • هاهي الممرضة • »

« هذا هو الدكتور هاري ياسيدة وذرول • لم أرك أبداً تبدين شابة وسعيدة بهذا الشكل ! » •

« آه ، انني لن أعود شابة من جديـد ـ ولكنني سأكون سعيدة اذا تركوني أستلقي بسلام وأحصل على بعض الراحة • »

ظنت أنها تكلمت بصوت عال ، ولكن لم يجب أحد• ثقل دافىء على جبينها،

اسوارة دافئة على معصمها ، ونسيم يستمر في الهمس ، يحاول أن يخبرها شيئاً ما. تحرك لأوراق الشجر في يد الله الأبدية . نفخ عليها فرقصت وخشخشت . « أماه لا تعيري الأمر التفاتاً ، سنقوم باعطائك حقنة جلدية صغيرة . » « انتبهي الي يا ابنتي ، كيف يصل النمل الى هذا السرير ؟ لقد رأيت نمل سكر بالأمس . » هل استدعيت هابسي أيضاً ؟

ان هابسي هي الشخص الذي تريده حقاً . كان عليها أن تعود فتقطع طريقا طويلة عبر غرف كثيرة جداً لتجد هابسي واقفة تحمل طفلا على ذراعها . بدت لنفسها أنها هي هابسي أيضاً ، والطفل على ذراع هابسي كان هابسي ونفسه ونفسها ، الجميع في نفس الوقت ، ولم تكن من مفاجأة في اللقاء . ثم ذابت هابسي من الداخل وغدت شفافة كالشاش الرمادي وغدا الطفل خيالا من الشاش ، واقتربت هابسي وقالت : « ظننت أنك لن تأت أبداً ، » ونظرت اليها نظرة شديدة التفحص وقالت : « انك لم تتغيري أبدا ! » انحنتا لتقبلا بعضهما حين شرعت كورنيليا تهمس من مسافة بعيدة . « أوه ، هل هناك شيء تودين اخباري به ؟ هل من شيء يمكنني أن أحضره لك ؟ » .

نعم ، لقد غيرت رأيها بعد ستين عاماً وانها تود أن ترى جورج . أريدك أن تعثري على جورج . اعثري عليه وتأكدي من أن تخبريه أنني نسيته . أريده أن يعرف أنني رغم كل شيء حصلت على زوج وعلى أطفال وبيت كأية امرأة أخرى . وكان أيضاً بيتاً حسنا وزوجاً خيراً أحببته وأطفالا جيدين منه . حتى اكثر مما أملت به . أخبريه أنه أعيد الي كل ما أخذه مني وأكثر . آه ، لا ، آه ، ياالهي ، لا . كان هناك شيء آخر بالاضافة الى البيت والرجل والاطفال . آه ، بالتأكيد لم يكونوا كل شيء ؟ ماذا كان ذلك الشيء ؟ شيء لم يعد ... ازدحم تنفسها تحت أضلاعها ونمى فغدا شكله مخيفا مرعبا ذا أطراف حادة ! وأخذ يحفر في رأسها ، وكان العذاب أكثر من أن يصدق : نعم ياجون ، احضر الطبيب الآن ، لا كلام أكثر لقد حان وقتي .

حين يولد هذا يجب أن يكون الأخير . كان يجب أن يولد أولا ، لأنه كان الطفل الذي أرادته حقاً . كل شيء يأتي في حينه . لا يترك شيء ، لا يؤجل شيء.

انها قوية ، في مدة ثلاثة أيام ستكون في صحة مثلما كانت في خير أحوالها • أصل• تحتاج المرأة الى حليب داخلها لتحصل على صحتها التامة •

« أمــي ، هل تسمعينني ؟ »

« كنت أخبرك ــ »

« امي ، الأب كونولي هنا • »

« لقد ذهبت الى التناول المقدس في الاسبوع الماضي • أخبريـه أنني لست آثمة الى هــذا الحد • »

« ان الأب يود التحدث معك فقط • »

بامكانه أن يتكلم قدر ما يرضيه • ان من شيمته أن يطل ويستعلم عن روحها كما لو كانت روحها طفل تبرز أسنانه ، ثم يبقى لتناول فنجان شاي ويلعب بالورق ويثرثر • دائمـاً لديه قصة مضحكة من نوع ما ، عادة عن رجـل ايرلندي يرتكب أخطاء ويعترف بها ، والمغزى يكمــن في شيء سخيف يتفوه به في الاعتراف مظهــراً صراعاتــه بـين التقوى الطبيعية والخطيئة الاولى • كانت الجـدة تشعر بالارتياح بالنسبة لروحها • كورنيليا ، أين لباقتك ؟ أعط الأب كونولي كرسياً • ان لديهــا اتفاقها السريع بضعة قديسين مفضلين أفسحوا لها طريقاً مستقيمة تؤدي الى الله• كل شيء ممهور بالتواقيع ومختوم بشكل مضمون مثل الأربعين «أكرة» الجدد • الى الأبد •• ورثة وأشخاص ذوي مخصصات الى الأبد • منذ اليوم الذي لم يقطع فيه قالب « كاتو » الزفاف ، بل ألقي في القمامة • سقط القمر بأكملـه من العالـم ، وهناك كانت عمياء وتتعرق ولا شيء تحت قدميهـا والجدران تتساقط • أمسكت يده بها تحت ثديها ، انها لم تسقط ، كانت هناك الارض التي لمت حديثاً وبساط أخضر فوقهـا ، تماماً مثل السابق • أخذ يصب اللعنات مثل بغاء بحار وقال « سأقتله من أجلك » • لا تلق يداً عليه ، من أجل خاطري اترك شيئاً لله • « الآن يا ايلــين ، عليك أن تصدقي ما سوف أخبرك به •• »

وهكذا لـم يبق شيء ، لا شيء يستوجب القلق بعد ذلك ، ما عدا أحياناً في الليل يصرخ أحد الأطفال في حلم مرعب ، ويخرج كل منهما مسرعاً يرتجفان ويبحثان عن الكبريت ويناديان : « انتظر لحظة ، هانحن هنا ! » جون ، احضر الطبيب الآن،

لقد حان وقت هابسي • ولكن هاهي هابسي تقف الى جانب السرير مرتدية قبعة بيضاء • «كورنيليا ، قولي لهابسي أن تخلع قبعتها•لا أستطيع رؤيتها بوضوح»•

فتحت عيناها فتحة كاملة وظهرت الغرفة مثل صورة رأتها في مكان ما في الماضي • ألوان قاتمة وظلال ترتفع نحو السقف في زوايا طويلة • ومضى دولاب الزينة الطويل وليس عليه شيء سوى صورة جون ، مكبرة من صورة صغيرة ، وعينا جون فيها شديدتي السواد في حين يجب أن تكونا زرقاوين • انك لم تره أبداً،اذن كيف تعرف شكله ؟ لكن الرجل أصر أن النسخة تتسم بالكمال ، وهي غنية ووسيمة جداً • كصورة ، نعم ، ولكنها ليست زوجي • كان على الطاولة بجانب السرير غطاء كتاني وشمعة وصليب • كان النور أزرق من أغطية مصابيح كورنيليا الحريرية • ليس نوراً بالمعنى الصحيح على الاطلاق ، مجرد بهرجة • ان عليك أن تعيش أربعين عاماً مع مصابيح الكاز لكي تقدر الكهرباء الصافية حق قدرها • شعرت أنها قوية جداً ورأت الدكتور هاري وهالة وردية حوله •

« انك لتبدو كقديس يادكتور هاري ، وأقسم أن هذا أقرب ما ستتوصل اليه من القداسة • »

« انها تقول شيئاً • »

« لقد سمعتك ياكورنيليا • ما هذا الذي يجري هنا ؟ »

« الأب كونولي يقول ــ »

ترنح صوت كورنيليا واصطدم مثل عربة في طريق وعرة • سارت حول الزوايا واقتلت عائدة من جديد ولم تصل أي مكان • وقفت الجدة في العربة بخفة شديدة ومدت يدها نحو الألجمة ، لكن رجلا جلس الى جانبها واستطاعت أن تعرفه من يديه وكان يقود العربة • لم تنظر الى وجهه ، فقد عرفت دون أن تنظر ، ولكنها بدلا من ذلك نظرت الى الطريق حيث مالت الاشجار وانحنت لبعضها البعض وكانت الاف الأطيار تغني قداساً • شعرت برغبة في أن تغني هي أيضاً ، لكنها وضعت يدها في صدر ثوبها وأخرجت مسبحة ، وتمتم الأب كونولي باللاتينية بصوت شديد الوقار ودغدغ قدميها • ياالهي،هلا توقفت عن هذا الهراء ؟ انني امرأة متزوجة• ماذا اذا هرب حقاً وتركني أواجه القسيس وحدي ؟ لقد وجدت آخر أفضل بكثير •

لم أكن لأستبدل زوجي بأي شخص سوى القديس مايكل نفسه ، وبامكانك اخباره ذلك مع شكراً مضافة الى الصفقة ٠

لمع النور على أجفانها المطبقة ، وهزها زئير عميق ٠ كورنيليا ، هل هذا برق ؟ انني أسمع الرعد ٠ ستكون هناك عاصفة ٠ أغلقي النوافذ ٠ نادي للأطفال ليدخلوا ٠٠ « أماه ، ها نحن هنا ، جميعنا ٠ » « أهذه أنت ياهابسي ؟ » « أوه ، كلا ، أنا ليديا ٠ لقد أتينا بأسرع ما يمكن ٠ » طافت وجوههم فوقها ، وسبحت مبتعدة ٠ سقطت المسبحة من يدها وأعادتها ليديا ٠ حاول جيمي المساعدة ، وتعثرت ايديهما ببعضهما ، وأطبقت الجدة اصبعين على ابهام جيمي ٠ حبات المسبحة لا تصلح ، يجب أن يكون شيء حي ٠ تعجبت جداً أن أفكارها تدور وتدور ٠ اذن، ياربي الحبيب ، هذا موتي ولم أكن حتى أفكر به ٠ لقد أتى أولادي ليروني أموت٠ لكن لا أستطيع ، لم يحن الوقت ٠ آه ، كنت دائماً أكره المفاجآت ٠ لقد أردت أن أهدي كورنيليا الطقم الارجواني ــ كورنيليا ، خذي أنت الطقم الارجواني ، ولكن لتلبسه هابسي كلما أرادت ، وأنت يادكتور هاري ، اخرس ٠ لم يرسل أحد في طلبك ٠ آه ياربي الحبيب ، انتظر دقيقة ٠ لقد نويت أن أفعل شيئاً بالنسبة للأربعين « أكرة » ، ليس جيمي بحاجة لها وستحتاجها ليديا فيما بعد ، مع ذلك الزوج التافه ، الذي تزوجته ٠ لقد أردت أن أنهي قماش المذبح وأن أرسل ست زجاجات نبيذ للأخت بورجيا من أجل سوء الهضم الذي تعانيه ٠ أريد أن أرسل ست زجاجات نبيذ للاخت بورجيا يا أب كونولي ، لا تدعني أنسى ٠

قام صوت كورنيليا بدورات صغيرة ومال الى الجانب وتحطم ٠ « آه ، أمي ، آه ، أمي ، آه ، أمي ٠٠٠ »

« لست ذاهبة ياكورنيليا ٠ لقد فوجئت ٠ لا أستطيع الذهاب ٠ »

ستترين هابسي من جديد ٠ ماذا بشأنها ؟ « ظننتك لن تأت أبداً ٠ » قامت الجدة برحلة طويلة خارجاً ، تبحث عن هابسي ٠ ماذا اذا لم أجدها ؟ ماذا عند ذاك ؟ غرق قلبها الى الأسفل والأسفل،لم يكن هناك قاع للموت ، لم تستطع الوصول الى نهايته ٠ تحول الضوء الأزرق المنبعث من غطاء مصباح كورنيليا الى نقطة ضئيلة في مركز دماغها واضطرب وغمز كالعين وترجرج بهدوء وخبا ٠ استلقت الجدة

متكورة داخل نفسها ، مندهشة ومراقبة ، تحدق في نقطة الضوء التي كانت ذاتها ؛ كان جسدها الآن مجرد كتلة أكثر سواداً من الظل في عتمة غير متناهية ، وهذه العتمة تلتف حول الضوء وتبتلعه • يا الهي ، أعط اشارة •

للمرة الثانية لم تكن هناك اشارة • مرة ثانية لا عريس والقسيس في المنزل•(٣) لم تستطع تذكر أي حزن آخر لان هذا الأسى مسحها جميعاً • آه ، كلا، ليس هناك شيء أقسى من هذا ـ لن أغفر ذلك أبداً • مددت نفسها بنفس عميق واطفأت النور •

(٣) قارن هذه الجملة مع قصة المسيح عن العريس (في ماتيو • ٢٥ : ١ ـ ١٣) •



استيقظ السيد « هد » ليجد أن الغرفة مليئة بضوء القمر · جلس في فراشه وحدق بألواح الأرض ـ لون الفضة ـ ثم بغطاء وسادته ، الذي ربما كان من القماش المقصب ، وبعد ثانية ، رأى نصف القمر على بعد خمسة أقدام في مرآة حلاقته ، واقفاً وكأنه ينتظر الاستئذان منه ليدخل · تحرك قدماً والقى نوراً مهيباً على كل شيء · بدا الكرسي المستقيم المستند الى الحائط متصلباً ومتسماً كأنه ينتظر الأوامر ، واتخذ بنطال السيد هد ، المعلق على ظهره ، طابعاً يكاد يكون نبيلا ، كقطعة الملابس التي قذف بها رجل عظيم الى خادمه لتوه ؛ لكن الوجه في القمر كان وجهاً وقوراً · حدق عبر الغرفة ومن النافذة حيث سبح فوق حظيرة الحصان وبدا أنه يتأمل نفسه وعليه تعبير شاب يرى كبره في السن أمامه ·

كان بامكان السيد هد أن يقول له أن الكبر في السن نعمة مختارة وأنه مع مرور السنين فقط يصل المرء الى ذلك الادراك الهادىء للحياة الذي يجعل منه دليلا مناسباً للشباب · تلك على الأقل كانت خبرته الشخصية ·

جلس في فراشه وأمسك بالأعمدة الحديدية عند نهاية سريره ورفع نفسه الى أن استطاع رؤية وجه الساعة المنبهة التي جلست على دلو مقلوب بجانب الكرسي ·

---

* "The Artificial Nigger" by Flannery O'Conner

من مجموعة لمؤلفه نشرت في عام ١٩٥٥ ·

كانت الساعة الثانية صباحاً • لم يكن المنبه في الساعة يعمل لكنه لم يكن يعتمد على أية وسيلة آلية لتوقظه • لم تثلم ستون عاماً استجاباته ؛ كانت ردوده الجسمية ، كردوده الأخلاقية ، تتخذ دليلا من ارادته وشخصيته القوية ، ويمكن رؤية هاتين بوضوح في تقاسيمه • كان له وجه طويل كالأنبوب ذو فك طويل مستدير منفتح وأنف طويل مضغوط • كانت عيناه نشطتين ولكن هادئتين ، وفي ضوء القمر الاعجازي اتخذتا مظهر التماسك والحكمة القديمة كما لو كانتا عيني أحد مرشدي الانسان العظام • كان من الممكن أن يكون فرجيل وقد دعي في منتصف الليل للذهاب الى دانتي ، أو أفضل من ذلك ، رافائيل ، وقد أيقظه تدفق من نور الله ليطير الى جانب توبياس •(١) البقعة الوحيدة المظلمة في الغرفة كانت سرير نلسن القشي ، تحت ظل النافذة •

كان نلسن متكوراً على أحد جانبيه،ركبتاه تحت ذقنه وكعباه تحت مؤخرته• كانت بذلته وقبعته الجديدتان في الصندوقين اللذين أرسلتا فيهما وكان هدان على الأرض عند رأس السرير القشي بحيث يستطيع وضع يديه عليهما حالما يستيقظ • بدا وعاء الحمام الذي كان خارج الظل واتخذ لوناً أبيض كالثلج في ضوء القمر ـ يقف حارساً فوق رأسه كأنه ملاك شخصي صغير • عاد السيد هد الى الاستلقاء ، وهو يشعر بثقة تامة أن بامكانه القيام بالمهمة الاخلاقية الخاصة بالنهار التالي • كان ينوي النهوض قبل نلسن والبدء بتهيئة الفطور قبل استيقاظه • كان الصبي يتضايق دائماً حين ينهض السيد هد قبله • سيتوجب عليهما مغادرة المنزل في الرابعة كي يصلا موقف القطار في الخامسة والنصف • كان المفروض أن يتوقف القطار من أجلهما في الخامسة وخمس وأربعين وعليهما أن يكونا هناك في الوقت المحدد لأن القطار سيقف فقط لاركابهما •

ستكون هذه أول رحلات الصبي الى المدينة رغم أنه ادعى أنها ستكون الثانية لانه ولد هناك • حاول السيد هد ان يبين له أنه حين ولد لم يكن لديه الذكاء كي

---

(١) فرجيل هو الشاعر الروماني المعروف ومؤلف **الانيادة** ، في **الكوميديا الالهية** يقوم بارشاد دانتي في أرجاء الجحيم والمطهر • وكذلك يقوم الملاك رافائيل بتصميم توبياس ومرافقته ودعمه في صراعه وانتصاره على الشيطان اسموديوس وذلك في «سفر توبياس» احد الأسفار الملحقة بالتوراة •

يحدد مكان وجوده لكن هذا لم يحدث أي تأثير على الطفل عـلى الاطلاق واستمر في الاصرار على أن هذه ستكون رحلته الثانية • وهي ستكون رحلة السيد هد الثالثة• قال نلسن : « سأكون قد ذهبت هناك مرتين وأنا لم أتجاوز العاشرة • »

خالفه السيد هد •

« اذا لم تكن قـد ذهبت هناك خـلال خمسة عشر عامـا ، كيف تعرف أنك ستستطيع معرفة طريقك ؟ » سأل نلسن • « كيف تعرف انها لم تتغير قليلا ؟ » •

« هل رأيتني قط » ، سأل السيد هد ، « وقد ضللت طريقي ؟ »

بالتأكيد لم يره نلسن مضلا طريقه لكنه كان طفل لا يشعر بالقناعة الا بعد أن يجيب جوابا وقحا لذا فقد أجاب ، « ليس هنا من مكان يضل المرء فيه • »

« سوف يأتي يوم، » تنبأ السيد هد ، «ستجد أنك لست ذكيا مثلما تعتقد •» كان قد أمضى بضعة شهور يفكر في الرحلة لكن تصوره لهـا كان في معظمه تصورا أخلاقيا • انها ستكون درسا للصبي لن ينساه أبـدا • سيكتشف منهـا أنه لا سبب لديه للاعتزاز لمجرد أنه ولد في مدينة • سيكتشف أن المدينة ليست مكانا عظيما • أراده السيد هد أن يرى كل شيء يمكن رؤيته في مدينة وذلك كي يقنع بالبقاء في بيته بقية حياته • غلبه النوم وهو يفكر كيف أن الصبي سيكتشف أخيرا أنه ليس ذكيا بالقدر الذي يعتقده •

استيقظ في الثالثة والنصف على رائحة لحم خنزير يقلى وقفز مـن سريره • كان سرير القش فارغا وصندوقي الملابس مفتوحين • ارتدى بنطاله وهـرع الى الغرفة الاخرى • كان الصبي يجهز رغيفا من الذرة وقد انتهى من قلي اللحم•كان جالسا في العتمة النصفية الى الطاولة ، يشرب قهوة باردة مـن علبة • كان مرتديا بذلته الجديدة وقبعته الرمادية الجديدة مسحوبـة الى الأسفل فوق عينيه • كانت كبيرة الحجم بالنسبة له لكنهما طلباها أكبر قياسا لانهما توقعا أن يكبر راسه • لم يقل أي شيء لكن شكله بأكمله أوحى بالرضاء لانه نهض قبل السيد هد •

مضى السيد هـد الى الموقد وحمل اللحم في المقلاة الى الطاولة • « لا عجلة هناك » ، قـال • « ستصل هناك بسرعة كافية ولا ضمانة أنك ستسر حين تصل

ايضاً ، » وجلس قبالة الصبي الذي تأرجحت قبعته الى الخلف ببطء كاشفة عن وجه عديم التعبير بشكل شرس ، شكله يشبه كثيراً وجه الرجل المسن ، كانا جداً وحفيداً لكن الشبه بينهما كان كافياً ليبدو كأخوين وأخوين ليسا متباعدين كثيراً في السن ·· لان المستر هد يحمل تعبيراً شاباً في وضح النهار ، بينما النظرة على وجه الصبي كانت عتيقة ، كما لو أنه يعرف منذ الآن كل شيء وسيسعده لو ينساه ·

ذات مرة كان للسيد هد زوجة وابنة وحين ماتت الزوجة ، هربت الابنة ثم عادت بعد فترة مع نلسن · ثم ذات صباح ، دون أن تنهض من سريرها ، ماتت وتركت للسيد هد الرعاية التامة للطفل الذي كان عمره سنة واحدة · وقد ارتكب خطيئة أخبار نلسن أنه ولد في أتلانتا · لو أنه لم يخبره ذلك ، لما كان بامكان نلسن أن يصر أن هذه ستكون رحلته الثانية ·

« قد لا يعجبك أبداً ، » تابع السيد هد · « ستكون مليئة بالزنوج · »

ارتسم على وجه الصبي تعبير وكأنه يستطيع مواجهة زنجي ·

« حسناً ، » قال السيد هد · « انك لم تر أي زنجي قط · »

« لم تنهض مبكراً جداً ، » قال نلسن ·

« انك لم تر أي زنجي قط ، » أعاد السيد هد القول · « لم يوجد اي زنجي في هذه الناحية منذ طردنا ذلك الزنجي قبل اثني عشر عاماً وحدث ذلك قبل أن تولد » نظر الى الصبي وكأنه يتحداه أن يقول أنه رأى أي زنجي ·

« كيف تعرف أنني لم أر زنجياً قط في حين أنني عشت هناك من قبل ؟ » سأل نلسن · « ربما رأيت الكثير من الزنوج · »

« لو أنك رأيت واحداً فانك لم تدرك ماهو ، » قال السيد هد ، متضايقا تماماً · « ان طفلا في شهره السادس لا يميز بين زنجي أو أي شيء آخر · »

« أتصور أنني سأميز الزنجي حين أراه ، » قال الصبي ونهض وعدل وضع قبعته الرمادية الصقيلة ذات التغضن الحاد وخرج الى المرحاض ·

وصلا الى المحطة قبل فترة من موعد وصول القطار ووقفا على بعد قدمين من اول خطين من مجموعة الخطوط الحديدية · حمل السيد هد كيساً من الورق يحوي

بعض البسكويت وعلبة من السردين لمدائهما٠كانت شمس خشنة المظهر برتقالية اللون تتسلق من خلف سلسلة الجبال الشرقية وتجعل السماء حمراء باهتة خلفهما، لكن في مواجهتهما كانت لا تزال رمادية ووقفا قبالة القمر الرمادي الشفاف «الذي يكاد ألا يكون أكثر وضوحاً من بصمة ابهام وليس فيه أي نور قط ٠ لم يكن هناك سوى علبة تحويل قصديرية صغيرة وبرميل وقود أسود كعلامتين تميزان المكان كموقف: كان الخط الحديدي مزدوجاً ولكن الخطوط لم تتحد من جديد قبل أن تختفي وراء المنحنيات على كلي جانبي الفسحة ٠ بدت القطارات المارة وكأنها تبرز من بعق من الأشجار،وتصيبها لمدة ثانية السماء الباردة ، فتختفي مذعورة في الغابة من جديد٠ اضطر السيد هد لاجراء ترتيبات خاصة مع وكيل التذاكر لكي يقف هـذا القطار وقد خشي في سره ألا يقف ، وكان يدري أن نلسن في تلك الحالة سيقول ، « لـم أصدق أن أي قطار سيتوقف من أجلك ٠ » بدت الخطوط تحت قمر الصباح العديم الفائدة بيضاء وهشة٠حدق كل من العجوز والصبي أمامه وكأنهما ينتظران شبحاً٠

ثم فجأة ، قبل أن يستطيع السيد هـد أن يحزم أمره ويقرر العودة ، صدر ثغاء عميق وظهـر القطار ، ينزلق ببطء شديد يكاد يكـون صامتاً حـول منحنى الاشجار على بعد حوالي مئتي دراع على السكة ، وضوء أمامي أصفر واحد يبرق٠ كان السيد هد لا يزال غير متأكد أنه سيقف وشعر أنه سيظهره بمظهر شخص أكثر حمقاً اذا مر ببطء٠لكنه هو ونلسن كانا على استعداد لتجاهل القطار اذا تجاوزهما٠

اندفع المحرك ماراً بهما ، يمـلأ أنفيهما برائحة المعدن الساخن ثـم توقفت العربة الثانية حيث وقفا بالضبط ٠ كان مفتش تذاكر ذو وجه كوجـه قلب قديم يملؤه الغرور من طراز البُلدُغ يقف على الدرجة وكأنه يتوقعهما ، رغم أنه لـم يبد عليه أنه كان مهتماً على الاطلاق ما اذا ركبا أولا ٠ « الى اليمين ، » قال ٠

لم يستغرق ركوبهما سوى جزء من الثانية وبينما دخلا العربة الهادئة كان القطار قد استأنف سرعته ٠ كان معظـم الركاب لا زالـوا نائمين ، وبعضهم تتدلى رؤوسهم من جوانب المقاعد ، والبعض تمدد عـلى مقعدين والبعض الآخـر تمدد وقدماه في الممر ٠ رأى السيد هد مقعدين فارغين ودفع نلسن نحوهما ٠ « ادخـل هناك عند النافذة ، » قال بصوته الطبيعي الذي كان مرتفعاً جـداً في هـذا الوقت

من الصباح . « لن يمانع أحد اذا جلست هناك لأنه لا أحـد يجلس عليه . اجلس عندك هناك . »

« لقد سمعتك ، » تمتـم الصبي . « لا ضرورة لصياحك ، » وجلس وأدار رأسه نحو الزجاج . رأى هناك وجهـاً شاحباً كالأشباح ينظر اليه عابساً من تحت حافة قبعة شاحبة كالاشباح . ورأى جده ـ الذي كان ينظر أيضاً ـ شبحاً مختلفاً، شاحباً ولكنه يبتسم ، من تحت قبعة سوداء .

جلس السيد هد واتخذ وضعاً مريحاً واخرج تذكرته وبدأ بقراءة كل شيء طبع عليها بصوت عال . بدأ الناس يتحركون . استيقظ عدة أشخاص وأخـذوا يحدقون فيه . « انزع قبعتك » ، قال لنلسن ونزع هو قبعته ووضعها على ركبته . كان له كمية ضئيلة من الشعر الأبيض الذي تحول لونه الى لون التبغ مـع مـرور السنوات والذي ارتكـز مستوياً عـلى مؤخرة رأسه . كانت مقدمـة رأسه صلعاء ومتغضنة . نزع نلسن قبعته ووضعها على ركبته وانتظرا مفتش التذاكر أن يأتي ويسأل عن تذكرتيهما .

كان الرجل الذي قبالتهما ممدداً على مقعدين ، وقدماه مسنودتان على النافذة ورأسه بارز في الممشى . كان يرتدي بدلة زرقاء فاتحة وقميص أصفر مفكوك عند الرقبة . كان قد فتح عيناه لتوه واستعد السيد هد لتقديم نفسه حين جاء المفتش من الخلف وقال هادراً ، « تذاكر » .

حين ذهب المفتش ، قام السيد هـد باعطاء نلسن النصف المتبقي من تذكرته قائلا ، « الآن ضع هذا في جيبك ولا تضيعه والا تحتم عليك البقاء في المدينة . »

« قد أفعل ذلك ، » قال نلسن كما لو كان هذا اقتراحاً معقولا .

تجاهله السيد هد . « أول مرة يركب فيها هذا الصبي في القطار ، » قـال مفسراً للرجل المواجه لهما ، الذي كان الآن جالساً عـلى حافة مقعده وكلتا قدميه على الأرض .

وضع نلسن قبعته من جديد بعنف على رأسه والتفت بغضب نحو النافذة .

« انه لم ير أي شيء من قبل ، » تابع السيد هد . « جاهل مثلما كان يوم ولد ، لكنني أنوي له أن يحصل على كفايته بضربة واحدة . »

انحنى الصبي الى الأمـام عبر جسده ونحو الرجل الغريب • « لقد ولدت في المدينة ، » قال • « لقد ولدت هناك • هـذه رحلتي الثانية • » قال هـذا بصوت واثق عال لكن لم يبد على الرجل الجالس في مواجهتها أنه فهم • كانت هناك دوائر قرمزية عميقة تحت عينيه •

مد السيد هد نفسه عبر المشى وربت على ذراعه • « ما يجب فعله بالنسبة لصبي ، » قال بلهجة حكيمة ، « هـو أن تريه كل مـا يمكن رؤيته • لا تخفي عنه أي شيء » •

« نعم ، » قال الرجل ، حدق بصره بقدميه المنتفختين ورفع اليسرى حوالي عشر بوصات عن الارض • بعد دقيقة أنزلها ورفع الاخرى • في كل أنحاء العربة بـدأ الناس ينهضون ويتحركون هنا وهناك ويتثاءبون ويتمطون • كان بالامكان سماع أصوات متفردة هنا وهناك ثم هدير عام • فجأة تغير تعبير السيد هد الرصين • انغلق فمـه تقريباً وبان نور ــ شرس وحـذر في نفس الوقت ــ في عينيه • كان بصره ممتـداً طـوال العربة • دون أن يلتفت ، أمسك بذراع نلسن وجذبـه الى الأمام • « انظر ، » قال •

كان رجل ضخم بلون القهوة قادماً ببطء الى الامـام • كان يرتدي طقمـاً خفيفاً وربطة عنق صفراء حريرية فيها حجر من الياقوت • استراحت احدى يديه على معدته التي برزت بأبهـة تحت معطفه المزرر ، وفي اليد الثانية أمسك مقبض عكاز سوداء كان يرفعها وينزلها بحركة ابتعادية متعمدة مع كـل خطوة يخطوها • كان يتقدم ببطء شديد ، وعيناه العسليتان الكبيرتان تنظران فوق رؤوس الركاب • كان له شارب أبيض صغير وشعر مجعـد أبيض • كانت وراءه شابتان ، كلتاهمـا بلون القهوة ، احداهما ترتدي ثوباً أصفر والاخـرى ثوباً أخضر • وكان تقدمهما بسرعة تقدمه وكانتا تتحدثان بصوتين حلقيين منخفضين بينما تتبعانه •

أخذت قبضة السيد هد تزدادا ضغطاً باصرار على ذراع نلسن • أثناء مرور المجموعة بهما ، انعكس في عين السيد هد النور الصادر عن خاتم من الياقوت الأزرق في اليد البنية التي أمسكت العكاز • تابعت المجموعة سيرها بقية المشى ثم خرجت من العربة • ارتخت قبضة السيد هد على ذراع نلسن • « ماذا كان ذلك ؟ » سأل •

« رجل ، » قال الصبي ونظر اليه نظرة ساخطة كما لو كان قد سئم الاهانات الموجهة الى ذكائه ·

« أي نوع من الرجال ؟ » ثابر السيد هد بعناد ، بصوت عديم الانفعال ·

«رجل بدين،» قال نلسن ، وقد بدأ يشعر بأنه من الأفضل له أن يكون حذراً·

« أنت لا تدري أي نوع ؟ » قال السيد هد بلهجة قاطعة ·

« رجل مسن ، » قال الصبي وقد انتابه هاجس مفاجيء ينذر أنه لن يستمتع بنهاره ·

« كان ذلك زنجياً ، » قال السيد هد واستند الى الخلف ·

قفز الصبي واقفاً على المقعد ينظر الى الخلف باتجاه نهاية العربة لكن الزنجي كان قد مضى ·

« لقد ظننت أنك ستميز زنجياً باعتبارك رأيت الكثير منهم حين كنت في المدينة في زيارتك الاولى ، » تابع السيد هد · « ذلك كان أول زنجي له ، » قال للرجل عبر الممر ·

انزلق الصبي جالساً على مقعده · « لقد قلت أنهم سود ، » قال بصوت غاضب · « لم تقل قط أنهم سمر · كيف تتوقع مني أن أعرف أي شيء حين لا تخبرني بالواقع ؟ » ·

« انك مجرد جاهل وهذا كل ما في الأمر ، » قال السيد هد ونهض وانتقل الى المقعد الفارغ بجانب الرجل عبر الممر ·

التفت نلسن الى الخلف من جديد وتطلع الى حيث اختفى الزنجي · شعر أن الزنجي قد مشى قصداً عبر الممر من أجل أن يظهره بمظهر الأحمق وكرهه كراهية جديدة فجة شرسة ؛ وأيضاً ، فهم الان لِمَ لمْ يكن جده يحبهم · نظر نحو النافذة فبدا الوجه المنعكس هناك يوحي أنه قد لا يكون كفؤاً لمتطلبات ذلك اليوم · تساءل ما اذا سيكون حتى قادراً على التعرف على المدينة حين يصل اليها ·

بعد أن حكى عدة حكايا ، لاحظ السيد هد أن الرجل الذي يخاطبه كان نائماً فنهض واقترح على نلسن أن يتمشيا في أنحاء القطار ويتفرجا على أجزائه ·

أراد الصبي بشكل خاص أن يرى المرحاض لـذا ذهبا أولا الى دورة مياه الرجـال وتفحصا التمديدات • أشار السيد هد الى جهاز تبريد الماء وكأنه هو الذي اخترعه وأطلع نلسن عـلى الحوض الصغير ذي الصنبور الواحـد حيث ينظف المسافرون أسنانهم • مرا عبر عدة عربات ووصلا الى عربة الطعام •

كانت هذه أكثر عربات القطار أناقة • كانت مطلية بلون أصفر غني مثل صفار البيض وعلى أرضهـا سجادة بلون النبيذ • كانت هناك نوافذ عريضة فوق الطاولات ومقاطع كبيرة من المنظر المتدحرج تنعكس مصغرة عـلى جوانب أباريق القهوة والكؤوس • كان ثلاثة زنوج شديدي السواد يرتدون طقوما ومآزر بيضاء يهرعون جيئة وذهاباً في الممشى ، يأرجحون صوان وينحنون ويميلون على المسافرين الذين يتناولون فطورهم • هرع أحدهم الى السيد هد ونلسن وقال ، وهو يرفـع اصبعين ، «مكان لاثنان !» لكن هد أجاب بصوت عال : «لقد أكلنا قبلأن نغادر!»•

كان الخادم يضع نظارة بنية كبيرة زادت من حجم بياض عينيه • « قفا جانباً اذن من فضلكما ، » قال وقـام بحركة متعالية بذراعه كما لـو كـان يكش بعض الذباب جانباً •

لم يتحرك أي من السيد هد ونسلن ولا جزءاً من البوصة • « انظر ، » قال السيد هد •

كانت زاوية عربة الطعام القريبة منهمـا والتي تحتوي طاولتين قد فصلت عن بقية العربة بستار بلون الزعفران - كانت احدى الطاولتين مجهزة ولكنفارغة أما الاخرى فقد جلس اليها الزنجي الضخم في مواجهتهما وظهره الى الستار • كان يتحدث بصوت خافت الى المرأتين بينما أخذ يدهن قطعة من الكعك بالزبدة • كان ذا وجه ثقيل حزين وتدلت رقبته على ياقته البيضاء من كلي الجانبين • «يعزلونهم» قال السيد هد مفسراً • ثم قال ، « فلنذهب الى المطبخ ، » ومشيا عبر عربةالطعام ولكن الخادم الزنجي هرع خلفهما •

« لا يسمح للركاب بدخول المطبخ ! » قال بصوت متعال-« لا يسمح للركاب بدخول المطبخ ! »

توقف السيد هـد حيث كان والتفت ٠ « وهناك سبب وجيه لذلك ، » صاح في صدر الزنجي ، « لأن الصراصير ستدفع الركاب الى الهرب ! »

ضحك جميع الركاب وخرج السيد هد ونلسن وهما يتبسمان ٠ كان السيد هد معروفاً بين معارفه بسرعة بديهته وشعر نلسن باعتزاز مفاجيء حاد به ٠ ادرك ان العجوز سيكون سنده الوحيد في المكان الغريب الذي كانا يقتربان منه ٠ سيكون وحيداً تماماً في العالم اذا ما ضاع عن جده ٠ هز احساس جارف مرعب كيانه وشعر بالرغبة في امساك معطف السيد هد والتعلق به كطفل ٠

بينما كانا في طريق عودتهما الى مقعديهما تمكنا ان يلحظا عبر النوافذ التي مرت بهما ان بيوتاً صغيرة واكواخاً بدأت تنتشر في الريف وأن طريقاً عامة كانت تسير بمحاذاة القطار٠كانت السيارات تجري عليها ، صغيرة وسريعة جداً ٠ شعر نلسن أن الهواء يحتوي على نفس أقـل مما كان يحتويه قبل ثلاثـين دقيقة ٠ كان الرجل المواجه لهما عبر الممشى قد غادر مكانه ولم يكن من شخص قريب ليتحدث السيد هد اليه لذا فانه تطلع من النافذة ، عبر خياله ، وأخـذ يقرأ بصوت عال أسماء الأبنية التي يمران بهـا ٠ « شركة ديكسي(٢) الكيميائية ! » قال معلناً ٠ « طحـين الصبية الجنوبية ! أبواب ديكسي ! منتجات الحسناء الجنوبية القطنية ! زبدة فستق باتي ! قطر الأم كين الجنوبي ! »

« اصمت ! » قال نلسن بصوت كالفحيح ٠

في كل أنحاء العربة بدأ الناس ينهضون وينزلون أمتعتهم مـن الرفوف فوق رؤوسهم ٠ أخذت النساء يرتدين معاطفهن وقبعاتهن ٠ أطل المفتش برأسه وزمجر، « أول موقف ، ايموري ، » (٣) واندفع نلسن من وضعه الجالس ، وهو يرتجف ٠ دفعه السيد هد من كتفه نحو الأسفل ٠

« ابق في مقعدك ، » قال بنبرة وقورة ٠ « أول موقف هو عند حافة المدينة٠

(٢) ديكسي Dixie هي كلمة تطلق على مجموعة الولايات المتحدة الامريكية الجنوبية ٠

(٣) في الأصل ، لا تصدر الكلمات منفصلة وواضحة من فم المفتش بل متداخلة بشكل قد ينقل الى العربية هكذا ٠ « اوموقفمري » ٠

ثاني موقف هو محطة القطار الرئيسية • ، لقد توصل الى هـذه المعرفة في رحلته الاولى حين نزل في الموقف الأول واضطر لان يدفع خمسة عشر سنتاً لأحد الأشخاص ليأخذه الى قلب المدينة • عاد نلسن الى الجلوس ، وهو شديد الشحوب - لأول مرة في حياته ، أدرك أنه لا غنى له عن جده •

توقف القطار وأنزل بضعة ركـاب ومضى في طريقه وكأنه لـم يتوقف عـن الحركة قط • في الخارج ، خلف صفوف من المنازل المتداعية البنية ، قام صف من الأبنية الزرقاء ، وخلفها سماء وردية رمادية شاحبة تضمحل الى لا شيء • دخـل القطار فناء المحطة • رأى نلسن وهو يتطلع الى الأسفل خطوطاً وخطوطاً من السكك الفضية تتكاثر وتتقاطع • ثم قبل أن يستطيع البدء في عدهـا ، حدق فيه الوجـه الذي كان في النافذة ، رماديا ولكن واضحاً ، محدقاً هـو الى الطرف الآخر • كان القطار قد دخل المحطة • قفز هو والسيد هد كلاهما ناهضين وركضا نحو الباب • لم يلحظ ايهما أنهما تركا الكيس الورقي وفيه غداءهما فوق المقعد •

مشيا بتصلب عبر المحطة الصغيرة وخرجـا من باب ثقيل الى هديـر حركـة المرور • كانت حشود من الناس تهرع الى أعمالها • لـم يدر نلسن أين ينظر • استند السيد هد على جانب البناء ونظر أمامه •

اخيرا قال نلسن ، « حسناً ، كيف ترى كل ما تمكن رؤيته ؟ »

لم يجب السيد هد • ثم كما لو أن منظر المارة أوحـى له بالجواب ، قال ، « بأن تمشي ، » وبدأ يسير في الشارع • تبعه نلسن ، وهو يركـز وضع قبعته• كانت مناظر وأصوات كثيرة تتدفق عليه بحيث أنه لـم يكد يدرك في البداية ماذا كان يرى • عند الزاوية الثانية ، التفت السيد هـد ونظر خلفه الى المحطة التي غادراها ، وكانت بناء ذا لون رمادي مصفر تعلوه قبة من الاسمنت • فكر أنه اذا استطاع ابقاء القبة دائمـاً في مرمى بصره ، فانه سيتمكن من العودة في الظهـيرة لركوب القطار من جديد •

بينما تابعا سيرهما ، بدأ نلسن يميز التفاصيل ويلاحظ واجهات المخازن ، مملوءة بكل نوع من المعدات ـــ خرداوات ، بضائع جافة ، غذاء للدجاج ، كحول•

مرا بمحل لفت السيد هد انتباهه اليه بشكل خاص حيث يدخل المرء ويجلس على كرسي وقدماه على سنادتين ويقوم زنجي بمسح حذائه · سارا ببطء وتوقفا عند المداخل كي يستطيع رؤية ما يجري في كل مكان لكنهما لم يدخلا أيا من هذه الأمكنة · كان السيد هد مصمماً ألا يدخل أي محل في المدينة لانه في زيارته الاولى لها ، ضاع في محل كبير ولم يجد طريقه الى الخارج الا بعد أن أهين من قبل كثير من الاشخاص ·

وصلا في منتصف القسم التالي من الشارع الى محل أمامه آلة وزن ووقف كل منهما بدوره عليها وأدخل قطعة سنت واستلم بطاقة · قالت بطاقة السيد هد ، « أنت تزن ١٢٠ رطلا · أنت مستقيم وشجاع وجميع أصدقائك يشعرون نحوك بالاعجاب · » وضع البطاقة في جيبه وقد أدهشه أن تسجل الآلة شخصيته بشكل صحيح ووزنه بشكل خاطىء ، اذ كان قد وزن نفسه على ميزان حنطة قبل وقت ليس طويلا وكان وزنه ١١٠ · وقالت بطاقة نلسن ، « أنت تزن ٩٨ رطلا · ينتظرك مستقبل عظيم ولكن احذر النساء السود · » لم يكن نلسن يعرف أية نساء وكان وزنه ٦٨ رطلا فقط لكن السيد هد أشار الى أن الآلة قد تكون طبعت الرقم بالمقلوب ، وهي تعني ٦ ، بدلا من ٩ ·

تابعا السير وعند نهاية خمسة أقسام من الشارع اختفت قبة المحطة من مرمى نظرهما والتفت السيد هد الى اليسار · كان بامكان نلسن الوقوف أمام واجهة كل محل لمدة ساعة لولا أن واجهة أكثر اثارة للاهتمام كانت تليها · فجأة قال ، « لقد ولدت هنا ! » استدار السيد هد ونظر اليه برعب · كان هناك اشراق متمرق في وجهه · « هذا هو المكان الذي أتيت منه ! » قال ·

شعر السيد هد بالرعب · وجد أن اللحظة قد حانت للقيام بعمل حاسم · « دعني أريك شيئاً لم تره بعد ، » قال وأخذه الى زاوية كان فيها فوهة للمجاري · « اجلس القرفصاء ، » قال ، « وأدخل رأسك الى الداخل ، » وامسك بمؤخرة معطف الصبي أثناء جلوسه ووضع رأسه في المجاري · أخرج رأسه بسرعة ، وهو يسمع رغرغة في الأعماق تحت الرصيف · ثم قام السيد هد بشرح شبكة المجاري ، كيف أنها تجري تحت المدينة باكملها ، وكيف أنها تحتوي النفاية وأنها مليئة بالجرذان وكيف يمكن

للمرء أن يتسلل اليها وتبتلعه أنفاق حالكة الظلمة غير متناهية • في أية لحظة يمكن لأي انسان في المدينة أن تبتلعه المجاري ولا يسمع منه ثانية أبداً • قام بوصفها بشكل جيد لدرجة أن نلسن ارتجف لبضعة ثوان • ربط بين ممرات المجاري ومدخل الجحيم وأدرك للمرة الأولى كيف يقوم العالم في أجزائه السفلية • ابتعد عن طرف الرصيف•

ثم قال ، « نعم ، ولكن يمكنك البقاء بعيداً عن الحفر ، » واتخذ وجهه ذلـك المظهر العنيد الذي كان يملأ جده بالسخط والضيق • « هذا هو المكان الـذي أتيت منه ! » قال •

شعر السيد هد بالخيبة لكنه تمتم فقط ، « لسوف تشبع ، » وتابعا سيرهما • عند نهاية قسمين آخرين التفت الى اليسار وهو يشعر أنه يدور حول القبة ؛ وكان على صواب إذ خلال نصف ساعة مرا بمحطة القطار من جديد • في البداية لم يلحظ نلسن أنهما كانا يشاهدان نفس المحلات مرتين ولكن حين مرا بالمحل الذي تضع فيه قدميك على سنادتين بينما يمسح الزنجي حذاءك ، أدرك أنهما يسيران في دائرة •

« لقد كنا هنا من قبل ! » صاح • « لا أعتقد أنك تعرف أين أنت ! »

« لقد غاب الاتجاه عن ذهني لدقيقة فقط ، » قال السيد هد وانعطف الى شارع مختلف • كان لا يزال ينوي ألا يترك القبة تبتعد عنه كثيراً وبعد اجتيـاز قسمـين في الاتجاه الجديد التفت الى اليسار • كان هذا الشارع يحتوي على منازل خشبية مؤلفة من طابقين وثلاثة طوابق • وكان بامكان أي شخص يسير على الرصيف أن يرى داخل الغرف ورأى السيد هـد ، وهو ينظر في احدى النوافذ ، امرأة مستلقية على سرير حديدي ، تنظر الى الخارج ، وتغطيها ملاءة • هزه تعبيرها المدرك • قدم صبي شرس المنظر على دراجة منطلقـاً من لامكـان واضطر أن يقفز الى الجـانب كي يتجنب أن تصدمه الدراجة • « لايعني شيئاً بالنسبة لهم أن يقوموا بصدمك واسقـاطـك • » قال • « من الأفضل أن تبقى قريباً مني • »

تابعا السير بعض الوقت في شوارع مثل هذا قبل أن يتذكر أن ينعطف من جديد• كانت جميع البيوت التي أخذوا يمرون بها الان غير مطلية وبدا الخشب فيها عفناً ؛ وكان الشارع الفاصل بينها أضيق • رأى نلسن رجلاً ملوناً • ثم آخر ثم آخر •

« ان الزنوج يسكنون هذه البيوت ، » قال معلقاً •

« اذن هلم ولنذهب الى مكان آخر ، » قال السيد هد · « لم نـأت لنشـاهـد الزنوج ، » وانعطفا الى شارع آخر لكنهما استمرا في رؤية الزنوج في كل مكان· بدأت بشرة نلسن تخزه وأخذا يخطوان بسرعة أكبر لكي يغادرا الحي بأسرع مـا يمكن · كان هناك رجال ملونون في قمصانهم التحتانية يقفون عند الأبواب ونساء ملـونـات يجلسن على كراسي هزازه على الشرفات المتداعية · كان الأطفال الملونون يلعبون في الشوارع وكانوا يتوقفون عما يقومون به لينظروا إليهما · قبل وقت طويل بـدآ يمران بصفوف من المحلات فيها زبائن ملونون لكنهما لم يتوقفا عنـد مـداخل هذه المحلات · عيون سوداء في وجوه سوداء كانت تراقبهما من كل جانب · « نعم ، » قال السيد هد ، « هذا هو المكان الذي ولدت فيه ـ هنا تماماً بين كل هؤلاء الزنوج · »

قطب نلسن · « أعتقد أنك جعلتنا نضل طريقنا ، » قال ·

استدار السيد هد حولـه يحدق يبحث عن القبـة · لم يستطع رؤيتهـا في أي مكان ، « كلا انني لم أجعلنا نضيع ، » قال · « أنت فقط قد تعبت من السير· »

« انني لم أتعب ، لكنني جائع ، » قال نلسن · « أعطني قطعة بسكويت · » اكتشفا حينئذ أنهما أضاعا غداءهما ·

« كنت أنت الـذي تحمل الكيس ، » قـال نلسن · « وكنت أنـا أبقيتـه في حوزتي · »

« اذا أردت أن توجه هذه الرحلة ، سأتابع السير بمفردي وأتركك هنا في هـذا المكان ، » قال السيد هـد وسره أن يرى الصبي يشحب · لكنـه أدرك أنهمـا قـد ضلا الطريق وأنهما يبتعدان في كل دقيقة عن المحطة · كان هو نفسه جائعاً وبـدأ يشعر بالعطش ومنذ أن وجدا نفسيهما في الحي الزنجي أخذا كلاهما يتعرقان · كان نلسن يرتدي حذاءه ولم يكن معتاداً عليه ·كانت الأرصفة الاسمنتية شديدة الصلابة· كانا كلاهما يرغبان في العثور على مكان يجلسان فيه لكن كان هذا مستحيلاً وتابعـا المسير ، والصبي يهمهم بين أنفاسـه · « أولاً أضعت الكيس ثم ضللت الطريـق ، » والسيد هد يزمجر بين الفينة والأخرى ، « كل من يود الانتمـاء الى هـذا الفردوس الزنجي يستطيع ذلك ! »

كانت الشمس حينذاك قد ارتفعت في السماء . وصلت الى أنوفهم روائح وجبات غداء تطبخ . وقف الزنوج جميعاً عند أبواب بيوتهم يراقبونهما وهما يمران . « لم لا تسأل أحد هؤلاء الزنوج عن الطريق ؟ » قال نلسن . « أنت الذي جعلتنا نضل . »

« هذا هو المكان الذي ولدت فيه ، » قال السيد هد . « بامكانك أن تسأل أحدهم بنفسك ان أردت . »

كان نلسن خائفاً من الرجال الملونين ولم يرد أن يضحك الأطفال الملونون عليه . رأى أمامه امرأة ملونة ضخمة تنحني عند مدخل يقع على الرصيف . كان شعرها يقف منتصباً من رأسها مسافة أربع بوصات في كل الاتجاهات وكانت تستند على قدمين بنيين حافيين تحولا الى لون قرنفلي عند الأطراف . كانت ترتدي ثوباً أزهر اللون يظهر شكلها بوضوح تام . حين وصلا على مقربة منها ، رفعت بكسل احدى يديها الى رأسها واختفت أصابعها داخل شعرها .

توقف نلسن . شعر بعيني المرأة الحالكتين تسحبان أنفاسه . « كيف يمكننا العودة الى المدينة ؟ » قال بصوت بدا مختلفاً عن صوته .

بعد دقيقة قالت ، « انت في المدينة الآن ، » بنبرة غنية منخفضة جعلت نلسن يشعر وكأن رذاذاً رطباً قد صب عليه .

« كيف يمكننا العودة الى القطار ؟ » قال بنفس الصوت الذي يشبه صوت قصبة .

« تستطيع أن تستقل حافلة ، » قالت .

فهم أنها كانت تسخر منه ولكنه شعر بعجز كامل حتى عن التقطيب . وقف يجرع كل تفاصيلها . انتقلت عيناه من ركبتيها الضخمتين الى جبينها ثم اتبعتا ممراً مثلثاً من العرق الملتمع على رقبتها هبوطاً عبر صدرها الهائل وفوق ذراعها العاري ثم عادتا الى حيث احتجبت أصابعها في شعرها . فجأة أرادها أن تمد يديها الى الأسفل وترفعه وتشده اليها ثم أراد أن يشعر بأنفاسها على وجهه . أراد أن يتمعق ويتمعق في النظر في عينيها بينما تشده هي اليها بقوة أكبر وأكبر . لم يكن قد خامره مثل هذا الشعور من قبل قط . شعر كأنه يدور في نفق حالك السواد .

« يمكنك المضي الى تقاطع الشارع التالي هناك وتستقل حافلة تأخذك الى محطة القطار ، ياقطعة السكر ، » قالت •

كان نلسن سيتداعى على قدميها لولا أن السيد هد شده بعيداً بخشونة • « انت تتصرف كما لو لم يكن لديك أي تفكير ! » زمجر العجوز •

أسرعا السير في الشارع ولم يلتفت نلسن ببصره نحو المرأة • شد قبعته بحدة الى الأمام فوق وجهه الذي أخذ يلتهب من الشعور بالعار • عاد اليه الشبح الساخط الذي رآه في نافذة القطار وكل المشاعر المنذرة بالشؤم التي انتابته في الطريق وتذكر أن بطاقته من آلة الوزن قد قالت أن يحذر من النساء الداكنات وأن بطاقة جده قالت أنه مستقيم وشجاع • أمسك بيد الرجل العجوز ، دليلاً على الاعتماد عليه الذي قلما أظهره •

اتجها في سيرهما في الشارع نحو سكة الحافلة حيث كان ترولي طويل أصفر قادماً يجمجع • لم يكن السيد هد قد ركب حافلة من قبل لذا ترك هذه تمر بهما • كان نلسن صامتاً • بين الحين والآخر ارتجف فمه قليلاً ــ لكن جده ــ الذي انشغل تفكيره بمشكلاته الخاصة ــ لم يعره التفاتاً • وقفا عند الزاوية ولم ينظر أي منهما الى الزنوج الذين كانوا يمرون ، ذاهبين الى أشغالهم تماماً كما لو كانوا من البيض ، باستثناء أن الكثيرين منهم توقفوا وحدقوا النظر بالسيد هد ونلسن • خطر للسيد هد أنه بما أن الحافلة تسير على سكة ، فان بامكانهما ببساطة أن يتبعوا السكة • دفع نلسن دفعة خفيفة وشرح له أنهما سيتبعان السكة حتى محطة القطار مشياً ، ومضيا في طريقهما •

سرعان ما بدأوا يرون أناساً بيض من جديد مما اشعرهما بارتياح كبير ، وجلس نلسن على الرصيف مستنداً الى جدار احد المباني • « علي أن أرتاح قليلا ، » قال • « لقد اضعت الكيس والطريق • يمكنك اذن أن تنتظرني لأريح نفسي • »

« هاهي السكة أمامنا ، » قال السيد هد • « كل ما علينا فعله هو أن نبقيها تحت بصرنا وكان بامكانك أن تتذكر الكيس بقدر ما كان ذلك بامكاني • ان هذه هي بلدتك الأم القديمة • هذه هي رحلتك الثانية • ينبغي أن تعرف كيف تتصرف »

وجلس القرفصاء وتابع الحديث بنفس الاسلوب ، لكن الصبي الذي أخذ يريح قدميه الملتهبتين بخلع حذائه لم يجب ٠

« وتقف هناك تبتسم كالشمبانزي بينما تدلك امرأة زنجية على الطريق ٠ يا الهي العظيم ! » قال السيد هد ٠

« لم اقل قط سوى أنني ولدت هنا ، » قال الصبي بصوت مضطرب ٠ « لم اقل أن المدينة ستعجبني أو لن تعجبني قط ٠ لم أقل قط أنني أود المجيء ٠ قلت فقط أنني ولدت هنا ولم يكن لي أية حيلة في ذلك قط ٠ أريد الذهاب الى البيت٠ انني في الأصل لم أرغب في القدوم ٠ كانت الفكرة فكرتك العظيمة ٠ كيف تعرف انك لا تسير مع السكة في الاتجاه الخاطيء ؟ »

كانت هذه المسألة الأخيرة قد خطرت للسيد هد أيضاً ٠ « كل هؤلاء الناس بيض ، » قال ٠

« انا لم نمر هنا من قبل ، » قال نلسن ٠ كانت هذه المنطقة حياً من الأبنية الآجرية يمكن أن تكون مسكونة ويمكن ألا تكون ٠ كانت بضع سيارات فارغة مصفوفة الى جانب الرصيف وكان هناك أحد المارة بين الحين والحين ٠ صعدت حرارة الرصيف مخترقة طقم نلسن الرقيق ٠ بدأ جفناه يثقلان ، وبعد بضع دقائق مال رأسه الى الأمام٠ارتعش كتفاه مرة أو مرتين ثم سقط على جنبه واستلقى متمدداً في نوبة منهكة من السبات ٠

راقبه السيد هد بصمت ٠ كان هو نفسه متعباً جداً لكن لم يكن بامكانهما ان يناما كليهما في نفس الوقت ولم يكن بامكانه هو على أية حال أن ينام لأنه لا يدري أين هو ٠ سيستيقظ نلسن خلال عدة دقائق وقد أنعشه النوم وجعله شديد الزهو ، وسيأخذ في الشكوى من أنه أضاع الكيس والطريق ٠ ستلقى مشقة كبرى مؤسفة لو لم أكن هنا ، فكر السيد هد ؛ ثم خطرت له فكرة أخرى ٠ نظر الى الجسم الممدد عدة دقائق ؛ وسرعان ما نهض ٠ برر ما كان سيفعله على أساس أنه من الضروري أحيانا تعليم الطفل درساً لا ينساه،خاصة حين يقوم الطفل دائماً بتثبيت موقفه برقاحة جديدة ما ٠ مشى دون احداث صوت الى الزاوية على بعد عشرين

قدماً وجلس على صندوق قمامة مغطى في الزقاق بحيث يمكنه النظر الى الخارج ومراقبة نلسن حين يستيقظ وحده •

كان نوم الصبي في نوبات ، وكان نصف واع لأصوات غير واضحة وأشكال سوداء تتحرك خارجة من جزء مظلم ما في داخله الى النور • كان التعبير على وجهه يتبدل أثناء نومه وقد سحب ركبتيه الى الأعلى ووضعهما تحت ذقنه • ألقت الشمس نوراً باهتاً جافاً في الشارع الضيق ؛ واتخذ كل شيء مظهره الحقيقي تماماً • بعد فترة قرر السيد هد وهو قابع كالقرد على غطاء صندوق القمامة أنه اذا لم يستيقظ نلسن سريعاً فسيحدث ضجة عالية بقرع الصندوق بقدمه • نظر الى ساعته واكتشف أن الساعة كانت الثانية • سيغادر قطارهما في السادسة واحتمال عدم اللحاق به كان بالنسبة له أسوأ من أن يفكر به • رفس الصندوق بقدمه ودوت جلبة جوفاء في الزقاق •

قفز نلسن واقفاً على قدميه وأطلق صيحة • نظر الى حيث كان من المفروض أن يكون جده وحدق النظر • بدا أنه التف حول نفسه عدة مرات ثم مطلقاً قدميه ومميلا رأسه الى الوراء اندفع في الشارع وكأنه مهر مجنون جامح • قفز السيد هد من على الصندوق وأخذ يجري لكن الطفل كان تقريباً قد اختفى عن بصره • رأى شريطاً من اللون الرمادي يختفي بشكل مائل عند تقاطع الشوارع التالي • ركض بأسرع ما أمكنه ، ونظر في كلي الاتجاهين عند كل تقاطع ، ولكنه لم يبصره من جديد • ثم حينما كان يمر بالتقاطع الثالث وقد توتر تماماً ، رأى على مسافة غير بعيدة مشهداً جعله يتوقف توقفاً كاملا • جثم خلف علبة قمامة ليراقب وليستجمع نفسه •

كان نلسن جالساً وساقاه ممدودتان كلتاهما والى جانبه استلقت امرأة هرمة تصرخ • كانت بعض المشتريات مبعثرة على الرصيف وقد تجمع حشد من النسوة ليرقبوا العدالة تأخذ مجراها وسمع السيد هد بوضوح المرأة المسنة على الرصيف تصيح ، « لقد كسرت كاحلي وسيدفع أبوك تعويضاً عن ذلك ! كل قرش ! شرطة ! شرطة ! » قامت عدة نساء بشد كتف نلسن لكن الصبي بدا دائخاً بحيث لم يتمكن من النهوض •

شيء ما أجبر السيد هد أن يترك مكانه خلف علبة القمامة وأن يمضي الى الأمام ، ولكن بخطوات زاحفة . لم يكن أي شرطي قد دنا منه في حياته قط .. أحدث النسوة يدرن حول نلسن كما لو أنهن قد يندفعن كلهن فجأة ويمزقنه اربا، وتابعت المرأة الهرمة صراخها بأن كاحلها قد كسر وتداءها للشرطة . اقترب السيد هد ببطء شديد وكأنه يخطو خطوة الى الوراء بعد كل خطوة الى الأمام ، ولكن حين صار على بعد عشرة أقدام ، رآه نلسن وقفز ناهضا . أمسكه الطفل حول ردفيه وتمسك به وهو يلهث .

التفتت النسوة الى السيد هد ، ونهضت المرأة المصابة جالسة وصاحت ، « أنت أيها السيد ! ستدفع كل قرش من فاتورة طبيبي التي سببها ابنك . انه حدث جانح ! أين الشرطة ؟ فليأخذ شخص ما اسم هذا الرجل وعنوانه ! »

كان السيد هد يحاول فصل أصابع نلسن عن مؤخرة ساقيه . كان رأس الرجل العجوز قد انخفض في ياقته مثل السلحفاة،والخوف والحذر يغشيان عينيه.

« لقد كسر ابنك كاحلي ! » صاحت المرأة المسنة . « يا شرطة ! »

احس السيد هد باقتراب شرطي من الخلف . حدق بثبات الى الأمام حيث تكتلت النسوة في سخطهن مثل جدار صلب يمنعه من الهرب . « ليس هذا ابني ، » قال . « انني لم أره من قبل قط . »

شعر بأصابع نلسن تسقط من على جسمه .

تراجعت النسوة الى الوراء ، يحدقن فيه برعب ، وكأنهن شعرن بالاشمئزاز من رجل يستطيع انكار صورته وشبهه بحيث لم يستطعن تحمل لمسه . مشى السيد هد الى الأمام ، عبر فراغ أفسحنه بصمت ، وترك نلسن خلفه . لم ير أي شيء أمامه سوى نفق أجوف كان ذات مرة الشارع .

ظل الصبي واقفاً في مكانه ، وعنقه مائل الى الأمام ويداه متدليتان الى الجانبين . كانت قبعته مضغوطة على رأسه بحيث لم تعد هناك تغضنات بها . نهضت المرأة المصابة وهزت قبضتها في وجهه ونظرت اليه الأخريات نظرات مشفقة، لكن لم يبد عليه أنه لاحظ أيا منهن . لم يكن هناك أي شرطي على مقربة .

بعد دقيقة بدأ يتحرك بشكل آلي ، دون أن يقوم بجهـد للحاق بجده ولكن فقط تبعه على بعد حوالي عشرين خطوة • تابعا سيرهما بهذا الشكل طوال خمسة أقسام من الشارع • كان كتفا السيد هد متدليان وعنقه يميل الى الأمام بزاوية جعلت رؤيته من الخلف غير ممكنة • كان خائفاً أن يلفت رأسه • أخيراً ألقى من فوق كتفه نظرة سريعة آملة • على بعد عشرين قدماً خلفه ، رأى عينين صغيرتـين تحترقان ظهره مثل أسنان مذراة •

لم يكن الصبي ذا طبيعة سمحة ولكن كانت هذه أول مرة على الاطلاق يكون فيها لديه شيء ليغفره • لم يلحق السيد هد به الخزي من قبل قط • بعد قسمين آخرين ، التفت ونادى من فوق كتفه بصوت مرح مرحاً يائساً ، « لنذهب ونشتر كوكاكولا في أحد الأمكنة ! » •

استدار نلسن بوقار لم يبده من قبل قط ووقف وظهره الى جده •

بدأ السيد هد يشعر عمق انكاره • أصبح وجهـه بينما تابعا المسير كلـه تجاويف ونتوءات عارية • لم ير أي شيء مما كانا يمران بـه ولكنه أدرك أنهما قد ضيعا سكة الحافلة • لم يكن هناك مـن قبة في أي مكان في مرمى النظر وكان العصر يتقدم • كـان يعرف أنـه اذا أدركهما الظلام وهما في المدينة ، فانهمـا سيتعرضان للضرب والسرقة • كانت سرعة عدالة الله هي فقط ما توقعه لنفسه ، لكنه لم يستطع تحمل أن تقع آثامه على نلسن وأنه حتى في هذه اللحظة كان يقود الصبي الى هلاكه •

تابعا السير قسماً بعد قسم عبر جـزء لا ينتهي من البيوت الآجرية الصغيرة الى أن كاد السيد هد أن يقع متعثراً بصنبور مـاء برز مرتفعاً حوالي ستة بوصات من حافة قطعة أرض معشبة • لم يكن قد شرب الماء منذ الصباح الباكر لكنه شعر أنه لا يستحقه الآن • ثـم فكر أن نلسن سيكون ظمآن وأنهما سيشربان كلاهمـا وسيجمع ذلك بينهما • قرفص ووضع فمه على طرف الصنبور وفتحه مدخلا تياراً بارداً من الماء الى حلقه • ثم هتف بصوت يائس عال ، « هلم واشرب شيئاً من الماء ! » •

هذه المرة حدق الطفل فيه حوالي ستين ثانية • نهض السيد وتابع السير كما

او انه شرب سماً • اجتاز نلسن ــ رغم أنه لم يشرب أي ماء منذ شرب من كأس من الورق في القطار ــ الصنبور ، مزدرياً أن يشرب من حيث شرب جده • حين لاحظ السيد هد ذلك ، فقد كل الأمل • بدا وجهه في نور العصر الذابل تلفاً ومخذولاً• تمكن من أن يشعر بكراهية الصبي الثابتة ، وهو يسير بخطى تجاري خطواته وراءه وعرف أنها (اذا حدثت معجزة انقذتهما من أن يُقتلا في المدينة) ستستمر بهــذا الشكل تماماً بقية حياته • أدرك أنه كان الآن يدخــل في مكان غريب مظلم حيث ليس من شيء مثلما كان من قبل ، هرم طويل دون احترام ونهاية ستلقى الترحيب لمجرد أنها ستكون النهاية •

أما بالنسبة لنلسن ، فقد تجمد عقله حول خيانة جده كما لــو كان يحاول المحافظة عليها كما هي لتقديمها يوم الحساب الأخير • سار دون أن ينظر الى أي من الجانبين ، ولكن فمه ارتجف بين الفينة والمينة ، وكان ذلك حين يشعر ، من مكان قصي ما في داخله ، بشكل أسود غامض يحاول الصعود الى الأعــلى كما لــو أنــه سيذيب رؤياه المتجمدة بقبضة حارة واحدة •

انحدرت الشمس خلف صف من المنازل ودون أن يلاحظا تقريباً دخلا ضاحية انيقة حيث قامت قصور بعيدة عن الطريق ذات جنائن فيها حمامات عصافير • كان كل شيء مهجوراً هنا • لمسافــة طويلة لــم يمــرا ولا حتى بكلب • كانت البيوت البيضاء الكبيرة تشبه على البعد كتلا جليدية متحدة جزئيا • لم تكن هناك أرصفة، مجرد ممرات لدخول السيارات وكانت هذه تدور وتدور في دوائر عشية لا تنتهي• لم يقم نلسن بأية حركة تهدف للاقتراب من السيد هد • شعر العجوز أنه اذا رأى فوهة مجاري فانه سيسقط في داخلهــا ويترك نفسه تنجرف بعيداً ؛ وقــد تصور الصبي يقف على مقربة ، يراقب باهتمام طفيف فقط ، بينما يختفي هو •

دفعه نباح عال الى الانتباه ورفع بصره ليرى رجلا سميناً يقترب مــع كلبي بلدغ • لــوح كلي ذراعيه كشخص غرقت سفينته ودفعته الأمــواج الى جزيرة مهجورة • « انني ضائع ! » صاح • « انني ضائع ولا أستطيع أن أجــد الطريق وأنا وهــذا الصبي مضطران للحاق بالقطار وليس بامكاني أن أجــد المحطة • آه ياربي انني ضائع • آه ساعدني ياربّاه انني ضائــع ! »

سأله الرجل ـ الذي كان أصلعا ومرتديا بنطال غولف ـ أي قطـار يحـاول اللحاق به وبدأ السيد هد يخرج التذكرتين ، وهو يرتعد بعنف شديد الى حد أنه كاد ألا يقدر على الامساك بهما . كان نلسن قـد اقترب ووقف يراقب عـلى بعد خمسة عشر قدماً .

« حسناً ، » قال الرجل السمين ، وهو يعيد اليه التذكرتين ، « ليس لديك الوقت الكافي للرجوع الى المدينة واللحاق بهذا القطار ولكن بامكانك اللحاق به في موقف الضاحية . وهذا على مسافة ثلاثة أقسام من الشارع من هنا ،» وبدأ يشرح الطريق الى هناك .

حدق السيد هد كما لو كان يعود ببطء من بين الأموات وحين انتهى الرجـل ومضى والكلبان يتقفزان بين قدميه ، التفت الى نلسن وقال وهو مقطوع النفس ، « سوف نصل الى البيت ! » .

كان الصبي يقف على بعد حوالي عشرة أقدام ، والدم غائر من وجهه تحت القبعة الرمادية . كانت عيناه باردتان برود الانتصار . لم يكن هناك من نور أو احساس أو اهتمام فيهما . فقط وقف هناك ، شكل صغير ، ينتظر . لم يكن البيت يعني له شيئا .

التفت السيد هد ببطء . شعر أنه يعرف الآن كيف يكون الزمن دون فصل والحرارة دون نور وكيف يكون الانسان دون خلاص . لم يهمه ألا يلحق بالقطار أبدا ولولا ذلك الشيء الذي استرعى انتباهه فجأة ، مثل صرخة صادرة عن الغسق المتجمع ، كان من المحتمل أن ينسى أن هناك محطة يجب الذهاب اليها .

لم يكن قد مشى أكثر من خمسمئة ذراع في الطريق حين رأى ، في متناوله ، شكلا من الجص لزنجي جالس مائلا على سياج أصفر منخفض من الآجر كان يحيط بفناء عريض . كان الزنجي في حجـم نلسن تقريبا وكان يميل الى الأمام بزاوية غير ثابتة لأن المعجون الذي ألصقه بالحائط كان قد تشقق . كانت احدى عينيه بيضاء كليا وقد أمسك قطعة من البطيخ البني اللون .

وقف السيد هد ينظر اليه بصمت حتى توقف نلسن على بعد قريب. ثم بينما وقفا كلاهما هناك ، قال السيد هد ، « زنجي اصطناعي ! » .

كان من المستحيل معرفة ما اذا قصد أن يكون الزنجي الاصطناعي صغيراً أو مسناً ؛ بدا أنه أكثر بؤساً من أن يكون أياً من الشيئين . كان المفروض فيه أن يبدو سعيداً لأن فمه امتد عند زاويتيه لكن العين المكسورة والزاوية التي مال فيها أعطيتاه مظهراً جامحاً من البؤس بدلا من ذلك .

« زنجي اصطناعي ! » ردد نلسن في نفس لهجة السيد هد تماما .

وقف كلاهما هناك وعنقاهما ممتدتان الى الأمام بنفس الزاوية تقريباً وأكتافهما محدودبة بنفس الشكل تماما تقريبا وأيديهما ترتعش بنفس الطريقة في جيوبهما . بدا السيد هد مثل طفل عتيق ونلسن مثل عجوز مصغر . وقفا يحدقان بالزنجي الاصطناعي وكأن لغزاً عظيما طرح عليهما،نصب لانتصار شخص آخر جمع بينهما في هزيمتهما المشتركة . شعرا به كلاهما يذيب خلافاتهما مثل عمل من أعمال الرحمة . لم يكن السيد هد قد عرف من قبل قط كيف يشعر المرء لدى تلقي الرحمة لأنه كان قبل الآن أخيّر من أن يستحق أية رحمة ، لكنه شعر أنه يعرف الآن.نظر الى نلسن وأدرك أن عليه أن يقول شيئا ما للطفل ليظهر أنه لا زال حكيماً وفي نظرة الصبي المستجيبة شاهد حاجة عطشى لمثل هذا التأكيد . بدت عينا نلسن تتوسلان اليه أن يشرح بشكل قاطع ووافٍ سر الوجود .

فتح السيد هد شفتيه ليدلي بتصريح بليغ وسمع نفسه يقول ، « ليس لديهم هنا ما يكفي من الزنوج الحقيقيين ، لذا اضطروا للحصول على واحد اصطناعي ».

بعد ثانية ، هز الصبي رأسه وهو يرتعش رعشة غريبة عند فمه ، وقال، « فلنذهب الى البيت قبل أن نضل الطريق من جديد . »

دخل قطارهما موقف الضاحية تماماً حين وصلا المحطة وركباه معاً ، وقبل عشر دقائق من موعد وصوله محطتهما ، توجها الى الباب ووقفا على استعداد لأن يقفزا منه اذا لم يتوقف،لكنه توقف ، تماما حين بزغ القمر ــ الذي استعاد روعته التامة ــ من سحابة وغمر الفسحة بالنور . حين نزلا،كان عشب القصمين يرتعش برفق في ظلال من الفضة وملء الآجر تحت أقدامهما بنور أسود ناضر . كانت قمم

الأشجار ـ التي شكلت سياجاً حول المحطة مثل الجدران التي تحرس حديقة ـ أكثر ظلاماً من السماء التي تدلت منها سحب بيضاء عملاقة مضاءة مثل المصابيح ٠

وقف السيد هد ساكناً تماما وشعر بفعل الرحمة يلمسه من جديد لكنه هذه المرة عرف أنه ليست هناك أية كلمات في العالم تستطيع تسميته ٠ أدرك أن الفعل نبت من الألم ، الذي لا يحرم منه أي إنسان والذي يُعطى للأطفال بوسائل غريبة ، أدرك أن الفعل هو كل ما يمكن للمرء أن يحمله في موته ليعطيه لخالقه وفجأة شعر بالخجل يحرقه لأنه كان لديه مقدار منه شديد الضآلة ليأخذه معه ٠ وقف مرعباً ، يحاكم نفسه بالشمول الذي يحاكم الله مخلوقاته به بينما غطى فعل الرحمة كبرياءه وكأنه لهيب ثم التهمها ٠ لم يكن قد نظر الى نفسه كخاطىء كبير من قبل قط لكنه رأى الآن أن فسوقه الحقيقي كان قد أخفي عنه كيلا يسبب له اليأس ٠ أدرك أنه قد غفرت له آثامه منذ بداية الزمن ، حين حمل في قلبه هو خطيئة آدم ، وحتى الحاضر ، حين أنكر نلسن المسكين ٠ عرف أنه ليس من اثم أكثر بشاعة من أن يدعيه لنفسه ، وبما أن حب الله يتناسب مع غفرانه ، فانه شعر بأنه مستعد في تلك اللحظة لدخول الجنة٠

أخذ نلسن ـ الذي هيأ تعبير وجهه تحت ظل حافة قبعته ـ يراقبه بمزيج من الانهاك والريبة ، ولكن بينما انطلق القطار مبتعداً عنهما واختفى كثعبان خائف في الغابة ، حتى وجهه هو أضاء وتمتم ، « انني سعيد أنني ذهبت مرة ، ولكنني لن أعود ثانية أبداً ! »



يقول البعض ان اجمل مافي العمر المتقدم هو الذكريات التي تستطيع بواسطتها أن تعيش حياتك الماضية مرة أخرى. لا شك أنها تجربة حلوة ملأى بالمرارة.

★ ★ ★

سيكون الموكب مهيباً ، لا شك في ذلك ؛ مثل مواكب الدفن في هذه المنطقة ، فقد كان « باتسي شاماس » المسن علامة مميزة في هذه المنطقة . انهم يقولون الآن انه قارب أعوامه المئة ، لكن ذلك ليس صحيحاً . فلن يبلغ رجل مئة عام في هذا المنحدر الساحلي القاسي ، بالرغم من أن المرأة قد تبلغ مثل هذا العمر . امرأة مثلي ربما تبلغ مئة سنة ؛ شديدة الحذر ، شديدة الاقتصاد ؛ تمتص النسغ ببطء وحذر . امرأة مثلي قد تمتلك ذلك التشبث العنيد الذي يشهد مئة شتاء هنا . ومثل الشجرة في منحدر جبلي ، قوية ، نحيلة ، جاوزت التسعين عاماً .

الواقع أن المناخ أو الموقع لم يكونا بالاسباب التي أغرت « أبي » لاختيار هذه الزاوية في الجنوب الشرقي من نيوزيلندة . لابد انه قدم في الصيف ، فاختار بقعة وضع فيها زوجته وأطفاله ، والأثاث والفضة التي جلبها معه من سكوتلاندة ؛ وبنى فوقها كوخاً ريثما يجد الوقت الكافي لبناء بيتهم الكبير ، والذي هدمه فيما بعد حفيده ، قبل عشرين عاماً . كان ذلك البناء قريباً من المرتفعات الساحلية الصخرية،

إذ بامكانك ، بخطوة واحدة من الباب الأمامي ، أن تصبح في المرتفعات الساحلية ، حيث الماء المتدفق ، والمرتفعات • بعد العواصف القوية كانت النوافذ تمتلىء بالملح•

ولدتُ في ذلك البيت الكبير • لستُ أصغر أفراد عائلتي ، لكنني الوحيدة الباقية على قيد الحياة الآن•والآن رحل باتسي شاناس ، الذي كان يقاربني في العمر•

ان الظروف الطبيعية في هذه البقعة لا تشجع الحياة الطويلة ، فالشباب يسرع الخطا نحو الهرم والشيخوخة ، أو يرحلون من هذا المكان • أما كبار السن ، فغالباً ما يعانون من الروماتزم ، ويرحلون رحلتهم الابدية في سن السبعين ، أو قبل ذلك • وفي ليالي الشتاء الطويلة ، المظلمة الباردة ، تهب الرياح من المنطقة الجليدية الجنوبية • أما الصيف ، فانه قصير ، وسرعان ما يرحل • يعتدل المناخ في شهري كانون الثاني ، وشباط ، ويشهد الغروب حينها عرساً من الالوان المختلفة المتداخلة، الا أن الشتاء يزحف مسرعاً ليمشش طويلا ، ولمدة تسعة شهور من السنة تبقى الرياح والعواصف تقارع المنطقة بلا توقف •

قد يتبادر اليك أن الانسان هنا يحقق أعمالا بطولية عظيمة ، وقد تفتش عن لمسة من الشعر في أعمالنا أو في كلامنا لكنك لن تعثر على أثر من كل ذلك • اننا نكرس أيامنا لأعمال صغيرة تافهة ؛ أما لغتنا فلن تجد فيها كلمة بالغة الخشونة أو الرقة • فبعد الانصات الى لغتنا ، وملاحظة حياتنا ، سوف تصنفنا في قائمة « عديمي العواطف » • وربما كنا من صنف تلك الحيوانات التي تلتصق بالصخور وتتشبث بالبحر ، أو شجيرات هزيلة نبتت على قمة المنحدر الصخري ، تكر كل دقيقة خضراء ، أبدا لا تتفتح لدفق الحياة والحب ، ولا تحتفظ بزهرة لتقتلها الرياح المحملة دوماً بالملح •

ومع ذلك ، ففي تلك الايام الماضية ، بدا لي أن ظهور شيء رائع أمر ممكن ومتوقع • فقبل سبعين عاماً ، كنت أتوقع شيئاً رائعاً يولد من عمل ومثابرة اخوتي، وباتس شاناس • كان هناك ذلك الشعور بالقرب من العظمة • كنت أصحو من النوم ، في انبهار غريب ، أتسلل الى النافذة وأرقب السماء في منتصف الليل •• وأنا أرتجف من الانفعال • وعلى المنحدرات الصخرية ، كنت أقف في الغروب ،

وطيور البحر تطير من حولي ، والشمس تغرق رويداً رويداً في البحر • كنت أشعر برهبة غريبة ، وقدرة على لمس دورة الارض في الفضـاء • قبل سنين عاماً كنت قادرة على الشعور بالنشوة •• والرهبة •

الفجر يذيل سماءنا الشتائية ، وتصطدم الامواج بالمنحدرات الصخرية ، وبذكريات الجليد في القطب الجنوبي • لكن ذلك الشعور بالعظمة والروعة ، تلاشى وذوى ، فلقد انسحبنا من تلك الألفة الحميمة مع البحر •

كانت بيوت الآباء والأجداد تحتشد خلف أحزمة واقية من الاشجار التي كانت تميل ميلاناً شديداً نحو الجهة المعاكسة للبحر ، فقد كانت الرياح الآتية من البحر قد أحالت لون الاشجار داكناً ، وسلبتها حتى أغصانها • وتسير حياتنا متواضعة ، رتيبة ؛ نتحدث عن النبات ، والجو المناسب للرعي ، أو غير الملائم للعلف • وفي ليالي السبت كنا نلعب « البوكر »* في المدرسة •

كنا نفضل السير في طريق جانبي بعيداً عن الطريق الرئيسي ، وبعيداً عن طريق السياح • حتى السفن كانت تبتعد كثيراً عن ساحلنا المواجه لهبوب الرياح • عندما كنت في أول شبابي كانت السفن التي تتاجر بين مناطق « بلاف » و «دونيدن»، ذات أشكال مميزة وأسماء خاصة • أما الان فلا نشاهد غير بواخر لا تعرف بأي اسم• ولم يبق أحد يستطيع أن يتذكر معي جمال السفن الشراعية • ولم يعد هناك أحد يذكر صباي وشبابي وحتى « باتس شاناسي » الذي سيدفن اليوم ، قد نسي منذ زمن بعيد صباي وصباه • الرجل ينسى ، والمرأة تكبر ، وتهرم ، وتسجن نفسها في المرتفعات لكنها تمد جذورها الى أسفل ، والى الداخل ، بينما تمر السنوات لكنها تبقي على ذكرياتها • انها تتذكر جمال عنقها الذي أوت الى دفئه اللآلىء ، وقوامها الذي كانت تكسوه بالحرير ، وشعرها المسترسل ، الذي كانت تضع فيه الازهار وتتذكر نظرات الرجال ، ونظرة رجل واحد على الأخص •

كانت والدتي تنعت « باتسي شناسي » بصوت مختلفة ، ومسحة من العصب تلون عظام وجنتيها الاسكوتلندية العالية • كانت توصف بأنها امرأة جميلة ، لكنني

---

* البوكر ــ نوع من لعب الورق •

كنت أشعر بالفخر والرضا لاحساسي بأنني كنت أشبه أبي ، بعينيه الزرقاوين المتلئتين بالحنان ، وابتسامته المرحة • أمـا أمي فقد كانت تطبق شفتيها بحزم وكأن خيبة مريرة ترقد بين الشفتين ، أو ربما عدم رضا عن الحياة • ولا شك بأن وجود ابنة لها في عمر الزواج ، وامتلاكها مجموعة من الأكواب وأدوات الشاي التي تفخر بها ، وعدم وجود جار يستحق أن توجه اليه الدعوة لتناول الشاي ، كان أمراً مثيراً للأعصاب بالنسبة لها •

كان باتسي شاناسي يتناول طعامه في المطبخ عندما كان يعمل لحساب أبي • كانت عائلته قد وصلت الى المنطقة متأخرة ، لذا فقد كان من نصيبها قطعة أرض شديدة الجدب ، قليلة التعرض للشمس لتكون مرعى جيداً • ومع ذلك ، فقد اقتلعوا الحشائش وانهمكوا في الزراعة واقامة سياج للأرض ، وحول الارض زرعوا حزاماً كثيفاً من الاشجار كما يفعل الآخرون في المنطقة • كان باتسي الابن الوحيد لأبويه • كان أبوه ايرلندياً ، متوتراً ، سريع التهيج ، ولم يكونا على وفاق معاً • أما أمه ، فقد كانت جميلة ، ذات شعر فاحم •• وكانت تنتظر بشوق اليوم الذي ترى فيه باتسي متزوجاً • ولكن ، بعد خصام بينه وبين أبيـه ، ترك باتسي بيته ، وجاء ليعمل لدى أبي •

« صباحاً سعيداً ، سيدة ماك بيرسون » ، بهذه الكلمات كان يحيي والدتي ، بصوته الدافيء المرح ، بينما كانت ابتسامته مكرسة لي • ولم تكن والدتي ترتاح اليـه • أما أبي ، فقد كان معجباً به ،وكان يقول عنه انـه شاب ممتاز يستحق التقدم • وأعتقد أن والدتي قد اتخذت قرارها حينذاك ان هذا « التقدم » لن يكون من خلال زواجه بابنة ماك بيرسون الجميلة الفتية • لذا ، فقد غطت نوافذ غرفتي بستائر حريرية ، وأرسلت الى ادنبرة طالبة بعض الكتب ، لتثقيفي ، ووعدتني بقضاء عطلة طويلة في دانيدن حيث كانت تعيش شقيقتي جانيت مع زوجها •

كان باتسي ينتسب الى طبقة لم أكن لأتعرف عليها عندما كنا في سكوتلاندة • لكنني لـم أكن أهتم بالطبقات والتقاليد • فالبحر يقرع الصخور بشدة وعنف ، والطيور تحلق على ارتفاع قليل من البحر مثل غيمات من النجوم الداكنة ، تتهادى في انسجام بديع حـول جميع الخلجان • والنوارس ترتفع فـوق الرياح وتطير

عالياً .. عالياً ، حتى لتبدو مثل بقع بيضاء في السماء الصافية . كل شيء واضح المعالم ، حتمي ، لا يمكن تفسيره . القوي وحده بامكانه أن يكون متسلطاً .. المزايا الجسدية تحتل الاهمية الاولى . ولقد أحببت باتسي لانه كان متفوقاً على جميع الشبان بالقوة ، والجمال الجسماني . كان يتنافس أخي الاكبر آندي عندما يتجمعون لاستعراض القوة . كذلك كان بطل اللعب بالسيف ، والعاب أخرى . عيناه كانتا تحاكيان البحر في زرقتهما الهادئة .

سوف يدفن هذا المساء . ولقد اجتمع أفراد من عائلة ماك بيرسون ، الذين سيشرفون على موكب الدفن ، اجتمعوا الآن يناقشون سيرة حياته ، وظروف موته ، انهم يتحدثون عنه ، ها هنا كان يجلس ، مسنداً ظهره الى كرسيه وهو يمسك غليونه بيده مواجهاً المدفأة التي خبت فيها النار . وقال أحد أحفاد أبي : « كل هذه السنوات قضاها وحيداً . كان من المتوقع أن يتزوج » .

سبعون سنة ، عمر طويل مضى ، وأمسية قرب البحر . لا زلت أذكر أزهار « الكوروميكو » التي كانت تحيط بنا من كل جانب ؛ وأصوات الطيور الحادة التي تملأ القلب بشعور مزدوج من النور والألم .

ـ « هل تتزوجينني يا جولي ماك بيرسون ؟ هل تتزوجينني الآن ، هل افتراض أنني سأطلب يدك للزواج ؟ »

ـ « ألا تطلب يدي للزواج ؟ »

ـ كلا لن أفعل ، لانني لو فعلت ذلك ، فان والدك سيسلط علي كلابه لتنهشني ، ومن سيُصلح لي سراويلي بعد ذلك ؟؟ »

وضحك..ومن ضحكته ارتفع بيننا جدار سميك ، حجب عنه كل حبي ولهفتي .

ثم أردف ضاحكاً : « وما عساني أفعل بالزوجة ؟ علي أن أصحبها الى البيت واعلمها أن تكون لطيفة مع والدي العجوز ؟ كلا . سوف أرحل من هنا واجمع ثروة قبل أن أتزوج . سأذهب الى « بلاف » وأستقل باخرة من هناك .

ـ « وعندما تعود ثانية ؟ »

ـ « عندما أعود ثانية ، سوف أجد الآنسة جولي ماك بيرسون ، قد تزوجت من رجل ثري من دانيدن ، وهي تستقل مركبتها من بيتها الفخم الذي لا يقل روعة عن بيت والدها • »

وقلت بلهفة :

ـ « كلا لن أتزوج ، اذا رحلت فسأبقى في انتظارك حتى تعود ثانية • »

كانت عيناه تحاكيان البحر في زرقته وغموضه ، وقال

ـ « لا تنتظري يا جولي ماك بيرسون • لا تنتظري » •

★ ★ ★

ربما لن يتذكر أحد من المشاركين في موكب الدفن أن باتسي شاناسي كان قد رحل وهو شاب ممتلىء بالحياة والشباب ، وطاف العالم مدة عشرين عاماً • لقد أصبح كل ذلك ماضياً بعيداً •• بعيداً • من يتذكر غيري أنا ؟؟

كان يرسل بعض الرسائل الى أمه من حين لآخر ، لكنه لم يكتب لي أبداً • كان حيناً في الصين ، هكذا أخبرتنا أمه التي تخشى أن يتزوج بفتاة من تلك البلاد البعيدة ، ويعود معها • ثم كان في ايرلندا ، كما كانت تردد الاخبار • وطيلةالليل كنت أكاد أسمع موجات البحر تردد أغاني ايرلندية عن فتيات بعيون زرقاء ـ رمادية وشعر داكن •• مثله •

لكنه ، عندما عاد ، عاد وحيداً • وكان أبناء وبنات اخوتي قد تزوجوا وأنجبوا ، أما أنا فقد قمت بدور العانس المشرفة على ادارة شؤون البيت ورعاية أبي العجوز • لكنني عندما سمعت بعودة باتسي ، تناولت المرآة ، والقيت نظرة طويلة • ووجدت وجهي لا زال يحمل معالم الشباب ولا يحدث من سنة واحدة تمدت الأربعين •

والتقينا . ومددت يدي للرجل الذي لم أتوقف لحظة واحدة عن حبه . كان يبدو وسيماً ، عريض الكتفين ، في منتصف عقده الرابع .

وقال بأدب : « صباحاً سعيداً لك يا سيدة ماك بيرسون . حقاً انك لم تكبري يوماً واحداً بعد كل هذه السنوات ! »

عندما يتلاشى آخر خيط من الامل ، فانه لا يسبب أي ألم . أيقظتني تحيته تلك من أحلامي ، ووضعتني أمام الحقيقة ، وهي انني امرأة في منتصف العمر .

وسمعت صوتاً جافاً ، خالياً من الدفء ، صوتَ هرِم يقول له .
- « لقد ماتت والدتي قبل خمسة عشر عاماً . أنا جولي باباتسي . »
« جولي !! » كانت عيناه هادئتين صافيتين مثل سماء الصباح .
« آه .. جولي حقاً ؟؟ انك تشبهين والدتك تماماً ، رحمها الله . »

وفي مزرعته ، مع والديه المسنين ، استقر باتسي . رجل هادىء لا يتحدث عن أسفاره ورحلاته ، بعد أن ذهبت حيويته ، وتلاشى قلقه .
بعد حين ، توفي والداه ، ودفنهما ، وعاش وحيداً . وأصبح الجميع ينظرون اليه على انه أحد أولئك الايرلنديين الذين لا يتزوجون أبداً . الرجل العازب بطبيعته . كان يعيش على زراعة الحقل ، ويجلب السكر والشاي والملح والطحين ، وفي بعض الاحيان ، التبغ والشراب .
منذ أن قضى باتسي على البقية الباقية من شبابي ، تنقلت بنا الفصول فترة نصف قرن ؛ دون اختلاف يذكر . في نيسان تخرج الاغنام للرعي ، وفي مايس تزرع البطاطا جز الصوف يكون في شهر كانون الاول ، ويسمن الاوز لاعداده لعيد الميلاد.

ما أكثر ما يمضي الوقت بطيئاً متثاقلا ؟! ومع ذلك ، فان استعادة تلك السنوات يشبه النظر من خلال ماء صاف في حوض صغير . وهناك في قعر الحوض الشفاف ، يرقد قوس قزح صباي . بقايا أحجار مرجانية ، حفنة من الاصداف ، شريط من نباتات البحر .. وصورة شاب سوف يُدفن هذا المساء .

* * *

« عمة جولي ، اذا كنتِ راغبة في الذهاب الى موكب دفن باتسي شاناس العجوز ، فهناك مكان لك في عربتي · فهل ترغبين في الذهاب ؟ »

كان هذا أحد أحفاد أخي ، أو ربما من أبناء أحفاده · انه يعيد السؤال بصوت مرتفع جداً · الجميع يرفعون أصواتهم عندما يتحدثون اليّ · لكنني لست صمّاء · فقط أسرح مع أفكاري بعيداً ·· في بعض الاحيان ·

ـ « قلت انني أستطيع أن أصحبك الى موكب الدفن ، عمة جولي ، فهل ترغبين في الذهاب ؟ »

ـ « كلا يا أندروز ، شكراً لك » ·

ـ « أنا أنكس ، عمة جولي · »

انه شاب لطيف ، وهو يبتسم لي في صبر ·

ـ « أنكس ، طبعاً طبعاً · شكراً لك يا أنكس ، لكنني لن أذهب الى موكب الدفن ·

ستيبان تشيباتشوف

حكاية شاعرية

ترجمة : د. احمد سليمان الاحمد

شاعر روسي كبير ، شب ادبه مع الثورة الاشتراكية ، واجتاز تجارب حياتية وفنية غنية جعلت منه واحدا من هؤلاء الذين يبقى ذكرهم ، ويتناشد الناس أشعارهم ، وتحبهم الأجيال الطالعة وإن بدا انهم ابتعدوا عنها ، أو أن هناك حاجزا من زمن أو عقلية أو مفهوم يحول بينها وبينهم.

ولعل أفضل ما نعرّف به هذا الشاعر الكبير ، الذي يكاد يكون مع ذلك مجهولاً في اوساطنا ، هو أن ندعه يتحدث الينا ، والى الشعراء الشباب ، والى الشباب عموماً .

ما كان الشعراء قلة ، وخاصة شعراء الرعيل الاول ، اولئك الذين جمعوا من تجاربهم خبرة هامة ، واتخذ كل منهم لنفسه مفهوما شعريا خاصا . وكان من الطبيعي ان يقوم هؤلاء ـ ولا يخلو الامر من فائدة ـ بتخطيط طرقهم من جديد ، واكتساب الدروس، خلال تجاربهم ، من نجاحهم حينا ، ومن فشلهم حينا آخر .

وليست حياتي ما اعزم الآن على حكايته ، فان ثمة علاقة مباشرة بين شعري وبين طفولتي الكابية وسني خدمتي في الجيش الاحمر ، ومقابلاتي النادرة ، لبعض شخصيات العصر ، ودراساتي السياسية ، ومع ذلك استطيع القول ان الاهلية او التجربة الادبية او الحياة نفسها، ليست جميعها علة الشاعرية الوحيدة او المنفذ اليها .

ولدت في قرية تشيبا تشي من اعمال «الاورال» عام الف وتسعمئة وتسعة وتسعين . وكان ابواي فلاحين فقيرين . ومات والدي قبل ان اتجاوز الرابعة من عمري . وفي نفسي عن وفاته صورة غامضة ارى فيها جدتي وهي تهيب بي أن اقبض حفنة من التراب القيها فوق القبر الحديث . هذا كل شيء .

مات ابي إذن وانا في الرابعة ، وبقيت امي هكذا ، مفردة ، ومن حواليها جيش من الاطفال عليها ان تعنى بتربيتهم ، وكنت اصغر إخوتي، يكبرني بكرهم عشرة اعوام كاملة . واصبحت حياتنا صعبة قاسية ، واضطرت أخواتي ان

يعملن خادمات . وكنت أذهب مع جدتي تستجدي في الشوارع ، وندق ابواب المنازل في طلب الاحسان .

ولم يطل عهد دراستي . شتاء واحد وبعض شتاء في إحدى المدارس الكنائسية . ثم لم البث ان تركت مقاعد الدرس ، في التاسعة من عمري ، لالتحق باحدى القرى النائية كعامل زراعي . واذكر ان صاحب العمل ، اردفني على دابته وانطلق بي ، وكان الربيع قد حل ، واليوم يوم أحد ، ورفاقي من الصبية يحتشدون أمام الابواب يلعبون ، ولقد شق علي فراق امي ورفاقي فطفقت أبكي .

وبقيت في تلك القرية سنتين ، اعمل فيهما بالمياومة ، حتى اذا بلغت الحادية عشرة صرت انطلق مع صبية القرية الفقراء البائسين الى مقالع « الاميانت » لنعمل هناك . ووجدت نفسي في العام الاول ما بين صبية مثلي من « التتار » ، لم اكن افهم من احاديثهم شيئا ، فانا الروسي الوحيد بينهم ، وانا ايضا أصغرهم سنا . وكان العمل قاسيا مرهقا ، فنحن طوال النهار ننقل تراب « الاميانت » الى المسارد ، وكثيرا ما أجد نفسي اجهش بالبكاء لا من شظف حياتنا ، فقد تعودت على الشقاء . ولكن لانني لم اكن أجد حولي من يفهم حديثي وافهم حديثه . حتى إذا سالت دموعي جاءني صبي من رفاقي يكفكفها مواسيا لي ، بكلمات لا افقه منها شيئا إنما احس في نبراته روح العطف والصداقة .

وانقضى العام واستقبلنا عاما جديدا . فنقلنا الى مقطع للاشجار كنت أكدح فيه مع رفاقي طوال النهار . نعطي مهمات الكبار ، ونتقاضى اجور الصغار . ولم يحل هذا دون طردنا فيما بعد كالآخرين عندما اشتركنا في إضراب قام به عمال المقطع واستمر عدة ايام .

ودخلت ، مطلع عام الف وتسعمئة واربعة عشر ، في خدمة الاخوة « لاجوكين » الذين كانوا يديرون مخزنا في كاييشلوف وبدات عملي لديهم اول الامر كمراسل ثم اصبحت كاتبا . وكان مخزنهم يحوي مختلف انواع البضاعة المتناقضة ، فمن الادوات الحديديــة والنحاسية ، الى الخردوات المتنوعة والكتب . وكانت رؤيتي المستمرة للكتب تبعث في نفسي شهوة القراءة . وادركت ، إذ ذاك ، جهلي بشكل مؤلم سافر ، فكنت اذهب لاتلقى بعض الدروس عند احد الطلاب لقاء طابع بريدي متواضع .

اما الشعر فقد بدا حبي له اثناء وجودي في المدرسة الكنائسية . قرأت لنا المعلمات يوم قصيدة « البورودينو » لليرمونتوف . ولقد اعجبت القصيدة رفاقي إلا انها لم تثر فيهم شيئا . أما بالنسبة لي فقد شعرت لها باضطراب غريب ، ثم لم البث ان حفظتها عن ظهر قلب ، واصبحت أرددها كالماخوذ . ومن الجائز أن تكون شرارة الشاعرية قد لامست قلبي وقتذاك ، إلا انني لم اكن اتصور وجود شعراء في عهدنا ، بل كان يخيل إلي ان الشعراء ليسوا سوى كائنات من العصر القديم ، بادوا جميعا ولم يبق لنا منهم سوى الذكرى .

اما بداية نظمي فتعود إلى ما بين عامي الف وتسعمئة وخمسة عشر والف وتسعمئة وستة عشر . فقد جلست لأول مرة اكتب ما يشبه

الشعر ، وكان موضوعه يدور حول الحرب والبرحي والجنود ، ثم نظمت عام الف وتسعمئة وسبعة عشر قصائد كاملة عن القيصر والبورجوازية وكنت اقرأ كل ما انظم لرفاقي.

وفي ايار من هذا العام دعيت الى الجندية. وقضيت خدمتي العسكرية في « غلازوف » التي كانت تحت إشراف حكومة « فياتكا » . وكنت في مفري ، عندما اندلعت ثورة اكتوبر .وكانت القطعة التي انتمي اليها معروفة بميولها البلشفية ، ولذلك لم تلبث إدارة الحزب المحلية أن اوكلت اليها مختلف المهام . حتى إذا نظمت الحملة الانتخابية آنذاك كلفت انا بتوزيع المناشير وإلصاقها في أنحاء البلدة .

ولم اقض في « غلازوف » خدمتي فحسب ، بل تعلمت فيها ايضاً اول درس من دروس السياسة ، وسمعت لأول مرة العبارات والجمل التي يستريح اليها عقل الجندي وقلبه . ثم لم يلبث الجيش القيصري الهرم ، بعد ذلك ، إلا قليلا حتى حل وسرح افراده ، وهكذا عدت في ربيع عام الف وتسعمئة وثمانية عشر إلى قريتي .

ولكن الحوادث كما يعلم الجميع لم تنته بهذا الشكل البسيط . ففي منتصف صيف هذا العم نفسه احتل « كولتشاك » منطقتنا ، وسرعان ما أعلن البيض التعبئة ليحاربوا الحمر . ولم يكن ثمة شيء أبغض على نفسي من قتال إخوتي من أهل الوطن الواحد ، وقتلهم، ولذلك قررت ما بيني وبين نفسي ـ وكنت قد دعيت كغيري إلى الخدمة من جديد ، أن لا اطلق النار على أحد من مواطني .

فلجأت الى اتباع طرق التهرب من الخدمة واخذت ادخن « الماكهوركا » بكثرة ، قبل الفحص الطبي ، وهكذا اصبت من جراء ذلك بخفقان « مؤقت » في القلب ، وخرجت من لدى الطبيب وعلى اوراقي هذه الكلمات : « غير صالح للخدمة المسلحة » . إلا ان هذا لم يفدني شيئا فلم تلبث وحدات الخدمات التي كنت قد احلت إليها ان ارسلت هي الأخرى إلى الميدان في ربيع عام الف وتسعمئة وتسعة عشر وهناك شاهدت وحشية فرق « كولتشاك » واعمال الشراسة والفتك التي اصابوا بها جماعة العمال والفلاحين .. ذكرى ستظل ماثلة امام عيني ما حييت .

كانت وحدتي العسكرية تتجه نحو الجبهة لتأخذ مكانها إلى جانب الوحدات الأخرى . وأذكر اننا خيمنا في قرية يحيط بها رتل كبير من العجلات وعربات النقل . وكان المطبخ السيار في وسط معسكرنا ، يعدون لنا فيه مايشبه الحساء ، والرجال يتدافعون من حوله، وقد أمسك كل واحد منهم قصعته يصب فيها من ذلك السائل الحار . ووقفت أنا قريبا من المطبخ أوزع على القوم قطعاً من خبز الشعير. الصورة ما تزال واضحة في مخيلتي . ففي ناحية ما كانت امرأة تبكي وتعول باستمرار ، وكانت انظارنا تتحول باستمرار أيضاً إلى أكمة قريبة منا ، تغرتها الأمطار ، فثمة رجل يبغون قتله رمياً بالرصاص ، وقد ذكر لنا الطباخ أنه مناضل من القرية اوقف صباح اليوم نفسه .

وكنا نرى بوضوح قصيدة الاعدام وطفلا

يعدو هنا وهناك . ثم مالبثنا أن شاهدنا الرجل الذي كانت البنادق مسددة إلى صدره يرفع قبعته فجأة ويصرخ في وجوه قتلته بكلمات لم نسمع نحن منها شيئا .

وانطلقت النار، وتهاوى الجسد المشدود إلى عمود خشبي ، ثم جاء من يحمل القتيل الى القرية ، وسار الموكب والى جانبه المرأة والطفل الصغير الذي كان متطفا كالتائه يوزع نظراته الفزعة ذات اليمين وذات الشمال ، وبصرت بجنود « كولتشاك » يتأملون ذلك المشهد بوجوه وقلوب قاتمة ثم شاهدتهم يبتعدون عن مكان الجريمة بصمت ، وهم يتلفتون بين الحين والحين إلى موضع المأساة .

احسست بأن كلمات من نار تقتتل في فمي وتحرقه ، وشعرت برغبة صيقة تدعوني إلى أن أصرخ بكلماتي تلك في وجوه الناس جميعا . وما جاء المساء ، حتى كنت قد نظمت قصيدة اخفيتها في المخبأ الوحيد الساذج الذي أعددته لحفظ إنتاجي .. هذا المخبأ لم يكن سوى حقيبة ظهري .

وقد قدر لهذه القصيدة فيما بعد أن تبلغ غايتها إذ تمكنت حوالي منتصف نيسان عام ألف وتسعمئة وتسعة عشر ، من أن أفر والتحق بالجيش الأحمر . فطبعت القصيدة لتلقى من الطائرة على شكل مناشير فوق خنادق البيض .

بعد هربي إلى الجيش الأحمر ، ألحقت بفرقة « تشيبابيف » الاسطورية ، حيث التقيت « بفورمانوف » الذي قص فيما بعد مآثر تلك الفرقة . وكنا منطلقين في عربة نقل وهو يتكلم إلى جانبي دون انقطاع والكلمات تنبثق من فمه كالنار ، وأصغيت اليه يقول :

« إن مفوضنا طالب » !

لقد لفظ الكلمة الأخيرة بصوت قوي كله ابهة ، وكانما أراد أن يعني : « ألا تسمع ؟! إنه شاب مثقف ، وهو رغم ذلك معنا .. نحن العمال والفلاحين .. معنا ضد البورجوازيين » ولكنه ما لبث أن أتم حديثه متأسفا : « أوه . إلا أنه شخص منفوخ يخاف من لا شيء » .

وفي خريف عام ألف وتسعمئة وتسعة عشر انتسبت الى الحزب ثم ، في أواخر تشرين الأول من العام نفسه أرسلت الى «أورنبورغ» لاتباع دورات الخيالة التي نظمت للضباط الحمر كما قيل وقتذاك ، ورأيت المدينة جاهمة فهي قد استنقذت حديثا من أيدي البيض فبدت متنكرة للأضياف . وكان التيفوس وفصل البرد القارس يغزوانها معا وهي تكافحهما وتكافح الجوع والبؤس .

ولقد قاسينا كثيرا من البرد ، فقاعات الدرس لم تكن تعرف شكلا للنار أو لونا ، وكذلك المهاجع ، هذا اذا أضفنا افتقار النوافذ الى الواح الزجاج ، واستيقاظنا المتكرر ليلا لنقوم بالمناورات العنيفة في تلك السنة الشديدة التي كانت على وشك الانصرام .

وفي « أورنبورغ » تعرفت الى ناديها وصرت أرتاده ، خافق القلب ، وقرأت فيه كثيرا من الشعر ولكنني لم ألاحظ في كل ما قرأت أية جدة لا في الطريقة ولا في الأسلوب . وفي تلك

المدينة سمعت لأول مرة باسم مایاكوفسكي ولذلك قصة تتلخص بأن مدرب الدروس التعبوية عاد مرة من موسكو واراد ان يطلعنا على انطباعاته هناك ، فاخذ يحدثنا : « لقد سمعت مایاكوفسكي في متحف العلوم والفنون» • قال هذا واندفع ينشد بعض ابيات من الشعر كانت عباراتها جيدة ، ثم هي الى هذا قليلة الشبه بكل ما قرات وقرىء علي من اشعار حتى ذلك الحين • والواقع ان تلك المفاجاة صدمتني إذ لم تكن متوقعة بالنسبة لي •

وانتهت دورات التدريب في « اورنبورغ » فارسلوني الى موسكو لاتلقى خلال ثمانية أشهر دروسا في التربية فدخلت العاصمة في أيار عام ألف وتسعمئة وواحد وعشرين ، وانا ازهو بلباسي العسكري الجديد •

واكسبتني دراستي في موسكو ، على قصر مدتها ، صبغة سطحية من المعرفة ، وتمكنت من أن أضيف الى معلوماتي المتواضعة فكرة ناقصة عن المادية الجدلية ، والاقتصاد السياسي• ومهما يكن من امر فقد كنت أتشرب بظما كل ما يقع تحت بصري ويتناهى الى سمعي في العاصمة •

ولم افوت فرصة حضور اية مناظرة ، وشهدت كثيرا مایاكوفسكي واصغيت اليه في نادي العلوم والفنون ، وسمعت « بلوك » وتعرفت شخصيا الى بعض الشعراء • إلا انني، كمبتدىء ، لم تكن لي نظرة صائبة في مضمار الشعر ، حتى ذوقي نفسه لم يكن صحيحا • ولقد وجدت اذ ذاك طريقي في تلك المتاهة وعرقلتها ، تقصر دونها استطاعتي وإمكانيات قواي المحدودة التي كانت تنمو او هي في سبيل النماء •

واحسست في تلك الفترة بميل شديد الى الشعراء الشعبيين ، الذين اوجدهم وضمهم معمل الصلب ، ولكن هؤلاء مع ذلك ، لم يستطيعوا ان يبرزوا في إنتاجهم مظاهر الحياة، بل كانت صورهم غامضة ، ولم استطع ان إكتشف لغة جميلة تبارك العمل وتؤكد الحقيقة الشعبية إلا في شعر « كازين » و « بوليتايف » وفيما عدا ذلك ، فقد كان انتاج هذه الفئة خياليا بحتا •

وعلى كل حال فقد كان معمل الصلب يفرض على انفعالا قاتما ويحثني نحو الشعر الصاخب المجرد ، وتركت نفسي تنقاد لتالق البيانية - وهي طريقة شعرية من طرق ذلك العصر - حتى لقد كنت اعتبر الإستعارة البيانية غاية بحد ذاتها لا واسطة للتعبير •

اما مایاكوفسكي فقد كان يبعث في نفسي اضطرابا طربيا • ولقد اشتريت كتاب الحرب والكون عندما كنت ارتاد نادي الشعراء البيانيين وقرات الكتاب بنهم واحسست انه قد اثر بي فوق ما يستطيع اي كتاب آخر •

وانهيت دراستي في التربية خلال شتاء عام الف وتسعمئة واثنين وعشرين ، وعينت ، في منطقة القرم ، مدرسا للسياسة ، وبقيت هناك حتى خريف الف وتسعمئة وخمسة وعشرين• وبدات عملي اول الأمر في مدرسة المدفعية بمدينة سيباستبول ثم في مدرسة الخيالة بمدينة سمفربول وكنت اثناء عملي احس بجوع الى الشعر رغم توجيه كل عنايتي

واهتمامي الى الخيمة • إلا ان ما تعلمته إذ ذاك كان يظهر عليه بوضوح تفاعل تلك الطرق التي ذكرتها وتعرضت لها في موسكو • ولم تكن لي طريقة خاصة بل سرعان ما كنت أتأثر بالشعر الذي أقرأه • اما ديوان « أوراق العشب » لوالت ويتمان فلم يكن يفارقني ابداً •

وعشقت إكليل النور الذي وشى به النصر العسكري مدينة سيباستبول • وبدا هذا الهوى يتدفق شيئاً فشيئاً أبياتاً من الشعر بسيطة واضحة ، ولكن الانفعالات الفنية المختلفة التي تعرضت لها ، وخاصة تقليدي الساذج لو يتمان ، حالت بيني وبين ان ادفع الى الامام بهذه المحاولات الواقعية •

وكانت تفاصيل الحياة الحقيقية تبدو لي زقاقية ، ولم اكن انشد الفن بين المخلوقات التي تحيط بي بل لقد نشدته في اي مخلوق سماوي :

ايها الرجل •• اصغ
فالارض للاصبع الصغيرة •
لقد انتزعت الشمس
لاصنع منها زورقاً لي ،
إنني اسمع ،
كلما كبرت وقويت ،
هذا العالم الساجد ينشد بين يدي :
ايها الرجل لك وحدك النصر •

وظهر ديواني الاول عام الف وتسعمئة وثلاثة وعشرين ، وكان كتيباً جعلت عنوانه هكذا « على اكمة الصور » وكان كله منظوماً تبعاً للطريقة البيانية • ثم ظلمت في مطلع العام التالي ديواني الثاني « نشيدة للأبد » وكان رمزياً إلا أنه لم ينشر منه ، لحسن الحظ، سوى مقطع وجيز جداً • وكان من الجائز ان أستمر خاضعاً للرمزية زمناً طويلاً ، لولا ان صب كونستنتين ترينيف الماء على حماستي الغريبة تلك • وكان الشاعر يسكن قريباً من سمفر بول•وذات يوم ، ذهبت لزيارته ، اذكر ان الامر جرى في صيف عام الف وتسعمئة واربعة وعشرين • وعندما خلوت به في إحدى غرف بيته الريفي قرأت عليه قصيدتي «نشيدة للأبد » • فاصغى الي باهتمام ثم سألني بعد ان انهيت القراءة : أليس عندك شيء آخر ؟! فانشدته قصيدة من شعري الرمزي حتى اذا انهيت الانشاد قال لي كالمشفق :

« اي بني ! ألا ترى معي ان من الافضل لك ان تنظم الشعر في دراجتي • فهذا يمنعك من ان تضيع في الغيوم » •

ولقد ساعدني ذلك اللقاء على ان أجد الطريق القويمة • إلا انني مع هذا استمررت طويلاً في دفع ضريبة الرمزية ، وإن بدا صوت الحياة يغرق في شيئاً فشيئاً تلك الأوهام •

ثم نقلت في كانون الثاني من عام ١٩٢٦ استاذاً للعلوم الاجتماعية في مدرسة المدفعية بموسكو ، وبذلك تحقق حلمي الذهبي إذ حطت بي عصا التطواف في العاصمة حيث نظمت شؤوني بشكل يوفر لي الوقت الكافي كي احضر مختلف الاجتماعات الادبية • وهناك بدأت قصائدي الأدبية تظهر ، وإن كنت لم ألق بعد على نقد إنتاجي • إما إلهامي الفني فكان سرعان ما يغور ، إذ يغرق في رمال الرمزية ، وفي العموميات الخرقاء اكثر الأحيان ، وكانت كتبي الشعرية الاولى التي ظهرت في موسكو تعكسها

بوضوح وسفور . وكنت في ذلك العهد اضمر ، كيفية رفاقي ، كراهيـة او بالاحرى استهجانا للشعر الغنائي .

وانشئت « اللوكاف » عم ١٩٣٠ وهـي مؤسسة ادبيـة للجيش والبحرية الاحمرين ، ولقد اسهمت في تنظيمها ، وكنت من اوائل اعضائها ، ثم صدرت عن هذه المؤسسة مجلة دعيت اولا « اللوكاف » ثـم غير اسمها الى « زناميا » (العلم) فيما بعد ، ولقد ساعدت هذه المؤسسة في خلق جو من النشاط الفكري الواسع فيما قامت به من جولات وما نظمته من امسيات ادبية . وفي هذا العهد ، بدات انظم الشعر الوصفي ، دون أن اعلم أيضاً انه من الافضل لي أن اسلك الطريقةالغنائية.

وفي خريف الف وتسعمئة وواحد وثلاثين قبلت في معهد الاسـاتذة ، القسـم الأدبي ، فابدلت عندئـذ بلباسي العسكري الذي كنت ارتديه منذ اعوام طويلة ، الثياب المدنية . وكان النقص الذي اعانيـه في الثقافة العامة يزعجني بشدة .. ولا بد لي من أن اذكر هنا انني مدين كثيراً لدراساتي التي تلقيتها في المعهـد ، إذ اطلعت فيـه على الادب الروسي الكلاسيكي وعلى الادب الغربي الكلاسيكيايضاً.

وفي ذلك الحين نظمت ديواني « هؤلاء .. من الجبهة » إلا انه رغم طريقته الواقعية لم يكن ناجحا إذ بدا فيه التكلف واضحا بشكل مستهجن وخاصة في الوزن . فيما كان يعطي الشعر وضعا مشوشا ، ويجعل قراءته صعبة.

ثم اختتبعد ذلك انظم القصائدالغنائية، طريقي الشعرية الحقيقية ، بشكل متزايد ، وهكذا انهيت ملحمتي « إيلانين » وهيقصيدة طويلة استمر نظمها عامين كاملين . وحاولت فيها أن احدد موضع الشاعر في الحيـاة ، والعلاقات مابين الشعر والواقع . ولكنيكابدت هنا ايضا فشـلا جديداً ، فقد بدت القصيدة مائعة ، وكان موضوعها غامضـا لم اسـتطع تحديده بشكل دقيق . إلا ان ما صرفته من جهد لم يذهب هدراً ، إذ تعلمت الصبر عـلى التاليف ، وبدات تظهر في مؤلفاتي ، بعد ذلك، مقاطع جديدة وقصائد غنائية جديرة بالحياة : الشيء الذي دفعني نحو هذا الاتجاه الفني ، عن أنـه لم يتم لي ذلك بصورة خالية مـن الشوائب إلا بعد عامالفوتسعمئة وستة وثلاثين وبعد كثـير من الأبحاث الطويلة والصدمات القاسيةاكثر الأحيان . وهكذا وجدت طريقتي.

ومنذ ذلك الحين اخـذت اجهد في تنظيـم شعري . والتوفيق ما بين الشكل والفكرة . واستطيع هنـا ان اضرب مثـلا : قصيدتي « السندرة » التي اعتبرها النقاد من قصائدي الناجحة . ففي ايـار من عام الف وتسعمئة وسبعة وثلاثين دخلت احد المنازل الريفية ، وما كدت اجتاز عتبة الدار حتى بدت لي من إطار النافذة الأزرق سندرة زاهية الفروع .

شدهتني روعـة المنظر ، واثر في نفسي شبابالشجرة والوانها وكانتالسندرة تنشرهما ملء الفضاء . وسرعان ما نظمت مقطعين من القصيدة ثم اقض في نظمهما إلا لمحات خاطفة:

يلف العاصف السندرة بعنف
فتتملص منه دون أن تنقصف
لترمق بسكون وصمت
هذا الوحش الذي تخمد حدته فجأة .

وفي ليالي الشتاء السود .. السود
يحسب الزعزع الصقيعي انه سيقتلعها
فيهاجمها ، لاويا افرعها العارية
وكله ثقة بالنصر .

انهيت هذين المقطعين من القصيدة ، واخذت افتش من التكملة ، غير ان باب الالهام سد في وجهي . وكنت اشعر ، وهذا شيء طبيعي ، ان القصيدة ناقصة وكانت روح الشكل توحي إلي بضرورة وجود مقطع آخر . كنت احس إحساسا قويا بذلك ، غير انني لم اوفق الى كتابة شيء . وقضيت نهارا كاملا ارسم في مخيلتي كل الصور التي يوحيها المشهد .

ولكن جهدي كان بلا فائدة ، إذ نظمت مقاطع مختلفة جاء بعضها وصفيا بحتا وجاء بعضها الآخر اخلاقيا ، ولكن خيال الصورة المؤنثة التي اوحت الشجرة بها الي بقي قائما في الظل . ورأيت ان من الضروري كي ابعث الحياة في هذه القصيدة ان ابني المقطع الاخير منها على نواة تلك الفكرة ، ليتمكن من ان يسبغ على الصورة الأنثى روحا خاصة بها . ولقد احتجت الى عام كامل حتى استطعت ان امسك بتلابيب هذه الرباعية المتمردة :

ولكنهما يضيعان جهدهما سدى
وهما يحاولان تحطيم الجذع الضعيف
المنتصب بثبات وهدوء
فالسندرة تحب آخر
وهي له وفيه

ثم جاء اجتماع الكتاب في موسكو .وعينت عضوا للجنة الحزب في هذا الاجتماع ، وبقيت كذلك منذ نهاية عام ١٩٣٦ حتى الحرب العالمية الثانية . وتذكرني هذه الفترة بمجالس صاخبة بين الكتب ، وكنت اعود منها الى البيت في الهزيع الاخير من الليل . ولقد نظمت اهم قصائدي في تلك الفترة من الوقت ، وكان عملي في الوطن يساعدني ان ارى اكثر وضوحا وان اكون اكثر دقة .

اما عن الخصب بالنسبة لانتاجي الفني فيمكنني تحديده بعام الف وتسعمئة وثمانية وثلاثين ، إذ نظمت خلاله اكثر من عشرين قصيدة غنائية . وبدأ النقاد يهتمون بانتاجي ، وتدفقت رسائل القراء ، وابدى بعض الكتاب البارزين آراءهم فيما انشر . وقد جاءتني مرة رسالة من اليكسي تولوستوي كانت فرحتي بها اعظم من ان تحد . كتب الي يقول في خاتمة رسالته بعد ان اثنى على شعري :

« عش .. وفكر مستقلا .. فان هبة الشاعرية لا تعطى لكل الناس »

وهكذا تعرفت الى نشوة النجاح ، وكنت بالفعل قد تغلبت على المؤثرات التي طالما شدت تقدمي الفني ، وانتصرت كذلك على اخطائي وانحرافاتي الخاصة . فعلمت ان على الشاعر ، كي يكشف لقارئه عن الروح الانسانية ، ان يكشف نفسه اولا ، وادركت أيضا ان الشاعر إنما يدنو من الناس بمقدار ثقته بهم ، على أن يكون هو نفسه إنسانا حقيقيا ، وان يعيش أيضا حياة شعبه .

لقد كنت دائما اعتقد ان الشاعر الشعبي هو من تحتاج اليه اكثر من غيره ، إلا انني كنت مقتنعا ايضا ان الشعر يعكس روحية الشعب ،

ويؤثر على حياته اطراداً مع تنوعه . هذا إلى يقيني من أن الجدل والملحمة والنقد والطبيعة والحب والتأمل والهزل ، يجب أن لا يبقى هذا غريبا عن شعرنا .

وقد جعلني ذلك اليقين أكثر ثقة بعملي الفني ، ووضح مفهومي لواجبات الشعر السوفياتي وعرفت به مكاني المتواضع في قلب هذه الجوقة الضخمة . وهكذا لم يهل عام ١٩٣٩ حتى كنت قد تخلصت تماما من رواسب اتجاهي السابق لأنني ، اعتبارا من ذلك التاريخ ، وجدت طريقي .

إن شعراء الشباب السوفياتيين يعرفون ، دون شك ، الصعوبات التي يمكن أن تعترضهم لم لا يجهلون أن اكتشاف الطريق الصحيحة لا يمكن أن يتم منذ الوهلة الأولى . إلا أنني استطيع التأكيد لهم ، أن سبيلهم للذلك يجب أن يخالف تماما السبيل الذي مرت أنا عليه بادئ الأمر .

إنهم جميعا قد درسوا في طفولتهم بشكل عادي وفتحوا لأنفسهم مدخلا الى الثقافة في شبابهم ، أضف الى ذلك أن الشعر في بلادنا قد اتجه منذ عهد بعيد نحو الواقعية الاشتراكية وهكذا لم يعد الشعراء معرضين الى إضاعة جهودهم كي يشقوا لأنفسهم طريقا بين عوارض المدارس من رمزية وسريالية وغيرهما .

ومع ذلك فقد يجد بعض المتسرعين فائدة في اتباع طريقتي التي ذكرت ، وقد يعجب بها المدعون الذين يتصورون أن بامكانهم أن يرتقوا جبل الالهام بوثبة واحدة .

●

كتاب خالد للحب

قد يمر بعضهم على صفحاته بإهمال ،
وقد ينسى آخرون كل شيء
وهم يقرأونه ليل نهار ،
ويغرقون بالدمع كل صفحة .

هذه الوريقات ،
المتكدسة يوماً بعد يوم ،
قد تترك عليها شيئاً منا ،
أو أثراً .

أيها الحب ،
لقد عرفت الألم والسعادة
وأنا أرسف في قيودك الأثيرة ،
وأكون سعيداً اذا حملت قسطي
إلى هذا الكتاب
ولو سطراً واحداً

●

تذهب الى حبيبتك ، سعيداً معجلا ،
النسيم رخاء ، والنهار رائع
حتى لتبدو المدينة بأسرها كأنها تتلألأ،
حتى لكأن الطريق لم يتعبك .
تسير وشعرك في الهواء ،
على محاذاة الاسقالات المنصوبة ،
وفي نشوتك ، تسلك دروباً ، وأزقة ،
وحبيبتك ،
إذ تسمّر عينيها في وجهك

تلمع زوايا من السماء
في نظراتك

●

يلف العاصف السندرة بعنف
فتتملص منه دون أن تتقصف
لترمق بسكون وصمت
هذا الوحش الذي تخمد حدته فجأة ،
وفي ليالي الشتاء السود ، السود
بحسب الزمزع الصقيعي* أنه سيقتلعها
فيهاجمها لاويا أذرعها العارية
وكله ثقة بالفوز .

ولكنهما يضيعان جهدهما سدى
وهما يحاولان تحطيم الجذع الضعيف
المنتصب بثبات وهدوء
فالسندرة تحب آخر
وهي له وفية

●

ها هي الموسى تلمع في يدك ..
وأنت تحلم غالباً بالصبايا .

ما أكثر الجميلات .. إنما عليك
أن تختار واحدة منهن ،
وعليك ، كي تلحق بها في خلوتها ،
أن ترود زوايا الدنيا .

إنها لا تملك الذهب ولا الاقطاعات
ولكن .. بين يديها .. كل سعادتك

●

لا تتحدي الصديقات تموذجاً
ولا تتشبهي بالفلاميات ،
أو تظنين أنك ستلوحين أكثر جمالا
عندما يذوب أحمر الشفاه على أعقاب
اللفائف ؟!

خير لك أن تقضمي الأقحوان
الذي ما تزال مرارة الندى
على أزاهيره
كي يحفظ حبيبك
على شفتيه الملتهبتين
طعماً حاداً

●

نجمة مسائية تبعثر أضواءها
والغابات السود مستغرقة في تفكيرها ،
أما أنا فأحس بقلبي ينقبض :
هذه الأشعة الراجفة
التي تلامس الآن أهدابي ،
قطعت ـ لكي تدركني ـ
مئة وأربعين ألف سنة ،
أما أنت فليس أمامك
غير درب قصير تقطعينه

ومع ذلك ، فلا شيء يلهمك
أن تجيئي في الموعد .

●

من النظرة الأولى ،
جذبتني هاتان العينان ، حيث تلمع الفرحة ،
وهذه الخصل ،
من نحاس وذهب تصوغ لك تاجاً
زهرة الحياة
تفرط عقد الأيام
ولكن أريد أن أعتقد
بأنك ستعودين الى مخيلتي ،
جميلة ، شابة ، رغم هذا البعد .
ساكون حزيناً وانا اقول لنفسي
أن الصيف ولى إلى غير رجعة
وانك في الحياة
مثل بستان خريفي تسفعه الرياح

●

آه ، عيناك !
أشك أن في الامكان نسيانهما ،
فهما تشعان حتى عندما تبكين
وعلى ملامحك تسكبان أضواءهما ،
وباستطاعتي البقاء طوال ساعات
متأملا جمالك الأسطوري .
كم كنت أود أن تقترن حياتانا
وأن أتبع الطريق المرسوم ، دون وجل ،
لو لم يلح في خيالي ،
وجه دقيق لامرأة أخرى
ولو لم يكن قلبي يسأل دون انقطاع
عن تلك التي أحبها منذ عهد بعيد
والتي لقيتها في شبابي
ومحال أن أتخلى عنها
في هذه اللحظة .

●

أنظري ... في السماء ،
الا ترين هاتين النجمتين
كيف تسكبان على العشب وعلى السطوح
أضواءهما الشاحبة ؟
هل ثمة أكثر اقتراناً
من هذين الكوكبين ،
اللذين يحيلهما تمازج سناهما نجماً واحداً !
وأنا الذي أعرف قيمة هذا الرباط الدائم القوي ،
أغني اتحادهما ، واتفاقهما الخالد .

●

أحب أن ارى كيف تتكسر الموجة على الشاطىء
... وبين الصخور القاتمة
لاحت فجأة ، فتاة ،
قلت لها : « ما أجمل المكان هنا » .

وقفنا طويلا قرب المياه ،
وعند المساء عادت من جديد .
وعلى الرمل كانت تستلقي ثلاثة مجاذيف
وقارب مستدير الجوانب .
كان حديثاً سهلا ، رضياً ،
لم أحاول أن أبدو بليغاً ..
قبلت اليدين الرقيقتين الملوحتين
حيث تلألأت قطرات من ماء البحر .
حبيبة ما تزال الى الأبد ،
ويدها الدافئة دوماً هنا .
يستطيعون أن يتحدثوا عن بحار جافة
أما أن يموت الحب
فلن أصدق أبداً !

●

أحبك ،
ولهذا ، دون ريب ،
تلهمني الرغبة أن أكون
الأول في كل شيء ،
ما من أجل عشيقة ،
وإنما لتستطيع زوجتي
أن تعتز بي .
ربما كنت ولدت
تحت نجمة سعيدة ،
في ليلة ثلجية مقرورة
ولكني مدين بكل إحساني وتفوقي
لك أنت
أيتها الحبيبة .

●

يا حبي الوحيد ، يا حلوتي ،
ما العمل ونحن متباعدان ؟..
أمامي صورتنا المأخوذة
ـ أتذكرين ؟ ـ عشية الحرب

في لغتنا الفنية
كلمات مزودة بطاقة عجيبة
تدفع الكتائب الى الانقضاض
وتوجه الى المجد ،
إلى الموت .
الحرب تقصف ، وتحفر الوهاد ،
ولكن لا تستطيع قتل الأسماء
التي أرست في أعماق القلوب ،
وامتزجت بالكلمات العلوية ،
هذه الأسماء البسيطة
لأناس معبودين .

●

كاليوم سوف يتجدد القتال غداً ...
وتفور الأرض حول ملجأنا ،
لم أشاهدك منذ الحرب
وقد تكونين تغيرت كثيراً
وعراك الهرم .

ولكن لا .. فأنت أمامي الآن جميلة شابة

كمهدي بك ،
ذلك لأني أحبك
وخطى الأيام المجدة
لا تفسد جمال صورتك
في مخيلتي

■

أنظري التجديد كيف يعيد الشباب
إلى سهولنا ٠
كم أردت أن يسرع سير الأسابيع
كي تصل ، مع الربيع المعجل ،
رسائلي حاملة طابع الجبهة ٠

كم هي طويلة ، طويلة ،
الطريق التي يجتازها كل سطر ،
ليصل اليك من بين الملاجىء والخنادق
ولكن يدي لامست هذه الرسائل
وعندما تقرأينها
ستلامسها منك الأنامل

●

الريح تعصف في أعماق الغابات ،
وعلى ملجأنا يتساقط المطر ٠
لقد حلمت بك هذه الليلة ،
وبالقرية التي تضمك ٠٠ في البعيد ٠

فلتهطل الأمطار ، ولتزأر الرياح
في الجهة المبهمة التي تحتويني ،
فما من سعادة توازي لدي
علمي بأنك في الدنيا ٠

■

وأنا بعيد عنك ٠٠
ضممت جوانحي على حبي ،
فتحدى غيابك ، وبقي حيا ،
لم تسلبه أيدي نساء أخر ،
ولم تزرعه في الهواء
شفاه غريبة ٠٠

●

حياتي متعلقة بك ،
ومثلها فرحتي وأحزاني ،
ربما كذبت عليك بعض الأحيان ،
ولكن شعري لا يكذب أبدا ٠

آه ! لو أستطيع
أن أحنو على مصيرها ،
كما على نافذتها !٠٠
لن تتكشف لنا حجب الغيب ،
ولن نعلم
من سيموت منا أولا ٠

ولكني أصوغ أغنية واحدة
أرددها ، كل يوم ، هامسا ،

هذه الأمنية
هي أن يبقى حبك بعد موتي •

●

يرى الرجال على وجهك تقدم الزمن ؟
ـ يا للاهانة الجميلة !•• ـ
عليك أن لا تخفي عدد السنين
وان لا تمدي الغضون في الجبين •
ثمة نساء مغريات
كالأزهار الذاوية بعض الشيء ،
وكذلك قلبي يحبك ، يشتهيك
أكثر فأكثر مع السنين

●

كل لحظة بجانبك عزيزة علي •
قد نعيش أياماً طويلة ،
إنما ساعة الغياب الأكبر لا بد آتية ،
فنفترق إلى غير رجعة •

ولكن النجوم ستبقى هي نفسها
وستلمع في ساعة الرعاة •
فكيف سأجد اثرك ، واين سابحث عنك
في هذه الأبعاد النجمية الباردة ؟!•

●

تستطيعين أن تفكري كما تشائين ،
ولكن حبا يتضاعف ،
وتقوى علاقة قلبينا

فمن أين إذن
يأتيني هذا الاضطراب ؟

أحلامي الليلية تمتلكني ،
ورؤى كئيبة تمتادني ••
فالحب كلما نما
نما معه الخوف عليه •

■

بنا ميل ، دوماً ، إلى تعقيد
حقائق بسيطة •
أنت بحاجة الى اهتمامي ،
وحنانك هو الذي أحتاجه ، دون ريب•
أي شيء أضيف الى كل هذا ؟
حقاً •• إنني غير جدير بالحب ،
وإني ، وقد نلت كل شيء ،
أهملتك ••
فهل من السهل عليك أن تعودي إلي
بحنانك القديم ؟

●

سذج أولئك الذين ينشدون الحب المسالم،
سأقول لهم أنه غير موجود على الاطلاق•
فالحب ذو مفاجآت
ولا شيء حتى الموت ـ ينفع معها •

وأنت ••
يا من تحبين دون رهام ،

دون تزويق ، ولا تحفظ
آه ! حافظي على نقاوتك وأمانتك
فالحياة ، بدونهما ، ملأى بالآلام •

●

كثيراً ما يكون تماس يدين
جياشاً بطاقة قوية ،
ولكن للحب ساعات ضعف
وقد ننسى فجأة
أنه أغلى من الحياة ،
وأقوى من الموت •
وأنا منذ أن تفتحت عيناي على الدنيا
لم أستطع ، بعد ، سبر غوره •

●

القلق يضغط على روحي المتألمة •
ماذا أصنع لكي أعيد اليها الراحة ؟
فالغيرة ، هذه السامة العجوز ،
ألقت إلي ، من جديد ، حديثاً أسود
وأغرتني بأن أتبعك مثل ظلك ،
وأشك بدموعك ، وقبلك ،واعترافاتك،
وأنظر بحذر إلى تصرفاتك ،
وأن لا أرى إلا بعينيها •

الغيرة ظالمة ، مرة المذاق ،
وهي ، إلى ذلك ، نصيح خطر

●

أجل ، لست دون مزية ، في اعتقادي ،
ولكن لا تلمني إذا تكلمنا بصراحة :
أليس كثيراً
أن تطلب من امرأة
أن تحيا وتتنفس لأجلك وحدك ؟

ستكون وفية ، حتى القبر ••
ولكن العالم الحافل بالأفراح ،
وبالسحر المتنوع ،
ينفتح أمامها رحباً ، لا متناهياً ،
وليس بمقدورك
أن تملأ فراغه •••

■

في دخان لفافتك الرمادي
توزع قبلاتك ، على هذه وتلك ، بسخاء
وأنا أعلم جيداً أن اللوم العنيف يؤذي الشاعر
أما العتاب فلن يهتم به أحد ••
ولكن الشيخوخة ستجثم بثقلها الرهيب
على من ينثر الحب في طريقه
بيد ذاهلة ، ودون تفكير

●

ظل داكن ينسج خيوطه الباهتة
على عينك الجامدة القاسية •
أعلم جيداً ، أن أذرعاً كثيرة ،
غير ذراعي زوجك ،
قد ألحت على تطويقك •
ومع ذلك ، فلست لأحد ،

ولم يستجب حب لنداء قلبك •
إنه لشيء قاس أن تهرمي
وأن لا تكوني عرفت في الحياة
الرجل الذي يدفيء
صقيع قلبك ،
وربما كان في هذه الدنيا ،
من يبحث عنك سدى ،
ويتالم وحيداً •

■

تحلم ، قبل كل شيء ، بالحب العظيم
الذي يملأ كل لحظاتك بالسعادة ،
ثم تدخل امرأة في حياتك ،
وتهرم قلبك في أيام قليلة •

سعيد أنت ، عندما تلتقي ، في طريقك
بالتي تستطيع أن تحيا معها ،
رغم بياض شعرك ••
دون أحقاد ولا شكوك ،
مثل فتى مأخوذ بالحب ،
حتى تنزل القبر •

●

الحب !••
حاولي أن تشعري جيداً بقيمته ،
خاصة مع الزمن •
ليس الحب ، مطلقاً ، في التأوهات
تحت الظلال أو في شعاع القمر •
على المحب اقتحام الثلوج والامطار ،
ليجتاز الحياة مع رفيقته •
فالحب نشيد منغم
وليس من السهل صنع نشيد •

●

من قال ان حبنا
يجب أن يكون
أقل من أمجادنا ؟
ربما كنت غير جدير بمثل هذا الحب ،
ولكنه اذ يجبه العاصفة وثورتها
ويحيا ويشع
في بهائه الوسيم ،
فهو ، هو رفيق مصائرنا العليا •

●

كانت تحنو على أخيها الصغير ،
تحرسه ، تهدهده في مهده ،
ونبتات عباد الشمس تترصدها
لاوية الأعناق
مثل غلمان صهب •
كانت تتسلق الزرع المكدس ،
وتحمل العلف الى الماشية ،
وتغوص في الجليد ، وهي محمومة ،
لتغترف لها المياه •
وكان ثور الجيران الهائج ،
ينقض عليها ، وقرنه إلى الأمام •
كم من الأخطار كانت تهدد عمرها
الطري !

لكم تمنيت أن أدلل هذه الطفلة !
كانت قدرتي المنحوته من طبيعة بلادي الخالدة
لا تزال تنام في حواشي الزمن •
وكانت حياتي ، مهملة ، مجهولة ،
ومع ذلك ،
فقد كانت هذه الصغيرة
تحملها في الأعماق •

●

لا تستطيع الكلمات أن تعبر
عن فرحة الأم ،
حانية ، متسمة من السعادة ،
عندما يخطو ولدها ،
للمرة الأولى ، بضع خطوات
من الطاولة إلى الكرسي •

••• ومع الزمن ،
سيقتحم الأفق طياراً ،
ويقطع البحار وشطآنها الصخرية ،
ولكن سيخيل اليه
أن طريقه هذه أقل صعوبة
من تلك المسافة
بين الطاولة والكرسي •

●

أجل ، إن تحدي الزمن
شيء باطل •

وما أسرع ما توليت
يا فجري السعيد ،
يا طفولتي •

تحت الجسور ، يجري الماء دون انقطاع ،
ويتآكل الحديد ••
وهذه آثارك ، اليوم ،
تمحي ، ياشبيبتي •

ثورات وحروب
شهور من الصراع ، شهور من المتاعب••
اوه ! لقد تركت بعيداً ، ورائي ،
ظهر أيامي الذهبي •

على جبهتي يشق الزمن
أثلاماً متقاربة شيئاً فشيئاً ،
وأنا أعلم أن المساء يقترب ،
ولكن أية أهمية لهذا ،
لنعمل !
كي تنتصب ، في زهوة النشاط ،
مشاريعنا العظيمة ،
فأعتنق اليوم الاخير مؤمناً
بمستقبل العالم •

●

سيأتي الموت ، ولن يخطيء الموعد
وسينقشون ، تحت صورتي ،
تاريخين •

منذ الآن ، أرى الخط القصير
الذي يجمعهما
و في جزء صغير من سطر
تنحصر كل حياتي
ولكن ، أيها الصديق ،
هل لك عند ذاك
أن تكرم ذكراي هاتفاً :
هذا العجوز ،
لم يكن يشكو في شيء ،
امتداد الحياة •

●

أرجل شعري المتمرد
وأحس بنفسي شاباً - وأنا في ذلك
على حق
ولئن كنت أعجب الجميلات حتى اليوم
فهل يناديني : « الأشيب » ،
وأعترف أن هذا يؤذيني ،
وكثيراً ما يلقاني صديق شاب
فيردد وهو يشد على يدي :
ما أسرع ما مشى إلى رأسك الشيب •
مهما يكن فقد كانت المعركة حامية
وسيعلمون يوماً
كيف كنا نشيب
قبل الثلاثين
ونبقى مع ذلك
شباباً في الستين •

●

كل هذه الأرض تحت قدمي
أحيا ، أتنقل ، أغني
ولكن ذكرى المحاربين
الذين صرعوا في المعركة
تحيا معي •
إن لم أستطع أن أسميهم جميعاً
فكلهم عزيز علي ،
ألستُ بَعْدُ منتصباً
لأنهم ينامون تحت الثرى ؟

لن أشكو بلهجة حزينة ،
وبمقاطع مهينة ،
من أنني ساهرم
وأن أيامي ستختصر :
فتحت وابل الرصاص
كان يمكن أن أسقط ـ ومايدريني ـ
في الأورال
أو في سواحل خليج « سيفاش » •
ألم يعفر أحدهم خده في التراب «لأجلي»
وهل كنت ، لولاه ،
عدت إلى بيتي
وشاهدت أمي العجوز ؟
كان يمكن أن أجد الموت
عند « الكولاك » المتمردين ،
ولكن في السهول الرحيبة

ينام آخر ، غيري ، في ظل شاهدة ٠
٠٠٠ ألوطن يدعونا
إلى أعمال حربية جديدة ،
فعلى أرضنا تزأر وترعد
مدافع هي صوت النذير ٠

لقد رأيت الموت ،
بعيني رأيت الطرق تحت القنابل ،
والأرض المحروقة تنفجر

شلالا أسود
صاعداً الى السماء ٠
ولكني أعلم
أن المعركة كانت أقسى
بالنسبة لآخرين ، غيري ،
فلست أنا الذي صمد بصمت
أمام ضراوة التعذيب ،
إنه « كوتشيفوي » الجريء
في ربيعه السادس عشر
ثابتاً باعتزاز
حتى الشهقة الأخيرة ،
إنه «ماتروسوف» ، الخضيب بالدماء ،
يهب صدره للرصاص ٠
إن لم أستطع أن أسميهم جميعاً
فكلهم عزيز علي ،
الست بعد منتصباً
لأنهم ينامون تحت الثرى ؟
ديني ضخم ،
وبحياتي ـ لا بهذه الأسطر القليلة ـ
أريد أن أكون جديراً
بهؤلاء الذين سقطوا
في سبيل الوطن ٠

●

الرابعة صباحاً ٠
والكرى يهرب من جفوني ٠
تدور الأرض حول محورها ٠٠٠
والليل يفر أمام الفجر ،
والثلج الفوضوي يلتمع ٠٠
وبعد خمسة آلاف سنة أو عشرة آلاف
ستهب الريح الباردة نفسها
على عالم المستقبل
الذي نحلم به جميعاً ،
ويبقى مع ذلك مغلقاً على الفكر البشري٠
وأقول لنفسي :
هل باستطاعتي أن أحيا في ذلك الزمن،
كرة ثلجية بسيطة
لأطير فوق الأرض
تحملني الرياح
فأتأمل ، لفترة وجيزة ، هـذا العالم الذي يولد
ثم أمس في انطلاقي غصن شجرة ،

لأتلاشى وأذوب
على وجنة صبي .

●

الجبال المعصوبة بالثلوج الأبدية
عمياء عن لمانها الوديع الصافي .
والفضاء السماوي لا يرى زرقته ،
ولا تحس الزهرة كم هي جميلة .

ومع ذلك ،
فعلى امتداد الدروب الصاعدة
أو في الغابات ،
يلذّ للمرء أن يحدث نفسه
بأن الطبيعة تشاهد ذاتها
وتعجب بنفسها
من خلال نظراتنا
التي لا ترتوي .

●

لم تحيَ الزهرة غير قليل
ما هو الشتاء .
الريح تهدر ، والثلج يصفع الأبواب
ولكن ، من العشب المجفف
يتصاعد عبيرك الساطع
أيتها الزهرة .
والحليب يعيد لنا بطعمه
حياة الزهرة البرية .
وإذا أسكرتك أنشودة
فليس إلا أن تردد منها مقطعاً
حتى تتحدى الزهرة الريح العاتية ،
وتحيا في اللازمة الغنائية .

●

نحلة ترفرف
وتمتص رحيق الزهور ،
دون مهادنة ،
ثم يجد له الجميع طعماً حلواً ،
غير أن حزيران ينتهي في السهل الفسيح:
قصيرة هي حياة الازهار ،
ومثلها حياتك أنت ،
تنطوي مهما طالت .
ولكن هل ستجف أغانينا
بهذا الشكل ،
إذا كان الشعب لا يموت أبداً
والزهرة تولد من جديد ؟

●

أمطرت السماء ..
فعلى الاسفلت
انعكاسات موجة براقة عميقة ،
العربات قوارب ،
والأضواء الراجفة كالنبات المائي ،
تعمر النهر ،
حيث نلمح في أعماقه ،
ــ كما لو يسبح ــ
سرب الأسماك الحمر المفزعة .

●

أفتح نافذتي . فماذا أرى !
ضوء يبهرني ..
وما هو في الحقيقة سوى قطعة زجاج
غرزتها في الأرض أقدام العابرين .
فاذا أوقدها شعاع
حسبتها شمساً تسطع تحت قدميك .
أيتها الشمس ،
ضياؤك المنساب في كل مكان
يصنع جلالك ،
فكل شيء له قدرة الاشعاع ،
كل ما يلمع ،
ولو كان صفيحة مهملة
تريد الشمس العظيمة
أن تعدله بنفسها .

●

من الذي أغرق بالخمر السماط ؟
ولكن ، ماذا يعني السؤال ؟
فليأخذ العيد مداه
حول الطاولة المصنوعة من السنديان.
أريد أن أشرب نخب السنديانة الجبارة
التي نمت في الغابة الخضراء !
ولنشرب أيها الأصدقاء
نخب النجار
الذي أبدع بيديه الحاذقتين .
طاولتنا !
سيشرب معي الأصدقاء
نخب زارع الكروم
فمهمته ليست سهلة
إنها تقتضي عناية وجهداً عظيمين
عندما يعصر العناقيد
أو عندما يعتق الخمرة
في الدنان المثقلة

المخبوءة في أعماق الليالي .
إن أقلنا سكراً
لا يكذب أبداً
ــ ولا أظن مع ذلك
ان أحداً منا ثمل ! ــ
عندما يمجد ، والكأس في يده ،
فن نافخ الزجاج الرفيع ،

الغطاء ناعم تحت الأنامل
والسماط ينبسط في بياضه ..
لقد أدارت الناسجة عشرين نولا دفعة واحـدة

لتصنع هذا الغطاء .
ثمة أقوام يكدحون بعزيمة
تحت الشمس أو تحت سياط المطر
لكي تنضد في الصحون
قطع الخبز بأحجامه المختلفة .
نحن هنا جميعاً
مجبولون من طينة متماثلة
ولن يجد خامل أبداً
مكاناً له على مائدتنا .

قصة من اليابان

العاصمة القديمة أزهار الربيع

ياسيناري كاواباتا الحائز على جائزة «نوبل» للآداب

ترجمة : ليسان دميسواني

على جذع الجميزة القديمة ، كانت أزهار من البنفسج قد تفتحت ، وقد اكتشفتها شييكو .

فكرت أمام عذوبة الربيع التي تجسمت فجأة :

عجباً ، إنها تزهر في هذه السنة أيضاً .

كانت هذه الجميزة ، في الحقيقة ، شجرة كبيرة ، بل هي أكبر مما هي عليه ، ما دامت في حديقة ضيقة ، في قلب المدينة ، بل ان ردفي شييكو لا يعادلان جذعها الغليظ . هذا الجذع ، ذو القشرة القديمة ، الخشنة ، المكسوة بالطحلب الاخضر ، ليس فيه ، في الواقع ، ما يجمع بينه وبين جسد الفتوة الغض ...

فالجذع ، على ارتفاع ردفي شييكو ، ينحني انحناءً خفيفاً ، الى اليمين وفوق رأسها بقليل ، ينحني كذلك بشدة نحو اليمين . ثم تبرز الاغصان وتمتد وتهيمن على الحديقة . وتتدلى قليلا هذه الأغصان الطويلة ، الثقيلة الرؤوس .

وحيث تنحني الشجرة بشدة بل تحته قليلا ، يكمن في الجذع تجويفان صغيران ، في كل من هذين التجويفين ، نبتت زهرات من البنفسج . هذه الزهرات تظهر في كل ربيع . وتذكر شييكو منذ زمن طويل ، وجود هاتين الارومتين من البنفسج على الشجرة .

بين الزهرات العليا والزهرات السفلى ، ثلاثون سنتمترا تقريبا . وتتساءل الفتاة ، شييكو :

« أمن الممكن ان تتلاقى الزهرات العليا والزهرات السفلى ؟ أو تتعارفا؟» وما معنى « التلاقي » و « التعارف » في رأي الزهرات ؟ »

زهرات ، في كل ربيع ، كانت تظهر ثلاث او خمس زهـرات ، على أكثر تقدير ، هذا هو عددها تقريبا • مـع ذلك ، في التجويفين الصغيرين • في اعلى الشجرة ، تبدو في كل ربيع ، براعم ، تتفتح أكمامهـا أزهـاراً ، وشييكـو تتـأملهـا ، من المجـاز ، او من تحت الشجرة ، رافعة رأسها ! ولئن دهشت من « حياة » هذه الزهرات على الجذع، فان « العزلة » التي تعيش فيها ،كانت تملأ جوانحها أحيانا •

« هنا ولدت وهنا تواصل عيشها•• » يمتدح الزبئن الذين يؤمون المخزن ، جمال الجميزة ، ولكن الكثيرين منهم ، لا ينتبهون الى تفتح زهيراتمن البنفسج فيها • فالجذع الغليظ ، الذي أكسبته السنون متانـة ، وكستـه بـالطحلب الأخضر حتى ذروته ، لم يفقد شيئاً من رشاقته ولا من عظمته • اما انزهيرات صغيرات ، قد استوطنت فيه ، فهـذا ما لا يعيره أحد اي انتباه •

لكن الفراشات ، من جهتها ،تعرفها• اذ أن شييكو ، حين اكتشفت الزهرات. كان سرب من فراشات صغيرة بيضاء ، يتطاير على أرض الحديقـة ، وكـان تراقصها يتعالى على طول الجذع حتـى البنفسجات • وكانت براعم الجميزة ، الصغيرة ، المائلة قليلا الى الاحمرار ، على أهبة التفتح ، وتراقص الفراشات الابيض ، كان يتنقل كبقعة نيرة •كانت زهرات أرومتي البنفسـج وأوراقهمـا تلقي على طحلب الجذع الاخضر ،الندي ظلا خفيفا •

لقد كان يومـا ربيعيـا ، مفعمـا بالمندوبـة ، عبقت سمـاؤه بـالطيب كاشجار مزهرة •

الفراشات قد ابتعـدت ، وشييكـو ما تزال جالسة تحت سقف المجاز ،تمعن النظر في بنفسج جذع الجميزة •

« ما أجمل أن تزهري هنا » في هذه السنة ايضا » بدت كأنها هكذا تخاطبها همساً •

تحت البنفسج ، عند جذر الجميزة، انتصب فانوس حجري قديم • كان والد شييكو قـد اخبرهـا ، ذات يـوم ، ان النقش على أسفل الفانوس القديم ، لم يكن سوى صورة المسيح •

« أليست هي صورة مريم ؟ سألتـه شييكو • اذ ان ثمة فانوسـاً حجريـاً كبيراً ، كبيـر الشبـه بـه » في معبـد ـ طانيجان ـ في ـكيتانو ـ

ــ ما نقش على فانوسنا ، انما هو المسيح ، أجاب الأب بجفاء ٠ هو لايحمل طفلا بين ذراعيه ٠

ــ آه أجل ، أجل ٠ » أجابته شيبكو بهزة من راسها ٠ ثم أردفت : « هل كان لنا أجداد مسيحيون ؟

ــ كلا ، من الممكن ان الرسام او النحات هو الذي جاء به ووضعه هنا ٠ على كل حال،فما هو بالتحفة النفيسة٠»

لا ريب ان هذا الفانوس المسيحي ، قد نحت في عصر حظرت فيه المسيحية في اليابان ٠ انه حجر خشن وسهل التفتت ، عبثت به الامطار والرياح ، خلال بضعة قرون ، فامحى الوجه المنحوت وتفتت ولم يعد فيه واضحا ، سوى شكل القدمين والجسم والرأس ٠ لعله ، لم يكن ، بالأصل ، قد نحت الا بخطوط عريضة ٠ فالأكمام لشدة طولها ، تبدو كأنها هابطة حتى اسفل الثوب ٠ والشخص يبدو كأنه يضم يديه الى بعضهما ، ولكن الذراعين ، بما انهما رسما مع شيء بسيط من الانتفاخ ، فلم يعد من الممكن ادراك وضعهما تماما ٠ بعد هذا ، فهو لايشبه في شيء تمثال بوذا او ــ جيزو ٠

ان هذا الفانوس المسيحي الذيكان، فيما مضى ، رمزاً للايمان ، او حلية حسب الذوق الاجنبي ، لم يبق له الآن الا قيمة شيء براه الزمن وطوح به في حديقة مخزن شيبكو الداخلية ، كي يستقر عند جذع الجميزة القديمة ٠ « هذا رسم المسيح » يقول الوالد ، اذا ما رآه الزُبُن ٠ حقاً ، ان بين هؤلاء القادمين لأعمالهم ، قلة تلتفت الى فانوس بسيط ، قاتم المظهر ، ملقى تحت ظل جميزة كبيرة ٠ اما اذا رأوه ، فان وجود فانوس أو فانوسين حجريين في حديقة ، انما هو أمر عادي ، مألوف ، لا يتوقفون عنده ٠

ولكن انظار شيبكو ، التي كانت قد اكتشفت البنفسج على الشجرة، ما لبثت ان انصرفت عنها لتنصب على المسيح ٠ هي لم تتلقَ العلم على يد المبشرين ، الا انها ، كي تألف اللغة الانكليزية ، راحت تتردد على الكنيسة ، وتقرأ العهد القديم والجديد ٠

ولكن ، ليس يليق ، كما خيل اليها، ان تضع ازهاراً أو تشعل شمعة امام هذا الفانوس الذي ابلته السنون ٠ فالصليب لم يكن محفورا في اي مكان منه ٠

ان زهرات البنفسج ، فوق نقش المسيح ، كانت تذكرها احياناً بقلب مريم • نقلت شييكو نظرها من الفانوس الى البنفسج ـ عندئذ ، قفزت الى ذاكرتها ، فجأة ، الصراصير التي كانت تربيها في آنية من (التامبا) القديمة •

لئن كانت شييكو قد اكتشفت ، منذ زمن بعيد ، زهرات البنفسج على الجميزة القديمة ،فهي لم تشرع بتربية الصراصير ، الا منذ عهد قريب • ذلك يرجع الى أربع أو خمس سنوات خلت• كانت قد سمعت غناءها الصاخب عند صديقة لها في الثانوية ، فجاءت عندئذ بالبعض منها الى البيت •

« في اناء اكلا،انها التسوعداتها••» هذا ما قالته • بيد ان صديقتها أجابت، بأن هذا أفضل من تربيتها في قفص فتموت • وقالت : بل ان بعض الأديرة تربيها بأعداد ضخمة لتبيع بيضها • اذ يبدو أن المولعين بها كثيرون جدا •

في الوقت الحاضر ،تكاثرت صراصير شييكو ، حتى وجب عليها تخصيص اناءين اثنين من (التامبا) • فكل سنة ، في حوالي اول تموز ، تأتي بتفقه البيض ، وفي حوالي نصف آب ، تشرع في الغناء •

وهكذا في ضيق اناء وظلمته ، تحيا الصراصير وتغني وتبيض وتثبت بيضها وتموت • انها تخلد النوع • نعم ، لذلك يظل هذا افضل من تربيتها في قفص ، فلا تعيش سوى فترة صيف واحد ، يبقى اذن نوع الحياة في اعماق آنام : ان الاناء بالنسبة اليها هو الدنيا بأسرها •

« الدنيا في اناء »هي اسطورة صينية قديمة جدا ، تعرفها شييكو • فالاناء يضم قصراً من ذهب ، وأبراجاً من لؤلؤ ، ورحيقاً سلسبيلا ، واطعمةجبلية وبحرية نادرة ؛ ان الاناء المغلق « عالم آخر » فصم عن الحقيقة ، التي هي حقيقتنا ، انه مكان ضيق • هذه هي احدى الاساطير الكثيرة عند النساك السحرة •

وان كانت الصراصير تعيش في اناء، فهذا ، بجلاء ، لا يعني انها تبغي الهروب من العالم • وهل هي تعرف انها حقاً في اناء ؟•• هكذا تنقضي حياتها •

ان ما كان ادعى الى دهشة شييكو في هذه الحشرات ، هو ما عرفته ، أن عدم ادخال ذكر غريب عليها ،بين حين وآخر، مع المحافظة على نفس الحشرات في الاناء

إنما يؤدي الى ولادة جيل جديد ، أصغر وأضعف . هذا ثمرة تعاقب توالد عصبي واحد . فمن اجل تحاشي هذا الضعف ، جرى المولعون بها ، على عادة تبادل الذكور منها ، فيما بينهم .

اذن ، كان ذلك في الربيع ، لا في الخريف ، فصل الصراصير . فليس عبثا أن أزهار البنفسج المتفتحة من جديد في هذه السنة ، في تجويفي الجميزة القديمة ، دفعت شييكو الى التفكير بالصراصير التي في اناءين .

الحشرات ، هي التي جاءت بها الى هذه الآنية ، اما ازهار البنفسج ، فما الذي دعاها الى الاقامة في مثل هذا الموضع الضيق ، المسير ؟ .. ان زهرات البنفسج قد تفتحت ، وهذه السنة ايضاً ، ستشاهد توالد الصراصير وغناءها .

« حياة الطبيعة ؟ »

رفعت شييكو خصلة الشعر التي كان نسيم الربيع يعبث بها . وراحت تفاضل بينها وبين هذه الزهرات وهذه الحشرات:
« وأنا ؟ » .

لم يكن أحد سواها ينظر الى هذه الزهرات الضعيفات ، في هذا اليوم من أيام الربيع ، حيث تتفجر حياة الطبيعة من كل جهة .

لقد تراءى لها أن ضجيج المستخدمين المنصرفين لتناول غدائهم ، يصل اليها من المخزن .

ولقد آن لها ، هي أيضاً ، أن تتهيأ لكي تمضي ، فتتمتع برؤية «الأشجار المزهرة» كما كانت قد وعدت .

كان ميزيكي شين ايشي قد اتصل بشييكو ، عن طريق الهاتف ، في الليلة الفائتة ، ودعاها الى مصاحبته لمشاهدة أشجار كرز هيكل (شينتو) في (هيبيان جنكي) . قال لها ، ان أحد أصدقائه الطلاب الذي يعمل منذ خمسة عشر يوما في تدقيق بطاقات الدخول ، عند باب حديقة المعبد ، أخبره أن الأزهار في أوج تفتحها .

« كأنني أقمت هناك مراقباً ، وليس في وسع أحد أن يكون أكثر منه اطلاعاً » قال لها شين ايشي في ضحكة مكتومة .

ـ وهل سيقوم أيضا بمراقبتنا ؟ سألته شييكو .

ـ اهتمامه ينحصر بالدخول فقط وهو يسمح للجميع بالدخول . » وضحك شين ايشي من جديد ضحكة

خفيفة • « مع ذلك ، ان كان هذا مما تكرهين فليدخل كل منا على حدة ، وليكن ملتقانا عند أشجار الكرز، مما من أحد ، يمل النظر الى هذه الأزهار، ولو كان وحيدا •

– اذن ، تستطيع ، أن نذهب أيضا كل منا على حدة ، أليس كذلك ؟

– نعم ، ولكن ، اذا هبت عاصفة في هذه الليلة ، واسقطت جميع الأزهار • من جهتي ، سيان عندي •

– ان وريقات الأزهار ، وهي مبعثرة ، لها فتنتها أيضا •

– أزهار ، عصفت بها الامطار وطوحت بها ووسختها • أهذه هي الفتنة التي تتحدثين عنها ؟

– فظيع أنت •

– من منا ، نحن الاثنين ؟

اختارت شييكو (كيمونو) عاديا وغادرت بيتها •

اشتهر هيكل (هييان) بـ « عيده التاريخي » ، ولئن كان قد أهدي الى الامبراطور – كانمو – الذي جعل مقره ، منذ أكثر من ألف سنة ، في هذا المكان الذي ما زال ، حتى اليوم، يدعى « كيو » « العاصمة » ، فهو لم يشيد الا في عام ٢٨ من تاريخ (ميجي) أي في عام ١٨٩٥ ، فالأبنية فيه ،اذن ليست قديمة جدا • مع ذلك ، فان المدخل والهيكل الخارجي ، بنيا على طراز (باب أوتين – مون) و (قصر ديغوكيديين) المتصببين في قلب – العاصمة – على عهد (هييان)•وفي العام ١٣ من تاريخ (شووا) (١) فرض أيضا على الهيكل طقس الامبراطور (كومي) ، وهو آخر امبراطور حكم البلاد ، قبل نقل المقر الامبراطوري الى طوكيو • ولكن ، ما زالت عقود الزواج الكثيرة ، تتام فيه حتى الآن ، حسب طقس (شنتو)•

ان الباقات الكبيرة الارجوانية التي تشكلها أشجار الكرز المتدلية الاغصان، والتي تملأ أرجاء الحديقة ، هي أجمل ما يقع عليه النظر • « حقا ، ما من شيء ، يفوق هذه الأزهار ، في تمثيل الربيع في (كيوتو) » • هذا ما يردده الناس الآن •

ما ان اجتازت شييكو باب الحديقة، حتى اجتاح لون أزهار الكرز كل كيانها•« آه ، في هذه السنة ، حظيت

(١) السنة ١٣ من تاريخ شووا أي عام١٩٣٨ حين فرض النظام العسكري ، وأصبح « الرجوع » الى الماضي هو القاعدة •

أيضاً بربيع (كيوتو) » وتأملت المشهد ملياً ، وهي جامدة ، لاتتحرك.

ولكن ، أين يمكن ان يكون شين ايشي في انتظارها ؟ ألم يصل بعد ؟

قررت أن تتمتع بمشاهدة الازهار بعد الاجتماع به . فنزلت المنحدر الصغير بين الاشجار المزهرة .

كان شين ايشي مستلقياً على ظهره، في وسط الأرض الواطئة المعشوشبة . يداه مشتبكتان تحت نقرته وعيناه مغمضتان .

شين ايشي مستلق ! هذا آخر ما كان يخطر ببال شيبكو . لم تصدق انتظار فتاة في حالة استلقاء ! أحست بشيء من الاذلال ، وبدت تصرفات شين ايشي السيئة ، أخف وقعاً عليها من صدمتها الآن وهو على هذا الشكل . اذ لم يسبق لها ، في حياتها، أن أبصرت مثل هذه الامور .

بل ، لعل هذا الشكل شيء مألوف، في عرف شين ايشي ؟ انه ، كثيراً ما كان يندفع مع رفاقه في مناقشات حادة، وهو مستلق على ظهره ، أو متكيء على مرفقه ، في حدائق الجامعة .

كان بالقرب منه ، أربع أو خمس عجائز صغيرات القامة ، يبسطن طعامهن ورحن يثرثرن بارتياح . لا ريب أنه شعر بشيء من العطف عليهن ، فجلس بقربهن فأخذته سنة من النوم .

هذه الافكار حملت الابتسام الى شيبكو ، الا أن وجهها ، على العكس، اصطبغ بلون الارجوان . ظلت في مكانها واقفة ، دون أن تناديه . فكأنما هي تنأى منه .. انها ، في حياتها ، لم تشاهد وجه رجل نائم .

كان شين ايشي يرتدي بدلة طالب، أنيقة ، وكان شعره مقصوصاً بعناية . وأهدابه الطويلة ، تضفي عليه مظهر طفل . بيد أن شيبكو لم تكن تنظر اليه .

« شيبكو ! » صاح شين ايشي وقد نهض بوثبة واحدة . واذا بغضب مفاجيء يستولي على شيبكو .

ـ أهكذا تنام . انك تتمالى . وعلى مرأى من الجميع .

ـ ولكنني ما كنت نائماً ! عندما وصلت أبصرتك .

ـ فظيع أنت .

ـ ولو لم أنادك ، فماذا كنت تنوين أن تفعلي ؟

ـ أتظاهـرت بالنوم ، عندمـــا أبصرتني ؟

ـ ما أشد ما يجب أن تكون هذه الفتاة سعيدة ، فكرت في نفسي ،وهذا ما أدخل على نفسي شيئاً من الحزن• الى جانب هذا ، كنت مصاباً بصداع•

ـ سعيدة أنا ؟

ـ • • •

ـ أما زلت مصابا بصداع ؟

ـ كلا ، انتهى الصداع الآن •

ـ أنت شاحب اللون ، فما بك ؟

ـ الآن ، على ما يرام •

ـ وجهك يشبه نصل سيفجميل»•

كان شين ايشي ، فيما مضى ، قـد سمع هذه العبارة ، كلما جرى ذكـر وجهه • بيد أنه ، لأول مرة ، يسمعها من فم شييكو •

وكلما قيلت له ، يحس كأن نارا متأججة ، تشب فيه •

« نصل سيف جميل ، لا جدوى منه في القتال• هنا ، ونحن تحت الازهار•» قال باسما •

ارتقت شييكو المحدر الصغيربخطى دقيقة ، كـي تمش على مدخل المجـاز المغطى • فغـادر شـين ايشي الأرض المعشوشبة ولحق بها •

قالت «اريد أن أرىجميع الازهار»• انأزهار أشجار الكرز الارجوانية، عند المدخل الغربي من المجاز المغطى، تلقي المرء ، على حين غرة ، فيأحضان الربيع • الربيع هو ، حقـا ، هنا • فالاغصان المتهدلة ، الملامسة للأرض، تنوم ، تحت ثقل الازهار المزدوجة ، المتألقة ، حتى أطرافها الدقيقة • انه فيض زاخر من الاشجار الزاهـرة ـ فكأن الشجرة ليست هي التي أنجبت أزهارهـا ، وان الاغصان ماهـي الا ركائز بسيطة لهذا التألق الفياض •

« منهنا ، الاشجار التي أوثرها » قالت شييكو وجـذبت شين ايشي الى المكان ، حيث ينطلق المجـاز المغطى نحو الخارج • هناك شجرة كرز،تمج بأزهارها ، فدنا شين ايشي ، بدوره، وراح يمعن النظر فيها معجبا •

« لو تأملها المرء ، لوجدها انثوية خالصة • أغصانها الدقيقة ، المتراخية أزهارها ، كل ما فيها زاخر ، وعلى غاية الرقة والعذوبة •• »

في أرجوان الازهار ، لون بنفسجي خفيف •

« أي شيء هو أكثر أنوثة ؟ هذا اللون ، هـذه الفتنة الرائعة ، هـذا

الجمال الجذاب الريان» قال متابعا.

ابتعدا متجهين صوب الغدير . لقد صف ، هنالك ، حيث يضيق الممر ، عدد من المقاعد الصغيرة ، المغطاة بقماش أحمر ، قاني الحمرة . كان يجلس عليها مدعوون الى حفلة شاي وهم يشربون .

واذا بصوت ينادي : « شييكو ، شييكو ! » .

من سرادق للشاي ، خرجت مازاكو ، من تحت السقف الشجري ، وهي ترتدي ـ كيمونو ـ للحفلات ، طويل الأكمام .

« شييكو ، أفي وسعك أن تساعديني برهة من الزمن ؟ آه ، كم أنا تعبة ! انني أساعد الاستاذ في الحفلة .

ـ بثيابي هذه، لا أستطيع الدخول الا الى ـ الميزويا ـ (١) أجابت شييكو.

ـ لا أهمية لذلك ، الى الميزويا ، ان شئت .. هي حفلة بسيطة جدا .

ـ ولكن ، معي شخص يرافقني.»

(١) الميزويا : الدهليز التابع لسرادق الشاي، فيه تهيأ وتغسل الادوات الضرورية لتناول الشاي .

انتبهت مازاكو الى وجود شين ايشي، فهمست في اذن صديقتها :

« خطيبك ؟ »

نفت شييكو بحركة من رأسها .

« عاشق ؟ »

حركت شييكو رأسها من جديد ، حركة نفي خفيفة .

أدار شين ايشي رأسه وبدأ يبتعد.

« لو تشتركان معاً في الحفلة ؟.. اذ ، لا أحد فيها تقريبا » .

رفضت شييكو دعوة مازاكو ولحقت بشين ايشي .

« هي صديقة لي ، نمارس معاً فن تقديم الشاي . جميلة ، أليس كذلك ؟

ـ من حيث الجمال ، ليست خارقة.

ـ حذار . قد تسممك .. » .

وجهت شييكو ، بعينها ، تحية الى مازاكو التي كانت جامدة ، تنظر اليهما وهما يبتعدان .

عند أسفل سرادق الشاي ، بعد اجتياز درب ضيق ، يظهر الغدير . كانت أوراق الزنبق ، تنتصب قرب النهر متشابكة ، خضراء ، ندية ، وأوراق النيلوفر تطفو على وجه الماء. حول هذا الغدير ، لا يوجد شيء

من أشجار الكرز .

دارت شيكو مع شين ايشي حوله ، ثم أوغلا في ظل مجاز ظليل . تعبق فيه رائحة الاوراق الفتية والتراب الندي . كان هذا المجاز الضيق الظليل قصيرا ، في نهايته ، بدت في النور بحيرة أكبر من الاولى . وكانت أزهار أشجار الكرز الارجوانية ، تنعكس صورها من الشاطىء براقة على صفحة الماء . وكان عدد من الاجانب يصورون .

كان شين ايشي يسبقها ، فعبر الغدير ، على الحجارة المصفوفة ، في عرضه . على ما يسمى «الممر النهري» وهو حجارة مستديرة الشكل ، كأنها قطع نشرت ، من دعائم (توري) الدالة على مدخل الهيكل . لقد توجب على شيكو ، أن ترفع ، في بعض الأماكن ، أطراف « الكيمونو » قليلا .

التفت شين ايشي اليها وقال :
« كنت أؤثر أن أحملك كي تمري .

ـ ما عليك ، الا أن تحاول . فان أفلحت ، قدمت لك تهانئي ! » .

في الواقع ، كان بامكان أي امرىء حتى المرأة العجوز نفسها ، أن تمر بسهولة .

كانت أوراق النيلوفر تعوم حول الحجارة أيضا . وعندما اقتربا من الشاطىء المقابل ، بدت لهما صور أشجار الصنوبر الصغيرة ، المنعكسة على الماء .

« ألا ترين أن ترتيب هذه الحجارة ينشق من الفن التجريدي ؟ قال شين ايشي :

ـ ألا ينطبق هذا على كل حديقة يابانية ؟ مع ذلك ، بدأت أضيق ذرعاً بالحديث الدائم عن التجريد ، حتى ولو كان الأمر ، لا يتعلق الا بالورس في حديقة دير ديكو ـ جي .

ـ مع أنه ، في الحقيقة ، بناء تجريدي . في ديكو ـ جي احتفال لاعادة افتتاح المعبد بطوابقه الخمسة : ألا تذهبين ؟ .. .

ـ أليس هو شبيها بمعبد كينكاكي ـ جي الجديد ؟

ـ هو جديد وبراق ، ولكنه لم يحترق . بل فككوه وأعادوه كما كان فيما مضى . هذا الاحتفال في موسم تفتح الازهار يجتذب جمعاً غفيراً .

ـ ان كان التمتع بأشجار الكرز هو الغاية ، فهذه الاشجار هنا وحدها كافية ، ولا حاجة لمشاهدة غيرها » .

وأتما عبور « الممر النهري » نحو أعماق الغدير .

فيما حول الشاطيء الذي بلماه ، تنتصب أشجار متشابكة من الصنوبر؛ كانا قد وصلا الى (هاشيدونو) ، « مقصف الجسر » . انه « جسر » يشبه بشكله « مقصفاً » كما يدل عليه اسمه الحقيقي : « مقصف الصفاء ». ان جانبي الجسر يشكلان مقاعد صغيرة لها ظهر قصير . في وسع المرء ان يجلس عليها ويستريح . فيسرح النظر فوق الغدير ، ليسبح في تأمل عميق . في أنحاء الحديقة . بيد أن الحديقة لا يمكن فصلها في الواقع ، عن الغدير.

كان بعض الناس ، على المقاعد ، يشربون ويأكلون . وكان ، في وسط الجسر ، أولاد يتلاحقون .

« شين ايشي ، شين ايشي ! الى هنا ! » قالت شييكو ، وقد سبقته الى الجلوس ، مشيرة الى مكان على يمينها.

ـ اني مرتاح وانا واقف ولو كنت عند ركبتيك ، قال لها .

ـ هذا ما يقال ... » وبعد أن أجلسته ، نهضت واقفة . « أنا ذاهبة لشراء طعام ، لسمك الشبوط . »

عندما رجعت ، رمت ببعض الطعام الى الغدير ، فسارعت الاسماك ، على الفور ، وفي سرعتها المجنونة ، دفع بعضها البعض الآخر ، خارج الماء . واذا بدائرة من التموجات الصغيرة تكبر وتتسع ، فارتعشت انعكاسات أشجار الصنوبر والكرز .

«اتريد القاء شيء من الطعام ؟» قالت شييكو وهي تقدم له ما تبقى معها . فلم يجبها شين ايشي . « أما زلت تشعر بصداع ؟

ـ كلا » .

ظلا ، هكذا ، جالسين ردحاً من الزمن . كان شين ايشي يحدق الى سطح الماء ، طلق المحيا .

« بأي شيء تفكر ؟ سمع شييكو تسأله .

ـ لا أفكر بشيء . هنالك فترات من السعادة ، لا يفكر المرء فيها بشيء ، الا تصدقين ؟

ـ ألان هذا النهار ، يوم مشرق ، متلألىء بالأزهار ؟

ـ كلا ، بل لأني مع فتاة سعيدة . السعادة ، ألا تنعكس كالشباب ؟

ـ سعيدة ، أنا ؟ » قالت شييكو ، كما فعلت منذ لحظة . وطاف بعينيها ،

فجأة ، ظل من الكآبة • وكانت قد التمعت : لعل هـذا لم يكن سوى انعكاس الغدير •

ونهضت واقفة •

« في الجانب الآخر من الجسر ، شجرة كرز ، أحبها •

ـ تراها من هنا أيضا : أليست هي هذه ؟ »

كانت أزهارها الارجوانية المزدوجة ذات جمال فائق •وكانت شجرةشهيرة• أغصانها متهدلة ، على نمط أغصان الصفصاف المائي ، ثم تنبسط كثيرا• حين دخلا تحت الشجرة ، شعرا بنسمة حمية تهب ، فبعثرت بعض وريقات الزهر ، ونشرتها عند أقدام شييكو وعلى كتفيها •

وكانت بعض الزهرات قد هوت على الأرض ، وزهرات أخرى كانت تسبح على سطح الغدير • ولكنها ، قليلة ، سبع أو ثمان ، لا أكثر •••

والأغصان المتهدلة ، رغم أنها قد أسندت الى ركائز من الخيزران ، فان أطرافها الدقيقة الزاهرة ، تدوكانها تلامس ماء الغدير •

من خلال هذا الفيض الزاخر من الازهار الارجوانية وعلىشاطيءالغدير الآخر ، فوق باقات أشجار الشاطيء الشرقي ، يبدو مرتفع تغطيه شجيرات يانعة •

« أليست هـذه هـي سلسلة جبال هيكا شياما ؟ » سأل شين ايشي •

« هـذا جبل ديمونجي ، أجابته شييكو •

آه ، جبل ديمونجي ؟ كنت أتخيله عاليا جداً • »

« لأنك تراه من خلال الأزهار » قالت شييكو وهيلا تزال بينالأزهار•

عند أسفل أشجار الكرز ، كان ينتشر رمل أبيض • وكان الى اليمين باقة فخمة من أشجار الصنوبر ، وهي كبيرة في هـذه الحديقة ، ثم كان المخرج •

قالت له شييكو ، بعد أن اجتازا باب ـ (الأوتين) :

« أوثر المضي الى (كيوميزي) •

ـ الى ديركيوميزي ؟ ردد شينايشي، بهيئة من لا يوافق على اقتراح سخيف جداً •

ـ من كيوميزي ، أحب أن أتمتع بمشاهدة الغسق فوق كيوتو • أحب ان أتمتع بمشاهدة السماء ، فوقجبال الغرب والشمس تميل الى المبيت •

وافق شين ايشي ، مسايرة لهذا الالحاح الشديد •

« حسناً ، هيا بنا •

ـ نمضي اليه مشياً على الاقدام ، اليس كذلك ؟ »

كان المكان بعيداً ، ولكي يتجنبا طريق الحافلة الكهربائية ، انعطفا في طريق (نانزنجي) ومرا خلف (شيبون ـان) ثم سارا عند اطراف الحديقة العامةفي (مار بياما) وخرجا من زقاق ضيق قديم ، مقابل (كييوفيري) • وكان ضباب أمسيات الربيع قد تراكم•

لم يبق من الناس ، حتى على منصة كييوميزي ، المشرفة على الوادي ،سوى ثلاث أو أربع طالبات • تكاد ملامح وجوههن لا تظهر بجلاء •

هذا هو الوقت الذي تؤثره شيبكو• كان في الهيكل الكبير ، في أعماق الظلام، نور قنديل صغير يشتعل • فمرت دون توقف • وتابعت سيرها ، من الهيكل الصغير الى البناء الداخلي • هنا أيضا ، أقيمت « منصة » ، بنيت بشكل عمودي • ولما كان سقفها من قشر شجر السرو ، فقد كانت خفيفة وصغيرة • هذه المنصة ، تشرف على الغرب • انها تطل على كيوتو باتجاه جبال الغرب •

أنوار المدينة تتلألأ ، على حين أن ضياء النهار ، ما زال ، خفيفاً •

دنت شيبكو من المنصة وغاص نظرها في اتجاه الغرب • كأنما هي قد سهت عن رفيقها•فاقترب منها شين ايشي •

« شين ايشي ، أنا فتاة لقيطة ، قالت شيبكو فجأة •

ـ فتاة لقيطة ؟

ـ نعم ، فتاة لقيطة • »

هاتان اللفظتان : « فتاة لقيطة » أزعجتا شين ايشي • أهذا ، تعبير عن حالة نفسية ؟

« الفتاة اللقيطة » ردد شين ايشي ، بصوت خافت :

« وأنت أيضاً تتخيلين أنك فتاة لقيطة ؟ أنا أيضا مثلك ، في قرارة نفسي • لعل هذا ما يراه جميع الناس ••• ولادتنا ؛ ألا تمثل ، ان الآلهة ، تهجرنا وتلقي بنا الى العالم؟ »

حدق شين ايشي الى شكل وجه شيبكو الجانبي • كانت ألوان المساء تلامس وجهها ، وتكاد لا تلونه ؛ بل ، لعل هذا هو التصور الذي يخامرك ، عند هبوط الليل في فصل الربيع •

« بل ، على العكس ، أليس من الواجب أن نقول : طفل من عطاء الله

طفل هجر، كي يفقد فيما بعد ...؟
الا أنشيبكو، ظلت تنظر الىالمدينة

في الأسفل، حيث تشع الأنوار، كأنها لم تسمع وكذلك شين ايشي، لميلتفت هو أيضاً.

تجاه هذه الكآبة، التي لم يكنشين ايشي يدرك لها سبباً، تلمس بحركة منه يد شيبكو. فنفرت منه.

« لا أحد يلمس يد فتاة مهجورة!

ـ كل طفل من عطاء الله، هو طفل مهجور، قال شين ايشي يطمئنها.

ـ لا تسترسل في البحث عن أمور، هي على مثل هذا التعقيد. فأنا لست مهجورة من لدن الله، بل أنا فتاة مهجورة، هجرها والداها.

ـ ...

ـ أمامشباك المخزنالأحمر، هنالك هجراني.

ـ ولكن ماذا تقولين؟

ـ الحقيقة: هذه الحكاية، كنت بحاجة الى سردها، لم أعد قادرة على كتمانها.

ـ ...

ـ ... وأنا أنظر من هنا الى المدينة المنبسطة، الغارقة في ضباب المساء. اني أتساءل ان كنت ولدت، حقاً، في كيوتو.

ـ ماذا تقولين؟ انك غريبة الاطوار ...

ـ ولكن، ما يمكن أن يدفعني الى اختراع قصة كهذه؟

ـ ألست أنت الابنة الوحيدة، المدللة، لتاجر يبيع بالجملة؟ ان للفتيات الوحيدات، أحياناً، تصورات وهمية ...

ـ حسن، موافقة، اني مدللة. مع ذلك، سواء لدي، ان كنتمهجورة أم لا.

ـ ألديك على ذلك برهان ما؟

ـ برهان؟ هو الشباك، ذو العوارض الحمر، أمام المخزن. « الشباك » هو، يعرف هذا، كل المعرفة. » صار صوتها أكثر ايناساً. « وقع هذا تقريباً، عندما انتسبت الى الثانوية، فقد نادتنيأمي وقالت لي، اني ما ولدت منها، وانها كانت قد سرقتني وفرت بي في سيارة.مع ذلك، فان أبي وأمي، يتناقضان أحياناً، في تعيين المكان، حيث وجداني. يقول أحدهما، ان ذلك كان في حي (جيبون) في ذات مساء، في موسم تفتح أزهار

الكرز ؛ ويقول الآخر ، أن ذلك كان على ضفة نهر (كامو) • لا شك أن الشباك ، بعوارضه الحمر ، أمام المخزن ، كان كئيباً جدا ، كما يفكران ، وان هذه القصص هي من اختراعهما •

ـ وأنت ألا تعرفين من هم أهلوك الحقيقيون ؟

ـ ان هؤلاء الذين ، هم الآن أهلي ، يحيطونني برعاية فائقة ، ولا تراودني أية رغبة في البحث والتنقيش • لعل أهلي الحقيقيين ، يرقدون بين المجهولين من الامـوات ، قرب (أداشـينو) • فالحجارة هناك ، هرمة جداً ••• »

كانت تنتشر ، من الجبال القريبة ، ألوان دافئة ، يبعث بها غسق ربيعي ، وقد اكتسحت ، مثل ضباب برتقالي ، نصف سماء كيوتو •

لم يتجح شين ايشي في اقناع نفسه ، ان شييكو كانت ابنـة مهجورة ، أو مخطوفة • فبما انها ابنة أسرة عريقة ، من أسر التجار بالجملة في المدينة ، فمن السهل عليها معرفة الحقيقة ، لو لجأت الى سؤال الجيران وحدهم ! بيد ان شين ايشي يشك ، حقاً ، ان كان هذا لـم يخطر ببالها قط • أما ما أثار الحيرة في نفسه ، وما تمنى معرفته ، فهـو السبب الذي دعا شييكو ، كي تبوح له بهذا السر ، في هذا المكان ذاته •

فقد استدرجت شين ايشي الى كيوميزي لتدلي اليه بهذا الاعتراف ولذا كـان صوتها محتفظاً بذلك الصفاء الهادىء • وكان هذا الصوت مشوبا بقوة براقة • ولم يبدُ فيه ما يدل ان كان نداء الى شين ايشي •

كان محالا على شييكو ، ان تشك في محبته اياها • بل ، لعلها باحت لـه بسرها ، لأنه يحبها حقا ؟ لم يخـالج شين ايشي مثل هـذا الشعـور وهـو يستمع اليها • بل ، على العكس ، الم يكن لهذا الافشاء ، وقـع في نفسه ، شبيه برفض مسبق لحبه ؟ « فتـاة مهجـورة » من يـدري ان لم تـكن ، القصة برمتها ، مصطنعة •••

قال لها شين ايشي ، وهما في « مييان جنكي » ، ثلاث مرات ، انها « سعيدة » ، فسألها وهو يحسب ان هذه الوسيلة قد تكون مدعاة للتكران :

« عندما علمت أنـك كنت فتـاة مهجورة ، أشعرت انك مفقودة حقا ؟ وهل خامرك شيء من الحزن ؟

ـ كلا ، أبداً ، ما شعرت اني مفقودة ولا حزينة •

ـ ...

ـ حين طلبت ان انتسب الى الجامعة، هتف والدي : « الجامعة ، لابنتنا ، الابنة التي سترث املاكنا ، هذا عمل ، لا فائدة منه مطلقا . بل ، الاجدىان تراقبي الاعمال كيف تجري ... » عندئذ ، ربما في هذا الوقت كنت ، قليلا ...

ـ كان هذا منذ سنتين ، أليس كذلك ؟

ـ منذ سنتين .

ـ أتطيعين دائما والديك ، دون اي اعتراض ؟

ـ أجل ، دائما تماما .

ـ حتى ولو كانت القضية ، تشبه الزواج ؟

ـ في الوقت الحاضر،نعم ، أجابت شيبكو دون تردد .

ـ وآراؤك ؟ أليست لك ، أية مبادرة على الاطلاق ؟

ـ لدي الكثير منها ، وقد تتحول في النهاية الى مصدر ازعاج .

ـ وأنت تخنقينها في داخلك ، حاسبة أنك تقتلينها هكذا .

ـ كلا ، لا أقتلها .

ـ أنت ، هدأ ، لا تتكلمين الا بالألغاز ، قال شين ايشي ، ببسمة خفيفة ، الا أن صوته تحطم ، فزاد من انحنائه على الدرابزين وهو يستشف وجه شيبكو .

« أود رؤية وجه الفتاة المهجورة الغامضة .

ـ الظلمة غمرت الآن كل شيء » ولأول مرة ، التفتت شيبكو اليه . كانت عيناها تشعان .

« أشعر بشيء من الخوف » قالت وهي ترفع عينيها الى سقف المعبد الكبير . كان طنف السرو الغليظ في السقف الناتىءكله في أعماق الظلمات ينقض عليهما .

الدير والشباك

منذ ثلاثة أو أربعة أيام خلت ، كان ساتا تاكيشيرو ، والد شيبكو ، قد وجد لنفسه مأوى،فيدير للراهبات منزو في قلب هضاب (ساغا) .

هل هو حقاً « دير » ؟ لم يكن فيه سوى حارسة الصومعة ، وقد تجاوزت الخامسة والستين من عمرها . هذا الدير الصغير،مثل كل شيء فيالعاصمة القديمة ، له حكايته ، بيد أن بابه، كان متوارياً عن الانظار ، في أعماق

غابـة من شجـر الخيزران ، وما دام السائحون يجهلون وجوده ، فقد ظل المكان مقفراً . الا أن ثمة مقصفاً ، منزويـاً ، مخصصاً لحفلات الشاي . ولكنه ظل مغموراً . كانت الحارسة، أحياناً ، تغادر المنسك ، كي تنصرف الى تعليم فن الأزهار .

كان تاكيشيرو ، قد استأجر غرفة في الدير ، وفي هذه المرحلة من حياته، من يدري ، ان لم يكن قد أصبح شبيهاً بهذا الدير ؟..

اخيراً ، مهما يكن من أمر المتاجرة بالجملة ، بأقمشة (الكيمونو) التي هي السبب في شهرة كيوتو ، فان مخزن (ساتا) كان في حي (ناكاجيو) في المركـز الرئيسي . وبما أن المخازن المجاورة ، أصبحت على العموم، شركات مغفلة ، فان مخزن (ساتا) كان في الظاهر ، شركة . وكان تاكيشيرو ، بطبيعة الحال ، رئيساً لها ، غير أن المستخدم الاول (أو كـما نسميه في أيامنا هـذه « مدير الاعمال » أو «الوكيل») كان مكلفاً بعقد الصفقات. مع هذا ، فان أكثر تقاليد «الدكاكين» ذات الطراز القديـم ، ظلت محتفظة بسيطرتها .

كـان تاكيشيرو ، منذ صغـره ، يتصرف تصرفاً شاذاً ، غريبا . وينفر مـن الناس . وان عـرض أقمشته المنسوجة والمصبوغة حسب تصميمه ، مثلا ، هو مطمع ، لا يسعى اليه أبداً. أما اذ عرضت ، على غير ارادة منه ، فان هذه الابتكارات الغريبة جدا ، عن الذوق العصري ، لا تلقى رواجاً، بل تجد صعوبة في بيعها .

كان أبوه (تاكيشيبي) قد صمم على تركه وشأنه ، يتصرف كما يشاء، دون أي رادع منه . كان المخزن ، اذ ذاك ، يضم عدداً كبيراً من الرسامين والفنانين أيضاً ، يصممون أقمشة ، تلائم ذوق العصر . ولكن ، ما كاد يدرك أن ابنه ، تاكيشيرو ، الذي لم يكن يتمتع بشيء من حدة الذكاء ، يدوس هذا كله ، ويلجأ الى العقاقير كي يتخيل رسومه المزعجة على أقمشة (يـوزن) حتى بـادر ، فوراً ، الى إرساله إلى المستشفى .

وحين خلف تاكيشيرو والده، سادت التفاهة تصميماته ، فتذمـر وتأفف. وكـان الاعتزال في ديـر (ساغـا) يتجاوب مع رغبته ، في استرجاع ما فقد من وحي .

بعد انتهاء الحرب ، زالت دواعي (الكيمونو) كغيرها من الأشياء الكثيرة ، وتبدل كل شيء وانقلب رأساً على عقب ، فالتصاميم التي كانت ، فيما مضى ، مخالفة للصواب ، وكانت سائدة تحت هيمنة المقاقير ، ألا ينظر اليها اليوم ، على أنها من التجريد الجديد كل الجدة ؟ الا أن تاكيشيرو ، كان قد قارب ، اذذاك ، الستين من عمره .

«وان اندفعت في الفن الكلاسيكي؟» كان يهمس في سره أحيانا ، فيمثل ، أمام ناظريه ، كل ما كان ، قبلا ، أجود واكمل : الرسوم ، ألوان الأقمشة القديمة ، الدقيقة ، ثياب الزمن الماضي ، كلها كانت في رأسه ، وكان يكل تأكيد ، يضع تصميماته (للكيمونو) وهو يطوف الارياف وأجمل ما في كيوتو من حدائق .

جاءت ابنته ، شييكو ، حوالي الظهر .

« بابا ، أيعجبك (التولي) الحار من عند (موريكا) ؟ اشتريته لك قبل مجيئي .

ـ نعم ، أشكرك .. ولكن ما يثير في اعجاباً أشد من اعجابي (بالتولي) انما هو مجيئك . اتبقين معي حتى هذا المساء ؟ ان وجودك ، يبعث في شيئاً من الهدوء . وهذا ما يساعدني على القيام برسوم ممتعة .. »

ان صاحب مخزن أقمشة يبيع بالجملة ، ليس أبداً بحاجة كي ينصرف الى تصميم رسوم ، بل بالعكس فهذا ما قد يعود على تجارته بالضرر .

مع ذلك ، فان تاكيشيرو ، كان قد أقام مكتبه ، في المتجر ، قرب نافذة في صدر غرفة ، تنفتح على الحديقة الداخلية ، حيث وضع الفانوس المسيحي ، وكان يظل جالساً فيه ، حتى الظهر أحياناً ، في أيام كثيرة . هنالك في خزانتين قديمتين من الخشب الثمين خلف المكتب ، حشرت أقمشة قديمة صينية ويابانية . وكانت المكتبة ، الى جانب الخزانتين ، لا تضم سوى نسخ ثانية من أقمشة العالم بأسره .

في مؤخرة المتجر ، في الطابق الاول فوق غرفة خاصة ، حفظت بدلات (نو) وأثواب رسمية ، نسائية ، وهي ما زالت كما صنعت . كما أنها لم تحل من أقمشة منقشة ، صنعت في « بلاد الجنوب » .

هذه الثياب ، قام بجمعها والد تاكيشيرو وحده ، واذا ما حدث عرضاً ،

وجاءه من يطلب استعارة البعض منها، لعرضها في معرض للثياب القديمة ، فهو يرفض بجفاء وخشونة : « احتراماً لارادة أجدادي ، لن تجتاز هذه الثياب عتبة المتجر » . ويكون الرفض جازماً .

انه متجر قديم من متاجر كيوتو ، ولكي يصل المرء الى المراحيض كان عليه ، أن يسلك مجازاً ضيقاً ، يمر بجانب مكتب تاكيشيرو . في هذه الحالة ، يلزم الصمت ، مقطباً حاجبيه، أما اذا تعالى ضجيج من المخزن ، فهو يصيح بصوت مضطرب :

« أليس بامكانكم ، ان لا تحدثوا ضجيجاً ؟ » فيحضر المستخدم الأول وينحني ، ويداه على الأرض .

« هذا زبون من (أوزاكا) .

ـ ليس عندي ما أبيعه اياه . إن تجار الجملة منتشرون في كل مكان .

ـ ولكنه ، زبون قديم ...

ـ الأقمشة تشترى بالمشاهدة . فماذا يدعوه الى الكلام ، أليس له عينان ! ان كان خبيراً بمهنته ، فهو يعرف من أول نظرة . حقاً ، ان التفاهة عندنا ، ليست نادرة الوجود .

ـ حسناً ، حسناً . »

تحت الفرش الخاصة بالجلوس ، كان تاكيشيرو ، قد ابتدأ من المكتب ، ومد سجادة نفيسة ، جيء بها من البلاد الأجنبية . كما علقت حوله على الجدران ، بشكل ستائر ، أقمشة ثمينة من النسيج المنقش . هذه كانت فكرة شييكو . وهي ، مع ذلك ، مفيدة أيضاً، في التخفيف من الضوضاء المنبعثة من المتجر . كانت شييكو ، بين حين وآخر، تبدلها . وفي كل مرة ، يؤخذ والدها بأنسها ، فيحدثها ، عن القماش ، الذي وقع عليه اختيارها : ان كان من يافا ، أم من فارس ؛ والعصر الذي ينسب اليه ، ونوع رسمه . كانت شييكو ، لاتفهم ، أحياناً ، هذه الشروح المفصلة .

« من الخسارة أن يصنع بها كيس ، وهي أكبر من أن تقص الى مربعات لحفلة شاي ، ومن يدري مقدار مايلزم منها لصنع حزام (كيمونو) ... قالت شييكو ، ذات يوم ، وأنظارها سارحة على الستائر .

ـ هيا ، أعطيني المقص ... » قال، اذ ذاك ، أبوها .

فأمسكه ، وبيده الرشيقة ، قص به احدى الستائر .

« هذا يكفيك ، كما أظن . »

بهتت شييكو ، وأحست أن الدموع تجول في عينيها .

« ولكن ... بابا ؟

ـ هيا ، هيا ، لو صنعت منه حزاما ، فقد تجيئني أفكار جديدة ؟ »

وقد لبسته شييكو ، وهي تقوم بزيارة والدها ، في دير (ساغا) .

لئن وقع نظر تاكيشيرو ، بصورة عفوية ، على هذا الحزام ، المصنوع من القماش الثمين الذي تلبسه ابنته ، فهو لم يستقر عليه طويلا . ان الاسباب التي أدت الى قماش ثمين منقش ، بألوان شديدة التناقض ، كانت دون ريب ، مرنة ونبيلة ، أما أن يصنع منه حزام لفتاة ، في ريعان صباها .. فكر الاب .

وضعت شييكو ، الى جانب أبيها ، علبة مصمغة على شكل هلال ، تحوي وجبة طعامه .

« انتظر قليلا ، قبل أن تبدأ ، سأهيىء لك طعام (اليودوفي) .

ـ ...

أبصرت شييكو خلفها وهي تهم بالنهوض ، غابة الخيزران ، المنبسطة عند باب الدير .

« انه خريف الخيزران ... » قال أبوها ، ثم أردف :

« أما الجدار الترابي ، فانه يتفتت في بعض الاماكن ، ويميل في غيرها ويتشقق ويتجزأ من كل نواحيه . انه يشبهني ! »

تعودت شييكو ، أن تسمع هذه الاقوال من أبيها ، فما حاولت ، أن تطيب خاطره ، بل اكتفت بترديد كلماته الأولى : « انه خريف الخيزران..

ـ وأشجار الكرز على طول الطريق ، وأنت قادمة ؟ سألها اذ ذاك وهو شارد الذهن .

ـ الازهار ، كانت قد سقطت والبعض منها يعوم على سطح الغدير . من أشجار الكرز ، لم يبق سوى اثنتين أو ثلاث ، متواريات بين أوراق الجبل التي مازالت طرية ! وان النظر اليها ، على بعد مسافة ، أثناء المرور ... في الاعماق ... جميل حقاً وبهيج .

ـ نعم ، أعرف هذا ... »

دخلت شييكو الى الغرفة الداخلية . كان وقع البصل الذي تهرسه والسمك المجفف الذي تبشره ، يصل الى سمع تاكيشيرو . عادت شييكو (بالتوفي) الذي هيأته ، في كوب (تاريجن) .

كانت هـذه الأكواب قـد جيء بها من البيت •

قدمت الطعـام لأبيهـا وهي تطفح بشاشة •

« الا تاكلين معي ••• قليـلا ؟ » قال لها ، وفيما هي تجيب :

« بلى ••• بكل سرور ••• » ألقى نظره على كتفيها ، حيث يولد الصدر•

« حقيقة ، أليس كذلك ؟ تلبسين دائماً أقمشة ، قمت أنا بصنع رسومها• أعتقد اعتقاداً راسخاً ، انك الوحيدة• اذ ما من أحد يشتريها •••

ـ ولكني ، ألبسها لأنني أحبها •

ـ هذا ، هو المفاق حقاً •••

ـ المفاق ، ربما •••

ـ ما يلزم الفتيـات ، انما هـو المفاق • قال فجأة بلهجة قاسية •

ـ ان مـن يستمون النظر فيهـا ، لا يتوانون عن اطرائي ••• »

لم يجب أبوها بشي •

لا يرسم الآن تاكيشيرو ، الا لاشباع هوايته أو لتزجية فراغه • ثم ما الفائدة من مثل هذه المشاريع ، في هذا المخزن الذي يعرض بضاعتـه عـلى جمهـور واسع ؟ فالمستخدم الاول ، ما كان يطبع منها سوى نسختين أو ثلاث ، وهـذا أيضاً ، مراعاة لشعور صاحب المحل • فتأخذ ابنته واحدة منها لنفسها• وكان القماش ينتخب دائماً بعناية فائقة •

« تعلمين أنك لست مجبرة عـلى لبس الأقمشة التي أقـوم برسمها ، قـال تاكيشيرو ، ولا أن تأخذي من الأقمشة التي نبيعها في المخزن • لا تحسبي ذلك اكراهاً •

ـ اكراه ؟ أجابت شييكو مستغربة• اكراه ! هذا ، في الحقيقة، آخر ما يمكن أن أفكر فيه •

ـ حـين تلبسين ثيابـاً ، أدعى الى البهجة ، ألا أقـول لنفسي ، ان لـك عشيقاً ؟ » قال الوالد ، وهـو جامد الوجه ، لا يضحك فيه ، سوى صوته•

بينما كانت شييكو ، تضع طعـام (التوفي) وقعت نظراتها على مكتب أبيها الكبير : لم يكن عليه ، ما يدل عـلى أنه كان يعمل في تصميم الكيوزوم(١)•

لـم يكن في زاويـة المكتب سـوى مجلدين ، من النسخ (بل من الانسب القول ، انهمـا كتابان مـن الخط)

(١) قماش عليه رسوم مما تشتهر به مدينة كيوتو •

ولفائف تدعى « قطع من جبل كويا » ومحبرة ورسوم على خشب مصمغ ٠

كانت شيبكو تتساءل ، هل حاول والدها ، في ذهابه الى الدير ، نسيان الحزن والاعمال ٠

« اني أتعلم وأنا في الستين ٠٠٠ قال ، وكأنه مرتبك ، تعلمين انسيوهة الخطوط في الحروف التي كانوا يرسمونها ، على عهد (الفيجيوارا) ليست دون جدوى للرسوم ! ألا تعتقدين ذلك ؟

ـ ٠٠٠

ـ مايزعجني ، هو أن يدي ترتجف٠

ـوان كتبت حروفاً كبيرة ؟

ـولكنني أكتب حروفاً كبيرة ٠٠٠

ـ وهذه السبحة القديمة على المحبرة ؟

ـ هذه ؟ الحارسة ، كانت لطيفة وأهدتني اياها ٠

ـ أو تستعملها للصلاة ؟

ـ بلغة هذه الايام ، انها « مجلبة للسعادة » أشتهي أحياناً ، وأنا أضعها بين أسناني أن أفتت حباتها ٠٠٠

ـ آه ، هذا ما يقزز النفس ! هي حبات سبحة ، وسخها عرق الاصابع ، التي تداولتها ، خلال سنوات كثيرة ٠

ـ لماذا ؟ ان آثار العرق هذه ، انما هي آثار ايمان راهبات ، على مدى جيلين أو ثلاثة ، أليس كذلك ؟ »

أحست شيبكو ، انها تثير كوامن الحزن في نفس أبيها ، فأحنت رأسها ولزمت الصمت ٠ حملت الى المطبخ كل ما بقي من الوجبة ٠

« والحارسة ؟ سألته وهي راجعة الى المجرة ٠

ـ ستعود حالا٠وأنت ماذا ستفعلين؟

ـ سأتمشى قليلا في هضاب (ساغا) ، وسأعود إذ أن في هذا الوقت ، يجتمع حشد كبير من الناس في (آراشياما) واني أحب كثيراً أحياء (نونوميا) في (أداشينو) كما أحب طريق دير (تيزون ـ إن) ٠

ـ ان كنت تحبين هذه الاماكن وأنت في هذه السن ، فهذا ما يثير القلق ٠ بشرط أن لا تصبحي مثلي٠

ـ هل بامكان امرأة ، أن تشابه رجلا ؟ »

كان الوالد وهو واقف على المجاز المنطى ، يرافق شيبكو بنظره ٠

سرعان ما عادت الراهبة العجوز٠ وسرعان ما انصرفت الى تنظيف الحديقة ٠

جلس تاكيشيرو أمام مكتبه،ورأسه مفعم برسوم أزهار الربيع هــذه ، وأزهــار العنشار ، التي خلفهــا (سوتاتسو) و (كوران) · وفكــر في شييكـو ، التي انصرفت منذ برهــة وجيــزة ·

ما كادت تبلغ طريق التربة ، حتى أطبقت غابة الخيزران على الدير ، حيث يقيم والدها ·

كانت شييكو التي تنوي أن تصلي في دير (نمبيتسي ــ جي) · في حي (آداشينو) ، قد ارتقت السلم الحجري القديم ، حتى وصلت الى المكان الذي ينتصب فيه ، على منصة إلى اليسار ، تمثالان حجريان لبوذا ، فاذا بأصوات حادة ، تطرق مسامعها ، فتوقفت ·

كانت أحجار رفيعة ، مجمعة بالمئات، لا تعد ولا تحصى ، تتفتت وتتهـار ، هذه هي،التي تسمى «البوذاالمجهول»·

ففي هــذه الأيام الاخيرة ، نظمت هنا ، لهواة التصوير ، جلسات خاصة، وقد أقيم ، في وسط تجمع القبور ، نساء يرتدين لباساً فريداً في نوعــه وخفيفاً جداً · والآن ، يجري الشيء نفسه ، دون ريب ·

عاودت شييكو نزول السلم الحجري محلقة وراءهــا تماثيل بوذا ، وقــد عادت الى ذاكرتها عبارات أبيها ·

ان شاءت أن تتجنب (آراشيياما) وسائحيها ، في الربيع ، فهذا شأنها ، اما أحياء (تونوميا) أو (آداشينو) فهي لا تليق بفتاة صبية،كما لا يليق بهــا أن ترتدي ثياباً عفة» ، رسمهــا والدهــا ···

« في هذا الدير ، لا يؤدي والدي اي عمل » فكرت ، وقد غمس قلبهــا حزن جامح ·

« ترى ، ماذا يراوده من أفكار ، حتى يشتهي أحياناً ، أن يقبض بــين أسنانــه عــلى حبات هــذه السبحة المهترئة ·· »

كانت شييكو تعلم أن والدها كان أحياناً وهو في المخزن يكبح جماحذلك العنف ، الذي كان يهم أن يدفعه الى الامساك بحبات سبحة وسحقهــا بــين أسنانه ··

« ما عليه ، الا أن يستعيض عن ذلك بعض» أصابــع يدي» أنا ·· » همست وهي تهز رأسها · ثم حاولت أن تتذكر اليوم الذي قامت فيهوحدها مع أمهــا بقرع ناقوس (نمبيتسي ــ جي) ·

كانت قبة الناقوس حديثة البناء، وأمها التي كانت صغيرة الجسم ، لم تفلح في احداث رنين رخيم ، رغم ما بذلت من جهود .

« ولكن ، ياأماه ، لابد من معرفة طريقة الايقاع » وضغطت براحتها على يد أمها ، وقامتا معاً بدق الناقوس. فجاء الرنين رخيماً .

« هذا صحيح . ولكن ، كم من الوقت ، سيظل يرن ؟ قالت الأم سعيدة .

— هذا ، بالطبع ، لا يتناسب مع الأصوات التي يحدثها الرهبان»أجابت شييكو ضاحكة .

كانت شييكو ، وهي شاردة فيعالم ذكرياتها ، قد سلكت طريقاً صغيراً ، يؤدي الى (نونوميا) . وقد كتب عن هـذا الطريق ، منذ زمن ليس ببعيد ، « انه يؤدي الى ما تحت أرض غابة خيزران » أما اليوم ، فان الظل قد تراجع أمام النور. كانت صرخات الباعة ، تتعالى من باب المعبد . أما الهيكل الصغير فلم يتبدل . وقد تحدث عنه (الجانجي موتو غاتاري) بهذه الكلمات : هنا ، على ما يقال ، كانت الكاهنة (الأميرةمن الاسرةالامبراطورية)

المختصة بخدمة هيكل (ايز)،منصرفة الى تطهير جسدها ، وبقيتمنعزلة فيه، مدة ثلاث سنوات ، والناس يعرفون تابوتها المصنوع من «الخشب الأسود» الذي يحتفظ بقشرته ، كما يعرفون أسيجتهـا الواطئـة ، ذات الفـروع المتشابكة .

عندما يترك المرء طريق نونوميا، ويسلك طريقا ريفياً ، تنبسط الارض اذ ذاك ويبـدو للعيان ، واضحـاً ، جبل (أرا شيياما) .

وقبـل أن تبلـغ شييكـو جسـر (توجيتسيكييو) على الضفة المكسوة بأشجار الصنوبر ، ركبت سيارةكبيرة.

« اذا عدت الى البيت ، فماذا أقول عن أبي .. أمي تعلم ، ومع ذلك..»

كانت مخازن التجار في (ناكاجيو)، قد هدمت الحرائق القسم الأكبرمنها، قبل أن يعتلي (ميجي) عرشه.ومخزن تاكيشيرو لم ينج أيضا من الحريق .

ولئن كان قد بقي حتى الآن عدد من المخازن القديمة ، من نفس طراز « العاصمة » بشبابيكهـا ذات اللون الأسمر الآجري ، ونوافذها فيالطابق الأول ، ذات القضبان المرصوصـة ، فانها ، في الواقع ، لا تعود الا الى مئة

عام . يقال ، وهـــذا صحيح ، ان الخشب الصلب ، في قلب مخـــزن تاكيشيرو ، لم يستجب لألسنة اللهيب.

فان لم يجدد تاكيشيرو بناءمخزنه، وفق الذوق العصري ، الا يعودالسبب في ذلك ، دون ريب ، الى حلق صاحبه ان لم يكن ، الىقلة نجاحه فيالتجارة.

وصلت شيبكو الى بيتها ، ودفعت بشباكه : وغاص نظرها ، حتى صدر البيت .

كانت أمهـا ، (شيج) ، جالسة وراء مكتب أبيها ، وهي تدخن . ان من يراها وهي مسندة ذقنها،الى يدها اليسرى،وحانية ظهرها ، يخالها تقرأ او تكتب ، بيد أن المكتب ، كانخاليا من كل شيء .

« هـا أنذا . قالت شيبكو وهـي تدنو منها .

ــ آه .. عدت . متعبة ؟ أجابت وكأنها تنبهت فجـأة . ثـم قالت : « وأبوك ، كيف حاله ؟

ــ بخير ... »

فيما كانت شيبكو ، تفكر برهة من الزمن ، في جوابها ، قالت : « جئته (بتوفي) حار .

ــ من عند (موريكا) ؟ لقد سُر أبوكِ ، دون ريب . وهل طبختهاله؟»

فاجابت شيبكو بالايجاب .

«كيفكانت أراشياما ؟ سألتالأم.

ــ في ازدحام جنوني ..

ــ هل مضيت بصحبة والدك ؟

ــ كلا ، كانت الحارسة غائبة ...»

ثم أردفت : « يبدو انه كانيتمرن على الخط .

ــ الخط ؟ قالت الأم ولـم يبـد عليها ما يدل على الدهشة : ان الفكر ينعم فيه بالهدوء .. هذا ما جربته بنفسي ... »

استرقت ، شيبكو ، النظر الى وجه أمها الجميل الابيض . الا أنهـا لـم تعثر فيه على أمارة ، تستطيعتأويلها.

« شيبكـو ، نادتهـا الام بلطف : تعلمين ، انـك لست مجبرة عـلى أن تخلفي والدك ، في ادارة المخزن .

ــ ...

ــ ان شئت الزواج ، ففي وسعك أن تفعلي .

ــ ...

ــ أتسمعينني ؟

ــ ولكن ما تعنين بهذا ؟

ــ هـذا ما يصعب شرحه بعبارة واحدة ...

ولكني تجاوزت الخمسين ، وان كنت اقول هذا فلأنني فكرت فيه .

ـ وان حدث وتركت هذا العمل ؟
وترقرقت الدموع في عينيها .

ـ ما زالت الفرصة مؤاتية لك لتجيبي . » وراحت الام تبتسم بفتور .
« شييكو ، أتفكرين حقاً ، ان من الواجب ، أن نتخلى عن المحزن ؟

لم تتعالَ رنة صوتها ، بيد انها تصلبت . ـ وحين ظنت شييكو ، انها رأتها تبتسم بفتور ، ألم تكن محطئة؟
« نعم ، هذا ما أفكر فيه حقاً . » ،
واخترق الألم صدرها ، كالسهم .
« لست مستاءة . فلا تكتئبي هكذا ! ولكن ، أيهما أشد ايلاماً : قول مثل هذه الأشياء ابان الشباب أو سماعها ابان الشيخوخة ؟ أنت تعلمين هذا ، أليس كذلك ؟ .
ـ عفوك يا أماه .

ـ سيان ، أعفوت عنك ، أم لا ..
وابتسمت الام حقاً ، في هذه المرة ، وهي تضيف قائلة : « بصراحة ، هذا ما يناقض تماماً ما قلته لك ، منذ لحظة ..

ـ وأنا ، ما أشد همومي . فأنا لم أعد أعي ما أقول .

ـ الناس ـ والنساء كالآخرين بالتأكيد ـ يجب أن لا يتراجعوا أبداً عما يتفوهون به .

ـ أماه ؟

ـ هل قلت هذا أيضاً لوالدك في ساغا ؟

ـ كلا .. لم أقل له شيئاً من هذا .
ـ حاولي أن تقوليه له . حاولي . قد ينزعج دون ريب ، بما أنه رجل ، ولكنه ، في أعماق نفسه سيتهلل . »

زادت الأم من ضغط ذقنها على يدها ، وتابعت : « اني ، وأنا جالسة وراء مكتب أبيك ، كنت أفكر فيه .

ـ أصبحت ، أنت ، يا أماه ، تعرفين كل شيء ...
ـ ولكن ، أي شيء ؟.. »

ظلت كل من الأم والابنة صامتتين ، لحظات قليلة . لم تعد شييكو تستطيع البقاء في مكانها : هل أذهب الى نيشيكي فأجيء بشيء للعشاء ؟
ـ شكراً . هذا لطف منك . »

نهضت شييكو واتجهت صوب المخزن مارة بالغرفة المبنية على مستوى الأرض . كانت هذه الغرفة ، فيما مضى ، تمتد الى الداخل ، وهي طويلة وضيقة .

كانت عند الجدار المقابل للدكان ، المواقد السوداء ، بجانب بعضها،وثمة مكان لتهيئة الطعام ٠

أما في هذه الأيام ، فقد بطل ، بالطبع،استعمال هذه الافران القديمة٠ وفي مكان ، يبعد قليلا ، أقيم موقد على الغاز ، وفرشت الأرض بألواح خشبية ٠ لأن الأرض كانت ، قبلا ، من الملاط وكانت الريح تتلاعب بصورة دائمة ، فكان يصعب الوقوف هنا ، في فصول كيوتو الشتوية هذه، حيث البرد ، لا يشفق ولا يرحم ٠

غير أن الفرن ، كان سليماً، لم يمس ٠ وكان ذلك ، دون ريب (كما هي الحال في أكثر البيوت) اكراماً (لكوجان) ، الاله الحامي ضمار النار ، والمقيم في الفرن ٠ لقد وضعت خلف الفرن صفيحة لدرءخطرالحريق، كما صفت دمى (هوتي) ٠

كان عدد الدمى سبعاً ، على الأكثر، وفي كل عام ، في أول « يوم الحصان » يحج الناس الى (فوشيمي)، الى هيكل (ايناري) كي يأتوا منه بدمية واحدة ٠ أما اذا أصيبت الأسرة بفقد أحد أعضائها ، فيجب ، عندئذ،البدء من جديد ٠

في مخزن شيبكو ، كانت آلهة المنزل السبعة ، موجودة كلها ٠ لم يكن في الاسرة ، سوى الأب والأم والابنة وهؤلاء السبعة ، الذين ، لم يمس الموت أحداً منهم ، خلال السنوات العشر الاخيرة ٠

الى جانب آلهة المنزل المصفوفة،كان هناك اناء للزهور ، من الفخارالابيض وكانت الأم ، كل يومين أو ثلاثة ، تغير الماء وتمسح الرف بعناية ٠

ما كادت شيبكو تجتاز باب المخزن، وكيس المؤن بيدها ، حتى أبصرت شاباً يزيح شباك المخزنويدفعهجانباً٠

« عجباً ، هذا عامل المصرف ٠ » لابد أنه لم يرها ٠

كان هذا ، موظف المصرف الشاب، الذي يجيء عادة ٠

« لا شيء يقلق البال،دون ريب » قالت لنفسها ٠

بيد أن رجليها عصتاها ٠ فاقتربت من الشباك الذي يذود عن مقدمالدكان تاركة أصابعها ، تنساب واحدةواحدة، على هذا الشباك ٠

انزاح شباك المخزن بكامله:فالتفتت الى المخزن ونظرت ٠

في الطابق الاول ، أمام النافذة ،

ذات الشعرية المرصوصة ، وقعت عيناها على اللوحة القديمة • فوق هذه اللوحة ، كان قد ثبت سقف صغير • هذا ما يدل على استمرار العمل في المحل ، كما انه كان بمثابة زخرفة •

كان نور شمس الربيع الغاربة ، يلتقي على الأحرف الذهبية ، في اللوحة المهترئة ، بهاءً كامداً • ويخلع عليها ، بالاجمال ، كآبة خرساء • وكان قطن اللافتة السميكة ، فوق الباب ، متفسخاً مهترئاً •

« ان تعس أشجار الكرز الحمراء المتهدلة ، في هيكل (هيبان) قد تبدو لنا كئيبة حسب حالتنا النفسية » فكرت شيبكو وحثت خطاها •

في سوق (نيشيكي) كان الناس ، على عادتهم ، محتشدين •

وفيما كانت شيبكو عائدة ، أبصرت قبل محزن أبيها بقليل ، فلاحة شابة من (شيراكاوا) ، فنادتها :

« هل تعرجين علينا ، الى البيت ، لو سمحت •

ـ نعم ، بكل سرور • هكذا ، تعودين ، يا آنسة • أجابت • وأين كنت ؟

ـ في نيشيكي •

ـ أنت عمامة !

ـ هل لك ان تعطيني أزهاراً لآلهة البيت •••

ـ نعم ، بكل تأكيد ، انظري الى ما يروق لك • »

كانت هذه « الازهار » اوراق (ساكاكي) • ولم تكن ، مع ذلك ، سوى غرسات غضة •

كانت الفلاحة الفتية ، تجيء لبيع الازهار ، في اول كل شهر وفي منتصفه • فرددت :

ـ ما أعظم سروري ، لرؤيتك اليوم ، يا آنسة • »

شعرت شيبكو ، كذلك ، بموجة من الغبطة ، تعمر قلبها ، لاختيارها هذه الاغصان ، الغضة الاوراق •

دخلت البيت وهي تشد على هذه (الساكاكي) بيدها :

ـ جئت ، يا اماه • » وكان صوتها يرن بصفاء •

أزاحت شيبكو الشباك قليلا ، ونظرت الى الشارع • ولما كانت القروية الشابة ، لا تزال في مكانها ، نادتها :

« تعالي ، خذي قسطا من الراحة • هل لك في شيء من الشاي ؟

وافقت الفتاة بايماءة من رأسها :

ـ نعم ، بسرور . هذا لطف منك ...

اجتازت الغرفة القائمة على مستوى الارض وهي تحمل أمام وجهها بعض الازهار البرية .

« ما هذه ، سوى ازهار برية ، لا ثمن لها ...

ـ شكرا ، تذكرت اني أحبها ... »

قلبت شييكو أنظارها ، معجبة بزهرات الحقول هذه .

بالقرب من المدخل ، قبل الافران قليلا ، يوجد بئر قديم ، بغطائه المصنوع من الخيزران المجدول . على هذا الغطاء ، وضعت شييكو الازهار والساكاكي .

« سأجيء بالمقص ... آه ، حقاً ، يجب ، اولا ، غسل اوراق الساكاكي .

ـ المقص هنا ، قالت القروية الشابة وهي تقمقع به ، ان غرفتك نظيفة دائما ، ونحن اللواتي نبيع الازهار ، نطرب لهذه النظافة .

ـ أمي مولعة بالجدال ...

ـ وانت ، ألست مثلها ؟

ـ ...

ـ البيوت المهملة في هذه الأيام ، كثيرة جداً ، فيتراكم الغبار على الآبار والآنية والافران . ونحن ، بائعات الازهار نمتعض ونحزن ، اما عندك ، فالأمر ، على النقيض ، مجلبة للغبطة والمسرة .

ـ ... »

ان أهم شيء ، هو التجارة التي تسير في طريق التقهقر ، بين شهر وآخر ، وشييكو لا تستطيع ان تبوح بشيء الى قروية (شيراكاوا) .

كانت امها لا تزال جالسة خلف مكتب ابيها .

نادتها شييكو الى المطبخ ، لتريها ما كانت قد ابتاعت من السوق .

لاحظت الأم ، وهي قرب هذه الأشياء التي كانت شييكو تخرجها وتصفها تحت انظارها ، مقدار ما آلت اليه هذه الفتاة ، من الاقتصاد ، والتدبير ، اليس هذا ، ثمرة غياب الأب ، الذي كان قد انزوى في دير ساغا ...

« وسأشرع انا أيضا في العمل ، قالت وهي واقفة في المطبخ . اليست هذه ، بائعة الزهور المعتادة ؟

ـ نعم .

ـ هل كانت كتب التصوير ، التي أهديتها الى والدك ، عنده ؟ سمعت الأم وهي تسألها .

ـ كلا ... لم أنتبه ...

ـ مع انه لم يصطحب سواها ٠ »

كان الحديث يدور حول كتب لرسوم (بول كلي) و (ماتيس) و (شاغال) وغيرهم من التجريديين ، المحدثين ٠ وكانت قد ابتاعتها لأبيها ، آملة ، ان تثير فيه احساساً جديداً ٠

« في مخزن كمخزننا ، كان بامكان ابيك ، ان ينصرف من القيام بصنع رسوم للاقمشة ٠ كان بامكانه ، ان يرى ما يصنع الآخرون من أقمشة ،فيبيعها٠ ولكن ، بالحقيقة ، مع ابيك ٠٠٠ قالت الأم ٠ وانت ياشييكو ، قالت متابعة كلامها ، انت التي لا تلبسين الا (الكيموتووات) التي هي من رسم ابيك ، انت حقا ، لطيفة جدا ٠ وعلي، انا أيضا ، ان اشكرك على ذلك ٠

ـ تشكريني على ذلك ؟ هذا جميل! انني ألبسها لأنني أحبها ٠

ـ من يدري ! لعل والدك ، قد داخله شيء من الكآبة ، لأنه رأى (كيمونووات) ابنته واحزمتها ٠

ـ ٠٠٠ بكل تأكيد ، تبدو على جانب من الفنة ، ولكن فيها نكهة موحدة ٠ وقد تلقيت التهنئة عليها ٠ »

تذكرت شييكو ، انها في هذا اليوم ذاته ، قالت نفس الشيء لأبيها ٠

« حقاً ، قالت الأم ، في الواقع المعة تليق بالجميلات من الصبايا » ورفعت غطاء القدر ، وجست بطرف العصيات ، ما ينطبخ « لماذا لم يعد ابوك يجيد رسم أشياء حديثة ، براقة ؟

ـ جاء وقت ، كان يرسم فيه أشياء براقة ! غريبة ! »

فوافقت شييكو برأسها ٠ « ولكن ، انت ، يا أماه ، لاتلبسين (كيموتووات) من رسم ابي ؟

ـ صحيح ، ولكنني عجوز ، انا٠٠٠

ـ عجوز ، عجوز ، ولكن كم عمرك؟

ـ انا عجوز ٠٠٠ اجابت ببساطة ٠

ـ لنأخذ قماشاً ، من رسم (كومييا) على نمط (ايدو كومون) ، تعرفين هذا الفنان الذي لقبوه « الكنز الوطني » حسناً ، ان الصبية ، يرتفع قدر جمالها ، اذا ما ارتدت من هذا القماش، والناس ، عند مرورها ، يلتفتون اليها٠

ـ من الصعب ، المقارنة بين استاذ مثل (كومييا) وأبيك ٠

ـ ابي ، من كل كيانه ما ٠٠٠

ـ ما اكثر الكلمات الكبيرة ! «قالت الأم مقاطعة ، وهي ترفع وجهها الابيض اللون ، الخاص بنساء كيوتو ٠

ـ ولكن ، ألا تعرفين ، ياشييكو ،

لقد قال ابوك ، انه ، حين تتزوجين ، سيرسم شيئاً باهراً ، بهيا . وأنا أيضا، منذ زمن طويل ، أعيش هذه الفرحة المنتظرة ...

ـ زواجي ....؟ »

وطاف بوجه شييكو ، سحابة خفيفة من الكآبة ، وظلت ردحاً قصيراً ، تلتزم جانب الصمت .

« أماه ، ما هو الحادث الذي كان له ، على حياتك ، أكبر وقع ؟

ـ اعتقد اني قصصته عليك : هو زواجي ، وهو ايضا ، حين ، نحن الاثنين ، انا ووالدك ، اختطفنا هذا الطفل الصغير ، الذي كنته ، انت ياشييكو . عشرون عاما انقضت على هذا الحادث ، وما زلت حتى الآن ، كلما تذكرت تلك اللحظة ،أشعر بخفقان عنيف في قلبي . شييكو ، انظري ، ما أشد خفقان قلبي .

ـ اماه ، قولي ، أما كنت طفلة مهجورة ؟

ـ ليس هذا صحيحا ، ليس هذا صحيحا ! » وهزت الأم رأسها ، هزاً عنيفا ، لم يكن من عاداتها .

« كل امرىء ، يرتكب ، في حياته ، مرة او مرتين ، عملا مريعا ، سيئا ، تابعت الأم . سرقة طفل ! هي أسوأ من سرقة المال ، أسوأ من سرقة أي شيء آخر ، بل هي أمر وأدهى . بل لعلها أسوأ من القتل ايضا ...

ـ ...

ـ لاريب ، ان والديك قد عانيا من الآلام ، ما ذهب برشدهما . حتى الآن، كلما فكرت بالأمر ، أشعر كأنني أعمان اردك اليهما ، ولكنني ، لا استطيع . اما اذا كنت ، انت تودين ، ان تبحثي عن والديك وترغبين في الانضمام اليهما، فعندئذٍ ، نعجز نحن عن الحيلولة دونك .. الا ان الأم ، التي هي أنا ، سوف تموت كمدا ...

ـ أماه ، ارجوك ، لاتتفوهي بمثل هذه العبارات . ان شييكو ، ليس لها من أم سواك . فأنا ، بهذه الفكرة نشأت .

ـ اعلم ذلك ، ولهذا السبب ، يزداد اثمنا فداحة . أن نمضي الى جهنم ، انا وابوك ، ذلك ما ارتضيناه . وما قيمة جهنم ما دمنا مع فتاة ، بمثل هذا اللطف ؟ »

كانت تنظر الى امها ، ذات الصوت الحاد ، التي اخذت الدموع تسيل على

خديها ، وكذلك ، شييكو ، فقد احست انها هي الأخرى ، هـل وشك البكاء

« اماه ، ارجوك ، قولي الحقيقـة • هل انا فتاة مهجورة ؟

ـ كلا ، ابدا ، اني أقول لك ، ان هذا ، ليس صحيحا ••• وهزت رأسها من جديد • لماذا تريدين ، مهما كلف الأمر ، ان تكوني فتاة مهجورة ؟

ـ ان تكونـا ، انت وابي ، أهـلا لسرقة ولد ،فهذا مالا أستطيع تصديقه•

ـ يرتكب المرء في حياته ، مرة أو اكثر ، عملا مريعا ، سيئاً ، تتقزز منه النفس • ألم أقل لك هذا ، منذ برهة؟

ـ ومن أين اختطفتماني ؟

ـ من حديقة معبد (جيبيون) ، في ذات ليلة ، كانت فيها اشجار الكـرز المزهرة ، متلالئة ، اجابت الأم ، دون تردد • أعتقد أني قصصت عليك هذا• على مقعـد ، تحت الأشجار المزهرة ، كان مستلقياً،طفل جميل ، لطيف‌الوجه، ينظر الينا باسماً ، كأنما هو زهرة • فكيف نتمالك ، فلا نحمله بين ايدينا ؟ وما ان حملته ، حتى أحسست بقصـة في قلبي ، فلم يعد بامكاني ان أتخلى عنه • فقبلت وجنتيه ونظرت الى ابيك:

« شيج ، قال لي ، خذي هـذا الولد ، وهيا بنا ! »

ـ ماذا ؟ ـ اسرعي ، ياشيج ، هيا بنا ! » ان ما حدث بعد ذلك ، كـان أشبه بحلم • أظن اننا قفزنا الى‌مركبة، قرب مطعم (هيرانو) الشهير بحسائـه بالسمك •••

ـ •••

ـ لا شك ان أمك قد تنبهت ، برهة وجيزة ، وفي هـذه الاثنـاء ، حـدث ما حدث • »

حكاية امها ، لم تكن بعيـدة عـن التصديق •

« هو القدر ••• منذ ذلك الحين ، غدت شييكو ، ابنتنا ، عشرون عامـا تقضت ، أليس كذلك ؟ أهـذا لحسن حظك أم لتحسك ، من‌يدري ؟ حتى وان كان هذا لحسن حظك ، فاني ،من‌اعماق قلبي ، أضم يدي الى بعضهما ، طالبة العفو عني • وكـذلـك ابـوك ، على ما اعتقد •

ـ كان هذا لحظي ، يا اماه ، كـان خيراً لي ، اني واثقة • » قالت شييكو وهي تشد على عينيها براحتيها •

سواء أكانت شييكو ، فتاة مهجورة ، أو فتاة لقيطة ، فهي مسجلة ، في‌سجل

الأحوال المدنية ، ابنة شرعية ، لأسرة (ساتا) .

حين عرفت شييكو ، لأول مرة ، من والديها ، أنها ليست ابنتهما الشرعية، لم تدرك مرادهما . هذا ما حدث ، عند بدء دخولها المدرسة الثانوية ، وقد تساءلت اذ ذاك ، ان لم يكن هذان الوالدان قد باحا لها بهذا السر ، لانهما أقلقا عن حبهما لها .

لا شك ، انهما باحا لشييكو بهذا السر ، لخوفهما من الاطلاع عليه ، من طريق الجيران . وكانا ، كذلك ، واثقين،من المحبة التي تضمرها لهما، وقد بلغت سن الادراك .

كانت شييكو ، قد فوجئت ، بكل تأكيد الا أنها لم تكتئب . ورغم أنها في سن الشباب ، لم تتألم . فالمحبة والحنان اللتان تكنهما لكل من شيج وتاكيشيرو لم يطرأ عليهما اقل تبدل ، كما أنها لم تكن في حاجة الى بذل الجهد ، حتى لا تفكر في هذه القضية . لعل هذا الخلق،كان من جبلة شييكو وطبيعتها .

ولكن ، ان لم تكن هي ابنة حقيقية لهما ، فان والديها الحقيقيين ، يجب أن يكونا في مكان ما . ومن الممكن ، ان يكون لها اخوة وأخوات ؟ وفكرت:

« كلا ، لا أطمح الى التعرف عليهم . أليست حياتهم ، دون ريب ، أشق وأقسى من حياتي ؟ » .

ظل هذا أيضا ، في نظرها ، غامضا جدا . بل هذا ما كان مصدر شقاء والديها ، الذي يحز في قلبها ، في أعماق هذا الحزن الطويل ، بشاكه القديم .

وحين ضغطت وهي في المطبخ راحتيها الاثنتين على عينيها . كان ذلك هو هذا الشقاء .

« شييكو » وضعت الأم يدها على كتف الفتاة وهزتها برفق .

« أتريدين ، أن لا تعودي بعد الآن الى طلب التحدث عن الماضي ؟ فمتى وأين ، في هذا العالم يهبط علينا الكنز ؟ لا أحد يدري .

— كنز . كنز غريب . لو كان بالمستطاع ، صنع خاتم منه لك ، يا أماه !» وراحت تعمل بجد ورزانة .

عقب تناول العشاء ورفع الاواني عن المائدة ، انسحبت كل من شييكو وأمها الى غرف الطابق الأول .

في الطابق الاول ، في القسم المشرف

على الشارع ، بنافذته ، ذات الشمرية الناعمة ، والسقف المنخفض ، غرفة منخفضة ، بسيطة ، يقيم فيها المستخدمون الشبان • وكان المجاز المؤدي الى الحديقة الداخلية ، يتصل بالغرف القائمة في صدر البناء-وكان من الممكن ، الصعود اليها كذلك ،من المخزن ، أما الزبن المختارون ، فكانوا يصعدون الى الطابق الاول ، حيث يستقبلون باكرام وتقدم لهم فروض الضيافة • أما الآن ، فالاعمال التجارية ، يكتفى باجرائها واتمامها مع أكثر الزبن ، في غرفة الاستقبال المفتوحة على الحديقة الداخلية ، في الطابق الأرضي • «غرفة الاستقبال» تسمية مضحكة ، مع أن الاقمشة،التي ضاقت بها الرفوف ، مكومة فيجوانبها من كل الجهات • وبما أنها عميقة وعريضة،فهي مناسبة لعرض الأقمشة، بكل ماهي عليه من الطول • لقد مدت فيها ، حصيرة من التخيل الهندي ،على طول أيام السنة •

فيما وراء المخزن ، في الطابق الأول كان السقف أعلى ، بيد أن الغرفتين، وفي كل منهما ست حصر ، كانتا معدتين للجلوس وللنوم • احداهما لشييكو والاخرى لأبيها وأمها • جلست شييكو امام مرآتها ونثرت شعرها • ما أكثر ما ظل هذا الشعر الطويل ، مرصوصاً ومرتباً •

« أماه » نادت شييكو من وراء الحاجز •

كم كان في هذا الصوت من أفكار كامنة •

مدخل الى

الأدب السويدي المعاصر

ترجمة : مسعد صياب

منحت جائزة «نوبل» للآداب هذا العام للكاتبين السويديين ايفند جونسون وهاري مارتنسون • وتعتبر اشهر مؤلفات جونسون رباعية سيرتـه الذاتية المنشورة بين ١٩٣٤ و ١٩٣٧ تحت عنوان « رواية عن اولاف » • ولعل اهم او أشهر اعمال مارتنسون قصيدته القصصية الطويلة «انيارا» وقد اخرجت للمسرح واصبحت أول اوبـرا عن عصر الفضاء • وقـد رشحت الاكاديمية السويدية ايفند جونسون ، البالغ من العمر ٧٤ عامـة « لفنه القصصي ، ونفـاذ بصيرتـه في شتى البلاد والعصور ، ولحرصه على خدمة الحرية » •

اما هاري مارتنسون وهو شاعر في السبعين من عمره فقد اشادت بـه الاكاديمية « لكتاباته الرقيقة كقطرات الندى ، ولانها تعكس جمال الكون ••• »

وريثما نتمكن من تقديم نماذج من أدب هـذين الكاتبين ، نعرض في هـذه الدراسة للادب السويدي المعاصر عموما كي تكون لدينا فكرة صحيحة عنه ما امكن ذلك •

توضح لنا دراسة المكتبة في التسعينيات من القرن التاسع عشر ، ان الآثار الرئيسية لعقده الاخير ، تبدو وكانهـا تستوي عـلى غارب موجتين :

استوت في الموجة الاولى نحو عام ١٨٩٠ ، وفي الثانية في نحو عام ١٨٩٥ ، وان العام الاخير من هذا العقد ، ليدلنا اليوم على ان ادباءنا ناوا عن الرومانسية القومية ، كيما يكرسوا انفسهم لدراسة نفسية اكثر تغلغلا في النفس الانسانية ، رامين الى البحث عن اسلوب لهم ، يذكرنا بالاسلوب الذي انتهجته الرمزية الاوروبية !•

فهذا «برهالستروم Per Hallström » على سبيل المثال ، وقـد كان أعمق ثقافة ، وأشـد اوروبية بين أدبـاء العقد الاخـير (١٨٩٠ ـ ١٩٠٠) ينشر عام ١٨٩٥ ثلاثة آثـار له •• وثمة اديب آخـر هو « جالمار سودربـرغ Hjalmar Söderberg » الذي كان مثقفـا واوربيا بدوره ، يستهل النشر في العام نفسه ، متخذا في الادب موقفا

اجتماعيا ساخرا ، وبديهي ان هذا المؤلف – بالقياس الى العصر – لم يكن جديدا كل الجدة ، بيد ان « سودربرغ » مضى به في حفة ورشاقة ، عارضا لنا منذ اثره الاول «غوايات Egarments » (١٨٩٥) نموذجا طالنسيج وحده في السويد ، وهذا الاديب الشارد الحالم،فاقد الارادة ، ذو الميول الارستقراطية، بدا وكانه يحوز الوجود ، دون ان يلتزم صراعاته ، فكان الفاعلية كانت تعوزه ، بيد انه كاذيب ، وشارح ذكي فطن ، قد وحد في نموذجه بين الحساسية المرهفة والتشاؤمية ، ولعل قوله في احدى مسرحياته : « انا مؤمن برغبة الجسد ، وبعزلة الروح المزمنة » هو الجواب الشهير الذي في ميسوره اداء الفكرة التي بنى عليها كافة انتاجه ، وفي وسعنا التعرف ان لم يكن على الالفاظ ، فعلى النبرة في قوله كذلك : « واحسرتاه ، كلما امعنت في قراءة الكتب ، تالم جسدي ، واستثيرت كوامن شجنه » مما يدل على ان « سودربرغ » يرتبط ارتباطا مباشرا بشوات الرمزيين ، بعد ان عرف مبكرا « مالارميه (١) » و « فرلين » (٢) كما استسلم بجلاء لتاثير «اناتول فرانس» (٣) و «اندريه جيد» (٤) فقدم للجمهور السويدي الادب الفرنسي ، واضحى هذا الادب ، خاصة من خصائصه المميزة ..

وكيف دار الامر فانرائعة « سودربرغ » « شباب مارتان بيرك » (١٩٠١) تبدو لنا وكانها نسخة طبق الاصل الى حد ما ، عن سيرة الكاتب الذاتية ، اذ نرى البطل «مارتان بيرك» ينشا في اسرة بورجوازية ، ويتربىوفق الافكار الاخلاقية والدينية التي ورثها عن اسلافه ، بيد انه يمضي مكافحا ، في سبيل

---

(١) ستيفان مالارميه : شاعر فرنسي ، ولد في باريس عام ١٨٤٢ وتوفي عام ١٨٩٨ كان رائدا للحركة الرمزية ، ابان عن مكرته في لغة دقيقة . تحمل الفاظها من الموسيقا ، اكثر مما تحمل من المعنى .

(٢) بول فرلين : شاعر فرنسي ، ولد في ميتز Metz عام ١٨٤٤ عاش حياة قلقة شماصة ، عبر عنها شعره في صافية موسيقية ، ملأى بالموهبة ، زاخرة بالايهام ، متناهية في الدقة والبيان ، بدا فيها متعارضة مع الشعر ، وقد اثر في المدرسة الرمزية تاثيرا مرموقا .

(٣) اناتول فرانس : كاتب فرنسي ولد في باريس عام ١٨٤٤ وتوفي عام ١٩٢٤ وعلى الرغم من انه كان مفكرا في الشكوكية الكلية Scepticisme Universel متشائمق على الالم .. ترك آثارا ذات تعبير ساخر دقيق ، في اسلوب مغرق في الكلاسيكية .

(٤) اندريه جيد : كاتب فرنسي ، ولد في باريس عام ١٨٦٩ وتوفي عام ١٩٥١ ، تكشف آثاره عن صدقه في البحث عن السعادة والحقيقة ، وروايته بالنظم الاخلاقية المالوفة ورفضه المطلق للالتزام .

الانعتاق من هذه الافكار ، وكانت حصيلة جهوده ، عدمية Nihilisme فيها ما يكفيها من الحزن والألم !.

وهكذا فان رواية «شباب مارتان بيرك» شانها شان بقية آثار «سودربرغ» ليست سلبية محضة ، بل انها لتشهد له باخلاص طاغ ، وحماسة لا تكل ، للاطاحة بالاعراف، المبنية على الكسل الفكري والخمول ، وهو بهذا الصنيع يشبه «ستراندبرغ» اذ راح «سودربرغ» يشن بدوره الحرب على آلهة اوروبا ، بيد أن أسلحته اختلفت عن اسلحة « ستراندبرغ » لا لانه استعمل هراوة ، بل لانه استخدم خنجراً .. ان شباب مارتان بيرك شباب مضني ، يكافح من أجل ارتيابيته Scepticisme ، ويناضل في سبيل حقه في أن يفكر ، وحقه في أن يبين عن فكرته من جهة ، وحقه كذلك في ان يخالف أسلافه فيما فكروا ، او ابانوا عن فكرتهم من جهة اخرى ، وتلك ولا ريب هي الصورة التي عرضتها لنا روايته « شباب مارتان بيرك » تلك الرواية التي عرف فيها الشباب نفسه معرفة حقة نحو عام ١٩٠٠ ، ثم لم تلبث ان امست لتوها ، الوجه الكلاسيكي ، الذي ادى الدور نفسه كما ادته الروايات التي سبقتها مثل « فرتر » للشاعر الالماني « غوته » (٥) و « رينيه » للكاتب الفرنسي «شاتوبريان»(٦) و « تونيو كروجر »(٧) نعني انها استخدمت نموذجا لجيل باكمله ..

ناهيك من أن « سودربرغ » مضى يقارع المسيحية بلا هوادة او لين ، وقد استلهم هذه الروح ، في اثر له ثان يعد من أهم الدرر الادبية ، نعني روايته « الدكتور غلاس » التي صدرت عام ١٩٠٥ وقد خضعت فيها القضية الدينية لمنطق اخلاقي نافذ ، لهماليث ان باغتنا بعد لأي بنقد للمسيحية ضمنته سلسلة من الدراسات ، تناولت تاريخ الديانات !.

ويبدو أن هذا الفكر النضالي ، وهذا

---

(٥) غوته . أشهر الكتّاب والشعراء الألمان، ولد في فرنكفورت عام ١٧٤٩ وتوفي عام ١٨٣٤ ، وحدت عبقريته الشاملة ، عمق الفكرة بخصب الخيال ، فأتاحت له أن يتخطى في تاثير متعادل ، جميع الانواع Genres والاشكال Manières ترك آثاراً ادبية جمة ، اهمها : فوست Fauste (نقلها الى العربية الدكتور محمد عوض محمد) ، وفرتر ، عربها احمد حسن الزيات بعنوان « آلام فرتر ») .

(٦) فرانسوا رينيه دوشاتوبريان : كاتب فرنسي ، ولد في سان ـ مالو عام ١٧٦٨ وتوفي عام ١٨٤٨ سافر الى امريكا وعاد منها عند اندلاع الثورة الفرنسية ، ثم هاجر الى انكلترا وعاش فيها حتى عام ١٨٠٠ ، تجمت شهرته الادبية في آثار جمة اهمها «عبقرية المسيحية» (١٨٠٢) و « أتالا » و « رينيه » و « الشهداء » (١٨٠٩) بيد أن أروع آثاره كان «مذكرات فيما وراء القبر » وهي يوميات من حياته مشبوبة العاطفة .

(٧) لم نعثر فيما لدينا من مصادر على اسم لمؤلف هذه الرواية .

الشغف بالحقيقة ، قد أتاحا « لسودربرغ » أن يظل زاخراً بالحياة ، بالقياس الى السويديين ، كما ظل « اناتول فرانس » زاخراً بها بالقياس الى الفرنسيين وما ذلك الا بفضل لغته الرصينة الصافية ، وجزالة اسلوبه ، الذي يعد اليوم اسلوباً كلاسيكياً من نحو ، وبفضل وضوح تجربته ، ودقة تحليله النفسي ، اللذان مكناه من الارتباط بالتقاليد الادبية الفرنسية من نحو آخر .

ولعل رائعة « سودربرغ » التي ضمت مجموعة قصصية اسماها « حكايات صغيرة » وصدرت عام ١٨٩٨ لم تكن مستلهمة من موباسان (٨) فحسب ، بل اعتبرت كذلك أثراً من الآثار الادبية السويدية النادرة ، التي تدعمها مقارنتها بالنموذج الذي استلهمته واستوحت منه .

لقد اضحى « سودربرغ » وشيكاً معلم الادباء كافة ، ولعل السيكلوجية الحديثة ، والجمالية المقناع ، وأصداء « بودلير » (٩) و « فرلين » هي السمات التي ميزت تلامذته، وتلك لعمري نهاية عصر متأخر عملت على ظهور هذا الاسلوب في الأدب السويدي ، وانه لاسلوب حياة منهارة ، متوانية بعض الشيء، كوَّن كما هو مفروض ، جانباً من لوحة ، وأفقي الى دواوين شعرية جمة ظهرت خلال عام ١٩٠٠ و ١٩١٠ ، تميزت كلها بالشكل

---

(٨) غي دوموباسان كاتب فرنسي ولد في « شاتوميرومسنيل
Chateau de la Miromesnil

عام ١٨٥٠ وتوفي عام ١٨٩٣ ، اسلوبه في كتاباته بسيط ، واضح ، غاية في الواقعية - كتب روايات جمة اهمها « صديق وسيم Bel Ami و « قوي كالموت Fort Comme la mort » وقلبنا Notre Cœur » و « حياة Une vie » و « بطرس وحنا Pierre et Jean »
كما ألف قصصاً وأقاصيص جمة رائعة .

(٩) شارل بودلير : شاعر فرنسي ، ولد في باريس عام ١٨٢١ وتوفي في عام ١٨٦٧ عاش حياة بوهيمية شبه بائسة ، وقد عكف على نقل آثار ادغاربو الى الفرنسية مترجماً ترجمة أمينة ، كما ألف دقصائد نثرية صغيرة » حلوة و « طرف جمالية من الفن الرومانسي » وهي عبارة عن مقالات نقدية قيمة ، هاجم فيها الرومانسية ، بيد أنه ظل قبل كل شيء شاعر « أزهار الشر » وهو ديوانه الشعري الوحيد ، الذي صدر عام ١٨٥٧ فاشتهر به ، واصبح في طليعة الشعراء الفرنسيين ، ولقد كان لهذا الديوان الفذ ، تأثيره البالغ على الشعراء ، حتى قال عنه « فيكتور هيغو » : « لقد أحدث هذا الديوان رعشة جديدة في الشعر الفرنسي » ، ولعل عظمته لم تكن نابعة من غنى صوره المدهشة ، أو من عذوبة البساطة المتجلية في تجربته أو من حدة الاحاسيس المعبرة فيه فحسب ، بل من منبع الالهام نفسه،وادراكه الفن الرفيع واصالة موسيقاه الأخاذة كذلك .

المرهف ، والموقف الملول ، والشكوكية ، والسخرية التي شد ما نعثر عليها لدى « سودبرغ » كما ندركها في يسر وسهولة لدى منافسيه من شعرائنا الشباب !

★ ★ ★

تلك هي بداية الادب السويدي في مستهل القرن العشرين ، بيد أن النبرة ما لبثت أن تغيرت في عام ١٩١٠ ، اذ ان الادباء الذين استهلوا نتاجهم نحو عام ١٩١٠ بدواوين من الشعر المنحط(١٠) امسوا ارتداديين بعد ان نذروا أنفسهم لفن جديد في « الرواية ـ النهر (١١) » التي شد ما كانت تتصل بالانساب Généalogique من نحو ، كما اعتنقوا نموذجا جديدا من نحو آخر ، أما اليوم فهم ـ في الواقع ـ يعنون بكلمات مثل: واقع ، وواجب ، وعمل ، وحياة ، والايام كافة ، عازمون عزماً اكيداً على توحيدها !.

ولقد طرحت هذه الكلمات ، وكأنها زاخرة بالاحتجاجات ضد ادب العقد الاخير الذي أسلفنا الاشارة اليه ، وفي مقدورنا جميعا التأكد من هويتها ، شأنها شأن الاسقاط التحويري الوضعي (١٢) لكلمايتيحه الموقف المتبطل من سلبية .. فالادباء الذين عانوا خلال شبابهم من تأثير « سودبرغ » ثم حاودا اليوم عن منهجه ، يوشكون أن ينتموا كلهم الى البورجوازية الناعمة المرفهة وهذه البورجوازية ، هي النموذج الذي نستشفه من روايات هذا العصر ، التي طبعت بطابع الروائيين « فوستاف هللستروم » و « لوب توردستروم » و « ايلان فغنر » و « سفن ليلمن » و « سيغفريد سيعرتز » بيد أن ثمة اديبين ليس في مقدورنا تصنيفهما توا في عداد أية فئة من تلك الفئات على الرغم من خضوعهما في بداية الامر ، لتطور شبيه بالتطور الذي خضع له « ولهلم اكولند » مؤلف «اقوال مأثورة » او التطور الذي اذعن له « يالمار برغمان » ، إذ استهل « اكولند » امره بشعر حزين ذكي ، انتهج فيه أسلوب «فرلين» ثم ما عتم منذ عام ١٩١٠ ، وما تلاه أن اعتنق مثالا اغريقيا امتاز بالصفاء والايقاع ، عرضه فيما يقرب من عشرين مجموعة من مجموعاته في الاقوال المأثورة !. اما « برغمان » فقد استهل آثاره بدراسات نفسية مرهفة ، ادت الى قيامه ـ عقب عام ١٩١٠ ـ بدور المعلم في الرواية الواقعية ، كما اتصفت سلسلته الروائية الطويلة بدورها بالمهارة

(١٠) لعل الكاتب يعني مدرسة ماقبل الرمزية وهي المدرسة الشعرية التي ظهرت في فرنسا في اواخر القرن التاسع عشر وكان من روادها بودلير ومالارميه .

(١١) الرواية ـ النهر : قصة طويلة تستعرض حياة أسرة بأجيالها .

(١٢) الاسقاط التحويري : عملية يعزو بها الفرد الى سواه عواطفه ودوافعه الخاصة .

البلزاكية(١٣) والوصف الدقيق ، قبل أن يسيطر عليه حب المال •!

ولا يخالجنا شك في ان تصوير الطبيعة ، والبيئة الاصلية التي ابتدعه « برغمان » في رواياته ، كا نخاصة من خصائصه المميزة ، إذ نراه يستعيد في هذا التصوير حقول المناجم الكائنة وسط السويد ، بيد أن الشخصيات التي حركها فيها ، كانت اشبه بالارستقراطية الخصبة التي نعثر عليها في قصته الكئيبة الجميلة « وصية صاحب السمو » (١٩١٠) وان البخلاء العاطفيين في قصته « ماركوروليون من ادكوبانغ » (١٩١٠) او الفنانين المجانين المأساويين في قصته « المهرج جاك » (١٩٣٠) هم قبل اي شيء آخر من مبتدعاته • ومن عجب انه يكرر هذه النماذج في كافة اقاصيصه ، قصة تلو قصة ، فحينا نراها وكأنها شخصيات رئيسية ، وحينا تبدو لنا وكأنها صور ثانوية، بيد أننا اذا ما اخذناها جملة ، نراها تؤلف وحدة من مخلوقات أصيلة أسطورية ، خلابة بغرابتها ، وكأن الادب السويدي لم يعهد لها مثيلا قط •

لا جدال في ان هذا الكاتب روائي قبل كل شيء ، بيد انه ألف كذلك للمسرح ، إذ اعد له روايتيه « وصية صاحب السمو » و « ماركوروليون من ادكوبانغ » كما ابتدع مع « القفازات البيض » (١٩٢٥) مسرحية عن العبقرية والرشاقة ، والقضايا الخاسرة ،فخلق بذلك ضربا من الملهاة الشعبية السويدية •!

★ ★ ★

اما الادباء الآخرون الذين أطلقنا عليهم من قبل اسم (جيل ١٩١٠) فلهم بدورهم بالقياس الى قاعديتهم مؤلفات هامة ، تحتل مكان الصدارة احيانا ، وان بعضا من رواياتهم، في ميسورنا النظر اليها اليوم ، باعتبارها آثارا كلاسيكية سويدية ، وتلك حال نعثر عليها في روايات كرواية « السلمبيون « Les Selambs (١٩٢٠) » لسوريتز Siwertz » ورواية «الكهولم صانع القياطين فكرة « Le Passementier LeKhom a une idée » (١٩٢٧) » لهلستروم « Hellström » وهما روايتان تتناولان السلالات ، حيث يكون التطور الاجتماعي الحديث و لازمات الاقتصادية موضوع حبكتيهما !•

اما رواية « تجار ومحاربون » (١٩١١) وهو الاسم الذي اطلق على احدى روايات « سفن ليدمن » التي طبعت في الحقبة نفسها،

(١٣) نسبة الى : هونوريه دوبلزاك وهو روائي فرنسي ولد في تور عام ١٧٩٩ وتوفي عام ١٨٥٠ من أهم آثاره « الكوميديا الانسانية » وهي ذات تأثير خصب ، كما الف سلسلة من الروايات الرائعة على الرغم من بعض العيوب الذي يشوب اسلوبها ، لما يبديه الكاتب من قوة ملاحظة ، إذ يدع احساسه يستحوذ على الواقع الذي يصوره ، ويترك في هذا الاحساس يطغى على الاخيلة التي يبدعها، ولقد اجمع دارسوه على أنه باعث عصره في آثاره •

فيتبيء عنوانها اليوم ، بعالم صلب عتيد ، برجوازي ، تهيمن عليه نجوم المجتمع » ؟.

أما « لوب نوردستروم » و «الن فاغنر» فقد كتبا سلسلة تحقيقيات اجتماعية وانسانية غاية في الاثارة .. تناول « نوردستروم » في تحقيقاته، مقاطعته الواقعة شمال السويد ، منوها بصناعتها المتصلة بالغابات ، وقد ضمنها روايته المرحة « الشره الريفي » (١٩١١) كما كتب « فاغنر » حول البيئات الريفية في الجنوب ، وادمجها في روايته « آسا — حنا » (١٩١٨) .

وجدير بنا ان نسلك في هذه الفئة كذلك الشاعر « اندرس اوسترلنغ » الذي لم يتخل كما تخلى سواه من شعراء جيله ، عن الشكل الغنائي في التعبير ، ولعل الاثارات التي احدثتها اولى آثاره قد اخلت له — عقب عام ١٩١٠ — مكانا في الغنائية الاكثر واقعية ، والاعمق فلسفة ، ولاسيما وان صلاته بالروائيين الذين أتينا على ذكرهم ، كانت غاية في الوضوح والجلاء .

★ ★ ★

إن المدرستين اللتين نوهنا بهما حتى الآن، نعني مدرسة سودربرغ ، ومدرسة الرواية الواقعية ، تكونان همزة وصل ، بين الاعوام التسعين من القرن التاسع عشر ، وما بعد الحرب العالمية الاولى ، التي المعنا اليها ، اي نحو عام ١٩١٠ وهو العام الذي تم فيه الانقطاع بين الاتجاهين ، إذ هبت على ادب تلك الحقبة ردحا من الزمن ، ريح هوجاء بعد ان اضحى « بارس »(١٤) في فرنسا المبشر بالوطنية وعبادة القوة ، إثر شنه الحرب على روح الانحلال ، التي كانت — بالقياس اليه — توصف بها ما بعد الرمزية — وهجر « توماس مان »(١٥) في المانيا ، وروايته التحليلية ، ميمما وجهه شطر الرواية البورجوازية الكبرى، متأثرا بالمثل العليا الجديدة وبرز في انكلترا شعراء الامبراطورية الذين راحوا يطالبون بيقظة قومية .

وهذا التغيير في الاتجاه ، الذي طرأ على الادب الاوروبي في نحو عام ١٩١٠ ، الذي المعنا اليه ، قد شمل بدوره ادباءنا ، بعد ان اربد الجو واحسسنا اننا نقترب من الحرب العالمية الاولى .

أما اعوام الحرب هذه ، التي امتدت مابين ١٩١٤ — ١٩١٨ فقد وهبت للادب السويدي ثلاثة امور :

١ — انسجام اجتماعي جديد .

---

(١٤) موريس بارس : أديب فرنسي ولد في شارم في جبال الموج عام ١٨٦٢ وتوفي عام ١٩٢٣ عرف بتحليله البارع ، وكتابته في الغنائية الرفيعة ، وانتقاله من عبادة الانا ، الى عبادة الارض والموتى ، وكان عضوا بارزا من أعضاء الاكاديمية الفرنسية .

(١٥) توماس مان : روائي الماني ولد في لوبك عام ١٨٧٥ وتوفي عام ١٩٥٥ ترك آثارا ادبية جمة منها روايته : أسرة بودنبروك والجبل السحري ، والدكتور فوست وقد حاز على جائزة نوبل عام ١٩٢٧ .

٢ . موضوع جديد .

٣ أدب جديد .

ناهيك عن ان هذه الحرب عجلت باحداث تغييرات اجتماعية ، فالمجتمع الذي كان معرضا من قبل لازمات لا حصر لها ، خلال حقبةامتدت من مئة الى مئة وخمسة وعشرين عاما ، عاود تذبذبه واستانف حيرته ، واضحت الطبقة الكادحة ، عاملا سياسيا مهمة فادى ظهورهـا في الوقت نفسه ، الى بروز ما يقرب من عشرين اديبا عماليا مضوا يطبعون الأدب السـويدي المعاصر بطابعهم !.

ولقد تجسدتجهده القاعدة العمالية فشملت اعدادا جمة من القراء ، أكثر ممـا تجسدت في الأدباء انفسهم ، أما الحافز الجديد الذي ابتعثته الحرب ، فهو ذلك الانسان المعتزل المعذب بوحدته ، المبتلي بقلقه الذي غد ما اضحى غير ذي نفع ، فراح يلوب باحثا عـن خلاصـه ، إما في الديانة والتصـوف ، أو في المشاركة الإجتماعية !.

أما الاديب الجديد الذي كون مدرسة ، وبز تمما ادباء العقد الاول من القرن العشرين ممن تقدموه ، فقد كان « پارلاجيركفيست » وهو اول اديب سويدي تحدث بلغة العصر المتنافرة النغمة ، وأول أديب كيفه شكل اثاره حسب مضمونها الشـاذ المشوش ، فاغوى باسلوبـه المحطم ، وتعبيره ، سـواء من الادبـاء !. ولعلنا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن ما يفصل الاجيال عن بعضها في السويد ، كما في بقية ارجاء اوروبا يتجلى في تجربة ـ او جهل ـ الاحداث المثيرة ، وفي وسعنا على ضوء هـذه التجربة ـ او الجهل ـ ان نميز دون ما حاجة الى براعة ، بين جيل الحرب العالمية الاولى ، وجيل ما بين الحربين ، وبين جيل ثلاثينيات ، وجيل الاربعينيات ، ومنى به جيل الحرب العالميـة الثانية ، ولئن استطاع الاديب في هذا الجيل ان يدنو من الواقعية ، او يهرب منها ، فقد عجز عن تجاهل اعمال مذابح « المارن » او « فـيردان » و « اوشـويتز » او ضحايـا «هيروشيما» أما الاديب الذي كون ابلغ انطباع عن احدى هذه المذابح التي تراكمت فيهـا الاهوال ، فهو پار لاجركفيست » وتلك احدى الحقائق التي اضحى « لاجركفيست» بسببها احد زعماء الكتاب في الادب السويديالمعاصر كما امسى اثره ، نقطة التقاء ، لمختلفالتيارات الادبيةوالفنية السويدية في القرن العشرين!.

ظهرت اولى مجموعات « پار لاجركفيست » الشعرية المسماة « قلق » عام ١٩١٦ ، وبعد نشرها بثلاثة اعـوام ، اصدر ديوانا شعريا صغيرا ومن ثم مقطوعات ماساوية وملحمية بعنوان « هباء » وفي هاتين المجموعتين يرنـو « پار لاجركفيست » الى عصره ، طارحاالسؤال عمـا اذا كان في ميسورنا العثـور على معنى لحيـاة كهذه الحيـاة ، التي اشـتدت وطاة فوضاها ، واستحوذ عليها القلق ، بيد انه لا يحظى بجواب وهذا السؤال الذي طرحه، لا يبدو على شاكلة السؤال الذي طرحه في مسرحيته « سر السماء » تلك المسرحيةالعجيبة ذات الفصل الواحد ، التي تؤلف جزءا من ديوانه « هباء » إذ طرحه على النحو التالي :

« إن معنى كل شيء ، معنى كل شيء امنا ... امنا ... اننا ندور في حلقة مفرغة ، بل : اننا ندور في حلقة مفرغة ، وعلينا ان ندور كلنا في حلقة مفرغة . هكذا كتب علينا وهنا يتجلى معنى كل شيء . » .. أتراه الاله نفسه ، هو الذي ينطق بهذه الكلمات ، وهو الذي يحتزم وعي ما ينطق به ؟!.

إن « پار لاجركفيست » ليبدو لنا في هذه المأساة الصغيرة ، المعمنة في كثافتها ، وكأنه قد اذعن في هذا العصر لنفوذ المسرح الالماني التعبيري وان هذه المأساة ـ على ضوء الوسطة التي نجمت عنها الهواجس الستراندبرجية التي اعتورتها ـ مثلت على مسرح معتم يصور جانباً من الكرة الارضية . ولم تكن اشخاصها اسماء قط ، حسبها انها تدعى « الرجل » ، « المرأة » ، « الطفل » وهكذا دواليك ، اما الحرب والنكبات المتشابهة ، فقد رمز اليهـا اختصاراً ، بامرأة لا تبرح جالسة ، لائذة بصمتها ، ممسكة ملقطاً تجز به رؤوس جنود من الرصاص ، اما الاله الاب . فيبدو في خلفية المشهد ، شيخاً هماً ، ينشر الخشب نشراً رتيباً، لأنه الشخص الوحيد . الذي عرف سر السماء؛ بيد انه ما ان يهم بالكلام كيما يفض لنا هذا السر في نهاية الامر ، حتى تراه يعتمد على الصيغة التي نهم بتلاوتها !.

ولن يساورنا العجب إما أبصرنا الشخصية الرئيسية في المشهد الاخير ، وهي تلقي بنفسها في الفراغ .. حسبها انها خدعت نفسها بهذا الكوكب الذي انتابته الحيرة ، فهجرت هـذه الارض الحزينة ، هذه الارض التي كانت لديها اجابات . في غاية اليسر ، كيمـا تجيب بها الانسـان !.

وكيف دار الامر ففي ميسورنا ان نغض الطرف عن الجانب المتكلف في هـذه المسرحية ، ولعل مما هو هام ومميز ، ان ثمة فكرة تسيرها: فكرة حياة ، ليس لها معنى من نحو ، وليس لديها إله يستجيب لها من نحو آخر . ولقـد ميزت هذه البساطة في الفكرة ، كل آثـار « پار لاجركفيست » إذ تراه يبدو فيها متخلياً عن المأساوي ، في سبيل البحث عن القيم الوضعية Valeurs Positives التي يستحق مـن اجلها عناء الحياة ، بيد ان مخططها الاصلي ، يظل دوماً ثمة . وكأنه موضوع غامض ، ولشد ما يقع فعل رواياته في عالم ما فوق الواقـع وخارج حدود الزمن أمـا شخصياتها فتنوء بافكـار قابلـة للانفجار ، لان ما عنـاه « لاجركفيست » ليس البتة انساناً ما ، شريفاً كان او فاجراً ، بل عنى الانسان بعامة . عنى مكانه الذي يضطرب فيه فوق الارض ... هكذا يتجلى لنا هـذا الكاتب في مسرحيته ، سامقاً بعصابيته القلقلة المحتدمة ، معانقاً ايماناً بالحياة ، مثيراً للمواطف . بيد انه ما لبث بعد عام ١٩٣١ ـ وفي ازمان تقصر او تطول ـ ان مضى مجسداً هـذا الايمان في منهج سياسي ارتضـاه لنفسه ضمنه روايتيـه « الجلاد » ١٩٣٣) و « القزم » (١٩٤٤) . وهاتان الروايتان مثالان حيان لهذا الانتاج الملتزم إذ وصفتا لنا انتقاماً وثاراً من النازية ، بل إن الثانية « القزم » كانت بالقياس الى ربيبتها ، اشد ميلاً الى الانتقام والثار !.

ويبدو أن «لاجركفيست» ينقض اللامبالاة وعلم النفس ، اللذين لم يفسحا مجالا لفيض الحياة الطبيعي الزاخر وانّنا لنعثر في آخر رواية له اسمها « باراباس » (١٩٥١) على العظمة البسيطة ذاتها ، التي لا تبرح تميز اسلوبه ، إذ نلقاه فيها في صراع مع تدين مفرط ، اكثر خطأ في التحديد مما ينبغي ، ولشد ما بحث عن جواب للحلول التي تطرحها الديانة بيد انه لم يعثر عليه فيها .. ومن المهم ان نلاحظ اننا نكتشف في هذه الرواية ، كما نكتشف غالبا لدى مؤلفها ، التناقض بين انسانية معذبة وإله ابكم ، ولعل المشهد الاخير يظهر لنا « باراباس » وهو الشخصية الرئيسية في هذه الرواية ، وقد سمّر على صليب . لقد عاش عصر الهيلينية الجائش عاش الصراع بين الديانة القديمة والمسيحية ، واخيرا وفي خلال اضطهاد وشي به خطأ ، باعتباره واحدا من المسيحيين ، صدق على صليب ، وإن كلماته الاخيرة لتربط بين احتضاره في اسمى لحظات حياته وميت آخر فضى فداء لمسيحيته ، ابصره باراباس مصلوبا على الجلجلة فراح يمعن النظر في الفراغ هاتفا ، وكأنه كان يخاطب الليل : « إني إذ استودعك روحي فانما اليك اسلمها » وهذا يعني أن « باراباس » لم يلتفت قط نحو إله ، كما صنع السيد المسيح ، بل التفت نحو الجانب الآخر من الليل ، اي الى الليل نفسه الذي خاطبه ولشد ما نعثر في كل اثر من آثار « بار لاجركفيست » على ليل اصم يكتنف انسانية مصلوبة ، وان الظل نفسه ، مهما اشتدت كثافته او نقصت ، يشمل كل جيل الحرب العالمية الاولى ، وعلى هذا النحو نتعرف في السويد ـ خلال الحرب العالمية الاولى ـ على امثال هؤلاء الادباء ، ممن تراوحت اعمارهم بين العشرين والثلاثين عاما ، نعني الادباء الذين كانوا اناسا متساوين في السن ، بيد انهم يختلفون عن اولئك الذين عادوا للمشاركة في الصراع .. والواقع انه ما من امرىء في السويد ، مهما كان حياديا إلا وعاش تجارب الحرب ، بدءا من الايدي التي توجه دبابة وانتهاء الى الايدي التي تقود طائرة ، بل إن السويديين جميعا ، عانوا تلك التجارب في ارواحهم ، معاناتها في احاسيسهم ، وليس عجيبا ان نرى فئة تبرز للعيان فتضم لفيفا من ادباء الحرب العالمية الاولى : فئة ممن يطرحون الاسئلة ، ولم يكونوا مؤهلين للتسلح من اجل الحياة ـ وما من جيل في السويد إلا ووهب الكثير من الموت المعجول والإنتحار ـ ولقد راحت هذه الفئة تتخبط في بحران قضايا غيبية ودينية دون أن تنتهي الى جواب شاف ، مما يدعونا الى أن ننعت المنتمين اليها بجيل الحنين الضائع ، والقضايا الخاسرة . وان « برجر جويبرغ » و « دان آندرسن » و « اريك لا ندورم » و « هالمار غولبرغ » و « اديث سودرغران » هم اعظم ادباء هذا الجيل !.

اما « اديث سودرغران » وهي سويدية من اصل فلندي ، نعني أنها لتنتمي الى الاقلية السويدية في هذا البلد ، فهي في الوقت نفسه واحدة من اعظم الاسماء الفنائية السويدية في القرن العشرين ، أضف الى ذلك ، حال الكثيرين من مواطنيها . وفي وسعنا ان نضيف

الى هـــذه الشاعرة التي قمت الشعر الحر وجددت اللغة الشعرية .. « المرديكتونيوس » الشاعر الذي يحق له أن ينعت بنبي المستقبلية و « غونار بورلانغ » الكاتب العظيم « الموجز في امثاله وحكمه .. و « واب ذكل » المصور المرهف ، في معالجته الشرود واللامحسوس !

يقول « يار لاجركفيست » في مقال له : « إن علينا ان نتناول مواضيع صغيرة في أسلوب فخم » وهذا القول ينطبق كل الانطباق ، على مجرى حال أدباء هذا الجيل ، الذين قلمــا حالفهم النجاح ، على الرغم من انهم جدوا كل الجد فيما اعطوا ، كما اطيعت آثارهم بمهارة تقنية بعد انصرفوا الى تجديد وسائل التعبير، وخصــوا انفسهم باللغة الحيــة ، والاسلوب الاعلاني ، مثلما خصوها باللغة الديوانية :

« إني اوقع معلنـــاً
اني افتقدت ايماني الطفولي
بعد ان مضت صوب المحطة
دون قبعة ، ولا معطف ولا قفاز ... » »

هذا ما نظمه أحد اولئك الادباء ، بيــد ان ثمة قضايا عظمى تتوارى خلف هــذه المتمتمة بخاصــة تلك القضية التي تتصــل بالمــوت ، وهاهي ذي عناوين بعض آثارهــم الهامة ، تومىء اليوم الى اتجاههم : « موشحات سود » (١٩١٧) لدان اندرسون » و « يوم الحســاب » (١٩٢٠) لاريــك لانــدودم » و « ذكريات الارض » (١٩٤٠) لبرجر جوبرغ و « هزيمة العالم » (١٩٣٢) لهالمار غولبرغ، وتلك لعمري غيبية تتخبط خبط عشواء ، في موضوع أسود حالك !.

وحسبنا ان نــورد ههنــا قصيــدة بعنوان « القمر » نظمتها الشاعرة « اديثسودرغران » تمثل اصدق تمثيل ادب هذا العصر بأكمله: تقول الشاعرة :

مثل من قصوا نحبهم ، وهو امر مذهل
يجل عن الوصف ،
كمثل ورقة ميتة ، وامرىء ميت
ومحيا قمر .
إن الازاهير كلها تعرف سرا
ترعاه الغابة ،
وهو ان انسياب القمر حول أرضنا
معناه درب الموت .
وان القمر ليحيك بساطه العجيب
الذي احبته الازاهير
يحيك ضفيرته السحرية
حول من يحيون ،
وما ان تدير ليالي الخريف
حتى يحصد منجله الازاهير ،
عندها تصير كلها الى قبلته
في ترقب أبدي !.

الا إن الموضوع العام ، يشمل كافة اولئك الشعراء ، على الرغم من ان الفروق التي تفصل بينهم تبدو واضحة اشد الوضوح ، فالشاعر « برجر جوبرغ » على سبيل المثل ، وهو بكر هذه الفئة ، يستهل قصائده في ديوانــه « اغاني فريدا » بشعر يتغنى فيه بمجتمــع بورجوازي صغير ، كما يتغنى ، بمصاحبــة

المزهر ، بمجالات وحلاته ، واتها لاغان لطيفة يرددها فم كاتب متحر فيلسوف ، وصف لنا فيها حياة المدن الصغرى من اقاليمنا ، كما وصفها في اغان تالية ، ذات انغام شديدة الايلام ، انبعثت من مزهر كذلك وقد ضمنها ديوانه اللاحق « ازمات وتيجان » مما حدا الجمهور الى ملاحظة تلك النبرات النائحة ذاتها ، التي نفثها من قبل في ديوانه الاول٠٠٠ إن « ازمات وتيجان » هو ديوان عبثية الحياة، والالم ، والموت الذي لا يندرك ، وان الشكل فيه تجريبي ، ومفارقة Paradoxale » والشعر فيه مقهور بعنف ، كيما يعبر عن الوساوس التي يهجس المضمون بها ، لقد ظهر « ازمات وتيجان » عام ١٩٢٦ إثر ظهور ديوان الشاعرة « اديث سودرغران » فكان أول اعظم تجربة تقنية في حقل الشعر السويدي ، إذ استخدم بشكله المحطم ، وسلاسل صوره المعماة ، انموذجا احتذاه كافة التجريبيين الغنائيين الذين اتوا بعده ٠٠٠ اما الشاعر « دان اندرسون » فهو ابن غابات وسط السويد ، التي تغنى بها في قصائده ، كما راح يتصدى لها في مقاطع شعرية ، ذات فخامة قوية ، تصف نماذج انسانية غريبة ، تقطن هذه الغابات ، كما تصف عظمة طبيعة اقليمه، وان قصائده لتعج بالنشوة الدينية ، وتزخر بالسحر الاسود وعبادة الموت ، ناهيك عن ان « اريك لاندورم » الذي كان بدوره ربيب المدينة الكبيرة ، كما كان « دان اندرسون » ربيب الريف ، قد جعلت منه بعض القصائد جافة كئيبة ، الشاعر الاول في الطبقة العمالية ٠ وليس يعني هذا انه من نحو آخر خلو من موهبة بعيدة المدى ، حسبه انه التزم كمحدث ، ذوق « صحيفة الاسبوع » وهي أكبر مجلة اسبوعية بورجوازية في السويد ، وانه نظم قصائد امتازت بغنائيتها ، وبراعة شكلها، وحبها واقع كل يوم ، وانه لعب امتاز بالشدة، والقلق المؤلم ، اللذين صنفاه في عداد سوداويي ما بعد الحرب ٠!

* * *

اما هذا التباين بين البهجة والوقار ، فقد بالغ بدوره في تمييز الشاعرين « هارييت لوانهيلم » و « هالمار غولبرغ Hjalmar Gulberg » الذي بدا بدوره مفارقا أشد المفارقة ٠ وان الشاعرة «هارييت» التي نشأت من نسب كريم ، وامضت صباها في مراسم المصورين ، والصالونات ، ووسط النار « سورن كيركيغارد »(١٦) Sorn Kaer Kegaard » قد اسست رسامة من الطراز الاول ، وان اعمالها لتذكرنا

(١٦) سورن كيركيغارد : فيلسوف وعالم باللاهوت دانمركي ، ولد في كوبنهاغن عام ١٨١٣ وتوفي عام ١٨٥٥ ألف كتابا أسماه « مفهوم القلق » وهو دراسة تحررت فيها الفلسفة الانهزامية من الوجود ٠

« بكالو(١٧) إذ اطبعت بطابع الرشاقة ذات التعليق الغنائي Envolee والاثارة العنيفة التي اضحت من مميزات قصائدها ، ولقد ضمت المجموعتان الشعريتان اللتان نشرتهما « فن الحب » و « فن الصيد » قصائد مقلقة صغيرة ، تعوزها المعاني ، ذات روحانيات عبثية، أهدتها الى « نسوة ذوات نسب كريم ، وموتى ملحدين » بيد ان ثمة خلف القناع المضحك يتوارى تدين مفرط ، فاضفى انسجام هذين الجانبين على قصائدها ، نبرة جديدة كل الجدة!».

وايا كان الامر ، فان شعر «هالمار غولبرغ» لم يكن قط في منأى عن هذا القلق النفسي خلال الحربين العالميتين ، كما ان استاذيه « لوند » و « غولبرغ » قد وحدت الهذر والكلام الوقح اللذين طبعا الاوساط المثقفة في هذه المدينة ، بهموم الحياة العقلية ، التي قلما تواتي عصراً ذي فعالية ، في دعاوة ، وعنف !».

إن أسلوب « غولبرغ » متانق مرهف ، وقلة هم الادباء السويديون المعاصرون ،الذين اغنوا اللغة بنبرات جديدة ، اكثر مما اغناه هذا الشاعر .. لقد استلهم « غوته » واقوال الصحف ، وكتاب المزامير ، واسلوب

الاعلانات ، مؤمنا اشد الايمان « بأن للشاعر مكانا في جيش الاله المرئي ، لانه مكلف بحماية المستضعفين ، والنضال ضد الحسد ، وغريزة الابادة والهدم !».

وحسب الشاعر الذي يقود هذا النضال الفيئة حد الفيئة ، انه مثاب يتجلى السيد المسيح في أعاصير الشوارع العريضة ، أو غيش الاحياء سيئة السمعة وان السيد المسيح ليلج حجرة الشاعر ، فيعلق اكليل شوكه على المشجب ، ويمسي صديق جنديته المعتزل !».

هكذا نرى كيف ان كافة الشعراء ما بين الحربين العالميتين ، احتشدوا حول الغموض نفسه واليقين ذاته ، كما التزموا عقب الحرب الثانية بالخط البياني الكبير ، ولعل اكثر الاسماء اهمية هو اسم الشاعر « بار لاجيركفيست » إذ ان الظلال التي كانت مهيمنة على اثاره ، لا تعدو قلقه على مصيره ، ولا تنأى عن احساسه بأنه محروم من كل عون الهي !».

★ ★ ★

بقي علينا ان نعالج البنيان الاجتماعي ومدلوله بالقياس الى الادب : بدهي أن القرن التاسع عشر شهد في السويد ، شأنه في بقية أرجاء العالم ، ولادة القوى الاجتماعية الجديدة ، مما حدا الادباء الى الانحياز على نحو عام ، للمعسكر الثوري ، بعد أن انتظم العمال ـ خلال التسعينيات من هذا القرن ـ في مجموعات قادرة على النضال في سبيل مصالحها ، ودخل المجلس النيابي عام ١٨٩٩

(١٧) جاك كالو : فنان في الحفر ورسام فرنسي، ولد في نانسي عام ١٥٩٢ وتوفي عام ١٦٣٥ كان عبقرية بديعة خصبة عجيبة . عمل في ايطاليا واللورين ، وبرز كمعلم عظيم في الرسم المطبوع Eau - Forte اثر تأثيراً شديداً على فناني الحفر في القرن الثامن عشر وما تلاه .

اول نائب اشتراكي ديمقراطي وهكذا توالى التنظيم الاجتماعي في اصلاحات ، وتهديدات بالاضراب ، واضرابات ، حتى حوالي عام ١٩١٠ بيد ان هذا العالم الذي ارختنا بمولادة الرواية البورجوازية ، امسى بدوره - على الصعيد السياسي - عام نصر للبورجوازية : ففي انتخابات ١٩١٠ كان عدد من ناخبي الحزب الاشتراكي - الديمقراطي ، قد مال الى هذا الحزب ، ثم مالبث ان عاني خلال الاعوام التالية ، محنا شديدة ، انخفض إثرها الى النصف بيد انه ركز خلال هذا العام ، عدنا مهما في طريق نشر الديمقراطية الادبية ، وادخل ادباء في النضال الاجتماعي .. والحق ان هذا العام ، هو العام الذي بدأ الكتابة فيه اول أديبين سويديين كادحين هما : مارتان كوش ، و « هدنفند - اريكسون » فادخل « مارتان كوش » باثره العظيم « عمال » (١٩١٢) الرواية الجماعية على الادب السويدي ، وان العنوان الذي اطلقه على روايته « حكاية حقد » ليوحي اليوم بالالتزام الاجتماعي وشموله ، إذ وصف لنا فيها الحقد، كما صور التضامن بين المعذبين في الارض والارادة الطيبة التي نجمت من ظروف الحياة العصيبة !.

وهكذا اسهم « مارتان كوش » في وضوح وجلاء ، في اشاعة تذوق المطالعة بين الطبقات الشعبية السويدية كما نشر بين الشعب ، ديمقراطية الاحساس الادبي ، مجتذبا الى الادباء العمال وسواد الشعب !.

ولي ميسورنا أن نعثر خلال رواياته ، على نماذج راحت تمعن في تنقيبها في اكواخ عمال المناجم النورديين ، عثورنا عليها في اخصاص العمال السكندينافيين المياومين !. اما الرائد الثاني لادب الكادحين ، فهو « غوستاف هدنفند اريكسون » الذي كان على الرغم من شدة بطنيته ، أديب الجهابذة ، وذا شان حاسم في الالهام الذي وهبه لجيل المؤلفين الكادحين الجديد ، هذا الجيل الذي افتتن بثراء غنائيته المتفردة ، وتاثر قصته العميق ، واصداء حياته الخاصة ، في منطقة نوردية محرومة لقد عاش « هدنفند - اريكسون » ماساة التقيح الاجتماعي اعنف مما عاشها معظم معاصريه ، فكان التزامه عاما شاملا ، وهو الذي روى لنا قصة حياته ، في كتاب لعله اصفى اثاره وادفاها ، نعني كتابه « في شاحنة صوب الادب » (١٩٤٤) فبعد ان هرب ابا جائرا في منطقة جرداء بجامتلاند اضحى عامل منجم ، وعاملا حراجيا كما امسى ممدد خطوط حديدية ، وصيادا ومزارعا ، كما نظم جمعيات تعاونية، والـار اضرابات ، وحرر تشريعات نقابية ، فدلنا على انه عاش تحول السويد ، من مجتمع زراعي ، الى مجتمع صناعي بيد انه كان قبل كل شيء رحالة شريدا ، التقى خلال رحلاتـه المديـدة الجمة ، وخلال المهن التي امتهنها ، وهي متباينة اشد التباين ، بنماذج بشرية لا حصر لها ، وفريدة احيانا فاشاعها في الادب ، وهكذا نراه يعرض لنا «فيدياس» اللا مبالي ، الشريد العاقل ، الذي راح ينشد اسطورة « نرسيس » حين عجز عن جمع القشور للمبيض « هدنفند » الذي افرغ خزانته ، كيما يسدد ثمن جلسات سكره ، كما يقـدم لنا الملحد السكير جابي البريـد

« سالومونسون » الذي دله على العناصر اليونانية ، والفن الرفيع للتقطير الفني ، ثم يعرض لنا « مالستروم » الشبق الذي فرغ حريمه النورديات من تعبئة الدواء له ، كيما ينتحر به ، بتفجير شحنة من الديناميت في فمه. لقد استطاع « اريكسون » ان يجعلنا نتابع سرده امدا مديدا ، وايا كان الامر ، فان شخصياته الرئيسية اقتصرت على العمال الذين يقيمون الخط الحديدي ، الذي يخترق المناطق العرداء من نورلانده السويدية ، ولم تكن سمات الطباع الرئيسية لهذه الشخصيات، ذات ذوق متمني خمر فحسب ، او نسوة مجازفات ، بل انها تتسم كذلك بالصدق والصراحة ، والالفة والمروءة ، يبدو ذلك من خلال العشرينيات التي كتب فيها « هدنفند ـ اريكسون » روايتيه حول مقيمي الخطوط الحديدية ، وهما « تركات المشتتين »(١٩٢٦) و « العجلة المجنحة » (١٩٢٨) وهما ملحمتان عملاقتان ، تتضمنان مجموعة مؤثرة من الشخصيات !•

لم يكن « هدنفند ـ اريكسون » روائيا واقعيا فحسب ، بل كان رومانسيا كذلك ، فمن خلال الوصف الاكثر مباشرة ، استطاعت لغته ان تترك على غرة ارق الشعر والطفه لذا ترانا نستاق في اية صفحة من صفحاته الحلوة المذاق ، عطر الارض ونشم طيب العرق، ناهيك عن العديد من الصفحات ، التي تطالعنا بها هاتان الروايتان ، اللتان قد تبدوان ذاتي صفة مميزة ، بالقياس الى هذا الروائي الشاعر ، ويجدر بنا الا ننسى بلورتنا ما يماثلها من صفحات ، في حكاياته الشعبية، وهي غاية في الرقة والعذوبة ، والتي لم تكن في صفاتها المميزة ، باقل مما درج عليه في اسلوبه •• وهذه الحكايات تحتويها اربعة اجزاء « حكايات جامتلاندية » الخ (١٩٤١ ـ ١٩٥٢) وقد بدت لقارئها اكثر آثار « اريكسون » اكتمالا ، إذ تروي لنا حكايات هذه المنطقة المتخلفة من مناطق السويد كما نرويها نحن في القرى ، ولقد عرف المؤلف كيف يحافظ فيها ، على العطر والفروق الدقيقة ، وكما بدا فيها فنانا في اللغة ، كذلك برز لبقا ابيقا ، ملكا في الوقت نفسه ، نكهة المنشدين الشعبيين انفسهم فدل بذلك على صحة انتمائه !••

تلك هي جماع الواقعية المباشرة ، وجملة الشعر المؤثر اللذين لمساهما لدى « هدنفند ـ اريكسون » هذا الروائي الشاعر ، الذي سحر جيل الادباء الكادحين الجديد ، وهم الفئة التي بدأت الكتابة حوالي عام ١٩٣٠ ، ولعل مما تجدر الاشارة اليه ، ان اسم الادباء الكادحين هذا قد استعمل ـ بادىء ذي بدء ـ وكأنه تعبير مشين ، وكلمة مهينة ، بيد انه ما لبث ان اعترف به فاقر باعتباره لقبا فخريا للمؤلفين ذوي الهدف !••

اما اعظم الاسماء البارزة في هذا الجيل، فحسبنا ان نذكر منها : « يان فريديفار »

و « ايفنـد جونسون » (١٨) و « هـاري مارتنسون » (١٩) و « ولهـلم موبـرغ » و « ايفارلو ـ جوهانسون » و «موآمارتنسون» ولا ريب في ان تطور هؤلاء الادباء ، والمناهج التي انتهجوها في كتاباتهم ، كانت متماثلة كل التماثل ، على الرغم مما بينهم من بعض فروق ادبية ، تيسر لهم عرضها ، باعتبارهم ينتمون الى فئة وبيئة متشابهتين ، اذ ولدوا نحو عام ١٩٠٠ ونشأوا في اسر امضت حياتها في مقاطعات ، وان عليهـا الفقر ، ثم اتت الحـرب العالمية الاولى ، فزعـزعت بدايـة شبابهـم ، فاضطـروا مكرهـين في مستهـل العشرينيات ، الى النأي عن بيئتهم ، ومضوا سالكين‌دروب اوروبا ، فاصبحى احدهم بحارا وامسى الكثيرون منهم جوّابي افاق .

ولئن بـدت اول رواياتهم ـ في نهايـة العشرينيات ـ متسمة بالتجارب البسيطة ، لقد طمحوا الى العثور عـلى اسلوب لهـم ، وتبرة خاصة بهـم ، وهكـذا نراهم يمضون ـ منذ عـام ١٩٣٥ ـ متحفزين لكتابـة اول آثارهـم الرئيسية ، معالجـين ـ حتى ذلك الحـين ـ مواضيع شديدة التبايـن ، كانت تستقي مادتهـا من عالـم بورجوازي حينا ، وتستلهم نماذجها من رحلاتهم حينا آخر ، بيد انهم في هذا العصر ـ وهو امر ذو دلالة عامة ـ استنبطوا بعض الامـور الجديدة ، بعد ان اتضح لهم ، انهم يحملون في ذواتهم مواضيع يندر وجودهـا ، وان ميزة نضالهم من اجل الثقافة ، وهربهم من بيئتهم التي نشأ فيها اجدادهم عبر اجيال ، قد اهابـا بهم للامعان في النضال ضد البؤس والفاقة ، وولوج العصامية في المجتمع المثقف ، فابتكروا الروايـات الكبـرى ، التي تتناول سيرهـم الذاتية ، الصادرة في الثلاثينيات ، وهـي روايات تصور لنا هذا النضال المرير ، التي استهدف التحرر الثقافي والاجتماعي .

اما ما يتصل برواية « يان فريدفارد » المسماة « لارمن هارد » (١٩٣٥ـ١٩٣٦) فمحل هذا الروائي ، من بين افراد تلك الفئة‌كافة ، الاديب التي كانت حياته من اشد الحيوات امتلاءً بالصراعات النفسية ، وحسبنا دليـلا هـذه الرواية ، التي تصف لنا تمـزق شاب متمرد على المجتمع ، في لهجة متميزة تنحو نحو « المتمـرد » . وهنا يتعين علينا ان نطرح على انفسنا سؤالا ، عما حدث لأجيال الشباب التالية الموهوبة ، التي لم تتكيف‌مع البيئات البائسة ، فثمة فئة وقفت من هذه البيئات، وكانها واقفة في شرك كهـن القرية ، حتى لقد اصبحت هي نفسها احيانا ، كاهنة ، او خادم كنيسة ، وثمة فئة ثانية امتهنت‌البحرية وابتغت الهجـرة الى امريكا فئة سواهما ، اغريت بهذه الهجرة اشد الاغراء ، ناهيك عن ان اغلب هـذا الجيل ، راح يلوب باحثا ـعبر النظامـ عن متنفس لحاجته الى العمل، ولعل تاريخ السويد الجنائي ، يفيض‌بالحديث عن انعدام تكيفه ، ومحاولاتـه التحرر ، في سبيل الخروج من الطبقة التي‌ابتليت‌بالبؤس والفاقة ، لذا فقد بدا لنا تطور هؤلاء‌الادباء الكادحين ، وكأنه يبدأ مصادفة ، وهو خلـو

(١٨ـ١٩) الكاتبان اللـذان اقتسما جائـزة نوبل في الأدب عام ١٩٧٤ .

من مناهج يحتذيها جيلهم ، ومن توافق تطوره الى توافق تطور الاجيال التي سبقته ، يتضح انه كان مغيوبا كل الغبن ، ولعل حياة التشرد ، والتغيرات المستمرة ، التي طرأت على المهن التي امتهنها ادباؤه ، هي القانون الذي ساد جيلهم ، وان حياة البطل « لارس هارده » ـ ومن عجب انه لم يفصح لنا عنها ـ هي حياة كاتبها « جان فريد غارد » نفسه، وانها تمثله اصدق تمثيل ، فهذا النهج الذي انتهجه نحو حرفة الادب ، لا سبيل الى سلوكه ـ بالقياس اليه ـ الا بالنار والماء، او ان شئنا التحديد على نحو اكثر واقعية، لا سبيل الى سلوكه ، الا بالاصلاحيات والسجن الانفرادي !•

اما الروائية « موامارتسون » فتصور لنا من جانبها ، في سلسلة رواياتها ، الفتاة « ميا » ابنة عاملة معمل ، واصفة نضالهذه الفتاة ابتغاء الانفلات من عزلتها !•

كما يصور لنا الروائي « ولهلموبرغ » تمرد بطله « كنوت تورانغ » ضد عالم لم يستطع التكيف معه ، على الرغم من انه يسعى الى ترميمه !•

وهذان الروائيان ـ شأنهما شأن جميع زملائهما من فئتهما ـ قد وسعا بعد لأيمن افقهما ، في معالجتهما مواضيع تاريخية !•

اما ما يتصل بـ « موبرغ » فيجدر بنا بادىء ذي بدء ، التنويه بثلاثيته الملحمية الكبرى التي تناول فيها قضية هجرة الريفيين السويديين الى امريكا ، وقد صدر الجزء الاول منها عام ١٩٤٩ بعنوان « المهاجرون » وتلاه الجزء الثاني بالعنوان نفسه عام ١٩٥٢ ، وليس من شك في ان هذا الروائي، كان واحدا من اذكى واقدر روائيينا ، الذين تناولوا حياة الطبقة الكادحة في اسلوبعصبي معبر وواقعي ، ولعل تفوقه يعزى ، الى الكيفية التي نسق فيها افكاره الرئيسية ، في تكوينات متقومة ، لم تثر اعجاب الملايين من القراء فحسب ، بل اثارت اعجاب النقادالغلاة في نقدهم كذلك ، كما اصدر ـ خلال الاعوام الاخيرة ـ سلسلة من المقالات النقدية ، يندد فيها بالملكية ، ويشهر بعالم المحاكم،والادارة•

★ ★ ★

ولمة قاص لا يقل اصالة عن « موبرغ » هو « ايفند جونسون » المولود عام ١٩٠٠ ـ ولعلنا حين قلنا قبل قليل ، ان الروائيين الاوائل من الادباء الذين اهتممنا بهم ، لم يكونوا الا « مقدمات »•كان لزاما علينا ان نستثني منهم هذا الكاتب ، الذي اضحى منذ البداية فنانا كامل العدة !•

عاش في باريس عصابية ما بعد الحرب، خلال تجوابه عبر اوروبا ، وهاهي نراه في روايته «مدينةمضيئة» التي صدرت بالفرنسية عام ١٩٢٧ بعنوان « رسالة مسحنة » ثم نشرت بالسويدية عام ١٩٢٨ ، يحدثنا عن الجيل الجديد : « الاكثر حكمة من كل ما عداه ، حتى من « ارسطو »• هذا الجيل الذي وهبنا له الكوكائين ، وهش المراهقين ، والمبتلين بالشذوذ الجنسي ، هو الجيل الوحيد،الثمين

بان يمتح القدرة على التفوق ، حين يرى نفسه في مرآة صقيلة » .

ويبدو ان ثمة تشاؤمة قدتما طبع بطابعه اوائل روايات « جونسون » ولا ريب في ان منتصف الثلاثينيات هو الذي رسم له كما رسم لسواه من الادباء ، عهدا جديدا ، ولعل « رواية اولوف » (١٩٣٤ـ١٩٣٧) التي تعد اروع الروايات التي صدرت في تلك الحقبة، هي الاثر السيرذاتي Autobiographique الذي صور لنا فيه طفولته التي امضاها وسط ورشات النشر Scienes النوردية ، ووعي فيها اربع مراحل كبارا خصت بكل مرحلة منها ، سنة من سني حياة مراهقته، الممتدة بين الرابعة عشرة والثامنة عشرة ، ولقد امتزجت في صوره المكثفة ، حكاياته الرمزية بمجريات القصة ، بملاحظاته السيكولوجية الدقيقة ، فاضحى التقني الاشد رهافة في فنه ، كما صنف في مدرسة مارسيل بروست» (٢) و «هرمانهسه» (٢١)

و « اندريه جيد » و « همفواي » .

لقد مزج « جونسون » في « رواية اولوف » العقد بالدوافع في دؤوب لعبة التخبئة ، وان العدة لتبدو من خلالها ، اما قارنا بين شخصياتها التي تتفع دوما ، والتصوير الذي يؤديه الكاتب مما استدعى ازدواجيتيها اللتين ترتضيهما التعبرات الرمزية !.

اما الروايات التي تلت « رواية اولوف » فقد بدت ذات تركيب غاية في البساطة ، اذ تعلي اللعبة الجمالية مكانا للمغزى ، مما يبعث على اليقين بان « ايفند جونسون » يتحاز لشتيت المعارك السياسية العالمية الكبرى ، وحسب مجموعته « سلسلة كريلون (١٩٤١ ـ ١٩٤٣) انها استقطبت ثار المتحمسين السويديين من المانيا النازية !.

اما رواياته الاخيرة « عوليس السعيد » (١٩٤٦) و « احلام الزهر والنار » (١٩٤٩) و « اخطفوا الشمس » (١٩٥١) فان احداث الرواية الاولى « عوليس السعيد » تجري في عصر ابطال حرب « طراودة » وتقع احداث الثانية « احلام الزهر والنار » في فرنسا، خلال القرن السابع عشر ، اما الرواية الاخيرة « اخطفوا الشمس » فتتناول حركات المقاومة في اوروبا ابان الحرب العالمية الثانية وما بعدها ، وفي ميسورنا ان نطلق على هذه الروايات كلها ، العنوان الذي تطلقه على اول رواياته وهو « رواية الازمنة الحديثة » ولا ريب في ان هذه الاثار تنسجم على نحو او اخر ، مع زماننا وصراعاته ، مما يدعونا

---

(٢٠) مارسيل بروست : كاتب فرنسي ولد في باريس عام ١٨٧١ وتوفي عام ١٩٢٢ شتهر بروايته الطويلة « البحث عن الزمن الضائع » التي تروي تطور ذكرياته الشخصية ، كما تنص بدقة عجيبة ، احاسيسه واحاسيس من احتك بهم او عاشرهم .

(٢١) هرمان هس : شاعر وروائي الماني ولد في « كالو » عام ١٨٧٧ وتوفي عام ١٩٦٢ وقد تجنس بالجنسية السويسرية ، ونال جائزة نوبل في الأدب عام ١٩٤٦ .

الى القول ان الادباء الكادحين كافة ، كانوا في الثلاثينيات كتابا ملتزمين بالصراعات والقضايا الراهنة ، وبديهي أن هذه الصراعات وتلك القضايا ، كانت نابعة من طبيعة المجتمع الاوروبي ».

ولمة كاتب آخر وجب أن ننوه به باعتباره واحدا من عصبة الستة « Groupe de six وهو « ايفار لو ـ جوهانسون » الذي سعى عامدا متعمدا في آثاره كلها ، الى الفوز باصلاحات اجتماعية دقيقة ملموسة ، بعد أن كرس لها وقته ، مبتغيا احلالها المحل الاول في مصير « الستاتاريين Statares » ـ وهي كلمة فرنسية يتعذر فهمها ـ أسمى بها احدى رواياته ، عرض لنا فيها حياة طبقة من العمال الزراعيين ، عانت الفاقة، على نحو يتعذر وصفه ، تعمل لدى كبار الاقطاعيين ، ثم لا تلبث أن تقضي نحبها ، وتلك ظاهرة توشك أن تنسحب على صفحات هذه الرواية كلها ».

لقد وصف لنا هذا الروائي بؤس اولئك العمال وأحزانهم ، كما صور كذلك الافراح التي يفلحون في ابدائها احيانا ، كيما يتبروا وجودهم الذي يدعو للرثاء ».

فعربات نقل الرياش التي يجرونها من حقل الى حقل ، تبرز في كل منعطف فصل من فصول الرواية ، ولقد افلح هذا الروائي حقا في اطلاعنا على هذه الطبقة المحرومة ، كما أهاب بنا الى الاهتمام بها ، فكانه لم يشأ ان يمسي مؤلفا اديبا فحسب ، بل يمسي مصلحا اجتماعيا كذلك ، وأيا كان الأمر ، فان مساعيه وجهوده لم تخل قط من النجاح ، حسبه ان المجلس النيابي قد ازال عام ١٩٤٥ جانبا من وضع العمال « الستاتاريين» الذين صور الكاتب حياتهم البائسة ، لذا لم تعد قضيتهم منذ ذلك الحين مثار اهتمامه ، بل راح يمضي بمجالات اخرى ، يستطيع ان يبدع فيها اثرا آخر مجديا ، ولا ريب في أن « لو جونسون » الذي نراه يغلو حينا في الوقوف ضد ارادته ، ثم يعنو لها حينا آخر، قد اضحى ـ على الرغم من غلوه واذعانه ـ مؤلفا ذا اهمية ووزن ، شانه شان سواه من زمرته ، ومبعث ذلك ، ما نلمحه فيهم من ميل قوي ، يزيد او ينقص ، نحو تاليف اثر اجتماعي نافع مفيد ».

★ ★ ★

واضح أن الأدباء الكادحين قد عانوا الامرين للفوز برضا الجمهور ، ولعل أشدهم معاناة ، وأسبقهم الى شق طريقه في سرعة فائقة، هو الكاتب « هاري مارتنسون » العامل والبحار ، وأول عصامي يدخل المجمع العلمي السويدي ، بعد أن انتخب عضوا فيه عام ١٩٤٨ ، وكان أول نجاح عظيم حالفه ، اثر صدور روايته « الاشواك المزهرة » التي صور لنا نفسه فيها ، صبيا تتبناه البلدية ، عقب اختفاء ذويه ، ثم ما لبث أن مضى مقتفيا الرهم من مزرعة الى مزرعة، فعاني ـ خلال التفاته ـ حياة بائسة، محرومة

من الحب والحنان ، ولقد تجلى في هذه الرواية، الوصف الساحر لهذه الحياة ، وتكشفت فصولها من مدى الهوة ، التي تفصل هؤلاء الادباء الكادحين ، عن الاوساط البورجوازية التي يحتكون بها ، حين يبداون بالتعرف عليها ، ولشد ما يخطر ببالنا ونحن نتلو روايات « مارتنسون » رواية تلو رواية ، اننا حيال كاتب يعني اشد العناية ، بتصوير حياة المغامرين والمشردين ، فترى أبطاله خلال آثاره ، وهم يتسكعون بلا هدف الا هدف التسكع ، فاما أنهم يتقون ازعاج المجتمع، أو أنهم هم أنفسهم كانوا ضحايا نصابين، اضطروهم الى هذه الحال ، وهؤلاء هم الذين يشكلون بؤرة اهتمامه في رواياته ، ويؤلفون الرابطة الوحيدة ، التي توحد اعمالهم وبيئاتهم المتباينة اشد التباين .. ان روايات «مارتنسون» لا تعدو روايات رحلة وجوب الافق ، ولعل العناوين التالية تدل على هذه الظاهرة ابلغ دلالة : «رحلات بلا هدف» (١٩٣٢) و « رحيل » (١٩٣٦) و « طريق كلوكريك » (١٩٤٨) ولمة رواية بالعنوان نفسه صدرت عام ١٩٥١ وهي آخر مؤلف له نثري ، بيد أن هذا اللون من التكوين الذي لا يعدو أن يكون في العصور السالفة ضربا من البلاهة يعوزه الخيال ، يبدو ــ بالقياس الى « مارتنسون » ــ شرطا من شرائط فنه نفسه ..

وهكذا يبدو أن « مارتنسون » هو الكاتب الأكثر ذاتية بين أدباء السويد المعاصرين ، والأكثر مباشرة في مخاطبة القارىء والتوجه اليه .. لقد امسى اليوم ، بعد أن وخط الشيب رأسه ، يعيش في آثاره ، مرددا نظرة الطلعة في الحياة ، كيما يفسرها لنا ، على نحو ذكي فطن لطيف .. أما الاسماء التي ينمت بها الحياة فجمة ، وايا كانت اسماؤه فليس ثمة أحد في ميسوره الشك ، بأن البطل في آثاره الاولى التي أبدعها ، هو الكاتب « هاري مارتنسون » نفسه ، وبديهي أنه حين كتب هذه الآثار حوالي نهاية العشرينيات اتاحت له واقعية غامضة ، ساذجة عجيبة ، ولوج الادب السويدي ، على الرغم من أن هذه الواقعية ، لم تكن مستحدثة آنذاك ، بيد أن ما أحدثه «مارتنسون» تجلى في قوته وشخصيته ، وهاهما روايتاه « رحلات بلا هدف » و « وداعا أيها الراس » (١٩٣٣) تؤثران في رسائله ، التي كان يبعث بها الى اصدقائه المقيمين في السويد ، ولقد كتب هاتين الروايتين ، أو لنقل عاش احداثهما، خلال الاعوام الطويلة التي امضاها ماخرا عباب البحر ، فعبرت مشاهدهما وفصولهما عن أدق الفلتات التي ساورته ، واعتملت بين جنبيه ، فبدت لنا قصة غرق الباخرة اليونانية سس يونوبوليس جذابة كرواية مغامرة ، كما تجلت قوة تأثيره ، في نظيرتها التي تروي لنا حكاية الراقصين الهنود ، الذين كانوا يرقصون وقد خارت قواهم ، وارتعدت أوصالهم من الوني ، خلال ساعات يمضونها ، وقد سلط عليهم سيدهم سوطه، لقاء دريهمات بخسة تلقى في قبعته ..

وثمة حكايا صغيرة جمة تنحو هذا النحو،

ضمها الـران له ، عرض لنا فيها لوحـات صغيرة،رسمتها ريشة قوية متمكنة لا تنتسى، ولعل مما يجـدر التنويه بـه ، أننا لا نفتا نلاحظ عزوفه في الوقت نفسه ، عن ايةكتابة نثرية تعنى بسانح من السواح ، وبلغي أن يعزف عن هذا الضرب من الكتابة ، لأنه لم يكن قط لريا امريكيا ، يكتب قصة رحلات بحريـة !•

أولم يقل لنا في روايته « رحلات بـلا هدف » : « لقد وضح لي أن هذا يعني انه كان يعاود الصعود نحـو سفينة « الاوتر » في يوم صيفي قائظ ، ثم لا يلبث أن يعاود الصعود نحوها حتى قمرها ، وخلال الدقائق الثلاث التي يمضيها ، ومـن موضع مرجـل السفينة ، يخرج من الكوة راسه وقد تصبب عرقا ، كيما يلقي نظرة عجلى اعتاد ازجاءها الى السهل المفروش بالتفاح ، ثـم يعـاود هبوطـه » ؟•

أولم يكتب في مكان آخر : « لقد تلقيت البحر كما يتلقاه طفل ، بعد ان اعتروحي بروايات « ماريات » ومن ثم اصبحت معاون ربان في الصناعة البحرية » ؟ الا ان هـذه الرحلة البحرية لتظهـر لنا بجلاء ، الخيبة التي ساورت «مارتنسون» بيد أنها لا تبرح ان تنجلي اذا علمنا أنه كان مزودا دوما ، بما يكفيه مزدعابة ، تحول دونه ودون وقوعه في النواح والشكوى،اللذين لا مسوغ لهما، ولاسيما وانـه لا ينى يسترعي انتباهنا الى اعتزازه وفخره ، بانه عامل كادح ، وانه ربان في « مصنع البعد » يندفع ماخرا عباب بحار العالـم السبعة ، كيمـا يمـلا مخـازن «روتردام» (٢٢) ومخازن « برناميوك » (٢٣) هذه المدينة المرفا ، التي اشار اليها قائلا :

« كان البحارة على دروبها ، يستخدمهم التجـار الذين اكتشفوا ان العتين البشري كان ضروريا مـن اجـل نقل سلعهم(٢٤) Camelote » وان هذا القول ليدلنا اعمق دلالـة ، عـلى أن الكاتب الشريد « هـاري مارتنسون » لـم يكـن قط مـن نمط ذاك الأفاق ، الذي نراه في الأدب القديم ، بعد ان أضحى عضوا في بيئة اجتماعية ، وأمسى ذا ظما لا يرتوي الى المغامرات • ولئن صمم له الآخـرون دروب تجوالـه ، لشد ما كان الزمن يتيح لـه ان يلقي نظرة عجلى عـلى المناظر ، التي تبدو حياله خـلال فترتين ، يملا فيهما بالماء مراجل سفينته !•

كما أننا نرى في آخر رواية له وهـي « طريق كلوكريك » وصفـا رائعـا للشريد الفيلسوف «بول» يوضح لنا فيه جملةتجارب عقلية وطبيعية عاناهـا جيل الثلاثينيات ، فيصف في فصلها الاول حكمة الصانع الماهرة المتبصرة ، ومن ثم يجيء استقصاؤه النقدي للمجتمع المتحضر الفرح بنفسه ، تتلـوه في النهاية تعرية الاقلال من الحاجات الأساسية، الى أدنى حد من المعيشة !•

---

(٢٢) روتردام : مدينة صناعية ومرفا هـام في هولندا •

(٢٣) برناميوك : مرفا في البرازيل •

(٢٤) سلع ذات نوعيـة منحطة ، سهلة الصنعة •

لئن امست الرواية المعاصرة الاكثر وفرة في خطها العام ، طابع روائيي السويد في الثلاثينيات ، لقد عنيت على نحو شامل بالتبسيط والاختصار ثم اتت المفاهيم الجنسية والحيوية فشكلت قاعدتها الاساسية ، اما ما يختص « بمارتنسون » فانه لم يعن بقيمة الامور البسيطة عنايته بحق المستضعفين ، والاهتمام بهم في عصر الصمت ، وهذا ما نلمحه جيدا في مجموعتين شعريتين له « هوى عابر Passade » وسيكادا Cekada » اذ نراه فيهما يغوص في الحكمة الهندية ، متاثرا بالشعر الصيني ، وهو بهذا الصنيع يجعل لنا فلسفة للرقة ، يعتبرها ذريعة للسلام في العالم !

هكذا تغدو الازمة العالمية مبرحة رويدا رويدا ، ويمسي كافة هؤلاء الادباء متاهبين للذود عن المثل العليا ، التي يرونها مهددة، متخذين ضد الطغيان والحكم المطلق موقفا جعلوه في السويد الوديعة ، مبدءا لهم، شبيها بموقف المقاومين القادمين في قابل من اوروبا. اما الادباء الذين وجب ان يحمل ادبهم ـ قبل كل شيء ـ طابع المعركة الماساوية ، فقد انتموا الى جيل اكثر حداثة ، هو جيل الحرب العالمية الثانية !.

★ ★ ★

لقد اعتدنا ـ وتلك عادة سيئة ان شئنا ـ ان نومىء خلال بحثنا في تاريخ الادب السويدي ، الى مختلف المدارس الادبية ، بجوانب من العقد الاخير ، وهو منهج لا يفي بالغرض ، شاننا حين نشير الى الاجيال كافة، ولئن كان ثمة عقد قد يفيدنا في تمييز مدرسة على مدرسة ، فهو عقد الاربعينيات، فخلال شتاء عام ١٩٤٠ وفي بولونيا وفنلندة، تولى التاريخ نفسه، فصل الاجيال عن بعضها، اما من دعا الادب الجديد الى استيعابها، فهم اولئك الادباء ، الذين كانت لهم اذان مرهفة في التقاط النبرات الاولى ، التي تاتت من الاوامر التي ربطت فارسوفيا بسالا . اما ادب الاربعينيات في السويد ـ شانه في بقية ارجاء العالم ـ فقد كان لزاما عليه ان يستشرف خلفية نكبة الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥ والتوترات التي اعقبتها ، ونحت نحوها ، بيد ان المصادفة ابت الا التوفيق بين النزاع المسلح والمقطع العشري مما ادى الى تكوين ادب العقد الذي عاشه في الاربعينيات ، بيد ان « الحداثة » ـ ابان هذا العقد الجديد ـ لم تصنع في الادب السويدي ـ حتى ذلك الحين ـ سوى بدايات قصيرة ، توحدت فيها مدارسه شيئا فشيئا ، وكان « مالارميه » و « ريلكه » (٢٥)

---

(٢٥) راينر ماريا رلكه شاعر وكاتب نمساوي ، ولد في براغ عام ١٨٧٥ وتوفي في سويسرا عام ١٩٢٦ له شعر يميل محتواه الى الغموض ، ويبدو التكلف على شكله . اقام في باريس ردحا من الزمن، وعمل سكرتيرا للنحات الفرنسي الشهير « رودان » .

و « ابولينير »(٢٦) و « ت.س اليوت » وسواهم ، عرابي هذه المدرسة ، مما ادى الى ان تمسي آثارنا الأدبية ، آثاراً تجريدية، وان لم تكن فقط مبهمة بسبب فعالية المواضيع التي تناولتها !.

كما لم تحتج الاربعينيات الى المفاهيم التي تدور حول الاعوام التي عاشتها تلك الحقبة، اذ على قدر ما كان من ادباء ، كان ثمة قراء تيسر لهم ان يتثقفوا .. اما بالقياس الى اناس العقد الذي تلا ، فقد كانت هيروشيما اسماً لمكان ، والقنبلة الذرية فكرة طبيعية ، وادوات التعذيب قطعاً في متحف ، وعلى هذا النحو نرى ان هذه المفاهيم تضطلع ــ خلال الاربعينيات ــ بفاعلية مميزة لم تكن لها ــ من وجهة تاريخ الافكار ــ اهمية جوهرية ، وان عاشت واقعيتها ، او كانت بالتالي مزودة بالمعرفة فحسب ، لذا كان التشاؤم والاحساس الغامر بالنكبة ، هما العلامة المميزة لهذا العقد !.

ثمة ناقدة تعد من اعتى النقاد المعروفين بعدائهم للادب السويدي المعاصر ، راحت تهاجمه محقة ، آخذة عليه انعدام التزامه السياسي ، متحدثة عن الشعوذة الرمزية ومأساة الوهم اللتين توارى خلفهما الادباء السويديون ، مما ادى الى عجزهم في الافصاح عن حياتهم الحقيقية !.

لقد حاول هؤلاء النقاد الادعاء ، بان ثمة ادباء لم يعانوا ويلات الحرب، لذا فليس من حقهم ان يجعلوا منها موضوعاً يتناولونه في آثارهم ، ويبدو ان منطقاً كمنطقهم هذا، باطل بطبيعته ، وليس في ميسورنا الأخذ به، ولاسيما وأن من لم ينكل به في عصر التنكيل، في مقدوره ان يحيا هذا العذاب في المرء الادبي، في حين ان من شوهت اعضاؤه ، قد ما يحتاج حاجة ملحة الى النسيان والصمت، مما يدحض قول القائل بحق النقاد الذين تحدثوا عن الشعوذ المجلي من ادبائنا، وحسب « دانتي » (٢٧) مثلا نضربه دعماً لرأينا ، فاما انه ــ في وصفه كوميديته الالهية ــ كان في جحيم ، او انه لم يكن فيه ، يكفيه انه اثار اهتمامنا ، اذ ان ما يهمنا منه كتابته جحيمه !.

ولا ريب في ان الادباء السويديين في الاربعينيات بحثوا عن شكل للتعبير ، يبدأ اكثر ملاءمة للاحداث المأساوية التي استلهموها ، وانهم شاءوا ان يعطوا ــ في محتوى لا متناسق ــ شكلا لآثارهم غير منسجم، ويعزى السبب ، الى انهم لم يروا لمحتوى من اقامة ترابط منطقي بين المحتوى والشكل، بعد ان اتضح لهم ، ان كل شيء يتنافر والواقع المتباين ، الذي يكتنفهم ، لذا

(٢٦) غيوم ابوليير : شاعر فرنسي ولد في روما عام ١٨٨٠ وتوفي في باريس عام ١٩١٨ سلك في الشعر الرمزي دروباً جديدة بشرت بالسريالية .

(٢٧) دانتي اليجيري : شاعر ايطالي ولد في فلورنسا عام ١٢٦٥ وتوفي عام ١٣٢١ واشتهر بكتابه « الكوميديا الالهية » كما يعد أباً للغات اللاتينية الحديثة.

ملقاهم يجدون في البحث عن هذا الشيء كيما يعيدوه الى شكل طبيعته ذاتها !.

★ ★ ★

وقبل أن نمضي بعيدا في تعريفنا بالادب السويدي المعاصر ، يجدر بنا أن ننوه بشاعر عنت به السن ، كان ذا نفوذ عظيم على الجيل الحديث ، نعني به « غونار ايكيلوف » فلقد انضم هـذا الشاعر ـ بادىء ذي بـدء ـ الى الرمزية الفرنسية ، ناهيك عن انـه أسهم ايما اسهام في اطلاع السويديين على الشعر الفرنسي ، في مجموعة ترجماته « من بودلير الى السوريالية » (١٩٣٣) وهي ترجمة قلما تقرن قيمتها بقيمة الاصول التي ترجمها !.

عاش « ايكيلوف » في باريس من عـام ١٩٢٥ حتى حوالي عام ١٩٣٠ فعثر في هذه الحقبة عـلى الالهـام ، الذي بان في ديوانه الاول «فوق الارض بعد فوات الاوان» وعلى قدر ما كان الشكل في هذا الديوان ثوريا ، على قدر ما طبعت العدمية المضمون فيه بطابع القنائية القارية التي سادت الادب الغربي، خلال الحربين العالميتين ... ورويدا رويدا، وحتى صدور آخـر دواوينه « لا جـدوى » (١٩٤٥) و « في الخريف » (١٩٥١) نـراه يقر بمذهب التعقلية (٢٨) الذي اشتد تأثيره في اللاعقلانية (٢٩) التي تميز بها النموذج البوذي ولم يكن تكلف الشكل لديه ، أقل شأنا من هذا النموذج ، بيد انه بزه في هدفه الى البساطة ، التي عرف بها أسلوب الاغنية الشعبية والمثل !. وأيـا كان الأمـر ، فان مرد امتداد « ايكيلوف » ملموسة في الشعر، يعود الى طبعه الذي اقتضاه اتصالـه بعلـم النفس من نحو ، والى التزامه الثقافي مـن نحـو آخـر ، ولئن بلبلت قصائـده ـ في الثلاثينيات ـ رمزيتها الطليعية ، وحريـة تداعي افكارها ، وتكوينها الموسيقي ، لقـد اضحى على غرة ـ في مستهل العقد التالي ـ رسول الشعراء الشباب ! .

ويتجلى المثال الادبي الاول لهذه الاربعينيات في صدور دواوين للشاعر « أريك لاندغرن Erik Lindegren » كديوانه « الانسان بلا طريق » (١٩٤٢) وهـو من آثار العصر الاكثر أصالة ، امتاز باحساس بالعدم مبرح، وبازدراء سام لكل ماهو خارجي مزخرف ، وذاتية قويـة ، ممزوجـة بسخرية رومانسية خفيفة ، كما انه أول ديوان شعري ، أسمع نبرات ثابتة ، حذا شعراء آخرون حذوها ، على مدى العقد الذي ظهر خلاله ، ثم تلاه ديوانان هما « منظومات متتاليات » و «طريان الشتاء » فقد حشد في رؤى مكثفة ، منظمـة بمثابة مراحل ثلاث مرت بالشاعر «لاندغران»

(٢٨) التعقلية : « مذهب يرى أن كل ماهو موجود ، مردود الى مبادىء عقلية ».

(٢٩) اللاعقلانية : (مذهب فلسفي يقدم اللامعقول ، ويقول بان العالم لايدرك كنـه بالمعرفـة الواضحة ، بل يتضمن بقايا غير معقولة ، وغير قابلة للتأويل).

نحو فهم الفنانية السويدية .. لقد أشاع الديوان الاول « الانسان بلا طريق » الحداثة في الشعر ، كما تجلى فيه القلق والتردد ، وصور الثاني « منظومات متتاليات » ادراكاً للحياة اشد اطمئناناً،وكانت اللغة في تعبيره شجية مطربة . أما الديوان الاخير « قربان الشتاء » فقد حشد في رؤى مكثفة ، عظمة فلسفة ظاهراتية وحكمة جديدة ، لا تشبه الحكمة النابعة من الديانة ، بل تشبه اليقين والادراك ، وهكذا اصبحي « لاندغران » احد شاعرين عظيمين ظهرا في هذا العقد .!

أما الشاعر الثاني فهو « كارلفنبرغ » وفي حين زاد الاول من وقف نتاجه على التعبير الرمزي الموسيقي ، صاغ الثاني الشكوكية الثنائية الموضحة Second Formulé التي تضمنتها قصائد غامضة شد ما تبدو حكمية تعرض اتجاها تحليليا وثمة شعراء هامون آخرون ، حري بنا ان ننوه بهم هنا ، كالشاعرة « الز فراف » التي تشبه بمضل نبرتها السحرية ، ومواضيعها اللذيذة الأخاذة « هاري مارتنسون » !

والشاعر « راتيار تورسي » وهو احد الشعراء الأوائل الذين خطوا بالاسبقية في هذا العقد ، وقد ظل مرتبطا به اشد الارتباط .!

والشاعر « فرتر اسپانستروم » الذي قرن المغزى المتشائم بتصويره الدقيق للقيم .!

والشاعر الفنائي « سفن الفونس » الذي كان احد نظريي العصر المهمين جدا ، كما كان رائدا من رواد الفئة التي ينتمي اليها .!

★ ★ ★

لئن قلنا ان الاربعينيات قد اوجدتمذهب العقد الفنائي ، فقد اضحى لزاما علينا ان نشير الى ناثرين وكتاب مسرح لاعداد لهم ، زودوا بمواهب فذة ، ظهروا في تلك العقبة، بيد انهم شد ما كانوا ورثة تابعين،او كانوا — في الاعم الاغلب — يبحثون عن دروبجديدة دون ان يهتدوا اليها كل الاهتداء ، وهنا يجدر بنا ان نذكر كاتبين منيفين ممن هنوا بالكتابة للمسرح وهما : « ستيغ داجرمان » و « جورن — اريك هوجر » اللذان تفوقا في صورهما الشعبية . كما نضيف اليهما كاتبا اخر هو « اكسل سترندبرغ » الذي تفرغ كمه الكاتبالمسرحي « اغوست سترندبرغ » (١٨٤٩ — ١٩١٢) لمسرح القضية . ولعل روايات الدوافع والمعرضات التي قدمت على مدى الاعوام اللاحقة من قبل « جيمس جويس » (٣٠) و « د. هـ. لورنس » (٣١)

---

(٣٠) جيمس جويس : شاعر وروائيايرلندي ولد في دبلن عام ١٨٨٢ وتوفي فيزوريخ عام ١٩٤١ نظم مجموعتين شعريتين ، الاولى بعنوان « تصويريون » والثانية « موسيقا الحجرة » (١٩٠٧) وكتب مسرحية بعنوان « منميون » وسلسلة من القصص الواقعية « فتيان دبلن » (١٩٠٧) كما أصدر عام ١٩١٤ فيتحليل نفسي دقيقروايته «ديدالوس أو صورة الفنان في شبابه » ثم اعقبها برواية « عوليس » وهي تعد مناغربالروايات وقد منعتفي شيكغو بأمريكا ، وطبعت في باريس عام ١٩٢٢ ، تروي — في

قد تأثرت بدورها بهذا المنهج ! •

وثمة تأثير آخر بالغ القوة ، وفد الينا من الادب الامريكي « العصير Dur » ونعل « لارس اهلين » أحد الكتاب الناحين نحو هذا التيار الفكري كما نحا الكاتب « سيفار آرنر » هذا النحو ، في دراساته السيكولوجية ، التي شد ما فاتتني تمتعتها !•

وثمة نموذجان اقتدى بهما ادباؤنا هما « سارتر » و « فرانز كافكا » وايا كان الامر فان الادب السويدي لم يتفرد وحده بالانتفاع بهذه العوامل ، ولعل مما يلفت النظر حقا أن ماسي « سارتر » على سبيل المثال ، شد ما كانت تمثل على مسارح السويد ، قبل تمثيلها في بقية البلدان الاوروبية وان آثار « كافكا » و « سارتر » كلها قد ترجمت بادىء ذي بدء في السويد ، مما يدلنا على أن التربة كانت مهيأة للاقتداء بهذين الكاتبين ، ناهيك عن اننا كنا نستشعر الحاجة الى هذه التوابل الحريفة ، بعد أن استوفت التشاؤمية المعاصرة مسوغات نظريتها في الفلسفة الوجودية ، التي تأثرت من قبل ـ ب « سترندبرغ » في منهجيتها الكيركيغاردية •

اما ما يتصل ب « كافكا » فانه ألهم الرمزية التعبيرية للهواجس ، على نحو ما استغلها كتاب الاربعينيات • ولعل « ستيغ داجرمن » مثل لنا أوردناه ، وإن توفي قبل الاوان !••

★ ★ ★

لقد كانت الثلاثينيات عصر الروايات السيرذاتية أما اليوم فان الادب السويدي ينتهج نهجا ذاتيا لا يسعى فيه الى تحديدمكانة الفرد في عصره فحسب ، بل يحاول تعيين مكانة العصر باكمله ، ولاسيما وان النزعة الإجتماعية التي ميزت العقد الذي سلف ، قد اتسعت كما اغتنت بتاثيرات أخرى ، وعلى حد تعبير « اليكس كوممورت » في حديثه عن « متطوعي الحرب الاهلية الاسبانية » الذي قال فيه :

سيمسئة صفحة ـ حكاية يوم واحد يقضيه السمسار « ليوبولدبلوم » منذ أن هب من رقاده حتى عودته اليه ، وما تخلل ذلك من أحداث وقعت له في دبلن • ولعل المتولوج الداخلي الذي تغلغل فيه « جويس » حتى أعماق النفس ، لم يحل دونه ودون ذكر أي هجر في القول ، أو اعطاء اية صورة بذيئة عبر عنهما في لغة فنية مشوشة•

(٣١) روائي وشاعر انكليزي ولد في «استوود» عام ١٨٨٥ ومات في «فانس» عام ١٩٣٠ استهل الكتابة بروايات « الطاووس الابيض » (١٩١١) و «المتهاب»(١٩١٢) التي أثارت ضجة لجرأة مؤلفها النادرة في تصويره الحب الطبيعي ، ثم أعقبها بروايات : « أبناء وعشاق » (١٩١٣) و « قوس قزح » (١٩١٥) التي منعت الرقابة الانكليزية تداولها ، و «عشيق الليدي تشاترلي) (١٩٣٢) وقد طبعت بعد وفاته•أما شعره فينحو فيه نحو المدرسة الخيالية في حسية عميقة •• صدر له ديوانان « قصائد حب » (١٩١٣) و « عشاق » (١٩١٦) •

لقد مضى الادباء مصطحبين « ماركس » ثم أبوا مصطحبين « لوركـا » و « اونامونـو »(٣٢) ولا يخالجنا شك في ان هذا القول ينسحب على أدبنا السويدي المعاصر بمجمله ، إذ سار تطوره من ادب قضية الى ادب ذاتي ثم الى بحث الروحية والتعلق بقيمها كما تجلى هذا التجديد بوضوح، في اختيار الشعراء والكتاب مواضيعهم ، أكثر مما تجلى في تقنيتهم ، او في لغة الرواية التي يكتبونها !.. وهاهو ذا « لارس فورسيل » وهو احد الشعراء الشباب ، يوجز لنا هذا المثال بقوله : « مادام الاحساس قد استنتج وحدة موهنة مـع الكلمات أمسى لزاماً عليه ان يسترد ـ على نحو او آخر ـ نقاءه الاصلي فيميت الكلمات ، كيما يمنحها أشد قوة ومضاء .. أمسى لزاماً عليه ان يجتث جذور الاحساس بالكلمات التي خنقت تشنجها ، بحيث تتنامى هـــذه الجذور متمّونة ، ذاتيتها ليغدو في ميسورها التلاقي في مكان آخـر جديـد .. اما نحن فعلينا ان ننثـر الكلمات على صخرة الصمت ، كيما نستطيع الاستماع اليها من جديد !.. » .

تجلى على هـــذا النحو تقسيمنا الكتاب السويديين المعاصرين الى فئتين : فئة «سوداء» وفئة « وردية » بيد أن التعاميم التي أطلقناها، تنبيء ـ على الرغم من مفارقاتها ـ بأنهـا لا تبرح خداعة ، إذ أن الحقيقة تظل وليدة التفرد وان ثمة أدبـاء يصعب علينـا تصنيفهم في فئات محددة !...

★ ★ ★

لـم نفرد في عرض حديثنا الذي انثر في الصفحات السابقة أي مكان للباحثين من كتاب المقالات ، وإن الشوق ليهزنا الى اجالة النظر

---

(٣٢) ميغل دواونامونو : كاتب اسباني ، ولد في « بلباو » عام ١٨٦٤ ومات في « سلمنكا » عام ١٩٣٦ . كان واحداً ممن أثروا أشد التأثير في الحياة الاسبانية المعاصرة . درس عام ١٨٩١ اللغة اليونانية في جامعة « سلمنكا » وبرز كشاعر إثر صدور مجموعته الشعرية « أشعار » (١٩٠٧) وروائي في وصفه مسقط رأسه الذي تضمنته رواياته « السلم في الحرب » (١٨٩٧) و « من موطني » (١٩٠٣) و « مركيز لومبريا » ، كما بدا فيلسوفاً في دراستيه « احساس الحياة المأساوي » (١٩١٣) واحتضار المسيحية (١٩٢٥) وفقيهاً لغوياً مرموقاً . ثم أسس ذا مذهب نشيط ، يدعو الى تضييق سلطة الدولة ، وتوسيع نشاط الفرد ، ومضى يهجو حكومة المديرين هجاء عنيفاً لا هوادة فيه ولا لين ، مما حدا بها الى اقالته عام ١٩٢٤ من رئاسة جامعة « سلمنكا » التي شغلها منذ عام ١٩١٤ ونفيه الى جزر « الكناري » ، ثم ما لبث أن فر منها الى فرنسا . وقد كتب خلال منفاه صفحات مشرقة ، ضمنها كتابين « كيف تؤلف رواية » و « أغنية من المنفى » . وبعد الاطاحة بـ « بريمو دوريفيرا » عاد الى اسبانيا واضطلع بجانب فعال في الثورة ، التي تأسست إثرها الجمهورية الاسبانية .

فيهم ، والالمام بجمعة ما انتجوا ، ولن يخالجنا شك في ان من سماتي على ذكرهم ، قد انتجوا على نحو ملائم ـ الى جانب آثارهم الادبية ـ آثارا نقدية او جدالية ولا سيما وان الكثيرين منهم قاموا بدور مهم كمحكمين وسطاء ، في الآراء والاذواق التي صدت الحقبة التي مروا بها ، وتلك ملاحظة تنسحب لا على المؤلفين القدامى فحسب ، بل على المحدثين منهم كذلك ٠!

فـ « اللن كي » كاتبة نشيطة ، ومصلحة طموح ، وحكم في الفن والناس منصف نزيه، تنتمي الى مدارس عام ١٨٨٠ ـ ١٩٠٠ وقد تاثرت بالتيارات الاجتماعية في القرن العشرين بيد انها لم تبلغ في اسلوبها غاية الكمال ، إلا بعد عام ١٩٠٠ اثر صدور كتابيها «حس» (١٨٩٢) و « منطق الشعر » « ١٨٩٨ » ٠!

و « هانس لارسون » باحث ابدع فلسفة للحس اصيلة ، ودافع بعد لأي عن فلسفات اخرى مماثلة ، كفلسفة « برغسون » مثلا ، كما طرح كذلك في سلسلة بحوث ، تصورا للمجتمع والحياة اكثر ثورية ٠ ولعل هذا الموقف المميز ، هو الموقف نفسه الذي وقفه « بانفت ليدفورس » الصحفي اليساري ، والاستاذ الجامعي المحترف ، وقد عرف بادىء ذي بدء ككاتب مقالات نقدية جمة ، هاجم فيها الكنيسة ، والنظام الملكي ، والاعراف الاجتماعية ٠

وثمة حدث الم فاتاح للادباء السويديين الفرصة كيما يؤكدوا افكارهم في مجالات متباينة ، ولقد سمي هذا الحدث في السويد « خصام سترندبرغ » الذي امتد من عام ١٩١٠ الى عام ١٩١٢ ، وكان مأتى هذه الخصومة ، حملة قادها « سترندبرغ » ضد زملائه السويديين ولة قومية ، توشك ان تكون في الوقت نفسه مدبرة لمنفعته ، وقد انقسم الراي توا الى معسكرين : معسكر المدافعين عن « سترندبرغ » انتظم فيه « يلتفت ليدفورس » الذي دعي بالناقد الاشتراكي الديمقراطي و « اريك هيدن » الصحفي الليبرالي ، و « جون لاندكيست » تلميذ « برغسون » والناقد النشيط اليوم ٠٠ وبين معسكر مهاجمي « سترندبرغ » الذي راسه مؤرخ الادب « فريدريك بوك » ٠ ولقد هيمن تاثير هذه الخصومة امدا مديدا على مجال النقد الادبي العلمي ، كما وجه ذوق المتخاصمين ، وراي الاوساط البورجوازية خلال اعوام عديدة ٠!

اما في فنلندة السويدية ، فقد استوفى الجدل الادبي ما اسهم به الباحثون في الجمالية، ممثلا في الناقدين « ايرجوهيرن » و « هانس روان » إذ ترك الاول منهما وراءه انتاجا مهما يعتبر مواضيع اساسية ، تناولت التقليد الفني للكاثوليكية ، في القرن الثامن عشر الفرنسي وسيكولوجية الابداع الفنية ٠!

وكرس الثاني نفسه لدراسة الحساسية الشعرية لدى الشعراء وقرائهم بخاصة ٠

وان دراسات « روان » حول التصوف الشعري وبياناته عن التصوف الديني ، تدعونا الى مقارنتها بنظائرها من اعمال « هنري بريموند » ٠ ويبدو ان معظم هؤلاء الادباء ، امضى ردحا من الزمن ـ طال او

قصر ـ منتميا الى جامعة ، كما ان الفئات التي في ميسورنا تمييزها عن سواها ، تبقت بدورها معالم طابع تقاليدها ، من هـذه المراكز المتباينة ، وهاهو ذا « لوند » يعرض لنا في أسلوب مسل ساخر،ترتفيه المناظرات البلاغية ، قضايا معقدة غاية التعقيد ، كما نعثر على شبيه لهذا الاسلوب لدى « ايفار هاري » عالـم اللغة والادب اليونانيين ، والاثري الذي نظفه بفرشاته ، العديد من المصنفات التاريخية التي تعنى بالثقافة ، كما نعثر عليه كذلك لدى « أول هلمبرغ » مؤرخ الادب ، الذي كتب نثراً ، مفعما بالفكر المتقن الواعي ، وان التقليد اللوندي (٣٢) ليبدو ـ ان شئنا ـ شكليا وبلاغيا ، بيد ان الاسلوب الذي انتهجه « هلمبرغ » لـم يكن اسلوبا مزخرفـا ، لانه تضمن كل ما يستفز العواطف ، ويثير الاحاسيس ، وما ذلك الا لان جامعات «ايسال» و «ستوكهولم» لم تقدم لنا تجانس الشكل نفسه !٠

ولئن اسهمت هـذه الفئة بالمقابل ، باسهامات هامة في العمل الايديولوجي ، فلان هذه الاسهامات كانت وليدة وعي اشتراكي٠ اما الرابطة الطلابية « وضوح » فقد كونت « فكتور سفانبرغ » و « آكسل سترندبرغ » الذي سبقت الاشارة اليه !٠

و « سفانبرغ » هو مؤرخ للادب امين، من وجهة النظر الماركسية ، و «سترندبرغ» صحفي اشتراكي ـ ديمقراطي ، وقف قلمه على التعري عن الشعر السويدي ، من زاوية اجتماعية ، كما انضم الى هذه الرابطة بله الى فرع جامعة « ايسال » الشاعر الباحث « اريك بلومبرغ » في حين كان نظيره « سفن ستولب » «ستوكهولم» ، وهـو أحد الكتاب السويديين المعاصرين الكثر ـ الى حد ما ـ الذين تحولوا الى الكاثوليكية ٠٠ وثمة باحث آخر هو « هولجر اهلنيوس » الذي أسهم في ادخال الادب الفرنسي المعاصر الى السويد !٠

أما الأدباء السويديون الذين تفردوا في الكتابة للمسرح ، فقليلـون نسبياً ، وفي ميسورنا ان نذكر منهم : الروائي « هالمار سودربرغ » والشاعر « توردبرغ » ومؤرخ الفن « رانيار جوزفسون » وهذان الاخيران، كانا مديرين قديمين للمسرح الدرامي الملكي، كما نضيف اليهـم الشاعر « كارل رانيار جيرو » الذي يتولى اليوم ادارة هـذا المسرح و « رودلف فرنلند » الذي وافته المنية قبل الأوان وكان يعد بانتاج غزير ٠٠ والروائي « ولهلم موبـرغ » والصحفي « هربرت غريفنيوس »٠كما نذكر بين من كانوا اصغر سناً ، اضافـة الى أدبـاء العقد الاول من الاربعينيات ، الشاعر الرقيق «لارس فرسيل» والممثـل « اولنـد جوزفسون » والروائيـة « ساوا ليدمان » ! ٠

اما من افلتوا من التصنيف ، من بين الادبـاء الذين أجملناهم ، فثمـة الشاعر « بوبرغمان » الذي يذكرنا بـ « هالمـار سودربرغ » وان بزه هذا في رقته،وحساسيته الشديدتين ، وتوفيقه بـين الجمال الشكلـي الذي ران على التسعينيات من القرن الماضي،

(٣٢) نسبة الى الناقد « لوند » ٠

والشكوكية التي عرف بها عام ١٩٠٠ وبين الحساسية المعاصرة ، ولقد بدا الانسان في اثر «برغمان» دمية في يد المصادفة ، وظهرت الحياة هرجة Farce ، والموت مقبلا خلف الافصل على غير موعد .. نطالع هذا كله في روايتيه « اللهو » (١٩٠٣) و « انسان » (١٩٠٨) وهو ما نلقاه في العقيدة الدينية ، التي جهر بها الشاعر «بوبرغمان» وصانها طوال حياته ، حتى بعد ان عثر على الهدف، الذي راح يناضل في سبيله ـرغم كل شيءـ سياسة يطلق عليها اسماً لاحدى مجموعاته الشعرية،التي صدرت له عام ١٩٣١ وحسبه انه مؤمن بهذا الهدف في شعره نفسه .!

كما نعثر على هذه المثالية الجمالية كذلك، لدى الشاعر الباحث « برتيل مالمبيرغ » بعد ان اهتدى بهـا عبر قضايا توشك ان تغدو قضايا دينية ، لجيل الحرب العالمية الاولى، واننا لنعثر في آثاره كافة ـ ومنذ ان اصدر مجموعته الشعرية الاولى « حرائق » (١٩٠٨) وحتى كراسه الكثيف ، الفائق الحداثة « تحت القوس الهابط من القمر » (١٩٦٧) على الشاعر المتصلب في رأيه ، الذي يلوب باحثا عن معتقده .! وأيا كان الامر فان الشكل الصلب والواضح ـ وهو كلاسيكي محدث ـ يظل طابعه المميز ، مهما كان المحتوى الذي تضمنته قصائده ، من تأمل فلسفي،واحساس بالانهيار ، ومسيحية اكسفوردية .!

اما « ارتورلونـد كفيست » و « كاران بوي » فنراهما يوحدان القلق النفسي الذي ساد الحقبة التي اعقبت الحـرب ، وقيام الحزب الاشتراكي ومبتكرات التجديدية ، كما يكونان في نحو عـام ١٩٣٠ فئة صغيرة مـن الشعراء الشباب ، سميت فئة «لوندكفيست» بالشباب الخمسة ، وقـد ضمت شعراء مـن العمـال ، استثارتهم الحياة ، واستعبدتهم الآلة ، وسحرتهم قراءة «د. هـ. لورنس».!

امـا فئة « بوي » فقد كانت فئة ادبية من الروابط الطلابية اليسارية «وضوح» .! وحين تكشف عن حياة ذينك الشاعرين نلقاها غنية بالتجارب ، وعلى قـدر التشكيلات التي ابتدعاها أتى تفلسفهما .. لقد كان « لوند كفيست » ـ الى جانب الجيل الجديد ـ أحد الفاعليات المعدلة من اوروبية واميركية ، قام خلال الاعوام الاخيرة ، برحلات طويلة جمة تحدث لنا عنهـا ، انعشت ايمانه بسياسة اليسار .!

اما مـا يتصل بـ « كاران بوي » فقـد انطبع شعره اكثر فاكثر ، بطابع فقد التوازن والاختلال العقلـي الـذي اعترى شخصيته الممزقة ، الحائرة بين معنى الواجب والتضحية، وبين الرغبة في المتعة والسعادة ، ولئن بـدا هذا الطابع استغراقا شخصيا صميميا ، لقد كان ـ في الوقت نفسه ـ طابـع جانب كبير من الفنانية السويدية المعدلة ، التي تتلخص في الابيات التالية :

مثلث حياتي بأرجة
فتقلصت ـ
بيد ان القدر
تملك لأمتي (٣٤)
واستحوذ عليها الحياء .

(٣٤) اللأمة : الدرع .

اما اهم المعتزلين الذين لم يتح لهم بعد مكان في دراستنا ، فهو الروائي « اغنر فون كروز نستيرنا » وقد اشتملت اثاره الادبية، اضافة الى رواياته القصيرة واقاصيصه ، على ثلاث مجموعات روائية ضخمة ، تناولت الاولى منها حياة الفتى « توني » (١٩٢٢ـ١٩٢٦) وروت الثانية قصة اسرة النبيل «فون باهدن» (١٩٣٠ ـ ١٩٣٥) وعالجت الثالثة اصالة بائس مسكين (١٩٣٥ ـ ١٩٣٨) • ولقد اتصفت اثار هذا الكاتب بدراية بالناس لا ترحم ، في صوفية شيقة ، وعبادة محمومة ، توشك ان تكون دينية ، كما تميزت شخوصه بغرائز جسية ، تتمثل في نسوة من الصفوة المتقمة في المجتمع ينطلقن في حياة الضلال والعبث ، ثم لا يلبثن ان ينتهين الى الغرق فيها ، بيد ان قوة تصويره الطباع والبيئات، وغنى هذا التصوير على علاته ، كامنان في ان ما من احد يستغني عن هذه الاثار ، فثمة مشاهد طبيعية نضرة ندية ، ناهيك عن لغة شفافة كالبلور ، تشكلان معا اطارا مسليا حول قدر ساحرة ، وهو ما يدلنا عليه تصويره شخصياته •

★ ★ ★

وبعد ••

لقد تبسطنا في الحديث عن ادباء وشعراء وباحثين ، انتموا الى مدارس ادبية شتى ، تنسمنا ريحها فيما كتبوا من بحوث وروايات، وما نظموا من شعر ، وامسكنا عن التنويه بلفيف من الادباء والشعراء والباحثين ذوي المستوى الرفيع ، ممن وقفوا على حيد الطريق، متأبين ان يصنفوا في اية مدرسة او مذهب، مما يحدونا في نهاية المطاف ، الى ان نبلو خبرهم ، ونشير اليهم اشارة عابرة،وحسبنا ان نذكر المبرزين منهم ، وفي مقدمتهم : « تاج اوريل » وهو كاتب متمنات في النثر صحبة ، و « اول هـدبرغ » الذي اشتهر برواياته البورجوازية•و «تورستن جونسون» و « جورن ـ اريك هويجر » وهما اديبان من مصوري « نورلانـد(٣٥) « Norland » الكثر في الادب السويدي •• و « فلتر جو نغكويست » الذي امتاز بدراساته السيكولوجية الكئيبة ، المعمقة بتصوير البيئة • و« فولك فريدل » الذي اضحى ـ في العقد الاخير ـ من الاربعينيات الكاتب البالغ الجودة ، برواياته ذات النزعة المؤيدة للحركة النقابية •

وفي ميسورنا التعريف كذلك بالعبالمصري التقليدي ، في اثار «فرانز• ج• بنغتسون» و « فريتيوف نيلسون بيراتن » (القرصان) و « سيغفريد لانسستروم » •• والواقع ان هؤلاء جميعهم يعرضون لنا المعرفة والفكر، والحكمة المتبصرة الرزينة • ولعل « فرانز• ج• بنغتسون » بقدر ما كان كاتب سيرة شخصية ، وروائيا باحثا ، بقدر ما كان معلم مفارقة Paradoxe ، اذ تراه يمزج في اسلوبه ، افضل ما اتت به الموضوعية ، من دعابة باردة ، ونزوة وقحة ، ولئن استطعنا ان نختار من بين هؤلاء الادباء الثلاثة اللامعين

---

(٣٥) احدى ثلاث مقاطعات كبرى في السويد•

اديبا تفوق على سواه برفق وتؤدة ، فلسوف نختار « فريتيوف نيلسون ـ بياتن » الذي يجدر بنا الوقوف عنده ، فهو كاتب فكه طريف ، له مكانة عدلية ، كما أنه راو ذو اسلوب بسيط يذكرنا باسلوب « ساغا »(*) الاسلندية • استهل انتاجه بمجموعة من قصص الاوغاد ملأى بالمغامرات ، تبدو للوهلة الاولى غريبة كل الغرابة ، وظريفة غاية في الظرف ، فثمة في قصته « بائع الكتب الذي توقف عن الاستحمام » غيمات سود تجيء فتحجب سماؤه ، والواقع أن هذه الغيمات لم تطارد الهزل فقط ، بل اعادته قاسيا ماتميا معقدا ، ولقد ظل « نيلسون بياتن » وما برح ، ينتهج في اسلوبه هذا النهج •• كما نعثر لديه كذلك ، على هذا الشكل الارق والاسمى ، وتلك الدعابة السوداء في قصته « الانسان الوحيد » التي ضمتها مجموعته القصصية « حكايات من منطقة فارس » اذ جعل من التصوير البسيط المتقن للشخصيات، والانعكاسات على العزلة ، والدعابة المريرة التي اضفاها على هذه القصة ، اكمل نجاح، وأتى الادب السويدي المعاصر !•

اما « غبرييل جونسون » و « اولوف لاجركرانتز » و « جوهانس ادفلت » فيصنفون في عداد الشعراء الحياري الحالمين ، او اللامبالين ، من شعراء هذا الجيل ، فلقد عرف « جونسون » بانه شاعر البحر ومراقيء الصيد الصغرى ، ناهيك عن أن «لاجركرانتز» هو أحد الدارسين الاكثر اهمية في السويد، اذ عبر عن القلق والتصوف ، وغرائزالطبيعة المجنونة ، في قصائد ذات محتوى كئيب،وحياء عاطفي ، في حين أن « نلس فرلن » هو ناظم اغان ، مزج فيها فرحة الحياة الطفولية بالسخرية اللاذعة ، حيال كل ما يتمخض به المجتمع الحديث ، الذي تبدى له مجتمعا عابثا او مزيفا !•

ويجيء في آخر المطاف الشاعر « ادفلت » الذي عددناه بين هؤلاء الشعراء ، ليوحد في نظمه بين اللغة المزخرفة الاكثر ايحائية ، وبين تشاؤمية قاتمة ، شد ما عكست قلقه الشخصي ، بقدر ما عكست الازمة العالمية ، وفي مقدورنا ان نضيف الى ما قلناه ، انلدى هذا الشاعر مثالية تفاؤلية ، وايمانا بأن النصر سيظل حليف الفكر رغمكل شيء !•

* * *

نعود الآن بعد تنويهنا بهؤلاء«القناصين» من محترفي الادب ، وترديدنا النظر في لبتما نتجوا من آثار ، الى تبيان الملامح الادبية العامة ، التي يتجاذبها عصرنا فنقول : ان للادب السويدي صلة وديـة بتيارات العصر واحداثه ، دفعته الى الاتحاد بالأدب الاوروبي، وان سلكه الناقل لينطلق ، من عبادة القوة والواقع التي تتوضح في الرواية ، انطلاقه من المذاهب الايديولوجية التي ظهرت قبل الحرب العالمية الاولى ، وهو ماض في دروب القلق التي سار عليها جيل ١٩١٤ ـ ١٩١٨ وكان اول ممثليها « بارلاجر كميست »

(*) الساغا : اسم لاقاصيص وأساطير اسكنديناقية مكتوبة في اسلندا •

متخطيا واقعية المصابين الاشتراكية ، ممن ابتدعوا رواية الثلاثينيات ، كيما يبلغ تشاؤمية الاربعينيات الجديدة !»

وهكذا نرى أدباءنا ـ على امتداد هذه الدروب ـ يتدربون على التأثيرات المتبادلة ، بين الشعر الواقعي ، ورومانسية ، او واقعية الامور الصغرى من نحو ، وبين القضايا الانسانية الكبرى ، او القضايا الغيبية من نحو آخر !» وحسبنا ان نورد ههنا قصيدة للشاعرة « اديث سودر غران » التي اسمتها « البلد الذي لم يوجد » وعنت بها هذا الموقف الشامل ، الذي يفضي فيه الدرب الدنيوي الى عالم الحلم الوهمي :

اصبو الى بلد لم يوجد ،
لان جميع من فيه يعييني توقي اليه»
ان القمر ليحدثني ، خلال دوراته
عن بلد لما يوجد بعد ،
عن بلد كل رغبة فيه مرضية على
نحو رائع ،
عن بلد حيث تنعش في ندى القمر
جبيننا الجريح !»

• • •

الا ان حياتي امست وهما مضطرما
بيد انـي عثرت على شيء ، وربحت
حقا شيئا ـ
على درب البلد الذي لما يوجد بعد »

• • •

في البلد الذي لما يوجد بعد
يختال حبيبي ، وعلى مفرقه تاج متلألئ»

• • •

من يكن حبيبي ؟ الا ان الليل داج
والنجوم تتجاوب برعشتها !
من يكن حبيبي ؟ ما اسمه ؟

• • •

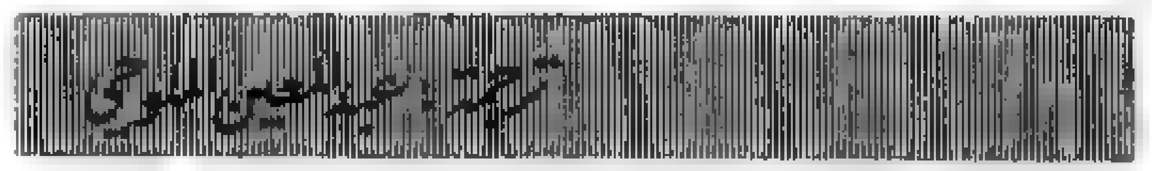
تعلو السموات في قبتها الزرقاء
علوا سامقا ، ولن تبرح سامقة ،
اما ابن الانسان فيتيه في ضباب لاينتهي
دون ان يدري البتة ماذا يجيب ،
بيد ان ابن الانسان ليس شيئا آخر
سوى يقين
فتراه يمد ذراعيه أعلى من كل السموات
ويتناهى اليه جوابه :
انا من تهوى
وستظل تهواني ما حييت (٣٦) !»

---

(٣٦) من : Ingvar Holm/Magnus von Platen : La Littérature Suédoise : Le XXe Siècle — P. 190-238 — Institut Sudédois.

رسول حمزاتوف

داغستان بلدي



- أيها المسافر ! اذا لـم تعرج على منزلي فليسقط البَر د والرعد عـلى رأسك ، البَرَد والرعد ...

أيها الضيف اذا لم يرحب بك منزلي فليسقط البرد والرعد على رأسي ، البَرَد والرعد ...

كتابة على باب منزل

- قال أبـو طالب إذا أطلقت نيران مسدسك على الماضي أطلق المستقبل نيران مدافعه عليك .

بدلا من المقدمة ومن المقدمات على العموم

● عندما تستيقظ من نومك فلا تقفز من سريرك كأن احدا عضك •

فكر قبل كل شيء بما حلمت به في نومك •

الطيارة ، قبل ان تطير ، تثير كثيرا من الضجة وبعد ان تذرع المطار كله لتصل الى المدرج تثير ضجة اكبر ، قبل ان تندفع وتطير ، وهكذا لا تقلع الطائرة في الهواء الا بعد ان تتم استعدادها هذا كله •

والطائرة المروحية لا تحتاج الى مدرج لكي تندفع ولكنها قبل ان تنفصل عن الارض تنفخ وتدمدم امدا طويلا وتاخذها رعدة شديدة •

نسر الجبال وحده ينطلق دفعة واحدة في السماء الزرقاء خفيفا ويعلو ثم يعلو حتى يغيب عن الانظار •

مثل هذا الانطلاق ينبغي ان يكون انطلاق كتاب جيد ، لا مقدمة مملة ، لا تمهلات لا تنتهي • إنك اذا لم تستطع ان تمسك بالثور من قرنيه فلن تستطيع ان توقفه اذا امسكت به من ذنبه •

المغني يمسك بطنبوره(١) • اعرف ان له صوتا حسنا ، ولكن لماذا يداعب اوتاره زمنا طويلا؟! ولماذا يحلق في عالم آخر قبل ان يبدأ اغنيته ؟

مثل هذا القول يرد في موضوع الكلمة التي تسبق حفلة الغناء ، والايضاحات التي تسبق التمثيلية والمواعظ الثقيلة التي يقدمها ابو العروس الى صهره بدلا من أن يدعوه الى المائدة ، فيصب له كاسا •

كان هنالك جمعة من المريدين(٢) يتفخرون بسيوفهم ايها اكثر مضاء وبفولاذها الذي صنعت منه ، وبالآيات القرآنية المجيدة التي كتبت على نصالها ، وكان بينهم الحاج مراد نائب(٣) الشيخ كمل فقال لهم :

ـ وعلام تتنازعون في ظل اشجار الدلب الظليلة ؟ غدا تخوضون المعركة منذ الفجر وعندئذ تقرر سيوفكم نفسها أيها اقوى واشد مضاء •

---

(١) في الأصل بندور وهي آلة موسيقية ذات ثلاثة أوتار •

(٢) المجاهدون •

(٣) النائب : مساعد القائد •

ومع ذلك فمن عادة جبالنا الا يمتطي الفارس صهوة حصانه أمام داره(٤) • عليه أن يخرج حصانه أولا من القرية(٥) • هذا ما ينبغي أن يكون ، وذلك لكي يستطيع الفارس التفكير مرة أخرى فيما يتركه هنا في القرية وفيما ينتظره هناك في الطريق • ومهما كانت المهمة التي يسافر من أجلها فهو يقود حصانه من لجامه في تفكير ودون عجلة من أمره حتى يخرج من القرية • وعند ذلك فقط يقفز على صهوة الحصان فلا يكد يمس الركاب ثم يغيب في غيمة صغيرة من الغبار وهو مكب على سرجه •

وانا كذلك ، قبل ان اقفز لامتطي صهوة كتابي سامضي في تفكيري ودون عجلة من امري • اقود حصاني من لجامه واتامل • أتاخر في نطق الكلمات •

الكلام يتلجلج ، في لسان التمتام ، وكذلك في لسان الرجل الذي يبحث عن الكلمة المناسبة ، الكلمة التي لا بديل لها ، الكلمة التي هي أكثر الكلمات حكمة • لست آمل ان اثير دهشة الناس بما في كلمتي من حكمة •

ومع ذلك فلست بتمتام • انا ابحث ولذلك فانا امر على انتقاء الكلمات •

قال أبو طالب :

مقدمة الكتاب هي القشة التي تعض عليها امراة جبلية مؤمنة بالخرافات وهي ترقع معطف زوجها ، لان الخرافة تقول إن المعطف يمكن أن يصبح كفنا لصاحبه ان لم تحفظ زوجه قشة من التبن بين اسنانها •

قال أبو طالب أيضا :

انا مثل من يطوف في الليل ليبحث عن باب مضياف او مثل من وجد الباب وهو يتلمسه تلمسا ولكنه لا يدري ان كان في استطاعته أن يدخل او أن هذا الباب لا يستحق عناء ولوجه • ويطرق الباب : طق طق طق !

– أنتم يامن في البيت اذا كنتم تريدون طهي اللحم فقد آن لكم أن تستيقظوا •

– وانتم يامن في البيت اذا كنتم تريدون ان تدلوا الماء فناموا كما تشاؤون فلا داعي للعجلة •
– وانتم يامن في البيت اذا كنتم تريدون شرب الخمرة(٦) فلا تنسوا دعوة جيرانكم • طق – طق – طق •
– اذن فهل استطيع الدخول او انكم في غنى عن دخولي •

(٤) في النص (سـاكليا) وتعني المنزل في جبال القفقاس •
(٥) في النص (الاول) وهي القرية الجبلية •
(٦) في النص (البوضة) وهي شراب من طحين الحنطة السوداء والشوفان يشبه صنعه صنع البيرة •

ان الانسان في حاجة الى عامين ليتعلم الكلام ، والى ستين عاماً ليتعلم الصمت • ولست ابن عامين ولا ابن ستين عاماً • انا في نصف الطريق • ومع ذلك فيخيل الى اني اقرب الى الستين لان الكلمات التي لم اقلها اغلى على قلبي من كل الكلمات التي قلتها •

الكتاب الذي لم اكتبه اغلى على قلبي من كـــل الكتب التي كتبت • وهو اكثرهـــا قيمة وقدسية وصعوبة •

الكتاب القادم هـــو شعب الجبل الذي لـــم امسكه قط ، ولكنه تفتح امـــام عيني يجذبني الى ضبابه البعيد • الكتاب القادم هو الحصان الذي لم اسرجه قـــط ، والخنجر الذي لم انتضه قط من غمده •

الجبليون يقولون :

لا تخرج الخنجر من غمده دون حاجة اليه ، ولكن اذا انتضيته فاضرب به • اضرب لكي تقتل الفارس والفرس بطعنة واحدة •

ما احسن حكمتكم يا رجال الجبل !

ولكن قبل ان تشهر الخنجر ينبغي ان تعرف ان حده قاطع •

يا كتابي ! كم سنة عشت في نفسي ! انت مثل المرأة التي تراها من بعيد ، تحلم بها ، ولكننا لا نستطيع ابداً ان نشم عطرها • كم رايتهـــا قريبة مني ، يكفي ان امد يدي ، ولكنني في خجلي واضطرابي يحمر وجهي ثم ابتعد عنها •

حسبي ما فعلت • لقد قررت ان اقترب منها وان امسك يدها • من عاشق خجول اريد ان اتحول الى رجل جريء مجرب •

اسرجت حصاني ، ضربته ثلاثاً بسوطي ••• وليكن ما يكون !

ومع ذلك فقد بدأت اضع حفنة من تبغ جبالنا فوق ورقة من ورق السجاير ، وادرت اصابعي لاجعل منها لفافة ، دون ما عجلة • ما احسنتها حين الفها وما احسها حين ادخنها !

يا كتابي ! قبل ان ابدأ بك اريد ان اقص قصتي معك • كيف نضجت في نفسي ؟ كيف وجدت لك عنواناً ؟ لماذا اكتبك ؟ وما اعماق حياتي ؟

ادخلت ضيمي الى المطبخ راساً ، كانوا يذبحون خروفاً • ليست هذه رائحة لحم مشوي(٢) ، انها رائحة الدم ، اللحم الطري ، جلد الخروف الطازج •

---

(٢) في النص : (شاشليك) •

ادخلت اصدقائي الى مكتبي رأسا ، الى الغرفة السرية التي فيها مخطوطاتي ، وأذنت لهم ان ينبشوا فيها ما شاؤوا •

ومع ذلك فقد كان أبي يقول :

إن من ينبش في مخطوطات غيره مثل من ينبش في جيوب غيره •

ويقول أبي أيضاً :

المقدمة تشبه الى حد بعيد رجلا عريض القفا ، ويلبس فوق ذلك قبعة كبيرة من الفرو ، ويجلس امامي في المسرح وليته بعد ذلك كله يحافظ على جلسته فلا يميل مرة الى اليمين ومرة الى الشمال • مثل هذا الشخص يثير غضبي •

من دفتر المذكرات :

اشتركت كثيرا في ندوات شعرية في موسكو وفي غيرها من مدن روسيا • الناس لا يعرفون لغتي ـ لغة الآفار ـ وكنت اقدم نفسي بادئ بدء بالغة الروسية ـ على علاتها ـ في نبرة قفقاسية واضحة • ثم يقرأ أصدقائي من الشعراء الروس ترجمات من أشعاري • ولكنهم كانوا يطلبون مني قبل قراءة قصائدي ان اقرأ واحدة منها بلغتي الوطنية : « نحن نحب ان نسمع موسيقى لغة الآفار وموسيقى القصيدة » واطيعهم وتصبح قراءتي لشعري مثل تسوية أوتار القيثارة قبل بدء الاغنية •

اليس هذا ما يحدث في المقدمات ؟

من دفتر المذكرات :

عندما كنت طالبا في موسكو • أرسل لي والدي نقودا لاشتري معطفا شتويا • وانفقت النقود ولكني لم أشتر المعطف • وعندما عدت الى داغستان في عطلة الشتاء كنت ألبس ما لبسته حين غادرت داغستان الى موسكو في اخريات الصيف •

وعندما وصلت الدار حاولت أن اعتذر عما فعلت مخترعا اساطير بعضها اكثر غباء وسخفا من بعض • وعندما اضاعتني قصصي ضياعا تاما قاطعني والدي :

ـ قف يارسول • اريد أن أسألك سؤالين •
ـ اسألني •
ـ هل اشتريت معطفا ؟
ـ لا
ـ هل انفقت النقود ؟

ـ نعـم

ـ اذن فقد اتضح كل شيء ، فلماذا تتقول كل هذه الاقاويل ؟ ولماذا تخترع مقدمة طويلة طويلة كل هذا الطول ؟ وانت تكفيك كلمتان اثنتان لايضاح ماهو مهم ؟

هكذا رباني أبي .

ومع ذلك فان الطفل الذي يأتي الى الحياة لا يتعلم الكلام مباشرة . إنه قبل ان ينطق كلمة يتمتم ويتلعثم بالفاظ لا تتبين . ويبكي اذا لم تستطع امه ان تعرف ما يريده وما يؤلمه .

أليست روح الشاعر مثل روح الطفل ؟

يقول ابي : عندما تترقب عودة القطيع من الجبل تظهر لك اول مايظهر قرون الكبش الذي يمشي أمام القطيع ، ثم الكبش كله ثم يظهر القطيع . وعندما تترقب قدوم العروس أو قدوم المأتم يطلع عليك الرسول بشيرا او نذيرا .

وعندما تترقب وصول الرسول من القرية ترى قبل كل شيء غيمة صغيرة من الغبار ثم الحصان ثم الفارس .

وعندما تترقب عودة الصياد ترى كلبه اولا .

من النوع نفسه

« الاحمق يضرب بالصراخ ، والعاقل يضرب بحكمة تقع موقعها » .

« غن اذا حل الربيع ، واحك حكايا اذا جاء الشتاء » .

ها انذا أمام الجبل الذي يجب علي ان اجتازه مع حصاني الباسل أستطيع أن أجتاز أصعب الثنايا . الجبل هو موضوعي ، والحصان هو لساني.ومع ذلك فيجب علي الآن ان أختار الدرب الذي يجب ان اسلكه لاتغلب على الجبل العاتي .

كان كل اجدادي الجبليين يفضلون الدرب المستقيم . انــه اكثر مشقة واشد خطرا ولكنه اقصر الطرق .. قد يكون سببا في هلاكك ولكنه يقودك الى هدفك في اقرب وقت .

ها انذا امام حصن يجب علي ان اقتحمه . وها انذا امتلك سلاحا ممتازا لا يفل في المعركة . الحصن هو موضوعي ، وسلاحي هو لساني . يجب ان تنتقي اسهل وسيلة للاستيلاء على هــذا الحصن المنيع . هل تاخذه على حين غرة ؟ أو بعد حصار طويل الأمد ؟

هذا هو حقل الذرة ، وهــذا هو الماء في مجرى السيل ولكن كيف يمكن أن تجر هذا الماء الى ذلك الحقل ؟

وهذا هو الحطب في المنزل ، وهذه هي القدر وتلك هي المواد التي يمكن ان تطبخ في القدر. ولكن ما لون الطعام الذي تريد تقديمه عند الغداء ؟

عرض علي مدير المجلة أن اختار ماشئت من الوان الادب : قصة ، رواية ، قصيدة ، مقالة • كلما اتسع الممكن عسر الاختيار •

من دفتر المذكرات :

في معهد الاداب جرت الامـور على النحو الآتي : كنا في السنة الاولى عشرين شاعرا واربعة قصاصين ومؤلفا مسرحيا • في السنة الثانية اصبحنا خمسة عشر شاعرا وثمانية قصاصين ومؤلفا مسرحيا وناقدا ادبيا • في السنة الثالثة صرنا ثمانيـة شعراء وعشرة قصاصين ومؤلفا مسرحياً وستة نقاد • وفي نهايـــة السنة الخامسة بقينا شاعرا واحـدا ومؤلفا مسرحياً واحـدا وسائرنا اصبحوا نقادا •

الحق اني ابالغ ، وتلك نادرة من النوادر • ولكن كثيرا من المؤلفين يبدؤون حياتهم شعراء ثم ينتقلون الى النثر ثم الى المسرح واخيرا الى المقالة • وفوق ذلك فقد اصبح الطراز الادبي الجديد كتابة (الحوار • السيناريو) •

كان هنالك ملوك وسلاطين يطلقون زوجاتهم لانهن عاقرات • وبعد ان يبدلوا عـددا كبيرا من الزوجات يقتنعون اخيرا ان المسئولية لا تقع على الملكات • ونجد في مقابل ذلك فلاحا عاش حياته كلها مع امرأة واحدة وهاهو ذا ينط اثنا عشر ولدا في بيته •

اليكم ما افكر فيه : اشرب الخمر ولا تحتقر الخبز • غن اغنيات ولكن اصغ الى الحكايات • اقرض الشعر ولكن لا تطرد النثر •

في النثر :

عندما كنت طفلا كانت امي تغني لي اغنية المهد • الاغنية نفسها دائما ، كانت لا تعرف غيرها • ورغم ان ابي كان شاعرا شهيرا فلم يكتب لابنائه قصيدة واحدة • كان يسره ان يقص علينا قصصا او حوادث او نوادر • ذلك كان نثره •

كان ابي لا يحب ان يتحدث عن قصائده • كنت احس انه يعتبر الشعر امرا ليس فيه جد كثير• المسائل الجدية عنده هي فلاحة الارض ، اصلاح الزريبة ، العناية بالبقرة والحصان ، جرف الثلج عن السطوح ، وبعد ذلك الاسهام – على قدر المستطاع – في اعمال القرية حينا وحتى في اعمال المقاطعة حينا • كان اذا نظم قصيدة لايهمه ان يعرف اين تنشر ، وسـواء عنده انشرت في مجلة العاصمة او في المجلة المخطوطة التي يصدرها طلاب القرية بل لقد لاحظت انه كان اكثر سرورا اذا نشرها في مجلة الطلاب •

كان يردد مسرورا الكلمات التي قالها انس محمد لولده محمود شاعر الغزل الشهير • كان اذا عاد الى بيته طفلا مدللا يشغله الحب واغانيه عن كل شيء ، اصفر اللون جائعا ، يقول لـه والده في هدوء :

ـ كل القصائد واشرب الحب • كفاني ما حملته من حرائق الارض بدلا عنك •

نعم ان الاغنية ضرورة هي ايضا للعصفور ، ولكن مهمة العصفور الاولى ان يبني عشه وان يجد رزقه وان يغذو صغاره • كان أبي يعتبر قصائده مثل اغاني العصافير من كل الجوانب • انها جميلة ، لذيذة ولكنها ليست مما يستغنى عنه • انه يعتبرها مثل « صباح الخير » تقولها في كل صباح ، « ومساء الخير » تقولها عند كل مساء عندما تمضي لتنام ، مثل التمنيات الطيبة في المناسبات الحلوة ايام الاعياد او التعزيات المرة في ساعات الشقاء •

يظن بعض الناس ان الشعراء يقفون على هامش الاحداث في هذا العالم ، وان لكل واحد منهم مزاجه الخاص • اما ابي ، فكان ذلك الجبلي البسيط في طبيعته وفي طريقة عيشه • كان يحب قبل كل شيء الحوار الطويل الهادىء الذي يديره رجال يتحلقون حول موقد النار ويتحدثون عن كثير من الامور دون ان يقاطع احدهم صاحبه ، كان يفضل دائما هذا اللون من النثر •

لقد عرض ابي قصائده الاولى على الشاعر المجيد ليرى فيها رأيه • ودهش الشاعر وقال انه لا يفهم ان يكون موضوع الشعر بقرة او جرارا او كلابا او الطرق المؤدية الى قرية (خنزاخ) ويسأله ابي في حياء :

ـ وعم يجب ان نتحدث ؟

ـ عن الحب ، والحب وحده • يجب ان نشيد قصر الحب •

قصيدة لمحمود :

انا الذي شيدت قصور الحب
اتشرد تحت المطر والريح في الطرقات
الجسر الملكي الذي بنيته لمواطنينا
تهدم وانا فوق صخرتي وحيد •

لم يبن أبي قصرا للحب • ولم يهتم به قط • كان كل مايشغله ، كان قصر قصائده : البيت والاسرة ، الاولاد ، القرية ، الحصان ، البلد ، السلام ، الارض ، السماء ، المطر ، الشمس والزرع •

الحق انه كتب ذات يوم قصيدة غزل • ولكيلا يقرأها احد غيره وغيرها كتبها باللغة العربية• كانت قصيدة غزل بالمرأة التي احب •

احب أبي الحكمة وهدوء القصة • ياخذني عند المساء ، وقت الغروب فوق ركبتيه ويلفني بعباءته الدافئة ويقص علي القصص دون ان يتعب • يقص قصة اولئك الذين سافروا بعيدا في ديار الغربة ، واولئك الذين ظلوا في ارضهم صامدين ، يقص قصص الطرق والانهار وتفتح الازهار والنحل الذي يحوم عليها ويرشف رحيقها ، يقص قصة الشمس كيف تشرق ولماذا تغيب •

يتحدث عن العادات والتقاليد في العصور الخالية وعن الادعية التي يدعوها المحاربون قبل بدء المعركة •

كان يكفيه ان يرى السماء متفحصا ليعرف هل تمطر غدا او هل سيكون النهار صاحيا • يعرف ان كان المطر عاما يشمل كل ماحولنا او ان الشمس تشرق على قرية (تيليتل) وهذا يعني ان الجبيه يكتسح عصبة (خنجاج)

يقص علي قصة السنبلة وكم حبة فيها ، وكيف تحدث قوس قزح بالوانها الجميلة •

فاذا راى الناس مسافرا ينتقل من قرية الى قرية كان ابي يذكر في وضوح من هذا المسافر ولماذا يسافر وفي اي بيت سوف يقضي ليلته •••

آه لم لم يكتب كل هذا واكتفى بروايته • هذا ما يمكن ان يكون نثر الشاعر نثر حمزة تساداسا •

القصة والحياة عنده شيء واحد • يعتبر الفكر قصة ويعتبر القصة فكرا • أما القصائد فيشبهها بقلب ذي اهواء •

ليته خط كل قصصه على ورق • لان هذا القلب صاحب الاهواء هو الذي بسط سيطرته علي منذ اصبحت كبيرا • عندما يمر بي عصفور لا اسأل لماذا يطير ولا الى اين يذهب ولكنني اريد ان امسك به وهو يطير • ورغم كل الجهد الذي كان يبذله ابي في قصصه كنت افضل عليها جميعا اغنية المهد التي كانت تغنيها لي امي ، وكانت اغنية واحدة لا تتبدل • هـذه الاغنية رافقت طفولتي ، ولحقت بي في شبابي وما تزال معي هنا وقد غدوت رجلا ، وهي التي سترافقني وقد شاب عارضي •

فهمت اليوم ، رغم كل الاماكن التي تشردت فيها والاشعار التي صغتها ان كانت لي هنالك دائما تلك الصخرة التي تنتظر النسر الذي يقف فوقها ، والشجرة التي تترقب العصفور الذي يبني عليها عشه ، والبيت الذي يتوقع الضيف ان يطرق بابه ، والنثر الذي ينتظر الشاعر •

وانا اقف على الصخرة التي تنتظرني ، واقرع الباب الذي يفتح امامي ليستقبلني البيت • فهمت اني لا استطيع بالشعر وحده ان اعبر عن كل مارأيته في الارض وعن كل ما فكرت فيه وعن كل ماشعرت به •

فهمت ان النثر ليس اغنية يمكن ان نغنيها ونحن وقوف • ولكنه امر يدعو الى ان تجلس وراء منضدتك ، وتقلب كميك ، وتضبط المنبه على ساعة مبكرة من ساعات الصباح وأن تصنع ابريق شاي كثيفة لكيلا تنام الليل •

حقا إن الاساس اذا كان متينا والدعائم اذا كانت وطيدة امكن ان نتابع عملية بناء البيت ، مهما كن هذا البيت : قصة او رواية او أسطورة او تاملات او كان مقالا من المقالات ••• سيقول

لي بعض المحررين والنقاد : هذا الذي كتبت ليس رواية ولا قصة ولا أقصوصة بل نحن لا نعرف ما يمكن أن يكون •

ويقول لي محررون ونقاد آخرون : إن ما كتب هو هذا او ذاك او أشياء أخرى •

أما أنا فلا أصر على إعطاء هوية لما اكتب•عمدوا بالاسم الذي تختارونه ما سوف يخطه قلمي• لست اكتب لكي أوافق واحدا من القوانين الكنسية التي وضعتموها ؛ ولكني كتبت ماكتبت لألبي نداء قلبي • والقلب لا يعرف قانونا ، او على الصحيح إن للقلب قوانينه التي لا تناسب الناس جميعا •

أتساءل : هل أنا أفسد المائدة اذا خلطت في القدر الواحدة اللحم والرز والفاكهة والفلفل ثم اضفت اليها الملح والعسل ؟ او ان ذلك سيصبح طعاما لذيذا متميزا ؟ ليحكم على ذلك من سيأكل •

حكايتي ، قصتي ، تأملاتي !• عندما كنت طفلا كانت تمر بي ليال لا أذوق فيها للنوم طعما وانا انتظر في قلق عودة إخوتي او ابي • كنت اميل باذني استرق السمع الى صرير الباب ، وتصبح الدقائق ساعات •

في هذه الليالي كان جدي يهرع الي ، ويشرع في سرد شيء ما في هدوء ، كان قصة او اغنية او مثلا أو كلمة مضحكة حينا ورهيبة حينا او مزاحا والزمن ـ الدقائق والساعات ـ يمضي • ولا يبقى الا صوت جدي واللوحات التي يخلقها خيالي • ويقاطع ابي او اخوتي بعودتهم حديث جدي • ما أصعب أن تقطع عودتهم خيوط القصة الرائعة •

واليوم وقد أصبحت كهلا مازلت اذا قمت برحلة في العالم أسرع في العودة الى بيتي ، كما كان يسرع في العودة اليه أبي او اخوتي ، وكلما اقتربت الرحلة من نهايتها زاد خفقان قلبي وأعدت ثم أعدت حساب مابقي لي من مراحل ، وها هو ذا أحد رفاقي في الرحلة يحدثني عن حادثة مسلية أو واقعة ، عن حكاية او قصة ، وانا أصغي اليه في اهتمام ، وها نحن هؤلاء قد انتهت رحلتنا • فما أصعب أن لا ينتهي صاحبي من حكايته • وابي يسأل :

إذن : ماذا حدث في الجبل ؟ والدرب الم يقطعها الثلج ؟

وأنا أيضا لا أتذكر الجبال ولا الدرب ولا الثلج • أتذكر ماحدثنيه صديقي البليغ • هذه الحكايات تحول الجبال في نظري الى سهل فسيح افيح ، والثلج المتجمد الى قطن دافىء •

أيتها الحكايا ، يا تأملات قلبي • أفي مقدوركن ان تجعلن انتظار الحبيب أقصر مدى في ليلة

من ليال الشتاء الطويلة ؛ أفي مقدوركن ان تجعلن الطريق الشتوي الطويل الذي يودي الى دار الاهل الحزينة اقل طولا واقرب سبيلا •

من عادتي في قصصي المصجرة ان اضيف ـ كما تضاف الاعشاب ذات الرائحة الطيبة الى الحساء لتعطيه مذاقا افضل ـ من عادتي ان اضيف اليها مثلين سائرين او كلمتين مالورتين •

صبايا قرية (تسلوخ) يضعن وشمين ملونين فوق اذقانهن قرب فتحة الشفتين • ايمكن ان تكون الامثال السائرة في نشوة مثل هذين الوشمين على شفتي الصبية الحلوة ؟

اصب في قصصي ذكرياتي وبعض ماهو مسجل في مذكراتي كانني اضع احجارا غير متساوية في حائط صقيل • ان كل حجر قد لا يكون بالضرورة صالحا من اجل الحائط • وبعد ان اضع بعض هذه الاحجار اعود الى قصتي واشعر بما يشعر بـه المؤمنون حين تطول الصلاة بينما يكون القلب مشغولا عنها • انا مضطر الى ان انتزع من الحائط الحجر الذي لا يناسبه •

وهكذا انتقل من القصـة والاغنية الملتهبتين الى القصـة الهادئة الى النثر • ولكني عندما كنت اقرر ان اهجر الشعر الى النثر كان الشعر هو الذي لا يريد أن يهجرني • إنه مثل قط اليفياتي ليندس في فراشي وتحت لحافي عندما انام • وعندما افتح نافذتي عند الصباح يتسلل الي كمـا يتسلل شعاع الشمس من وراء الجبال • إنه ينتظرني في قعر الكاس مع قطرات الخمرة الباقية ، والتي هي اطيب مافي الكاس • إنه يطاردني في كل مكان كانـه امراة خدعتها فهي تلقاك فتسد عليك طريقك ؛

ـ أحق انك تريد أن تهجرني ؟ ولكن فكر قليلا هل تستطيع أن تعيش دوني • إنك وعل الفه مرعاه في الغابات الرطبـة • إنك سمكة تعودت ان تسبح في المـاء الذي يجري سريعاً باردا كالثلج • اتظن انك ترضيك بحيرة دافئة ساكنة ؟ حسنا مادمت قررت ان تذهب فتعال نجلس معا لحظة قبل ان نفترق •

أيها الشعر الا تعرف انني لا أستطيع لك هجرا ؟ أاستطيع ان اهجر كل الافراح التي تولد في نفسي ؟ كل الدموع التي تغرورق في عيني ؟

أنت مثل البنت التي جاءت الى العالم ، والعالم كله ينتظر صبيا • انت مثلها حين ولدت وكانها بولادتها تقول : « انـا اعرف انكم لا تنتظرونني ، واعرف ان ليس فيكم حتى الآن مـن يحبني • ولكن دعوني أكبر وانفتح • دعوني أسرح شعري واغني اغنية • عندئذ سترون ان ليس في العالم كله من يجرؤ فيدعي انه لا يحبني •

شـــعر :

ياتي العمل اولا ثم تاتي الراحة
ياتي السير الجدي اولا ثم تاتي عشر دقائق من الوقوف
انت لي هذا السير العنيف وذلك الوقوف
انت لي تلك الراحة وذلك العمل العنيف

انت الاغنية التي نمت على انغامها في المهد وحلمت بها فوق وسادتي
انت حلمي البطولي وحلمي الربيعي
انت ولدت يوم ولد حبي
وقد ولدت انا وولد الحب معي •

عندما كنت صبيا كنت لي اما
وانت اليوم حبيبي وغـدا
ستكون لي الابنة التي تسهر على شعري الابيض
وستبقي ذكرى رمادي
حين اغيب في قبري •

انت تبدو لي حينا جبلا لا يرتقى
وتبدو لي حينا عصفورة اليفة انيسا
انت الاجنحة التي اطير بها
انت السلاح الذي أخوض به المعركة
أنت لي كل شيء ما عدا عدوتي
سواء اكنت طيبا او خبيثا فقد اخلصت في خدمتك

ولكن اين ينتهي الجهد واين تبدا الراحة ؟
أين ساعات السير الجاد ولحظات الوقوف ؟
انت لي هذا السير الجاد وذلك الوقوف
انت لي تلك الراحة وذلك العمل العنيف •

قال أبي :

لكي تسكت ثرثارا متطفلا ينبغي ان يتولى الكلام شـيخ محترم أو ضيف ممتاز • واذا لم يوقف الثرثار موجة بلاغته الفارغة يجب ان تغني اغنية • واذا لم تنجع الاغنية ولم تؤثر فيـه فعليك ، دون خجل ، ان تقبض عليه من عنقه وان تقذف به الى الباب • بل لك الحق في ان تضرب كل من يقاطع الأغاني •

أيها الشعر :

انت تعرف أكثر من الناس جميعا أن كل ما يقولونه عنك لايجعلك أكثر جمالا ولا أكبر غنوا• أيمكن ان نمجد الاغنية بحديثنا عنها ؟ أيمكن ان نزيد سـيل الجبل اذا القينا فيـه جرة ماء ؟ أيمكن ان نقوي هبوب الريح اذا نفخنا فيها ؟ أيمكن ان نزيد عظمة جبل سامق يضيع بين الغيوم اذا حمسنا الى ذروته قبضة ثلج ؟ أيمكن ان نزيد في حب الام لولدها اذا البسناه ثوبا أو خططنا لـه شـارية ؟

أيها الشعر :

انا ـ لولاك ـ يتيم •

شـــعر :

لولاك كان العالم مغارة من الظلمات
لا تعرف قطرة شمس •
او سماء دون نجم يلمع •
أو حبا لا يعرف حرارة قبلة •

لولاك كان العالم بحرا لا زرقة فيه
ولا رطوبة خالدة ولا حركة لا نهائيه •
او بستانا لا ازهار فيه ولا اعشاب
ولا اغنيات بلبل ولا نغمة صرصور •

لولاه لكانت الاشجار عارية سوداً
لا شيء غير ضبب تشرين ، لا صيف ولا شتاء ولا ربيع
لكان الانسان وحشاً وشقيا
والاغنية ... ولكن الاغنية لا يمكن ان تكون .

يقول الأفار(١) :

- لقد خلق الشاعر قبل خلق العالم بمائة عام ، وكانهم بذلك يريدون ان يقولوا : لو لم يشترك الشاعر في خلق العالم لما كان في هذا الجمال .

كنا اربعة إخوان ، واختا واحدة . وكان اختنا اكبرنا سنا . وكان نصيبها ـ مثل نصيب كل فتاة جميلة ـ كثيرا من العمل ومن الحزن ومن الدموع . وكان ابي غالبا ما يقول :

ـ انكم اربعة . واختكم واحدة . احرصوا عليها ، اعتنوا بها . ليس في العالم من هو اقرب اليكم من اختكم . حقا . ان اختي اغلى الناس عندي . ولكن لي اختا أخرى ولست ادري أيتهما اغلى علي : اختي تلك او قصيدتي .. لا أستطيع العيش دونها .

اتساءل أحيانا . من يحل محلها ؟ نعم ستبقى لي الجبال والثلج والغدران والمطر والنجوم والشمس والخبز ... ولكن هل تستطيع الجبال والمطر والازهار والشمس ان تستغني عن الشعر ؟ وهل يستطيع الشعر أن يستغني عنها ؟

لولا الشعر لتحولت الجبال الى كومة من الحصا ، والمطر الى ماء آسن ومستنقع ، والشمس الى جرم سماوي مشع له قدرة حرارية .

واتساءل احيانا : ما الذي يمكن أن يحل محل الشعر ؟ نعم هنالك بلدان بعيدة ، واغنية عصافير ، وشمس وقلب يخفق . ولكن لا يمكن ان يبقى ذلك كله كما كان لولا الشعر . تبقى المفاهيم الجغرافية ، بدلا من نداء البلاد البعيدة ، يبقى خزان مياه كبير بدلا من البحر . تبقى صرخة ذكر يدعو أنثى بدلا من اغنية عصفور ، تبقى مجموعة من الغازات بدلا من الشمس الزرقاء ، وتبقى الدورة الدموية بدلا من خفقان القلب .

نعم هنالك الحنان والطيبة والشفقة والحب والجمال والشجاعة والحقد والكبرياء ... ولكن

(٨) قبيلة الشاعر .

كل هذه المفاهيم ولدت من الشعر وولدت الشعر • هذه المفاهيم لا يمكن ان تعيش دون الشعر ، والشعر لا يمكن ان يعيش دونها •

لقد خلقني شعري وخلقت شعري • ويموت واحدنا ان مات الآخر ، لا نعد في الوجود • لي عضلات ولي عظام • لا تستطيع العين المجردة أن ترى العظام في داخل الجسد وأن تحدد ماهو سليم وقوي منها ، وماهو مكسور لم جبر ، ومع ذلك فهذه اشعة (اكس) تخترق عظامي ، فاذا كـل ماهو مغطى وكل ماهو سري تراه العين •

إن روحي اكثر خفاء في اعماقي ، أكثر خفاء من اضلاعي وعمودي الفقري ورئتي • وها هي ذي اشعة الشعر تخترقها وتصبح كل ثامة في روحي معروضة على الناس • روحي على يدي مفتوحة شفافة ، تخترقها اشعة الشعر السحرية ويستطيع الناس أن ينظروا خلال نفسي •

الآلة الحاسبة الحديثة لها الوف من الاسلاك والحجيرات • يمكن أن تعهد اليها بأشد البرامج تعقيداً وبعدد كبير من الارقام • ويجري التيار الكهربائي في الاسلاك والحجيرات التي لا تكاد تحصى عدداً •• ولا تستطيع عين ولا عقل أن يحيط بالعمليات التي تدور في هذه الآلة • ولكن هاهو ذا رقم يظهر : انه الجواب النهائي ، النتيجة •

ولا يستطيع انسان أن يحيط بالاتصالات ، بتيارات الحب والحقد التي تجري على طول الاسلاك التي لا تحصى في جسدي • ولكن هاهي ذي القصيدة الشيء النهائي ، الشيء الرائع الذي يمكن لروحي ان تبدعه منطلقة من مشاعرها في الحياة •

لقد شققت الارض شقا ، مشيا على الاقدام او على صهوة الحصان وركبت الطائرة ونمست في مقعدي ، وسافرت في القطار مضطجعا على السرير الفوقاني ، وركبت السيارة احيانا والناس يقولون وهم يرونني في شعاب الجبل أسير او أركب الحصان : ها هوذا رسول حمزة ، إنه وحيد ، ولعله أن يسام • ولكني لم أكن في يوم من الايام وحيداً • هي ـ قصيدتي ـ دائما معي • نحن لا نفترق لحظة من اللحظات • وحتى في الحلم انظم احيانا بعض الابيات او أتذكر الابيات التي كنت نظمتها او اقرأ قصائد الشعراء •

ظننت أمداً طويلا ان عدد الشعراء في الارض قليل • وأن الشعراء يملون مللا غير قليل وهم يعيشون بين الناس غير الشعراء • كل انسان له مايشغله في الحياة ، ويمكن ان يتحدث عنه الى صديق او جار : عن العمل ، والزوجـة ، والاجور ، ويـوم العطلة ، ومنزل الاسـرة ، والصيد والسينما والامراض ••• نعم إن الشاعر يمكن أن يتحدث عن كل هذه الاشياء مع الناس ولكن من ذا الذي يمكن ان يشاطره مفهومه الشعري عن العالم ، قصيدته ؟

واخيرا فهمت ان ليس في الناس من ليسوا شعراء • كل واحد منهم شاعر في روحه الى حد ما•

وكل واحد منهم زاره الشعر ٠ ما من ذلك بد ، كما يزور الصديق الحميم(٩) منزل صديقه ٠

إن حب الاغنية عند شعبنا طبيعي مثل حب الاطفال ٠ نعم نحن جميعا شعراء ٠ والفرق بيننا ان بعضنا ينظمون الشعر لانهم يعرفون كيف ينظمونه ، وبعضنا ينظمون الشعر لانهم يظنون انهم يستطيعون نظمه ، وبعضنا لا ينظمون الشعر على الاطلاق ٠ ومن يدري فلعل هذه الزمرة الاخيرة ان يكونوا فعلا هم الشعراء حقا ٠

لقد مر بي عهد كنت لا انظم فيه شعرا فهل كنت آنذاك غير شاعر ؟ هل كان قلبي يخفق أقل مما يخفق الآن ، هل كان دمي أقل حرارة مما هو الآن ؟ هل كانت الآلام اقل تأثيرا في نفسي ؟ والافراح اقل إسعادا لها ؟ هل كانت عيناي تريان الارض اقل جمالا مما تريانها الآن ؟ هل كنت اقل احساسا بروعة النجم الازرق يبدو مزقة بين الغيوم السود ؟ هل كانت ترنيمة النهر اقل انسجاما في نغمتها من ترنيمة اليوم ؟ الم أكن أهتز لصرخة الكركي وصهيل الحصان ؟ الم تكن الدموع تملأ عيني وانا أصغي الى اغنية قديمة أو الى الاساطير الرائعة التي يرويها آباؤنا ؟

اتذكر ٠٠٠ عندما كنت صغيرا تطوعت عند جارنا لكي أحرس حصانه ٠٠٠ ولقاء ذلك كان على الجار ان يقص علي قصة وكان علي أن احرس الحصان ثلاثة أيام ٠

اتذكر ٠٠٠ كان ذلك في العهد الذي كنت أرافق فيه الرعاة الى الجبل ٠٠٠ نصف النهار ينقضي في الغدو ونصف النهار ينقضي في الرواح ٠٠ واذا كنت اغدو واروح معهم فما ذلك الا لكي اسمع قصيدة واحدة ٠

كمثرى (اونتزوغول) وعنب (إمري)
وعسل (بصري) واغاني (الافار) ٠٠٠٠

اتذكر :

عندما كنت في السنة الثانية من المدرسة سرت في الدروب الوعرة في الجبل المؤدي الى قرية (بصري) وهي تبعد عشرين كيلو مترا عن قريتي تماما ٠ كان فيها شيخ عجوز هو صديق والدي الحميم ٠كان يعرف كثيرا من الاغاني القديمة ومن الشعر ومن الاساطير ٠ وظل العجوز اربعة ايام من صباحها الى مسائها وهو يغنيني القصائد وانا احاول على قدر ما أستطيع ان أسجل الحانها ٠ فاذا عدت الى المنزل عدت جد مسرور وجعبتي ملأى بالقصائد والاغاني ٠

(٩) قوناق في الاصل ٠ الصديق الحميم (م.ف)٠

يشرف على (بصرى) جبل عال ، فلما جزتـه طلعت من حيث لا ادري كلاب الرعاة الضخمة المتوحشة • كانت تنطلق في العشب الاخضر كما تنطلق الصواريخ في الامواج لتصل الى جناح السفينة الأســود • كنت ارى اشداقها المفتوحة ذات الأنياب الصفر السائلة اللعيقة التي كانت تمزقني إربا إربا كنت اسمع صرخة الراعي :

ـ نم ••• لا تتحرك •

واستلقي في الارض والتصق بها ولا اتحرك • أخاف أن أتململ حتى كنت أظن أني لاأتنفس• قلبي وحده كان يخفق فوق الارض في قوة ، وخيل الي أن خفقاته تسمع بعيداً حولي • ووقفت الكلاب حولي تشمني وتشم جعبتي وما فيها من أشعار • وتظن الكلاب انها أخطأت وينظر بعضها الى بعض نظرات حذرة ثم تهرع الى شخص تتصوره في خيالها وتختفي وراء الجبل • وأبقى مستلقياً في مكاني حتى يقترب مني الراعي ووراءه قطيعه :

ـ من انت

ـ انا رسول بن حمزة من تسادا •

وسميت أبي عامدا على أمل أنيسمع الراعياسمه فيكون اكثر حفاوة بي ولايسمح بالاساءةالي•

ـ وماذا تصنع هنا في الجبل ؟

ـ ذهبت الى بصرى لابحث عن قصائد • إنها هنا في كيسي •

وسحب الراعي القصائد من كيسي وجعل يتفحصها :

ـ اتريد أن تكون أيضا شاعرا ؟ إذن فلماذا تخاف من الكلاب ؟ ستلقى في طريقك في المستقبل كلابا أشد سعاراً ، وهؤلاء لن يتركوك اذا شموا رائحة القصائد كما تركتك كلابي هذه • ولكن لا تخف ، لا تخف شيئا على الاطلاق • أتعرف هذا الجبل ؟ من هـذا الجبل قفز الحاج مراد لكي يتخلص من حراسه • وبقي الحراس وأيديهم فارغة ، واستطاع الحاج مراد الفرار • ان الجبال في بلدك تهب الى نجدتك •

ظننت امدا طويلا أن نار الشعر التي تضطرم في نفسي ، والقلق الذي يعيش دائما في روحي والحب الذي اختار منزلا له في قلبي ، وصخب الدماء في عروقي ، ظننت ذلك كلــه امرا موقوتا سرعان مايمضي •

وها أنذا الآن وقد ابيض شعري ، وكبر أولادي ، وشاخت كتبي ، ولكن هذه المواطف لــم تهجرني • وما يزال الشعر أكثر أصحابي إخلاصاً لي •

وأنا الآن أتوجه اليه وأخاطبه •

أيها الشعر :

انت لم تفارقني في رحلاتي الطويلة عبر العالم وعبر الحياة ، بل انت لم تتركني اليوم واما اجوب بحر النثر المديد العريض • أنا أعلم أن من العبث أن أجعل للقصة نغماً • غير القصص يصبح شعراً سيئاً • والشعر في القصة ينبغي أن يكون كالملح في الطعام • وقد كان الشعر دائماً ملح حياتي • لولاه كانت حياتي تفهة لا معنى لها • عندنا في الجبال لا ينسى صاحب البيت أبداً أن يضع المملحة على مائدة الضيف •

النثر يطير بعيداً ولكن الشعر يطير عالياً • النثر طائرة كبيرة تستطيع أن تدور حول العالم • أما الشعر فهو طائرة مطاردة تطير في خفة رائع وتتقبض على طائرة النثر الضخمة في طرفة عين •

اريد ان اخلط الوانا عديدة في كتابي وان ارسله الى ما وراء حدود بلدي (افاريا) • ولم لا ؟• منذ زمن بعيد واشعارنا تغط طريقها ودروبها نحو قلوب الناس بعيداً من حدود داغستان•

بل ان قصصنا نالت تاشيرة خروج • وربما بقي مسرحنا في أرضه لا يغادرها • يمكن ان يكون في طريقه الى التحقق من هويته او انه في حاجة الى ان يتعلم كيف يجب ان يكون سلوكه ؟

لو أني جعلت اكتب مسرحية لاخترت لها مكاناً كل داغستان • ولكان اطارها الجبال والسماء والانهار المتدفقة والبحر والارض • اما زمان المسرحية ؟ فالقرون الغابرة ، والعهد الحاضر وكل المستقبل ، كنت خلطت الالوف من السنين باللحظات • اما أشخاص المسرحية فهم انا وابي وابنائي واصدقائي ، وناس ماتوا من عهد بعيد وناس ما يزالون في عالم الغيب •

هذه المسرحية ستكون أحسن مؤلفاتي ، « حربي وسلمي »(١٠) ، « دون كيشوت »(١١) ، « المهزلة الالهية »(١٢) بالنسبة الي ، ولكني لا اجرؤ على كتابة مسرحية بل لا اجرؤ ان اضع في جدران كتابي القدم حجراً واحداً من المسرح • اترك المسرح لوقت آخر ، بل اتركه في صراحة الى غيري من الكتاب ، واكتفي بالشعر والنثر اقرن واحداً بواحد • الشعر هو الطيران على صهوة حصان، والنثر هو السير على الاقدام • وعلى الاقدام يمكن ان تمضي الى مكان بعيد ، وعلى ظهر الحصان يمكن ان تسافر في سرعة • وساسير حيناً على قدمي وامتطي حيناً حصاني • سأقص كل ما استطيع واجعله اغنية ، في نفسي عنفوان الشباب وحكمة الشيخوخة •

فليغن الشباب ولتتكلم الحكمة •

(١٠) الحرب والسلم : رواية تولستوي •
(١١) دون كيشوت : رواية سيرفانتس •
(١٢) المهزلة الالهية : رائعة دانتي •

في نفسي تعيش شخصيات كثيرة مختلفة : احياناً اجلس الى المائدة في حفاوة ، واستعمل المثوش الصقيل وامسك الشوكة باليد اليمنى ، واحيانا امسك بكلتا يدي ضلع خروف وآكل وانا جالس على الارض ومعي مواطني ، وابلع الغروف بجرعات من البوظة(١٣) ٠

عندما اغادر المدينة لاذهب الى الجبال احمل معي ، كما يفعل سكان المدن ، فواكه وخمورا ناعمة ، وعندما اعود الى المدينة بعد أن افارق الرعاة الكرام أحمل معي خروفا يلقى على سرج الحصان ٠
والبحر نفسه يكون مرة لطيفا ناعما ومرة غضوبا مزمجرا ٠ وكذلك تعيش في نفسي طباع مختلفة ٠
رايت على شفير هاوية سحيقة في الجبل شابا وفتاة يتعانقان
لم أر الا خيالهما المشترك ، لم أستطع التمييز بينهما ، كان عناقهما حارا الى هذا الحد ،
وكان اتحادهما وثيقا الى هذا الحد ٠
وكذلك تعيش في نفسي ، ولا تتجزأ السعادة والالم ، الدموع والفرح ، الضعف والقوة ٠
كلا ، الفرس لا يشب منتصبا على قوائمه ولا يقضم من غيظ لجامه ،
إنه يبتسم باسنانه البيض
وراسه يميل في حزن

يتدلى عرفه الى الارض
أحمر كانه نار المساء
يخيل الي ، ويا للعجب
أن الحصان يضحك كما يضحك الانسان ٠

من ذا الذي لا تتملكه الدهشة ؟
اقتربت لأرى هذا الحصان الغريب رؤية اوضح
كلا إنه لا يضحك كما يضحك الانسان
إنه يبكي وراسه يتدلى ثقيلا ٠

في عينيه وهما مثل ورقتي شجرة
دمعتان تعكسان ضبابة بعيداً
أوه يا صديقي ٠ اذا كنت اضحك فاقترب مني
وخذ حظك من النظر الي ٠

---

(١٣) شراب وطني ٠

من دفتر المذكرات :

جبلي من قرية (سيوخ) رأى غيمة بيضاء في سفح الجبل • وقفز اليها وهو يظن انها كومة من الصوف الناعم الهفهاف • كان الشبه كبيرا بين غيمة رقيقة وكومة من الصوف أو القطن المندوف • وما كان للغيمة ان تصبح قطنا •

مهما كان جميلا شكل الكتاب الذي كتب للشكل وحده فانه لا يمس قلب الانسان • الشكل وحده لا يترجم عن المعنى • الصياد الذي قضى حياته في البحر ، يرى في الغابة قرية من النمل ويظن انها كومة من الكافيار • والجبلي الذي لم ير البحر يرى كومة من الكافيار فيظن انها قرية نمل •

من دفتر المذكرات :

القلب نفسه تستهدفه الرصاصة والوردة
والوجه نفسه تأتيه الضحكات والدموع
والشفاه نفسها تذوق العسل والسم
وفي السماء نفسها تطير الصقور والحمام
وفي العش نفسه ، في الغيمة السوداء نفسها تنبثق النار والماء••
وعلى المسمار نفسه تعلق القيثارة (١٤) والخنجر(١٥)

من دفتر المذكرات :

فتاة جبلية ، عرفت نشوة الحب ، تطلعت من النافذة عند الصباح وصرخت :
ـ آه ما أجمل الزهر على الاشجار •

وسمعت أمها العجوز :
ـ وأين ترين الزهر على الشجر ؟! انه الثلج • نحن في اواخر الخريف واوائل الشتاء •
وهكذا بدا الصباح الواحد لامرأتين صباحين : صباحا ربيعيا وصباحا شتويا • وفي نفسي

(١٤) كوموز نوع من آلات الغناء •
(١٥) بالعربية مع بعض التحريف للتجنيل(م•ع)•

يعيش هذان المظهران المتناقضان : الشاب والشيخ ، الزهر والثلج ، الربيع والخريف • فلا تأخذنك الحيرة اذا وجدت في كتابي شعرا حينا ونثرا حينا •

سألوني : ـ ولكن ألست تحاول ان تمسك بطيختين بيد واحدة ؟

وقلت : ـ كلا • لست أحاول ذلك •

عندما امزج الوانا شتى في لون واحد فليس يعني ذلك أني آخذ ثمرات مختلفة فأقسمها وأخلطها لأجعل منها سلطة فواكه ، ولكني امزجها حية ، ازاوج بينها كما يصنع البستاني العاقل لكي يحصل على نوع جديد من الثمار والخضر • ولا ادري ما سيعطي هذا التنوع في آخر الحساب، ولكن ذلك هو ما يحدث في كل شيء • لا تستطيع ان تتصور كل النتائج التي تترتب على اشعال نار • ولكن ذلك لا يعني أن تخاف اشعال النار في كل مرة • اذن فانا احك عود ثقاب واقربه الى عود يابس واحميه من الريح براحة يدي • وتبدأ النار بالحياة • لست اخاف أن تنقلب هذه النار الخجلى ، الضعيفة ، في هذه اللحظة الى نار مفترسة لا يمكن أن نسيطر عليها • لا أرى هذا ، ولذلك فانا اشعل النار •

لقد نقش الشيخ شامل على سيفه حكمة من حكمه : « من فكر ، قبل المعركة ، في نتائجها فليس شجاعا » •

يقولون : سم الأفعى يمكن ان يكون ترياقا اذا كان في أيد ماهرة ، وعسل النحل يمكن أن يكون سما اذا كان في يدي أحمق •

يقولون : اذا لم تعرف القصص فعليك بالغناء ، واذا لم تعرف الغناء فعليك بالقصة •

الأســـلوب

يعرف المغني بصوته •

والصائغ بزخرفته •

كتبت على قطعة من الحلي في كوباتشي •

ـ لماذا تصرخ بي ؟

ـ انا لا أصرخ • هذه طريقتي في الكلام

حوار بين رجل وامرأته •

ـ شعرك لا يشبه الشعر •

ـ هذه طريقتي في نظمه

حوار بين شاعر وقارىء •

نحن ـ الصغار ، لم يكن مباحاً لنا ان نذهب الى مجلس القرية (١٦) ، الذي كان يضم من هو اكبر منا سنا • كنا نجلس على صخرة كبيرة ونراقبهم من بعيد •

ولاحظنا ذات مرة ان ضيفا جاء من قرية (آندي) وظل يتكلم ساعة كاملة في المجلس وان الجماعة(١٧) كلها كانت تستمع اليه ولا تقاطعه • وناقشنا الموضوع واقتنعنا ان الجبلي من (آندي) لا بد ان يكون حاملا لأنباء هامة لولا ذلك لم يصغوا اليه هـذا الاصغاء الطويل •• وصعدت الى البيت وسألت ابي :

ـ ماذا حمل اليكم ضيف (آندي) من اخبار ؟

ـ اه نحن انفسنا تساءلنا سمعنا ما قاله اليـوم عشرين مرة او تزيد ، ولكنه يقص في اسلوب جيد يدعونا الى ان نسمعه حتى المساء • ياله من رجل • مد الله في عمره •

في الطريقة :

لكل حيوان حيلة ، له طريقته في الخلاص من الصياد ، ولكل صياد طريقته في مطاردة الحيوان والامساك به • وكذلك فلكل كاتب طريقته ، اسلوبه في العمل • طبعه • كتابته •

عندما دخلت معهد الآداب في موسكو ، وكنت فتى شاعرا آنذاك • وقعت في جو لا يمكن ان أعيش فيه • كان كل شيء يلقي علي درسا جديدا : موسكو نفسها ، الدروس ، الشعراء الكبار الذين يشاركون في مناقشاتنا ، الاساتذة ، اصدقائي في المعهد وفي البيت • كانت الدروس تسقط فوق رأسي كما يسقط البرَد من كل مكان ، حتى كنت اضيع ، وفي ضياعي جعلت اكتب شعرا في طريقة جديدة ، في اسلوب غريب ، لم يروا مثله في الادب الآفاري • ولا اخفي انني كنت حريصا على ان ارى شعري مترجما الى اللغة الروسية • كنت اطير الى القارىء الروسي وخيل الي انني ساصبح اكثر قربا منه وصلة به اذا نظمت شعري في هذا الاسلوب الجديد • وكفمت نهائيا عن الاهتمام بموسيقى للغتي القومية ، وبانغام شعرها ، كان البناء ، والفكر العاري يحتلان المحل الاول• كنت احاول الوصـول الى طريقة لا مناص لي منهـا ، وكنت في الواقع ـ كمـا فهمت اليوم ـ اتصيد الوسيلة •

ولكنني سرعان ما فهمت ان الشعر والحيلة امران متناقضان • وفهم ابي الحكيم مقاصدي بادىء بدء • ولم يكد يسمع قصائدي الجديدة حتى ادرك انني اريد ان اضحي بالغروف كله في

(١٦) جود يمان •
(١٧) الجماعة بالعربية •

سبيل الحصول على آليته ، وبني احاول أن احرث وابذر حقلا من الحجارة لا ينبت شيئا ، مهما سقيته ، واني اطلب المطر دون أن تكون لي سماء .

ادرك أبي ذلك منذ أول وهلة ولكنه كان رجلا ذكيا وحذرا . وذات يوم ألقى الي وهــو يحاورني بهذه الملاحظة :

ــ يارسول . يقلقني انني ارى كتابتك تتغير .

ــ يا أبي . لقد اصبحت فتى يافعا ، والكتابة لا تعنى بهــا الا المدرســة . والفتى ينبغي أن يتحمل لا مسئولية الطريقة التي يكتب بها ، بل مسئولية مايكتب .

ــ قد يكون هذا صحيحا ينطبق على جندي أو على امين سر مجلس السوفيات في قرية وهو يحرر شهادات ووثائق اما عند الشاعر فالكتابة والاسلوب هما تماما نصف مهمته . والقصيدة ينبغي أن تكون جميلة مهما كانت الفكرة التي تعبر عنها مبتكرة . لا جميلة فحسب بل جميلة كما ينبغي أن تكون . اذا وجد الشاعر أسلوبه فقد وجد شخصيته ، إنه عندئذ يصبح شاعرا .

« أنت في عجلة من امرك ، ولكن النبــع الصغير الصاخب السريع لا يصل الى البحر . ان السيل البطيء الهادىء يبتلعه .

« العصفور الذي يبدل أعشاشه دائما ولا يعرف انتقاء واحد منها يبقى اخيرا دون عش . اليس خيرا لو بنى له عشه ؟ وإذن فهو عندئذ في غير حاجة الى انتقاء عش من بين الاعشاش » .

واليوم وقد جاوزت الاربعين الف امام كتبي الاربعين فاقلب صفحاتها وأرى أن في الحقل ، الذي بزرته قمحا ، نباتات أخرى جاءت من حقول اخرى ، نباتات لم أبزرها . قد لا تكون اعشابا ضارة ، بل قد تكون نباتات نافعة ، منها الشعير والذرة والشوفان ولكنها تبقى غريبة عن حقلي وعن قمحي .

ارى خرافة ليست لي بين قطيعي ، انها لا يمكن ان تعتاد أعالي الجبال ، هواءها . الاحظ احيانا ان في نفسي اشخاصا آخرين . ولكني اريد ان اكون في هذا الكتاب انا بالذات . وسواء اكنت حسنا ام سيئا فتقبلوني على علاتي .

يذهب الجبلي الى العرس ويسأل المدعوين الذين سبقوه :

ــ ايكفيكم جمعكم هذا ام ان لي مكانا بينكم ؟

ويجيب الجبليون في العرس :

ــ ادخل اذا كنت انت انت وهاهو ذا كتابي اثبت به انني أنا انا . اريد ان اكون كاتبا لا ان املأ دور كاتب . انظروا الى الممثل في المسرح يشرب (الكونياك) . هاهو ذا يصبح سكران ، يلذعه لسانه ، ويرتمي رأسه على صدره . ولكن الزجاجة ليس فيها الا الشاي بدل (الكونياك) .

يستحيل ان تثير اعصابك الشاي • واظن ان الذين لم يذوقوا (الكوتياك) يوافقون على ذلك •

عندما يدخل الكاتب المسرحي في تمثيليته دور شـاعر ، فاصعب ما يعانيه ان ينظم قصائد لشخصيته هذه • ولذلك فان الشاعر في التمثيلية لا يقرأ شعره على الاطلاق • ولكن ما معنى شاعر دون شعر • ما الفرق بينه وبين تمثال مزين في واجهة مخزن •

انا لا اريد ان اشبه احدا ، لا عمر الخيام ولا بوشكين ولا بيرون •
بعض اللصوص اذا سرقوا بقرة كسروا قرنيها او قطعوا ذيلها • بعض اللصوص بعد الاستيلاء على سيارة يصبغونها بلون جديد • ومع ذلك ، ورغم كل هذه الحيل تبقى السرقة سرقة •
واكبر لذة اشعر بها هو ان اسمع القراء يقولون : ان رسولا كتب كتابا لرسول •

احب العصافير التي تغرد اكثر من العصافير التي تزعق ، احب العصفور في عنفوان طيرانه اكثر من العصفور الذي ينبش كومة من المزابل • احب المركب في عرض البحر الازرق اكثر من المركب الذي يرسـو في مرفأ ضيق • انظـروا الى القوارب الخفيفة تتراقص فـوق كل موجـة ، وانظروا الى المراكب الكبيرة الثقيلة ما اشد ثباتها ورسوخها حتى في اوج العاصفة • يثير الحمقى الضوضاء ويتنازعون كانهم سكارى وما هم بسكارى ، انهم لم يشربوا نقطة واحدة من الخمر • اما الحكماء من الناس فهم حتى حين يفرغون في اجوافهم اقداحا كثيرة من الخمر ، يتحدثون في لطف وفي هدوء وفي دم بارد •

يا كتاب رسول : اسلك بين الناس سلوكا يليق بكتاب رسول •
عندما يدخل ضيف مجهول منزل رجل جبلي ، لا يسألونه عن اسمه ولا من اين جاء طـوال ايام ثلاثة • وانتم تقبلوا كتابي دون ان تسألوا ماهو ؟ ومن اين جاء ؟ ومن هو صاحبه ؟ دعوه يتحدث عن نفسه •

لا اريد ان اكون خيرا ولا شرا مما انا • اذا لم تكن في العشرين من عمرك قويا فلا تنتظر القوة ، بعد ذلك ، فهي لن تاتي • واذا لم تكن في العشرين من عمرك ذكيا فلا تنتظر الذكاء بعد ذلك فهو لن ياتي(١٨) • واذا لم تكن في الاربعين من عمرك غنيا ، فلا تنتظر الثروة بعد ذلك فهي لن تاتي ابدا • هكذا يقول المثل الروسي • ويقولون في جبالنا : اذا لم يكن الرجل في الاربعين من عمره نسرا فهو لن يطير ابدا • لتدرج عجلتي على طريقي • في قريتي عندما يهطل المطر تنحدر الجداول الكثيرة من الجبل الذي يحتضنها ، ثم تتجمع كل هذه الجداول في سفحه وتكون بحيرة من ماء المطر • يخرج منها نهر كبير واحد •

---

(١٨) كانه قول الشاعر العربي :
اذا بلغ الفتى عشرين عاما ولم يبرع فليس لـه نبوغ •

كثير من الدروب الضيقة تنحدر نحو قريتنا من الجبال المحيطة بها . وتدوب كلها في قريتنا كالجداول . ولكن عندما نترك القرية سيراً على الاقدام او فرساناً لنذهب الى مركز المنطقة ، الى المدينة ، أو الى العالم الواسع فليس امامنا الا طريق عريضة معبدة . لست ادري بم اشبهنفسي؟ بالطريق ام بالنهر ، ولكني أعرف أن افكار أبناء وطني ، كلمات ابناء وطني ، مشاعر أهل وطني قد تجمعت في نفسي كما تجمعت جداول الجبل ودروبه المتوبة . أما طريقي الخاصة ، دربي الخاص فمنذ قادني من القرية الى الشعر . زرت كثيراً من زوايا العالم ، زرت كثيراً من البلدان ، لاقيت كثيراً من الناس . وحدث انني حضرت حفلات استقبال فخمة عند رؤساء وملوك ، أو رؤساء وزارات او وزراء او سفراء . ما أكثر مالمعت الاحذية والصدمات في هذه الحفلات ! ما أكثر ماعقدت ربطات العنق في اناقة ! ما اشد ما تألقت ياقات القمصان ! ما أشد مافي التحيات والابتسامات منتهذيب! ما ادق ما حظيت به كل كلمة وكل حركة من تفكير ! في حفلات الاستقبال هذه يبدو الفنانون كأنهم رؤساء وزارات ، ورؤساء الوزراء كأنهم فنانون .

لم اكن في يوم من الايام ، خلال هذه الحفلات ما انا عليه حقاً . كنت اصطنع حركاتلاارتيدها، واقول كلمات لا ارغب فيها . وفي اضواء هذه الحفلات كنت ارى بيتي في تساداً فجأة ، وأرى أهلي يتحلقون حول النار ، او ارى اصدقائي المرحين يتجمعون في غرفة من غرف الفندق ، واحس عندئذ بالرغبة في أكل (الخانكالي)(١٩) بالثوم بدلاً من كل هذه المآكل القادمة من وراء البحر . آه ما أطيب ان تجلس أمام النار ، بين اصدقائك ، وأن تقلب أكمام قميصك وتلتهم (الخانكالي) بالثوم حتى يسيل الدهن من بين يديك .

بعض الكتب تبدو وكأنها في حفلة استقبال سياسية . تخلو من حرية الحركة ، من حرية المظهر ، من حرية الكلمة .

أيمكن ان تكون يا كتابي غير مدعو الى حفلة رسمية ، أيمكن أن تنقل الكلمات التي تناسب طبيعتك وحدها ، لا تلك الكلمات التي يجب أن تقال في المجاملات .

رأيت اناساً يظلون ما داموا في بيوتهم ، بين أسرتهم مع نسائهم ، مع اولادهم ، مع اصدقائهم، أناساً مثل سائر الناس . ولكن هاهم أولئك يتربعون في مقعدهم في مكتب ، في دائرة ، واذا هم جفاة غلاظ خبثاء ؛ كأنما حل محلهم ناس آخرون . طباعهم ، طريقتهم في العيش ، وجوههم ، تتغير كلها في كل منصب جديد ، في كل مقعد جديد .

أيمكن ياكتابي أن تظل كما كنت راسخاً ، فلا تغير طبعك ولا أخون فيك نفسي . أحب اصدقائي ودخان بيتي ، لا حفلات الاستقبال الطنانة ، احب الحقول لا ندوات الشعر ، أصغي الى نداء الارض

---

(١٩) طعام يصنع من اللحم والثوم والتوابل.

لا الى ضوضاء الاجتماعات • كثيرا ما يحدث ان يقال في اجتماع شيء ، وان يقال بعد انتهاء الاجتماع شيء آخر •

من دفتر المذكرات :

اي داغستاني لا يعرف (الباباخا)(٢) الضخمة (باباخا) سليمان ستالسكي ، وقرونها الثقيلة التي صنعت من جلود الاغنام ذات الرائحة ، و (شركسيه)(٢١) الخفيفين المصنوعين من جلد الخروف • اعتقد ان اهل داغستان ليسوا وحدهم هم الذين لا يستطيعون ان يتصوروا سليمان دون (باباخا) ودون (شركسية) •

وفجأة هاهو ذا سليمان وقد اصبح يحمل وساما • مكسيم غوركي قال : انه هو ميروس القرن العشرين • ودعي سلمان الى موسكو ، وفي موسكو قابل وزيرا داغستانيا • وقال الوزير للشاعر :

ـ ايه ايه ياعزيزي سليمان • لا يمكن ان تسلكك في موسكو كما تسلك في قريتك • يجب ان تلبس هندامة مناسبا •

وبناء على طلب من الحكومة الداغستانية صنعت لسليمان بزة رسمية ، وجيء له بزوج من الاحذية ، وقبعة ذات غطاء للاذنين ، ومعطف شتوي له فرو من استراخان • وفحص سليمان كل قطعة على حدة وراز المعطف ونظر الى كعبي الحذاء وضرب احداهما بالاخرى ثم كوم هذه الاشياء جميعا كما اتفق والقاها في حقيبته •

شكرا لكم • انها اشياء جيدة جديدة ومن صنف متين • انها تصلح لولدي مصعب • اما انا فاريد ان ابقى سليمان • لا اريد ان اغير اسمي لقاء بزة ولا لقاء حذاء • شركسيتي تغضب علي•

كان والدي يعجب كثيرا بتمسك سليمان حتى بهذه المظاهر الخارجية من الاصالة •

من دفتر المذكرات :

لقد حاول ابناء سليمان ستالسكي مرارا تعليمه القراءة والكتابة ، وكان سليمان يكب على التعلم في جد ، ولكنه لا يلبث ان يدفع بالورقة ويقول :

ـ كلا يا أولادي • عندما امسك بالقلم تهرب مني القصائد ، وذلك لاني عندئذ لا افكر في القصائد ، وانما افكر في طريقة الامساك بهذا القلم اللعين •

---

(٢٠) قبعة من الفراء •

(٢١) نوع من الاحذية في الجبل من الجلد غير المدبوغ •

من دفتر المذكرات :

كان افندي كابييف صديقاً لسليمان ستالسكي ، وهو الذي ترجم أشعاره الى اللغة الروسية• وكانت هذه الصداقة مثار حسد في نفوس بعض الناس المساكين •وحاولوا ان يغضوا من افندي كابييف في عيني الشاعر الشهير وان يدسوا عليه ، وقالوا لسليمان :

ـ انت لا تقرأ اللغة الروسية ، ولكننا نحن نعرف ان افندي كابييف يفسد أشعارك عندما يترجمها ، يزيد فيها ما يشاء ، ويحذف منها ما يشاء ، ويصوغ بعضها تماماً حسب طريقته •

وذات يوم في حوار هادئ، قال سليمان لافندي •

ـ ياصديقي • قيل لي إنك تضرب اولادي • وفهم افندي رأساً موضوع الحديث .

ـ ليست اشعارك اولادك يا سليمان • ان قصائدك هي انت نفسك •

ـ اذن فانا استحق وانا عجوز احتراما أكثر مما يستحقه الاطفال •

ـ ما الذي تراه أكثر قيمة في نظرك ؟ اعدد ابيات القصائد أم أسلوبها ؟ روح قصائدك ؟ امامنا زجاجة خمر • ولنفرض انها تعرضت للهواء وفسدت • سيكون لدينا تقريبا كمية مماثلة من الخمر ، ولكنها لن تكون خمرتنا نفسها ، خمرتنا هــذه التي نشربها الآن • والتي نتمطق ونتلمظ بها • المسألة ليست مسألة كمية الخمر ، ولكن مسألة نكهتها ، مذاقها ، حمياها •

ـ أنت على صواب • ذلك هو المهم •

والحق ان افندي كابييف كان يقدم الى القارئ الروسي على هــذا النحو اشعار سليمان ستالسكي •

من دفتر المذكرات :

قال لي افندي كابييف شاكيا : ـ لا استطيع قط ان أجد مفتاح شعر أبيك (لقد ترجم أيضا الى الروسية اشعار حمزة تساداسا •) ان لابيك فلا خاصا • تظن انه يضحك ، ولكنه في الواقع حزين ، وتظن انه يرثي ، ولكنه في الواقع يمزح ويسخر • تظن انه ينتهر ولكنه في الواقع ممتدح • افهم كل ذلك ولكني لا استطيع ان انقله الى اللغة الروسية • يمكن ان انقل افكاره الشعرية ومعاني قصائده ولكني في حاجة الى حمزة الحي كما نعرفه • هكذا يجب ان يعرفه من يقرأ له في اللغة الروسية • يبدو وكأنه يشبه الناس جميعا وفي الوقت نفسه لا يمكن ان يشابه احدا • هكذا يجب أن يكون الشعر •

ذكريات :

انا اليوم معروف في قريتي بالشاعر رسول حمزة • ولكن كم مرت بي أيام يعتبرني فيها أبناء قريتي شخصا لايصلح لشيء • عندما افعل شيئا افكر في شيء آخر • وهكذا فانا ألبس قميصي واجعل صدره قفاه وازر معطفي زرا مكان زر ، واخرج هكذا الى الشارع ، لا أربط شرائط حذائي ، فاذا ربطتها فسرعان ما تنحل عراها • ويقول عني :

كيف حدث ان يكون لمثل هذا الاب النظيف ، المعروف بعنايته بهندامه وبهدوئه واتزانه مثل هذا الولد المضطرب الاخرق!؟ من منهما اكبر سنا واكثر شبابا : اذلك الذي ينسى أن يربط شرائط حذائه أم هذا الذي لا ينسى شيئاً ؟

واسمع هذه الاحكام الشائكة وأجيب :

ـ نعم لقد اخذت من ابي شيخوخته وأعطيته شبابي •

والحق ان والدي بقي الى اخريات أيامه متميزا ، مستقيم العود ، كانه شاب • كان في مظهره الخرجي كما كان في أعماق روحه منظما تنظيما جيدا ، متزنا واضحا • كل الناس في القرية يعرفون الساعات بل الدقائق التي يلبس فيها معطفه ويصعد على سطح البيت • ويمكنهم أن يطمئنوا الى تصحيح ساعاتهم عند ظهور والدي على سطح منزله • كتب احد شبابنا وكان يؤدي خدمته العسكرية الى اهله : « نحن نستيقظ في قطعتنا مبكرين ، يوقظوننا تماما في الساعة التي اعتاد فيها حمزة الصعود على سطحه • »

وعندما كانوا يريدون مقابلة حمزة في الصباح فهم يعرفون الساعة والدقيقة اللتين يلاقونه فيهما وهو في طريقه الى (خنزاخ) كان يترك دائما منزله في الوقت نفسه ليذهب الى عمله •

كان الناس يعرفون كل شيء عنه : يعرفون المكان الذي يذهب اليه يقود فرسه برسنه قبل ان يمتطي صهوته ، يعرفون قميصه البسيط الاسود ، سروال الفارس الذي يلبسه ، وحذاءيه اللذين صنعهما بيديه ويمسحهما كل صباح بيديه • يعرفون حزامه ولحيته المقصوصة في عناية دون أن تحلق قط و (البباباخا) التي يعتمرها في شكل معين قاس • وكان جانبا هذه (البباباخا) من (الاستراخان) مزرورين دون ضيق ولا سعة •

كان والدي شخصا له خصوصياته واصالته • كل ما كان يلبسه وكل ما كان يصنعه يليق به في شكل عجيب••ومن العسير ان تتصور ان شيئا آخر غير حمزة موجود في ثيابه وتصرفاته وسلوكه•

وكان هو نفسه لا يحب التغيير • عندما يهترىء ثوب ويتوجب عليه ان يشتري آخر ، يصنع

مثله تماما على المقاييس نفسها ، وعند الخياط نفسه ، ومع ذلك يبقى عدة أيام منزعجا وقلقا في ثوبه الجديد •

وحدث مرة ان استسلم للزمان حزامه فاهترأ ، ولم يكن سهلا عليه أن يشتري حزاما جديدا ولكن حمزة رفع حزامه المألوف في عناية بالغة واستعمله زمنا آخر • لم يكن بخيلا ، وكان ذا بال ، ولكنه يوجع قلبه ان ينفصل عن الاشياء التي اعتاد عليها وألفها • واخيرا تمزق حزامه مرة اخرى واضطر الى شراء حزام آخر • ومع ذلك فقد نقل الى الحزام الجديد حلقة الحديد من الحزام القديم•

كان يداعب (باباخاه) كما يداعب حملا حيا • وعلينا ان نتصور درجة حرصه على (باباخاه) من قدر حرصه على حزامه •

وفي بدء الحرب العالمية في صيف ١٩٤١ أمرت حكومة داغستان على والدي ليستقر في (ماخاتشاكالا) • وظهرت له العاصمة حارة خانقة بعد رطوبة الجبال العالية • والثياب التي اعدت للجبل اصبحت لا تطاق في جو المدينة الخانق ، وخاصة (الباباخا) وجرب والدي أن يلبس قبعات من مختلف الانواع ولكنها كانت كلها تبدو من مظهر حمزة فيبقى بها بعيدا رغم كل مابذله من جهد لاقناعه •

حتى كارثة الحرب يمكن أن تصبح شيئا مألوفا عنده ، لقد جرت الحياة في الحرب ، مجرى جديدا ، وكان والدي يمضي في طريق الجبل حينا بعد حين • ما اطيب الحرية التي كان يستنشق فيها نسيم الجبال ! وما أروع اللذة التي كان يعود فيها الى لبس (باباخاه) ! كل مافيه يوحي اليك انه مثل مدخن حرموا عليه الدخان تحريما قاطعا ، أو لم يكن معه تبغ ، وهاهو ذا فجأة يصبح قادرا على أن يلف لفافة من تبغ قوي ذي رائحة عطرة ، وان يشعلها في بطء ، بل في عبادة ، وان يستنشق في مثل ذلك العمق وهذا البطء وتلك العبادة دخان لفافته •

لم يدخن أبي طوال حياته ولكنه كان يجد مثل لذة التدخين (بل اكثر من لذتها) في الف شيء من الاشياء الصغيرة في الحياة دون ان نتحدث طبعا عن أفراحه الكبرى فرحة الخلق ولذة حب الوطن تراب المهد •

من دفتر مذكرات والدي :

« رجب صديقي ، ولكنه عاملني معاملة عدو • لقد حالف موسى العلاقة ، ليعمل ضدي » هذا ما كتبه والدي في دفتر مذكراته • واليكم الحادث : في عام ١٩٣٤ سافر أبي الى موسكو ليشهد المؤتمر الاول للكتاب السوفيات • وكان الكاتب الافاري رجب دنهاجو ماميف ما يزال حيا في تلك الفترة • ونجح في أخذ والدي الى حلاق لكي يسوي شيئا من شعره ولحيته • هل دبر رجب الامر

او ان الحلاق لم يفهم ما طلب منه ؟ وكانت النتيجة ان والدي وجد نفسه دون شعرة في لحيتـه البيضاء ، هذه اللحية التي لم تمسها الموسى قط • وعندما ادرك ما حدث كان قد فات ما فات • وعندما رأى في المرآة هذا الوجه المجهول بل الغريب عنه صرخ صرخة ، وغطى وجهه بيديه وهرب من الدكان • ولم ير مطلقا في جلسات المؤتمر ، ولم يجرؤ على الظهور أمام الناس • قال والدي بعد ذلك : اذا كنت لم استطع ان اخون وجهي في حياتي فكيف أستطيع ان اخونه في اشعاري ؟!

لم يكن والدي يحب الدقة المفرطة في حياته ، كما لم يكن يحبها في شعره • ومع ذلك فقد وطن نفسه مرة على موقف غير طبيعي كان غريبا عنه •

اتذكر ذلك : ذهب بعض المواطنين في قريتنا لزيارة والدي في (ماحاتشكالا) • وحدثهم حمزة تساداسا وهو يسند ذقنه الى ثلاثة اصابع من يده • ولاحظ احد الفلاحين ذلك فقال له :

ـ لم نلاحظ قط انك تعتمد على ثلاثة اصابع في الامساك بذقنك • اتراك اكتسبت هـذه العادة من زمن بعيد ولماذا ؟ ذلك لا يليق بك • ليست تلك عادتك يا حمزة •

وأجاب والدي :

ـ انت على حق • ويجب ان أتخلص من هذه العادة • لقد كانت خطيئة الرسام محيي الدين جمال • صنع لي صورة في ثلاثة اشهر كاملة • ثلاثة اشهر كاملة جلست أمامه دون حراك . وانا أمسك ذقني باصابع ثلاثة • هكذا قرر الفنان وكان علي ان اطيعه •

ـ ذلك عسير •

ـ كلا ليس عسيرا أن تجلس ؛ ولكن هذا الوضع هو الصعب • شعرت احيانا أن هذه الاصابع التي تسند ذقني ليست لي • واحيانا اتصور أن الذقن التي تدعمها هذه الاصابع الثلاثة ليست ذقني • وهكذا كان يحدث كل يوم خلال اشهر ثلاثة حتى اعتدت ذلك شيئا بعد شيء • وانتهت الجلسات وانتهت اللوحة بل علقت على الحائط اما انا فظللت أمسك ذقني باصابعي • ان المصابين بقلوبهم يضعون أيديهم على قلوبهم حتى حين لا تؤلمهم هذه القلوب • ولكن لا تقلقوا سأحاول التخلص من هذه العادة •

من دفتر مذكرات والدي :

قص علينا حمزة كيف وضعوا له اسنانا اصطناعية • سأل الطبيب حمزة عن نوع الاسنان التي يفضلها : اسنان من ذهب او من فضة او من فولاذ • وتحير حمزة وأشار بعينيه الى اصدقائه حوله يستشيرهم بحثا عن رأي يعتمد عليه ؛ وقال احدهم :

ـ ضع أسنانا من ذهب . الذهب معدن ثمين . وقال الثاني :
ـ ضع اسنانا من فولاذ . الفولاذ معدن متين ، لا يهتريء قط .
واعترض حمزة قائلا :

ـ وما نتيجة ذلك ؟ لو عدت الى القرية باسنان من ذهب أو فولاذ لنظر الي الناس وكان في فمي مشاعل ، ولن يتطلع الناس الي ولكنهم سوف يتطلعون الى وجهي . ولسوف تكسف الاسنان الصناعية وجهي . الا يمكن ان تضع لي اسنانا من عظام كيلا يلاحظ احد أن لي أسنانا جديدة ؟ أنا موافق على الاسنان التي لا تلفت الانظار .

وقام طبيب الاسنان بعمل ما طلبه حمزة ، ومنذ ذلك اليوم كان والدي اذا لاحظ في شعر شاعر جملا غريبة أو جملا مقتبسة من شاعر آخر قال :
ـ تلك هي الاسنان الاصطناعية بدات تلمع .
حقا إنك تستطيع أن تقضم تفاحة باسنان من ذهب ولكني أقسم انك لا تقضمها بالطريقة التي تقضمها بها باسنانك ، ولن تجد فيها المذاق ولا العصير اللذين تجدهما فيهما اذا قضمتها باسنانك.

أتذكر عام ١٩٤٧ . اقيمت حفلة فاخرة في مسرح ماخاتشاكالا : كانوا يحتفلون بوالدي (حمزة تساداسا) بمناسبة عيد ميلاده السبعين . كان هنالك كثير من الخطب وكثير من التحيات ومن القصائد والهدايا . واخيرا جاء دور حمزة في الكلام . وصعد حمزة على المنبر ، وسحب من جيبه الداخلي ـ دون استعجال ـ ورقة فيها قصيدة نظمها من أجل هذه المناسبة ، وبحث في جيب اخر دون استعجال عن عويناته ... ولكن حركات والدي الهادئة اصبحت أكثر عصبية ... ومد يده الى جيب بعد جيب ، وعرف الناس أن بطل العيد نسي عويناته في البيت .

وأرسلوا فورا أحد الشباب للبحث عن العوينات ولكن حمزة ما يزال على المنبر ، عندئذ أعاره أبو طالب ، وهو صديق حمزة ، عويناته . واخذ حمزة عوينات أبي طالب وبدا يقرا قصيدته. ولكن صوته ووضعه كليهما كان ينقصهما الثقة والطمانينة ، كان فيهما شيء من الخجل الغريب . حتى خيل للناس أن أبي يقرأ قصيدة يراها أول مرة ، قصيدة ليست له ، قصيدة لشاعر آخر .

وعندما بدا بتلاوة قصيدة ثانية ، كان الشاب الذي ذهب للبحث عن عويناته قد عاد يحملها اليه وهو يجري في القاعة جريا . وترك حمزة عوينات أبي طالب ووضع عويناته ، واعتدل وضعه اعتدالا واضحا . ورن صوته رنينا اكثر اطمئنانا ، وبدات القاعة كلها تصفق له كان حمزة صعد الآن فقط على المنبر وكانه كان من قبل شخصا آخر يشبهه .

وقال حمزة : ـ وهو يضحك ـ كادت العوينات تفسد علي عيدي .
وساله ابو طالب في صوت عال :

ـ ولماذا ؟ هل عويناتي أقل جودة من عويناتك ؟
ـ بل هي جيدة جدا ولكنها ليست عويناتي •
كل انسان له عيونه ، ويجب أن تكون له أيضا عويناته •

كان ابي لا يحب ماهو منير إنارة تبهر العيون ، ولا ماهو مظلم ظلمة لا تخترقها العيون ، لا يحب كل ماهو سميك جدا ولا ماهو مائع جدا ، ماهو شديد الحرارة وماهو شديد البرودة ، ماهو غال غلاء فاحشا وماهو رخيص جد رخيص ، ما هو كثير التحفظ والجمود وماهو كثير التقدم والبروز• لا يحب وحشية الذئب ولا ضعف الارنب ، ولا إرهاب السلطة ولا الخضوع الذليل •
كان يقول :
لا تكن صلبا فتكسر ولا تكن مائعا كالخرقة تعصر •
لم يكن ممن تبله قطرة مطر ، ولا تجففه نسمة • كان عاملا من العمال يحيا في نفسه كل مافي شعبه من عادات وصفات يحملها في وقار وجدارة •

أتـذكر :

كان علي والدي وعلي ذات يوم ان نسافر الى القرية لعيادة قريب مريض ، هو عبد الرحمن دانيالوف الذي كان رئيس الحكومة الداغستانية • وعلم بعزمنا على عيادته فارسل الينا سيارة سوداء من سيارات الرئاسة ، أعتقد انها (زيم) •

كان والدي على خير ما يرام ما دمنا نجول في شوارع عاصمة داغستان • ولم نكد نخرج من المدينة ونصادف في طريقنا ابناء الجبل يركبون حميرهم وبغالهم أو خيولهم ، أو يمشون على اقدامهم، حتى جعل والدي يتململ في مركبه الفخم النفيس • اما انا ، وكنت شابا احب الظهور ، فحاولت ـ قدر ما استطيع ـ أن الصق وجهي بزجاج النافذة لكي يراني الناس جميعاً في هذه السيارة ، بينما كان والدي ينزوي في أعماقها ، قدر ما يستطيع •

كان المطر يهطل ، وعندما بلغنا نهر غوتزالتين لقينا شيخا يركب عربته ، وقد حبسه السيل في تياره ، واوقف والدي السيارة رأسا ، وخاض في النهر وجعل يساعد العجوز ، وظلا معاً يشجعان البقرتين ، ويدفعان الدولابين • واجتازت العربة النهر وبلغت الطريق • واستانفنا سيرنا • وبعد بضعة كيلو مترات بلغنا نهراً آخر واوقف والدي السيارة وظللنا ننتظر العجوز وعربته •
ـ ستتوقف العربة حتما هنا ، وانا اعرف كيف أمكن البقرتين من اجتياز النهر•سانتظر العجوز•
والواقع اننا انتظرنا حتى وصلت العربة وهي تصرصر الى النهر الثاني ، وجاز والدي النهر بالبقرتين في مهارة بالغة •

وقال والدي وهو يعود الى السيارة ويمسح يديه باطراف ثيابه :

ـ طالما وقعت في مثل هذه المازق ، وأنا احمل اثقالا من (البونياء) في الجبال •

ثم نظر الى العربة نظرة حزينة وهو يراها تجري ويجري معها ماضيه كلـه ، حياته كلها • ولم تكد تبلغ الشاطيء الذي يؤدي الى سهل (كراخ) حتى ضربتنا سيارة شاحنة وكسرت احدى عجلات السيارة • وسر والدي بالحادث ، فمضى الى القرية سيرا على الاقدام ، رغم كل ما بذلناه لنقنعه بانتظار تبديل العجلة في وقت قليل ، وكأنه لا يريد أن يستمع الينا •

ـ أخجل من دخول القرية في مثل هذه السيارة الفاخرة حتى لو كنت مدعوا الى حفلة زفاف • فكيف لا تكون هذه الفخامة اقل جدوى حين أدخل القرية لعيادة صديق مريض • كلا • أنا مسرور لان السيارة انكسرت • وسأمضي سيرا على قدمي •

ومضى في دربه المألوف الذي يعرفه منذ الطفولة والذي سارت عليه أجيال لا تحصى من سكان الجبل لتذهب الى قريتنا • وأصلحنا العجلة وسرنا في الطريق العام • وبلغنا القرية في الوقت الذي بلغها فيه والدي •

وبعد زمن علم عبـد الرحمن دانيالوف بما حدث وقلق فسأل والدي عن الحادثة فقال لـه وهو يضحك :

حقا لقد كانت سيارة جد جميلة • لو كانت اقل حسنا لم يصبها شيء •

اتــذكر :

في السنوات الاخيرة من حياته كان ابي مريضا مرضا شديدا • فاجأه المرض وهو في احـدى رحلاته في الجبال ، يقوم بالاتصال بالناخبين • كانت الانتخابات لمجلس السوفيات الاعلى لاتحـاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية تقترب وكان حمزة تساداسا مرشحا لها •

وبعد ان قطع حمزة بالسيارة الطريق الى مركز المقاطعة كان عليه أن يركب حصانا لكي يصل الى قرى الجبل • كان والدي يحب الخيول الهادئة الساكنة • وكان عادة يسير على قدميه وهو يجر لجام فرسه • كان في الحقيقة يفضل السير على قدميه •

واهتمت السلطات المحلية بنائب المستقبل وارسلت اليه فرس سباق فتيا جم النشاط • ليس في هذا الكلام عتاب لتلك السلطات فقد أرادت ان تفعل كل ما تستطيع من خير • فمن اجل ضيف عزيز لا يجوز أن يعطى الا افضل فرس في المقاطعة •

ولم يرغب الشيخ في رد هدية مضيفيه ، ورغم سنواته العادية والسبعين قفز على سرج الحصان

في عنان كما كان يقفز في عز شبابه • وبدا الشاعر ذو اللحية البيضاء وقد احاط به الشباب على الخيول وكأنه إمام يحيط به نوابه •

وضرب الشباب بالسياط خيولهم فمضت بهم تعدو في دروب مختلفة تؤدي الى قرى مختلفة لكي يذيعوا نبأ وصول حمزة • واصاب فرس حمزة عدوى الحماسة العامة فانطلق يعدو به • ولم يستطع العجوز ايقاف حصانه وبدا سباق مجنون وشعر حمزة أن حالته تزداد سوءا ، وقد هزته الحركة هزا شديدا واخيرا وقع عن سرجه وعاد مريضا الى ماخاتشاكالا ، ولم يتركه مرضه هذا حتى قضى عليه بالموت •

قال لي ذات يوم وهو يسعل :

ـ مثل هذا يحدث في الشعر • على الشاعر أن يركب حصانه المألوف لا فرس سباق مجهولا ، إن فرس السباق الغريب يزل بك من صهوته •

استطيع ان اتحدث حديثا مطولا عن والدي ولكني أريد أن أقص بعض ما يتعلق بصديقه أبي طالب • لقد قضيت البارحة كلها في رفقته •

يوم مع أبي طالب :

أصعب ما علي أن أعود الى نظم قصيدة لم أتمها في وقتها لسبب من الاسباب ، وهاأنذا اكب عليها من جديد لانتهي منها • الجبليون يقولون ان الضفدعة بقيت دون ذنب لانها ارجأت الى الغد العملية التي تؤدي الى وضع ذنبها في مكانه •

في الصباح قررت ان انهي قصيدة طويلة شرعت فيها منذ اسبوعين • كان العمل الذي ينتظرني صعبا ، وقلت للمشرفة على البيت (فروسيا) :

ـ اذا سأل عني أحد فقولي إني لست موجودا • ومن كانت له حاجة فيستطيع ان يعود بعد الظهر •

واعددت عدتي للعمل وصعدت الى مكتبي ، وشرعت اعمل • كانت جلبة الشارع تبلغني وسمعت صرير الباب الكبير • ثم قرع الجرس • ولم اسمع صوت (فروسيا) ولكن يبلغني صوت ابي طالب • وشعرت أن الكرسي تحتي يتحول الى مدفأة ملتهبة ، أو الى كومة من الاشواك • لم يحدث ابدا ان ابا طالب وجد باب حمزة تساداسا موصدا في وجهه ، او باب رسول حمزة ، وهاهو ذا يدير ظهره الى عتبة الباب ويمضي • لم يحدث هذا قط ولا يجوز أن يحدث • ووجدتني في وضع حرج : انا لا استطيع ان اتركه يمضي من جهة ، ولا استطيع من جهة اخرى ان اخون (فروسيا) لانها نفذت بامانة ما طلبته منها حين قالت لأبي طالب إنني غير موجود ، وإنني ساعود بعد الظهر •

واتبعت نصيحة قلبي وتركت نصيحة عقلي ، واطللت من النافذة وناديت صديق أبي الكبير :

ـ ادخل يا أبا طالب . أنا هنا .

ـ بسم الله الرحمن الرحيم . أمن الممكن أن يختبيء ولد حمزة تساداسا عن عيون أصحاب الديون ؟

والقى ابو طالب بقلبقه ونظر شزرا الى فروسيا ثم تابع :

ـ الى لهذه المرأة يا رسول إن الابواب تفتح تلقائيا حين يزور ابو طالب هذا البيت ، وإنك تكون دائمة هنا حين أجيء . وحتى حين لا تكون موجودا ففي البيت ما يشربه أبو طالب وما يأكله ، بل إن فيه سريرا ينام عليه أبو طالب حين يريد .

ـ ليس الخطأ خطأ فروسيا . عندما ذهبت فاطمة الى العمل اوصت فروسيا أن تعلن لمن يزورني اني لست في البيت . إنها تعنى بصحتي .

ـ ما احسن أن يكون لك امرأة تلقي اوزارنا على أكتافها . ولكن هل نسيت فاطمة أن يومنا هذا هو يوم الخميس . دمدم ذلك أبو طالب وهو يعبث بقلبقه ذي الريش المبلول .

ـ وبم يتميز يوم الخميس عن سواه من الايام .

ـ إنه اليوم الذي اذهب فيه الى الحمامات . الم تلاحظ انني اذهب اليها كل خميس ، ولما كانت حمامات البخار قريبة من بيتك فعليك دائمـا أن تتوقع زيارتي لك وجلوسي عندك لحظة تتحدث وندخن .

ـ وما حاجتك الى الحمامات يا أبا طالب . عندك حمام في بيتك وماء ساخن .

ـ المغطس او (الدوش) قطعة خبز اسود . اما حمامات البخار فوليمة . عندي بستان وجدول يجري من الجبل منذ الوف السنين . جملته يحيـط بكل شجراتي ويسقيها . أيمكن ان أسقي كل اشجاري بسطل ماء ، او برشاش . اقول لك إن الحمامات هي الجدول الغزير الجبلي وان مغطسك هو الرشاش . لا يارسول ، دع هذه الدمى دمى الاطفال لشاعر الاطفال نور الدين يوسف . يبدو انه يضع حوارا للدمى . وذلك حقا مايصلح له وللدمى التي يصنعها .

ومضينا الى غرفة الجلوس وعرضت على أبي طالب :

ـ افضل أن نشرب كاس شاي بعد الحمام .

ـ والله اني أريد الشاي ولم لا ؟ وبالله إن الحساء ليس اقل جودة ، وثقة إن كاس خمر ليست كثيرة . ولكن خير ما يشرب بعد الحمام كاس من الفودكا الخالصة .

ـ أما الحساء فمتلنا منه ماشئت ولكنه صنع امس ، نحن الآن في وقت مبكر ، ولم يحن صنع حساء جديد .

ـ نبتديء بحساء امس ، وخلال ذلك يجد الحساء الجديد وقتا لطبخه . وبينما كانت فروسيا منهمكة حول المائدة كنت ابتهج بالوان المشروبات الغريبة المختلفة .

كنت في أسفاري الكثيرة حريصا على جلب زجاجات جميلة من مختلف الالوان من الروم والكونياك والجن والويسكي والكلفادوس ، والابسنت والفيرموس والسليفوفيتسا ، ونبيذ هنغاريا• وكان الكونياك نفسه من اجناس مختلفة من المارتان والكامو •••

وقلت : اختر ما تشاء منها يا أبا طالب •

ـ خذ كنوزك هذه كلها يا رسول واعطني فودكا عادية ، الفودكا ذات الراس الابيض(٢٢) للراس الابيض مزاياه : ذلك اننا لسنا نعرفه فحسب ، بل انه هو أيضا يعرفنا • كل ما أريتنيه قد يكون طيبا ولكن كل هذه القناني جاءت من بعيد ، إنها تتكلم بلغة انا لا اعرفها ، وانا اتكلم بلغة هي لا تفهمها • والعادات والصفات • كلا نحن لا نتآلف ولا نتعارف • إنهـا تشبه ضيوفا لا تعرفهم وانت مضطر الى الحديث معهم بادىء بدء ، الى معرفتهم ، الى مصالحتهم•أخشى الا نتفاهم مع زجاجاتك • دعها لاصدقائك ، كتاب موسكو • دعها لاولئك الذين نسوا طعم الطعام الذي تعده امك على الموقد في بيت أسرتك •

لم يكن لي في مجموعتي زجاجـة واحدة من الفودكا ذات الراس الابيض • وجعلت أصطنع حركات الرجل الذي يستعد للخروج من بيته ليشتري شيئا من المخزن في السوق ، آملا ان يستبقيني أبو طالب في البيت ويقنعني بعدم الخروج : كان المطر يهطل ، وكانت الريح باردة ، وعندي في البيت كل هذه الانواع من المشروبات • ثم ان يطلب الفودكا وعلى المائدة أطيب انواع الكونياك الفرنسي ؟ حقا إن ذلك دلال •

والواقع ان أبا طالب حاول ان يثنيني عن عزمي :

ـ كلا يا رسول • لا شك انك شاب رغم شعرك الابيض • ولكن لماذا تخرج لتشتري فودكا ؟ أليس عندك من هو أصغر منك سنا ؟ إذهب الى الباحة واطلب من أحد اولاد الجيران ان يذهب ليشتري لك هذه الزجاجة • اما انا فلست مستعجلا ، وسأنتظر عودته في سرور •

وفعلت ما قاله ابو طالب • أعطيت ابن الجيران دراهم ومضى يقفز الى المخزن • وكان أبو طالب ينقب عما حوله بعينيه •

ـ الظاهر ان ليس عندك ضيوف من الجبل • أمن الممكن الا يكون لديك واحد على اقل تقدير ؟

ـ ما عندي اليوم منهم أحد •

ـ عندما كان حمزة صديقي وابوك حيـا كان الضيوف يملؤون البيت كل يـوم • ما أحسن الضيوف • إنهم دائما يحملون علب دخان في عبهم •

(٢٢) زجاجة فودكا « ستولتشنايا » مختومة بشمع أبيض •

ـ وانا عندي دخان ٠ واخرجت من الجرار انواعا من التبغ ٠

ـ هذه العصي الملس البيض ليست لي ٠ دع هذا التبغ لاهل موسكو ٠ اما التبغ الوحيد الذي يدخل على قلبي السرور فهو تبغ جبالنا ٠ انا مضطر الى ان اخرج علبتي ٠

وسحب أبو طالب من عبه علبة تبغ ضخمة ، وفتحها وبحث في أعماقها عما يمكنه من صنع لفافة ، ثم لفها بيد معلم صناع ، والصقها بضربة من لسانه ٠

ـ أيمكن ان تقارن هذه السيجارة بعصيك البيض الملس ؟ إن سيجارتي لها وجهها الخاص وهي لا تشبه الا نفسها ، اما سكايرك فيشبه بعضها بعضا ٠ والآن قل لي : أيهما أدعى الى السرور : ان تسحب من علبة السجاير سيجارة جاهزة او أن تلف بيديك سيجارة مثل هذه التي بين يدي ؟ أتعلم أني أحس وأنها ألفها بسرور بالغ ٠ إذن فلم تريد أن تحرمني هذا السرور ؟

واشعلت عود ثقاب من سويسرا أو بلجيكا ، ولكن أبا طالب أزاح يدي التي تمسك بالنار ، وأخرج من جيبه قطعة من الفولاذ وحجرا من الصوان وفتيلا ٠ ووضع نهاية الفتيل على الحجر وبضربة واحدة تطاير الشرر من الفولاذ ، وحرك الفتيل ليشتعل ويشعل منه سيجارته ٠ وقرب من فمي الفتيل المشتعل :

ـ شم هذه الرائحة الطيبة ٠ أليس كذلك ؟ وثقابك ماهي رائحته ؟

وغاب أبو طالب لحظة في غيمة من الدخان ، ثم انقشع الدخان قليلا وسألني أبو طالب :

ـ قل لي يارسول ٠ لماذا ابيض شعرك منذ اليوم ؟

ـ لا أعرف يا أبا طالب ٠

ـ اما أنا فاعرف لماذا شاب شعري ٠

ـ احك لي حكايته ٠

ـ لقد ابيض شعر راسي لأن علي أن انتظر دائما هؤلاء الاولاد الملاعين الذين يذهبون الى الحانوت ليأتوا بالفودكا ثم يتأخرون ٠ نعم يارسول ٠ الاولاد لا يفهمون عذاب الآباء ما داموا هم أنفسهم لم يأتوا باولاد ٠

وينطبق هذا نفسه على من لا يشربون ٠ إنهم لايستطيعون فهما لنا ٠ يجب ان ترسل للبحث عن الفودكا من يحب هو نفسه ان يشرب منها قدحا ، وعندئذ لن يتأخر ٠

وهيأت (فروسيا) المائدة ، وجاءت الفودكا أخيرا واتخذت مكانها وسط المنضدة ٠

وقال أبو طالب ٠ اف ، إنها مثل رئيس (سوورخين) عندما يظهر بين فلاحين بسطاء ٠ وامسك بزجاجة الفودكا وجعل يرجحها بين يديه ٠ كأنها طفل صغير ٠

ـ يالها من زجاجة رائعة ٠ هذا الصبي الذي جاء بها سيصبح حتما رجلا عظيما عما قريب ٠

ولاحظ ابو طالب ، خلال ذلك ، الاقداح الصغيرة التي وضعت على المائدة • وتقبضت جبهته كانه اصيب بالم في اسنانه ، وتشنج فمه كانما يبلع لقمة شديدة المرارة ، وقلب القدح الصغير ثم قلبه والقى نظرة الى قعره ، واظن انه كان يرغب في ان يطفيء فيها عقب سيجارته لكي يعبر عن احتقاره الكامل لشيء لا يستحق غير الاحتقار •

واخذت قرنا كبيرا اهداه لي بعض اهالي جورجيا وقدمته الى ابي طالب •

وفحصه العجوز زمنا طويلا من جميع وجوهه ثم القى حكمه :

ـ انه جيد ، ولكنه يمكن ان يكون اكثر روعة لو لم يزين بالفضة • انها مثل حزام على عروس هذه الفضة المزركشة فوق القرن • ولم هذه الفضة ؟ هل تجعل الفضة الفودكا خيرا مما هي او اسد قوة ؟ لا يارسول اعطني قدح ماء عاديا ، تعودت يدي ان تمسك به • انا اعرف عدد الجرعات في الكاس الكبيرة واعرف متى اتوقف عن الشراب ، ومتى استمر فيه ؟

ولبيت طلب ابي طالب • وسكب الفودكا في الكاس والقى فيها قطعة صغيرة من الخبز وقال بلغته الدرجنية (٢٣) :

ـ درخاب(٢٤) :

وافرغ كاسه دفعة واحدة ، واضاف وهو يسترد انفاسه :

ـ كلمة « درخاب » يجب ان تقال دوما قبل الشراب •

من الصعب ان اشرح معناها ، ولعلها ان لا يكون لها معنى ، ولكن الا تفهم هكذا : درخاب! وشرب ابو طالب ثم جر نحوه صحن الحساء ، واصطاد مافيه من اللحم وضعه في صحن آخر ، وجعل يفت الخبز في الحساء • اكل دون استعجال ، في سرور ، وهو يتمطق بكل ملعقة من الصحن الطيب الساخن •

وكان يقطع حينا بعد حين ، ودون استعجال قطعة من اللحم في الصحن الآخر ويبتلعها • وخيل الي ان اللحم لا يمكن ان يكون في مثل هذه اللذة لو انه اكله في شكل آخر او انه قطعه بسكين اخرى لا بموساه •

وبعد ان انتهى من الحساء واللحم جمع ابو طالب كل ما سقط على المائدة من فتات الخبز ووضعها في فمه • ثم شرب قليلا وجعل يداعب شاربيه :

ـ اتريد الآن الشاي •

ـ الشاي عندي الآن دخاني • قل لي يارسول • ما الفرق بين السيجارة واي شيء آخر ؟

ـ لا ادري •

(٢٣) احدى لغات داغستان (م.ف) •
(٢٤) بمعنى • في صحتك أو كاسك (م•ع)•

ـ كل شيء يمتد إذا سحبته الا السيجارة فتتضاءل اذا سحبتها • وجعل يضحك من احجيته الساذجة ؟

ـ انت تدخن كثيرا يا ابا طالب • اليس في ذلك ما يضر بصحتك ؟
ـ ومن لا يدخن بعد مثل هذا الغداء الدسم ؟
وبعد أن دخن حتى اكتفى سألني فجأة :
ـ متى يعقد اجتماع ادارة الكتاب ؟
ـ غـداً •

ـ لا ادري ان كانوا سيناقشون غدا الطلب الذي قدمه زين الدين الى ليفوند(٢٥) ؟
ـ لا أعلم • ولكن ما يهمك من الموضوع ؟
ـ اريـد ان احكي لك حكاية : عندما كنت يافعا كنت ارعى الاغنام • وكانت اغنامي هادئة لذلك كنت استطيع ان اتمدد على العشب الاخضر ، وتحت الشمس ، وهي ترعى حولي • وكنا جميعا مسرورين : انا والاغنام وصاحب الاغنام • ولكن مالبثت ان حلت بنا كارثة • خروف أكثر خبثا من اصحابه وجد الطريق الى حقل من الشوفان • وتبعه الاخرون • وكان هذا اليوم نهاية حياتي الهادئة • لم استطع ان انسي خرافي طعم الشوفان ، فاضطررت الى ألا اترك مراقبتها لحظة واحدة • وذلك ما يحدث للتيفوند ولشعرائنا • إنهم يعيشون في سلام كامل ، ويكتبون مؤلفاتهم ، حتى الساعة التي يشمّون فيها رائحة التيفوند • انا لا اعلم من كان اول من قبلها منهم ، ولكنهم الآن يقبلون عليها جميعا كما تقبل خرافي على الشوفان •

إنهم يفكرون في قصائدهم ، اقل مما يفكرون في التيفوند • فلا يكادون يستيقظون عند الصباح حتى تراهم يشرعون لا في كتابة القصائد بل في كتابة كل لون من الوان الطلبات • وانا ايضا اريد ان اكتب طلبا وانت تتولى مناقشته في اجتماع اللجنة الادارية •

ـ ولكن يا ابا طالب ، اي طلب تريد ••• ما الذي ينقصك ؟
ـ انت تعلم انني لم اعرض جسمي على طبيب حتى الآن • ومع ذلك فقد قررت رغم ذلك ان اقيم اقامة طويلة في احد المصحات •
ـ يمكنك أن تعد طلبك هذا مقبولا كانه في جيبك • ولكن الا ترى من الاوفق لك ان تتقدم بطلبك هذا الى مجلس السوفيات الاعلى في داغستان بدلا من تقديمه الى اتحاد الكتاب ؟ انت عضو في مجلس الرئاسة للسوفيات الاعلى • ان بيوت الاستجمام التابعة للدولة خير من بيوت استجمام الكتاب•

(٢٥) مبالغ من المال تقدمها اتحادات الكتاب وتخصص لمساعدة رجال الادب ماديا لتسهل عليهم الخلق الأدبي (حاشية المترجم الى الفرنسية) •

هز أبو طالب رأسه وقرع لسانه • قرقعة اللسان هذه يمكن أن تعبر عن عواطف كثيرة مختلفة : الحماسة الاشمئزاز ، الدهشة أو النفي كما عبرت عنه الآن •

ـ كلا يارسول • أنا أولا عضو في السوفيات الاعلى لفترة أربع سنوات فقط ، ولكني كاتب مدى حياتي • وهناك ثانيا نواقص في كل بيت من بيوت الاستجمام ، مهما كان نوعه • ثم قل لي : أليس يناسبني أن أقرعك أنت وخاباليبف اكثر من تقريعي للسوفيات الاعلى •

ـ حسنا • اكتب طلبك ، وستجري مناقشته غدا •

ـ سيكتب الطلب ميرزا ، فأنا لم أكتب طلبا قط ، وعلى كل حال ، هيء لي بطاقة الاقامة • ونهض أبو طالب ، وهو يقول هذه الكلمات ويهم بالذهاب •

ـ أين تذهب الآن • يا أبا طالب •

ـ سأذهب الى المطبعة • يظهر أن كتابا من كتبي قد نشر • وأريد أن أعرف هل هو ذكر أو انثى ؟

ـ تعال الليلة الى معهد التربية • الطلاب يستقبلون الكتاب •

ـ موافق • سآتي هل آخذ معي المزمار؟(٣٦) •

ـ ولماذا ؟ لست عازف قيثارة ••• أنت شاعر • خير أن تأتي بمجموعة شعرية •

ـ الى اللقاء ، قال أبو طالب •

الامسية الادبية المقرر عقدها في معهد التربية كان موعدها في الساعة السابعة مساء • جاء بعض الشعراء • وفي الساعة السابعة تماما بحثت بعيني ذات اليمين وذات الشمال ، فلم أجد أبا طالب • وكان علي أن أبدأ الامسية دون حضوره • وتتابع الشعراء على المنبر • كل واحد منهم قرأ قصائده في لغته الاصلية : اللاك ، وكوميك ، وليزجين ، وآفار • وبينما كان أحد الشعراء الشباب يلقي قصيدته قاطعه الجمهور بتصفيق حاد : انـه أبو طالب يبدو في القاعة ، والشباب يصفقون لـه •

وبعد أن استمعنا الى شاعرين آخرين أشرت الى أبي طالب ليستعد ، وفجأة بدا عليه الجد ، وجلس على كرسيه كأنه يستعد للتصوير وجعل يفرك شاربيه : وكان جلسته تقـول لي : انظر « ها أنذا استعد »

وصعد أبو طالب على المنبر ، وتحدث الى الطلاب الشباب بالروسية ثم بلغة آفار ولاك ، لأنه يكاد يعرف شيئا من كل لغات داغستان ثم قرأ قصيدتين بلغة لاك •

(٣٦) في الاصل : الزرنا ، آلة موسيقيةهوائية•

ولكن هذ الجزء الادبي ـ اذا صح التعبير ـ من مشاركته في الامسية قاده في سرعة الى ما هو عنده اساسي ، وكأن ذلك النصيب الادبي لم يكن الا مقدمة له • لقد اوقف أبو طالب بحركة من يديه التصفيق ثم سأل المستمعين :

ـ اتريدون ان أعزف على المزمار ؟

وصرخت الصبايا :

ـ نعم • اعزف • هذا ما نريد •

ومضى أبو طالب يبحث في ثنايا المسرح عن مزمار ثم عن شبابة • وبدأ يعزف في نعومة على احدهما ثم على الأخر ، وعرف كل الحاضرين ان ذلك اعداد للعزف وأنه يصلح أنغام الآلتين ، وبعد ان اطمأن الى سلامة الآلتين امسك بكأس من الماء فوق المنضدة وسكبه في جوف المزمار ، وهو يقول :

ـ اسق حصانك قبل أن تشرب انت • هكذا يقول اهل الجبل ، وقبل ان تشرب انت اسق مزمارك •• هكذا يقول العازفون في الجبل •

وعزف أبو طالب على المزمار ، وهو يتمايل الى هذا الجانب أو ذاك • وأحس ابو طالب بحميا النشوة في هذه القاعة التي تغص بالصبايا • ولعل انغام المزمار في هذه الليلة سمعتها كل ارجاء (ماخاتشكالا) •

وسألني ابو طالب في بساطة وهو يعود الى مكانه في منصة الرئاسة :

ـ أعزفت جيداً ؟

ـ نعم •

ـ اذن فلماذا صفقت تصفيقا قليلا ؟• اتريد ان تصمق ايضا ؟

واستقبلت كلمات ابي طالب بضحكات جماعية •

لقد ساءني ، كمسئول عن اثارة الحماسة في الامسية ، أن ينتقل الشاعر المرموق أبـو طالب الى دور عازف على المزمار • ولقد حدث مثـلا أن الشاعر الروسي (ايسينين) انخـرط الى اداء رقصات روسية بدلا من القاء قصائده • ان (يسينين) قد يعرف الرقص • ولكن لكل شيء زمانه• ومن الممكن انني قطبت حجبي وصفقت تصفيقا قليلا وذلك ما دعـا الى سـؤال أبي طالب المرح والى نشوة عارمة في القاعة •

ونزلنا الدرج العريض الذي يؤدي الى الرواق يصحبنا سرب من الصبايا • ولبست معطفي ونظرت الى المرآة • في ذلك العهد كان يسود طراز المعاطف ذات الاكتاف العريضة المربعة المحشوة ، وكنت البس هذا المعطف ، ورمقني أبو طالب وهز رأسه :

ـ كان (الكورليك) في الماضي ، يعني التغذية الفنية والصحية هي التي تصنع الاكتاف

المريضة ، اما الآن فالذي يصنعها هو القطن • وكانوا في الماضي يغنون الاغاني ترافقها (الكوموز) اما الآن فانتم تقرؤونها في قصاصة من الورق • لقد تغير العالم كثيرا • ذلك مالا يرضيني •

ـ ولم تأخرت يا إبا طالب ؟

ـ كنت على اهبة السير في الطريق عندما هرع الي أحد الممثلين في المسرح وهو يركض !

ـ وماذا يريد الممثل الافاري ؟

ـ أفهم ما اقول • في المسرحية مشهد للزواج ، لا يمكن الا ان يقدموا مسرحية دون حفلة زفاف • وكان عازف المزمار مريضا • ما قيمة حفلة زفاف اذا لم يكن فيها مزمار ؟ وعندئذ دعوني الى ان اعزف • عشر دقائق فقط • ولكن الوصول الى المسرح والوقت الذي استغرقته المسرحية حتى تبدا حفلة الزفاف كانا طويلين • وقد اخترت أغنيتين جيدتين حتى نسي المشاهدون المسرحية ، ولم يصفقوا الا إلى عزفي • وكان من الممكن ان يبقوا وهم يصفقون الي طول السهرة •

وقلت لـه :

ـ اما انا فلو كنت مكان أبي طالب جعفر ، الشاعر الشهير وعضو رئاسة السوفييت الأعلى في الجمهورية ، لما رضيت ان اكون عازف مزمار •

ـ أبو طالب يعرف خيرا منك ما يجب أن يفعله وما يجب الا يفعله •

ـ اذهبت الى دار النشر ؟ كيف حال كتابك ؟

ـ الحمد لله : لقد ظهر الكتاب • والحمد لله : لقد قبضت بعض المال • والحمد لله : لقد وفيت ديوني ، والحمد لله : لقد اشتريت إوزة •

ـ اتريد أن تقيم مادبة ؟

ـ لمن ؟

ـ للمحرر والمصور والمحاسب لكل أولئك الذين أسهموا في طبع الكتاب

ـ مادبة للمحرر ؟ ـ وكاد ابـو طالب يفقد الكلام من غضبه ـ ايستحق مادبة ••• انـه يستحق الضرب •

وضحك أبو طالب ضحكا طويلا ثم استانف :

ـ اسمع يارسول • سمعت أن الداغستان الذين يختنون أولادهم يهددون بالتسريح ، بل بالطرد من الحزب • ولماذا اذن لا يسرحون المحررين الذين يزيدون في قصائدي ويقطعونها تقطيعا ؟ من مجرد النظر الى الترجمة الاخيرة أستطيع ان اقول لك من أية قرية جاء المحرر • عندنا ، في شعب اللاك ، كل قرية لها لهجتها الخاصـة • والمحرر يحاول كل مرة أن يترجم قصائدي الى لهجـة قريتـه •

وصمت أبو طالب فجأة وابتسم :

ـ اما المرأة التي وقفت العقود هناك فهي امرأة باسلة ! لقد شكرتها شكرا عميقا ٠

ـ وماذا قلت لها أيضا ؟ لعلك قدمت اليها هدية ٠

ـ عرضت عليها ان تعطيني ماالديها من اوان مطبخية مهترئـة ، او منقوبة ، او مكسورة وساصلحها لها حتى تعود كأنها اوان جديدة ٠

هذه الاضافة الجديدة لأبي طالب كانت اقل اثارة لسروري من اضافته الى عزفي المزمار في المسرح ٠ ورأيت امام احد الجدران كومة من الاواني النحاسية القديمة ، فقلت لأزعج العجوز :

ـ مادمت تصلح الاواني فلماذا تركتها هذه الكومة هنا؟كان عليك أن تجمعها وتمضي بها البيت٠

ـ قال ابو طالب في سذاجة :

ـ لا لا يمكن ان آخذها يا رسول ٠ لعل هناك من يلتقطها قبلي ٠

ومر بنا عابر متأخر ٠ فاوقفه ابو طالب في بساطة وطلب منـه بعض التبغ وعـود ثقاب ، وجعـل يدخن ٠

الحق أن سلوك أبي طالب لم يرق لي ٠

شاعر داغستان الشعبي الكبير ، الشهير في كل البلد ، عضو الحكومة يوافق على ان يقوم بدور عازف مزمار ، في مسرح ويعرض اصلاح الاواني على امينة سر دار النشر ، ويطلب قليلا من التبغ من عابر سبيل ٠ ومع ذلك فقد أحجمت عن اثارة العجوز ، وخفت أن يتضايق ٠

وقلت لـه :

ـ إنك شيخ عجوز يا أبا طالب ٠ أليس من الخير لصحتك أن تكف عن التدخين ٠

ـ ما هذا ؟ اليوم يجب أن أكف عن التدخين ، وغداً يجب الا أصلح الاواني ، وبعد غد يجب الا أعزف على المزمار ٠ اما القصائد فسأكون مضطراً الى ترك نظمها ، انها ستفر مني فراراً ٠ إنها تعرف أبا طالب ، أبا طالب النحاس ، المدخن ، عازف المزمار ، فاذا لم أكن أبا طالب فهل تحتاج إليّ قصائدي ٠ أنا أبو طالب جعفر ، ولست رسول حمزة الذي لا يحب التدخين ولا يعرف إصلاح الاواني ، ولكنه يعرف ادارة اتحاد الكتاب ٠ ولست أيضا يوسف خاباللي ولا نور الدين يوسف ، ولا مكسيم غوركي ، ولا زوستشنكو (كان زوستشنكو معرضا للنقد في ذلك العهد فتذكر أبو طالب اسمه) ٠

ـ اين تستطيع المهاة الاختفاء إن لم تختف في الجبال ؟ اين يستطيع الغدير الجريان ان لـم يجر نحو الوادي ٠ لا تحاول أن تلبسني قلبق(٢٧) غيري ٠

علام تساومني في موضوع ما مضى من حياتي ؟ نعم لقد كنت عازف مزمار وراعيا ونحاسا ٠

(٢٧) القلبق لباس الرأس ٠

ولكن هل أخجل من سنواتي الماضية ؟ أما دائماً أبو طالب • تذكر يارسول ما أقوله لك : اذا اطلقت رصاصة من مسدسك على الماضي اطلق عليك المستقبل قنابل مدافعه • لقد هجرت نساء ، وهجرتني نساء • ولكن العمل الذي أجيد صناعته لا يمكن أن يتركني ، وليس في مقدوري ان اتركه•

نعم ، إنه هو حقاً الشيخ الشاعر أبو طالب ، صديق والدي • كان دائماً على هذا الشكل ويجب أن انبّه على علاته • لو تغير لكف في الوقت نفسه عن أن يكون الشاعر أبا طالب • سأقص عليكم أيضاً حكاية يمكن ان نسميها :

بيت أبي طالب الجديد :

كان ذلك في العهد الذي انتخبت فيه رئيساً لادارة اتحاد الكتاب في داغستان • وهذا المنصب يعطي من الحقوق اكثر مما يطلب من الواجبات ، ولو شاء الانسان الراحة لانصرف هادئاً الى عمله الاساسي ، الا وهو نظم الشعر • ولكنني كنت في ذلك العهد لا ازال شاباً كثير الحماسة • وجعلت أمارس الواناً من النشاط ، وابحث عن كل نوع يناسب مهمتي الجديدة •

كنت اتصور أننا عندما نريد ان نتحقق من صلابة بيت ورسوخ قواعده ، فيجب أن نفتش بادىء بدء عن عوارض سقفه واعمدة زواياه وكل نقاط ارتكازه • وبعد ان انصرفت الى تامل طويل ، تحققت ان هناك اربعة شعراء من قوميات مختلفة يمكن لهم أن يضمنوا دعم اتحاد الكتاب :

تاجر خريوجسكي من ليزجيان ، وعلي كزياق من اليوميك ، وساجد جاجيقه من الأفار وابو طالب جمفروف من اللاك •

وبعد ان أدركت هذا وضعت مشروعاً • قررت ان يلتقي هؤلاء الشيوخ المحترمون باعضاء حكومة داغستان • الشعراء يعبرون عن حاجاتهم للحكومة ، والحكومة تلبي مطالبهم •

وها نحن هؤلاء نتناقش مع عبد الرحمن دانيالوف أمين سر اللجنة المحلية للحزب • كانت المناقشة تجري في جو طليق وبقلوب مفتوحة ، وشربنا الشاي • وشعر شعرائي انهـم يعيشون في السماء السابعة ورددوا باصواتهم الاربعة : ما احسن هذا الرجل ، هـذا الرئيس الجديد لاتحاد الكتاب رسول حمزة • وشعر الرفيق دانيالوف بالمتعة مع الشعراء الشعبيين وكرر هو أيضاً في نفسه الثناء على رسول ، وظللت جالساً كأن الأمر لا يعنيني •

تحدثوا عن داغستان ، وعن الحياة وعن الشعر • واخيرا طلب اليهم امين سر اللجنة ان يذكر كل واحد منهم مطالبه ، وبدأ الكلام تاجر خريوجسكي فقال :

ـ أنا متألم جدا يارفيق بالموضوع الآتي : في الشتاء عندما يهجم البرد تموت الاغنام في الجبال • الا يمكن أن يرسلوا الى هناك ، في الصيف ، بما يكفيها من العلف في الشتاء ؟
وسجل الرفيق دانيالوف الملاحظة ثم سأل :
ـ أليس لك طلبات أخرى •

ـ الا يمكن أن تخصص سيارة للمزرعة الجماعية في خريوج ؟
وانتقل الحديث لعلي كازيف • وفتح علي فمه وعرض علينا جميعا وعلى أمين السر في هذه المناسبة أسنانه العتيقة المريضة :
ـ انظر الا يمكن أن تصنعوا لي اسنانا جديدة ، اسنانا جيدة • فمن الصعب أن أمضغ طعامي بهذه الاسنان • ثم إني الآن لا أستطيع الغناء • وعندما ألقي قصائدي أجدني ألثغ

واوضح لنا كازياف أيضا مدى صعوبة القاء القصائد عندما تذهب الاسنان • وقرأ لنا رسالة ارسلها الى رئيس اللجنة التنفيذية لـ (خسافيوزت) وفيها طلب مؤثر للشاعر العجوز بارسال فحم يدفىء به بيته •

وسأل دانيالوف :
ـ وهل ارسلوا الفحم اليك ؟
ـ المسألة ما تزال موضوع بحث منـذ العام الماضي • وسجل أمين السر الملاحظة ، وتهيأنا لنسمع جادجييف •

ـ في مشاهد المنوعات ، الشباب يصرخون ولا يغنون • وهم بصراخهم هذا يشوهون الاغاني الشعبية الرائعة • أما الاغاني الجديدة فهي التي تدعو المغنين الى الصراخ رغم انوفهم • يجب أن نضع حدا لذلك • ثم انهـم يذيعون في الاذاعات كثيرا من اغاني الحب • بل ان بعضها يشيد بحوريات الاساطير القديمة • قل لهم يارفيق دانيالوف الا يشيدوا بتلك الحوريات ، وأن يمجدوا العمال وهم طلائع زراعتنا •

وبعد أن انهى جاديف خطابه التفت إلي ووشوش في أذني :
ـ وليس هذا كل شيء لقد علمت أن شغتامانوف وسليمانوف شربا الخمر أمس في المطعم • يجب أن نمنع الكتاب من الشراب • ولكني سوف ألقاك خصوصا من أجل هذا الموضوع •
وجاء دور أبي طالب فقال مخاطبة أمين السر •
ـ ياعزيزي عبد الرحمن • زوجتي الاخيرة جاءتني بطفل •
ـ كيف : زوجتك الاخيرة ؟

ـ كان لي نساء كثيرات • وماذا تريد مني أن أصنع ؟ ينشرون صوري في الجرائد ، يتحدثون

عني في الاذاعة ، يعلنون على الملا انني شاعر داغستان الشعبي ، وانني نائب ، وانني احمل هذا الوسام وذاك ، والنساء سريعات التصديق يهرعن الى محل الطعم ، ويتباهين ، ويعتقدن انني مادمت شهيرا الى هذا الحد فلا بد ان يكون لي قصر ، وان تكون صناديقي ملأى باكياس الفضة • ويتزوجن بي ، ولكنهن لا يكدن يعملن ذلك حتى يرين ابا طالب يسكن قبوا من الاقبية • ولايرضيهن ذلك فيهجرنني • هذا ما جعلني اتزوج عددا من الزوجات •

نعم يا عزيزي عبد الرحمن ، ان اغاني تحلق في السماوات كالقبرات ، اما انا فاعيش دائما في قبو • من هذا الكهف البائس اطلق نحو السماء اغاني من ذهب • وهاهي الآن زوجتي الجديدة التي اعطتني ولدا صغيرا تهددني بتركي اذا لم يكن لي بيت ترتاح فيه • ستذهب وهي تضم ولدها الى صدرها ••• اسمع ياعبد الرحمن ، انها لم تتركني حتى الآن وقلبي يتقبض حزنا ، لا تدمر أسرتنا ، اعطني منزلا احمل فيه طناجري على السدج(٢٨) • عمري اكثر من سبعين سنة ، وعربتي لا تصعد الشاطىء بل تهبط الى السفح • ولك علي اذا اعطيتني منزلا ان أدعوك اليه •

ولم يمض اسبوع حتى اصبح لأبي طالب منزل جديد • الى اللقاء أيها القبو المرح • هذا ابو طالب ينتقل الى منزل يتالف من ثلاث غرف في الطابق الثالث في بناية جديدة في شارع بوشكين•

والتقيت بابي طالب ذات يوم في الشارع ، ولم يكد يراني حتى تظاهر انه مشغول بالبحث عن شيء ما في كومة من الحديد العتيق ودنوت منه وقلت له :

ـ مرحبا يا أبا طالب • كيف الحال في منزلك الجديد ؟ هل يرضيك ؟

ـ لقد قضيت زمنا طويلا في البحث عن جرس كبير اعلقه على باب البيت لادعوك الى زيارتي • يابن حمزة من قرية تسادا • فتحت نافذتي المطلة على البحر ثلاث مرات وعزفت على مزماري وانا امل أن تسمعه وتاتي مديا ندائي • ولكني عرفت اني لا اصل الى طلبي ان لم احصل على جرس كبير، وهاأنذا ابحث عنه في هذه الكومة من الحديد •

وذهبنا رأسا لنزور بيت ابي طالب الجديد • لم تكن فيه الا الجدران العارية • على الارض تتمدد اشياء من سقط المتاع جاء بها ابو طالب من قبوه • قيثارة قديمة ، ومزمار ، ومنفاخ حداد عتيق (والله أعلم بما يمكن ان يقدم له من نفع في المنزل الجديد) وكانون عتيق ، وطسوتوسطول وجرادل ، واحذية وفروة •

كثير من الشيوخ ياتون من الجبال ويمرون بابي طالب • يلبسون الفروات ، ويقدمون المدينة لبعض اعمالهم • وقال ابو طالب لاحدهم وهو يخلع عنه فروته ويتعجب :

---

(٢٨) تعبير محلي عن امكان الطبخ في المنزل •

ــ أيتها الفروة اللعينة لماذا أنت فارغة ؟ آه لو أنك حملت لنا خروفا على سبيل المثال • لاسهي عمن ضيمي في سرعة • هؤلاء الناس يقطعون جبل شتاتخ عبثا لمجرد أنك فارغة •

وهكذا حمل أبو طالب على الفروة الفارغة وهو يبحث بعينيه عن مكان أستطيع أن أجلس فيه • ولما لم يجد شيئا مناسبا أعطاني سكينا كبيرة وأشار من النافذة الى قن في ساحة البيت :

ــ هنالك إوزة • اذهب واذبحها • ستكون غداءنا • وفتحت باب القن وامسكت بالاوزة بعد طول عناء ، كانت تتخبط يائسة بين يدي • وبدأت عملي ، وصوت أبي طالب يأتينا من فوق :

ــ أرأيت إوزة تذبح على هذا الشكل ؟ أدر لها رأسها الى الجهة المقابلة • ألا تعرف جهة القبلة في مكة ، أم ما خيرك ؟

وأتممت عملي في شكل ما ولكني حظيت أخيرا برضا أبي طالب •

ووضع أبو طالب القدر على السرج ــ كما يقولون عندنا ــ واشتغل باعداد المائدة • واغتنمت الفرصة لفحص منزله • لقد ترك الشاعر العجوز قبوه ولكنه حمل الى البيت الجديد كل ما كان في حياة القبو القديم ، بـدءا من القدر العتيقة حتى اقل عاداتـه • ليس في البيت كرسي ، ولا منضدة ولا مرآة ولا سرير ولا شيء من الاثاث •

وسألته :

ــ أين تكتب أشعارك يا أبا طالب ؟

ــ لم أكتب حتى الآن شيئا في هذا البيت • في البدء كنت اذهب الى قبوي القديم واكتب فيه• ولكنهم أعطوا القبو لرسام ليكون مرسما له • الله يعلم أني أنام وأنا أقل راحة في هذا البيت مني في ذلك الكهف • هنالك كان مصروفي أقل ، وكان وقتي أكثر • ولم يكن الناس يشغلونني ويهبطون علي دون استئذان • كان الزائرون لي في قبوي نادرين • هنالك كنا لا نرى البحر • هذا صحيح، ولكن هاهو ذا البحر الآن تحت نظر العجوز أبي طالب •

وتأمل أبو طالب طويلا بحر الخزر ، وكانت تصطخب فيه الآن عاصفة زرقاء بيضاء • ولم أرغب في احراجه فسكتنا • ثم استأنف أبو طالب حديثه :

ــ ساحدثك يارسول عن يومين في حياتي : أسعد يوم وأشقى يوم •

ــ حدثني •

ــ أنت ترى يارسول انني قضيت في حياتي عددا غير قليل من أيام السعادة • لقد وهبوا لي أوسمة ، وكنت مسرورا وهبوا لي بيتا ، وكنت مسرورا ، وكنت مسرورا كذلك يوم أعطاني الحمر في عام ١٩٢٠ فرسا أصيلا • نعم لقد سرت مع الحمر ، وكنت عازف القيثارة في الكتيبة • وكان حصاني في دروب الحرب يمس بمنخره كفل حصان القائد • وكان ذلك أيضا مدعاة لسروري•

ومع ذلك فان سعادتي الكبرى والاولى لم تكن كل هذه • عندما كنت في الحادية عشرة من عمري وكنت ارعى الغنم ، قدم لي ابي اول جزمة عرفتها في حياتي • لا تستطيع الكلمات ان تعبر عن كبريائي التي شعر بها قلبي بهذا الحذاء الجديد • كنت أسير في الاودية ومجاري السيول في جرأة ، انا الذي كنت امسي فيها امس وأمزق قدمي بالحصا البارد القاطع ، اصبحت اليوم اطأ هـذا الحصا نفسه دون ان اشعر ببروده ولا الم • واستمرت سعادتي ثلاثة أيام فقط ، ثم جاءت اقسى لحظات حياتي مرارة • في اليوم الرابع قال لي ابي :

ـ اسمع يا ابا طالب • لك الآن حذاء جديد متين • ولك عصا ، ووراءك أحد عشر عاما فوق هذه الارض ، لقد حان لك ان تضرب في الارض وان تسير في دربك لكي تأكل وتلبس من عملك• وارسلني والدي لاتسول في القرى والعساكر • لقد كان عذابي الاخلاقي في هـذه اللحظة اقسى ما عانيت في حياتي • لقد سالت دموعي مرارا ولكنها لم تكن في حياتي في مثل هذه المرارة • أحد الكتاب ذكرني فقال : ـ ابو طالب اخذ بيتا جديدا ، وسنرى مانوع الشعر الذي سوف يكتبه • وكان هـذا الكاتب لا يعلم ان ابا طالب يعرف ان الشعر لا يتعلق ببيته • ان الشاعر هو نفسه بيت قصائده قلب الشاعر هو بيت شعره • في نفسي تعيش لحظات حياتي : افراحها وآلامهـا • اما المكان الذي اعيش فيه انا فليست له قيمة •

لقد اثر في نفسي بيت ابي طالب تاثيرا عميقا • وتحدثت في ذلك الى قادة جمهورية داغستان، وتقرر ان يخصص قسط من حقوق ابي طالب في كتابه (العنادل تطير نحو الجنوب) لشراء اثاث حديث جميل لمسكنه الجديد • وتالفت (لجنة عمل للاثاثية) : مدير دار النشر في داغستان ، ووزير التجارة وانا • وكان علينا ان نجد الاثاث الضروري ، وان نشتريه وان ننقله الى بيت ابي طالب• وكلفت ان اجري معه المباحثات الضرورية •

وطفنا نحن الثلاثة في مستودعات ماخشكالا ، وانتقينا غرفة النوم (فلعل شاعرنا يذوق طعم الراحة !) ومجموعة مكتب (فلعله يؤلف فيها اشعاره الرائعة !) وغرفة طعام (فلعل طعامه ان يكون أطيب مذاقا وشرابه اكثر حلاوة !)

وحسبنا ان ابا طالب سيهرع الينا وهو لا يدري كيف يعبر لنا عن شكره • والواقع اننا لم نتلق شكرا صغيرا بل نحن لم نتلق منه ما يشعر بوصول الاثاث الى بيته • وقررنا عندئذ ان نذهب لزيارته لنعرف كيف يستعمل ما اشتريناه •

ولم نحتج الى قرع الباب ، لأن الباب كان مفتوحا • ودخلنا ، فاذا أبو طالب واسرته يجلسون على الارض فوق بساط قربمنضدة غرفة الطعام•وكانوا يجلسون متحلقين على ركبهم قرب الكراسي• وطعامهم موضوع امامهم فوق جريدة ، وابو طالب يلتهم في ضوضاء صحنا من الكمير ، وهو يرمق من حين الى حين تلك المنضدة اللماعة كانها صبية تنتظر ان يضمها بين ذراعه ، بينما هـو ، أبو طالب ، لا يرغب فيها اقل رغبة •

في الغرفة الثانية وجدنا مجموعة مكتبية جميلة • فوق المنضدة ورق وقلم ومحبرة ، وكلها عذارى لم تمس • وهذه الاشياء ، حتى المكتب نفسه ، تبـدو كأنها قطع يضمها متحف لا قطع للاستعمال • وفي آخر زاوية من الغرفة كانت هنالك أوراق تغطيها احرف عربية تتناثر على الارض•

ـ ألا تعرف كتابة الابجدية الحديثة يا أبا طالب ؟

ـ أعرفها ، ولكني تعودت الكتابة القديمة • اكتب بالاحرف العربية اولا ثم انقل لمحرر دار النشر ما كتبته بالحروف الحديثة ، وكأني بذلك اترجم نفسي • واعلنت امرأته :

ـ لم ينم مرة واحدة في السرير • ما أضيع التعب في شراء مثل هذه الاشياء الغالية !

ـ وما السرير ؟ في البدء في اول سنة اقمت فيها في المدينة كانت وسادتي حجراً من أحجار الجبل ، وكنت أنام نوماً عميقاً أكثر مما انام على وسادة • لقد تعودت النوم على حجر منذ كنت راعي غنم •

ـ إذن فانت غير مسرور بالاثاث الذي اخترناه لك ؟ بهـذا المكتب ، وبهذه الكراسي وبهذه المنصدة ، وبهذه المرآة ؟

ـ الاثاث جيد جداً • ولكنه أكثر ملاءمة لجاري جد فريد غسانوف •

ـ وهل هو جار طيب ؟

ـ يمكن أن يكون انساناً جيداً ، ولكننا لا نتفاهم •

ـ ولماذا ؟

ـ إنه حقاً كثير الثقافة • انا جبلي ، أما هو فمدني • جئت من الجبال وعاش في السهول • إن غطاءي راسينا مختلفان ، بل لعل رأسينا أيضاً لا يتشابهان • انا ابن أرضي ، وهو ابن صنعته• انه لا يتحمل قيثارتي ولا اغاني ، وهو يطبع رأسه بالحائط ويصرخ : أبا طالب • انت تمنعني عملي •• واقول له • لست انا الذي اعزف • العزف في المذياع • والحق انه مع ذلك ينطح رأسه اذا سمع القيثارة في الاذاعة • ما معنى هذا ؟ انه لا يمنعني العزف على القيثارة بل انه يريد أن يمنعني الاستماع الى المذياع • وبكلمة واحدة ، نحن لا نتشابه • عندما يزورني ضيوف • فهم من الجبل جاؤوا من قراهم ، اما ضيوفه فيأتون من موسكو بمناديل من الجلد • انا اقدم الى ضيوفي البوظة (العرق) والشكليش ، وهو يقدم الى ضيوفه الكونياك والقهوة • انا اقوم بشراء حاجاتي من السوق ، وهو من المخزن • عندما انام يكتب ، وعندما ينام أكتب • وهو يحب الازهار التي تنمو في الاقبية وانا أحب الاعشاب التي تزهر في الحقول الجبلية • اسمعوا هاهـو ذا يعزف الآن احدى سمفونياته • كنا نعرف جيداً جار أبي طالب • انه جود فريد عليفتش غسانوف ، معلم خبير بفنون داغستان وهو من اتحاد فناني روسيا • كان يعمل في ذلك العهد على تأليف كونشورتو عـلى البيان • كنت أسمع في نشوة موسيقاه الناعمة الملهمة • وقلت في نفسي : آه • ليتنا نستطيع

الجمع بين هاتين العبقريتين الكبيرتين القادرتين : العبقرية البسيطة الشعبية في ابي طالب ، والعبقرية المهنية المثقفة عند فساتوف • وتصورت في نفسي ايضا أن من اكثر الامور طرافة أن اجمع في كتبي بين هذين التيارين : الطبيعة العفوية في شعبي ، روحه المبتكرة والمقدرة المهنية العليا • اردت ان يجتمع في شعري ابو طالب وجود فريد • اردت ان يكون تجاورهما في مؤلفاتي تجاورا هادئا مختلفا عن تجاورهما في البيت •

نعم امل في ان يتحقق التعاون بين هذين الينبوعين • ومع ذلك فماذا تصنع لو لم يكن ذلك ممكن التحقيق ، ولو انك مضطر الى ان تختار واحدا منهما • يمكن في النهاية ان افضل الماء المتدفق في ينبوع الجبل على اطيب انواع الشراب المتمدين • ان الثقافة والتمدن ودقائق المهنة يمكن ان تكتسب • يمكن للانسان ان يكتسبها ، وان لم تكن فيه ، اما المشاعر الوطنية ، والشعبية فانهـا فطرية في الانسان عند ولادته • ان الشاعر الوطني وعازف القيثارة أبا طالب ، في شروط أخرى، يمكن ان يصبح موسيقيا محترفا ، بل ومؤلفا ، اما المؤلف والموسيقي المحترف جود فريد فلا يمكن ابدا أن يصبح شاعرا شعبيا بسيطا •

وعندما كدنا نغادر البيت قال أبو طالب فجأة :

ـ رسول الا يمكن ان يكون لدي هاتف ؟

ـ وما تصنع بالهاتف مادمت ترفض استعمال المكتب والسرير ؟

ـ أريد ان اعزف في الهاتف مرة لنيكولاي تيخونوف في موسكو ومرة لرئيس مزرعتنا التعاونية• يجب أن يعرف رئيس المزرعة ، مهما كان الامر ، انني ما ازال على قيد الحياة ، وان قيثارتي ماتزال تعزف اغانيها الاصيلة • لو سمع الرئيس قيثارتي في الهاتف لادرك ان ما في جبالنا من عطور واصوات ما زالت تعيش في هذا المنزل المدني •

ـ يا ابا طالب ان اغانيك المضمخة بعبير الجبال تطير الى موسكو ، الى مسقط رأسك في قريتك ، الى كل قرية في داغستان الى كل زاوية في العالم دون أن تحتاج الى هاتف • اغانيك تطير فوق الجبال ، واعلى من الجبال •

والآن اريد ان اترك ابا طالب واريد أن احدثكم عن قصة لنا وانا ووالدي :

أتذكر ••• :

لا ادري لم لم يكن من المألوف لدينا ان يلقي احدنا على الآخر قصائده ، بل حتى أن يتحدث عنها • اكتشف قصائد جديدة لوالدي عندما كانت تنشر او تلقى في الاذاعة وعندما يتحدث عنها اصدقاء سمعوها • وكذلك كان والدي لا يعرف اشعاري الجديدة الا بعد نشرها •

في عام ١٩٤٩ نشرت جريدة في آفار قصيدتي (سنة ولادتي) • ووقعت الجريدة طبعا في يدي والدي ، ووجدت عند الجريدة وقد عطته ملاحظات كتبت بقلم الرصاص • لقد قرأ والـدي في انتباه شديد قصيدتي ، وعـدل كثـيرا من الابيات حسب طريقته • « اصلح » الابيات التي وجد فيها مبالغة ، والمجازات المعقدة والتشابيه التي تخطف الابصار • وفي الابيات التي كتبها فوقابياتي حاول التعبير في شكل اكثر بساطة ووضوحا وقربا •

وما ازال اسفا لاني لم احتفظ بهذه الجريدة وما فيها من اصلاحات : ذلك أنني اعتدت ان أحرق المسودات والمخطوطات المختلفة عندما يتم طبع القصيدة •

اكثر التصحيحات افرحتني وبدت لي القصيدة اكثر جـودة • ولكنني لـم أوافق على بعض الاصلاحات • وقلت لوالدي :

ـ لا شك انكاكثر حكمة واكبر سنا واظهر نبوغا مني•ولكنني شاعر من عصر اخر غيرعصرك• ومن مدرسة غير مدرستك ، ولي اذواق ادبية مختلفة ، واسلوب آخر ، كل شيء مابيننا مختلف• امح في هذهالاصلاحات الاسلوب الشعري لحمزة تساداسا ، ولكنني لست حمزة نفسه ، انا رسـول حمزة • اسمح لي أن يكون لي طريقتي الخاصة ، اسلوبي الذاتي •

ـ لست تماما على حق فيما تقول • اسلوبك ، طريقتك يعني طبعك سجيتك يجب ان يشغلا المحل الثاني في اشعارك • وعليك أن تحمل لطبع شعبك وسجاياه المحل الاول • انت قبل كل شيء جبلي ، ومن شعب آفار ، لم إنك بعد رسـول حمزة • انت في اشعارك تتكلم بلسان لا يتكلم به جبلي • واذا كانت اشعارك غريبة عن فكر رجال الجبال ، عن سجيتهم ، فان طريقتك في الكتابة تبقى مصطنعة مزخرفة ، وستتحول قصائدك الى دمى جميلة ، يمكن أن تكون مسلية • من أين ياتي المطر ان لم تكن هنالك غيوم ؟ من أين ياتي الثلج ان لم يهطل من السماء ؟ من اين يجيء رسول حمزة ان لم تكن هناك بلاد آفار وشعب آفار ؟ من أين تاتي بقوانينك الشخصية ان لم تات بها من القوانين العامة في شعبك ، والقوانين ترسخت خلال عصور وعصور ؟

ذلك هو الحديث الذي دار ذات يوم بيني وبين والدي • كل السنوات التي قضيتها بعد هذا الحديث ، كل الدروب التي سلكتها كانت وما زالت تؤكد ان ابي كان على حق •

رمز الزوجة الثالثة :

ذهب شاعر شاب من داغستان الى موسكو ليدرس في معهد الآداب • ومضى عليـه عام واحد فاعلنت الجرائد ان الطلاق قد تم بينه وبين زوجته وهي صبية من قرية نائية في الجبل •

وسألوه :

ـ لماذا طلقت زوجتك ؟ تزوجتها حديثا ، وانت تحبها • فماذا حدث ؟

ـ ليس بيننا لغة مشتركة • انها لا تعرف (شكسبير) • ولـم تقرأ (اوجيني اونيغين) ولا تعرف الشعر ولم تسمع (بميريميه) •

ولم يلبث الشاعر الشاب ان عـاد الى (ماخاتشكالا) ومعه زوجة من موسكو لعلها سمعت بميرميه وشكسبير • ولم تعش غير سنة واحدة في بلدنا ثم عادت الى موسكو لان زوجهاطلب الطلاق• وسألوه •

ـ لماذا طلقت زوجتك ؟ تزوجتها حديثا وانت تحبها فماذا حدث ؟

ـ لقد اكتشفت ان ليس بيننا لغة مشتركة • انهـا لا تعرف كلمة واحدة من لغة آفار ، ولا تعرف عاداتنا • ولا تفهم طبيعة مواطني من رجال الجبال ، وهي لا تريد ان تبقى في بلدنا • انها لا تعرف مثلا واحدا من آفار ، ولا رمزا واحدا من رموزنا ، ولا اغنية واحدة من اغانينا •

ـ اذن ما الذي تريد ان تفعل ؟

ـ يجب ـ فيما اعتقد ـ ان اتزوج مرة ثالثة •

في رايي ان هذا الشاعر الشاب يجب ان يجد نفسه قبل ان يجد زوجة ثالثة •

أيمكن ان تتحد جبال بلاد آفار مـع قصائد شكسبير في كتابي ؟ كتابي هـذا اريد ان يكون الزوجة الثالثة التي يبحث عنها الشاعر الداغستاني الشاب •

من دفتر المذكرات :

تم بناء بيت للكتاب في (ماخاتشكالا) يضم اربعين مسكنا • وشرعوا في توزيعها • طالب بعضهم بتوزيعها حسب النبوغ ، وطالب بعضهم بتوزيعها حسب عدد الاطفال •

يجب أن اذكر أن توزيع المساكن على الكتاب من أعسر القضايا • وأخيرا حل الموضوع في شكلما حلا حسنا أو سيئا • وسكنت في البناية الجديدة اربعون اسرة من اسر الكتاب ، وهاهي ذي تمد حبال الغسيل • وفي اليوم التالي سافرت عشرون زوجة من زوجات الكتاب مجتمعات الى موسكو • وعدن بعد أيـــام متعبات هزيلات كأنهن خرجن من حرب • وبعد قليـل بدأ الاثاث الجديد يرد من موســكو •

واليكم ما حدث • بحثن في موسكو طويلا من الاثاث • وقررت واحدة منهن ان تشتري • ولم تحتمل الاخريات ان يكون اثاث احداهن خيرا من اثاثهن • ولكن المؤسف ان الزوجة الاولى اشترت أعلى أنواع الاثاث ولم يكن في مستطاع الباقيات أن يجارينها • النتيجة : تشابهت المساكن العشرون حتى كأنها أسنان مشط • يستحيل ان تتصور كيف يمكن لشعب آفار أن يعيش بين مثل هذا الاثاث• في المساكن الباقية كنت اذا دخلت عتبتها قفزت الى انفك رائحة اللحم المشوي ، والبوظة

وجلود الغنم ، والشحم المجمد •

وعندئذ تعرف رأساً أن الأفار هم الذين يسكنون هذه البيوت • ثم لم يكن في مقدورك أن تجد كاتبا واحداً منهم يمتلك فكر هذا العصر وأسلوبه •

يمكن لك وأنت تقرأ كتابي أن تدرك أن الأفار هو الذين يسكنون فيه ، ولكنك تدرك أيضاً أن واحداًمن معاصريك ، أن إنساناً من القرن العشرين يسكن كذلك فيه •

أنا لا أريد أن تكون لي الشمس وحدها ، ولا أن يكون لي الظل وحده • يمكن أن يكون لمسكني ساحات واسعة مشمسة ، ولكن ينبغي أن يكون لي فيه أيضاً زوايا صغيرة يغمرها الظل • أريد أن يشعر كل زائر أنه في بيته ، وأنه حر لا يضايقه شيء ، لا يريد أن يغادره ،أو على الصحيح ، (مادمت أتحدث عن الضيوف) أن يغادره حين يشاء وهو في حسرة في لهفة الى العودةاليه•

كنا في اليابان ذات يوم مجموعة من الاجانب ، وجعلنا نتبادل انطباعاتنا • كنا واقفين عند نبع خيل الي أن أحجاره مصنوعة من أحجارنا في داغستان ، من تلك الحجارة التي يتزين بها المجلس الذي يجتمع فيه الشيوخ للندوات •

قال موسيقيأمريكي : مااعجبهذه البلاد ! أحسفيوجه اليابان انني أجد وجهأمريكا الصناعية• واعترض صحفي من هاييتي فقال :

ـ فكروا في الموضوع ، عدت الآن من البرية ، ان اليابان تشبه على الخصوص جزيرتناالصغيرة• ودمدم مهندس معماري فرنسي :

ـ لا تتنازعوا يا سادتي • هنا كل مافي باريس من أفراح وأحزان •

أما أنـا فقد تأملت أحجار النبع الياباني التي يبدو سيمائها أنها جاءت من قريـة أفـار وقلت في نفسي : « أيتها اليابان العجيبة ! فيك كل مافي بلاد العالم ، ومع ذلك فأنت لا تشبهين واحداً منها • إنك اليابان » •

يا كتابي يمكن لكل إنسان أن يجد فيك شيئاً من ذاته ، ولكن عليك أن تبقى كتابي ، أبق كما أنت ، لا تشبه كتابة آخر • أنت بيتي الأفاري ، بيتي الداغستاني • يمكن أن يستريح في هذا البيت ، وجنباً الى جنب ، كل مالم يكن فيه حتى الآن ، وكل ما كان فيه منذ عصور •

كان أبي يقول :

إذا لم نر المؤلف في أثره الادبي ، فكأننا نرى حصاناً يجري دون فارس •

يقال :

كان هناك جبلي لا تنجب أسرته الا البنات • وكان يحلم بصبي • وتصور كل من في الجبل أن من واجبه أن ينصح الأب المنكود • وانهالت النصائح عليه حتى ثار غضبه وصاح :

ـ كفوا عن نصائحكم ، فقد كنت أنكر ما أعرفه •

العبقريـــة

« أحترق لتضيء »
(كتابة على سراج أيقونة)

أسطورة الشاعر والسمكة الذهبية :

زعموا ان شاعرا سيء الحظ اصطاد في بحر الخزر سمكة ذهبية •
وتوسلت اليه السمكة :
ـ يا شاعر ! يا شاعر ! أعدني الى البحر •
ـ وبماذا تجزينني بديلا عنك ؟
ـ كل أمانيك السرية احققها لك •

وكان الشاعر سميحا جدا فاطلق السمكة الذهبية • وجعلت كل انواع النجاح تنصب فورا على الشاعر • نشروا مجموعات اشعاره مرة بعد مرة • واصبح له بيت في المدينة ودارة فاخرة في الريف • واصبح الشاعر شهيرا يدور اسمه على السنة الناس جميعا • الارض كلها هنا تحت قدميه كأنها لحم وضعت على السفود محفوفة بالبصل مضمخة بعصير الليمون يكفيه أن يمد يده : خذ وامرح • وقالت له زوجته وهي تلقي على لسانها هذه الكلمة من كلمات القدر ذات يوم وقد أصبح زوجها عضوا في المجمع العلمي ونائبا وحامل اوسمة :
ـ لماذا اذن لم تطلب من السمكة الذهبية ان تهب لك قليلا من العبقرية •

وكانما اشرقت نفس الشاعر ، وادرك ما كان ينقصه حتى الآن•وهرع الى البحر ونادى السمكة:
ـ ايتها السمكة الصغيرة ! ايتها السمكة الجميلة ! هبي لي شيئا ولو قليلا من العبقرية •

واجابت السمكة الذهبية :
ـ وهبت لك كل شيء •• كل ما اشتهته نفسك • وكل ما سوف تشتهيه يمكن أن اهبه لك • أما العبقرية فلا ••• لا أستطيع •• أنا نفسي لا أملك منها شيئا ولو نصيبا يسيرا من العبقرية الشعرية •

وهكذا اما أن تكون صاحب عبقرية او لا تكون • لا يستطيع احد ان يهب لك العبقرية ، ولا يستطيع أحد ان ينتزعها منك • يجب أن يولد الانسان وتولد معه عبقريته •
وادرك شاعرنا الذي غمرته السمكة الذهبية بالوان النعم أنه غراب يلبس ريش طاووس •

وفجأة سقط عنه الريش المزيف ، بل فقد في الوقت نفسه ريشه الخاص • واصبح الشاعر أسوأ حالا من كل وقت مضى • تكرار الدعاء لا يفسده ، وكذلك أكرر أن من شروط من يكتب أن تكون له عبقرية ، ومن أين يمكن أن نحصل عليها اذا كانت السمكة اللعبية نفسها ليس لها منها شيء ؟

حكى والذي قال :

استقبلت يوما شاعرا من الجبل قدم من قريته البعيدة ليقرأ علي شعره • واصغيت الى الشاعر الطري المتدرب ، وبينت له المقاطع القاتمة ، والمقاطع الضعيفة ، وشرحت له كيف يمكن أن أكتب أنا حمزة تساداسا هذه القصائد •

وصرخ الجبلي :

ـ ولكن يا عزيزي حمزة يجب ان يكون الشاعر عبقريا ليكتب مثل كتابتك •

ـ انت على حق ••• قليل من العبقرية لا يضرك •

ـ ولكن أين أجدها ؟ انصحني •••

كان ذلك سؤال الجبلي ، وهو مسرور ولم يدرك مافي جواب حمزة من سخرية •

ـ مررت بالمخازن اليوم فلم اجدها ، لعل من الضروري ان تقوم بجولة في السوق •

لا ندري من أين تأتي العبقرية الى الانسان ؟••• هل هي عطية الارض او هبة السماء • لعلها أن تكون بنت السماء والارض جميعا ؟ لا نعرف ايضا أين تقيم : هل هي في القلب ؟ او الدم ؟ او الدماغ ؟ هل عششت في قلب الانسان الصغير عندما ولد ؟ او أن الانسان لقيها بعد ذلك على طريقه الصعبة فوق الارض ؟ وما الذي يكفل أحسن غذاء لها : الحب أم الحقد ؟ الفرح أم الالم ؟ البسمات ام الدموع ؟ أم أن كل أولئك ينبغي أن تجتمع لتنمو العبقرية ويشتد عودها ؟ هل هي وراثية ؟ او ان الانسان يراكمها شيئا بعد شيء في نفسه وكأنها محصلة لكل ما رأى ، وسمع وقرأ وعاني وعرف ؟

هل هي ثمرة الجهد أو لعبة من لعب الطبيعة ؟

هل هي لون العيون الذي يجده الانسان عند ولادته ، او انها العضلات التي يكتسبها وهو يمارس الرياضة كل يوم ؟ هل هي شجرة التفاح التي تنمو بما يحيطها به البستاني من رعاية وعناية او هي التفاحة التي تسقط ، بين يدي الطفل وهو يلعب في البستان ؟

العبقرية هي اشد مافي الوجود غموضا وسرا ، ولو أن الناس عرفوا في يوم من الايام كل مافي الأرض : ماضيها ومستقبلها ، وعرفوا كل مافي الشمس ومافي الكواكب ، والنار والازهار ،

وعرفوا كل شيء في الانسان لبقيت العبقرية مع ذلك شيئا لا يعرفونه حتى بعد معرفتهم كل شيء : من اين تاتي ؟ واين توجد ؟ لماذا كان نصيب هذا منها اكثر من نصيب ذاك ؟

لا تشابه عبقرية انسان عبقرية انسان آخر ، لان العبقريات التي تتشابه ليست عبقريات على الاطلاق • واكثر من ذلك أن العبقرية لا تتعلق بالتشابه الذي يمكن أن يقع بين أصحابها •

لقد رايت كثيرا من الوجوه التي تشبه وجه ابي ، ولكني لم ار في اي مكان عبقرية ابي •

العبقرية ليست وراثية ، ولو كانت كذلك لسادت في الفن السلالات الملكية • وليس نادرا أن يولد الاحمق من حكيم وأن يصبح ولد الأحمق حكيما •

عندما تقطن العبقرية انسانا ما فهي لا تعبا ان كان بلد هذا الانسان كبيرا او غير كبير ، ولا تكترث ان كان عدد سكانه كثيرا او غير كثير • وظهورها نادر غير متوقع ، وعجيب ، كانما هو لمح البرق ، قوس قزح ، مطر في صحراء تموزية لا تنتظر المطر •

كيف أضعت صديقي :

كنت يوما في مكتبي عندما اقترب فارس من البيت •

ـ السلام عليكم •

ـ وعليكم السلام •

ـ جئت يا رسول اليك لارجوك اداء خدمة صغيرة •

ـ ادخل وضع عريضتك على المنضدة •

وسحب الشاب من جيبه عدة اوراق وضعها على المنضدة • وكانت واحدة منها رسالة كتبها صديق كبير لوالدي طالما كان من ضيوفي • كتب لي صديق البيت وصديق الاسرة : « عزيزي رسول ؟ هذا الشاب واحد من اقاربنا الاقربين ، وانسان جيد جدا • ساعده على أن يصبح شاعرا معروفا مثلك »•

اما الاوراق الاخرى فكانت : شهادة من السوفيت المحلي •• شهادة من المزرعة التعاونية ، مصدقة من منظمة الحزب ووثيقة تعدد صفات الفتى •

تذكر شهادة السوفيات المحلي ان الرفيق فلانا هو ابن اخي الشاعر الشهير محمود من كخاب ـ روسو ، وأن السوفيات يعتبره جديرا بترشيحه له شاعرا داغستانيا شهيرا •

والشهادات الاخرى تذكر ان ابن اخي محمود بلغ الخامسة والعشرين من عمره ، وانه درس تسع سنوات وأن صحته جيدة •

ـ حسنا ••• كل شيء كامل •• والآن هات ما عندك من آثار ••• قد تكون ذا موهبة وقد تصبح فيما بعد شاعرا كبيرا• وانا سعيد جدا بمد يد المعونة اليك وبتحقيق رغبات صديقنا المشترك•

ـ كيف ؟ لقد أرسلوني اليك لتعلمني نظم الشعر • أنا لم أحاول قط نظمه •

ـ وماذا تعمل على العموم ؟

ـ أعمل في المزرعة ، ولكن هذا العمل لا يجدي شيئا • يسجلون لحسابي أيام عمل ولكنها لا تكاد تدفع • واسرتي كبيرة ، وعندئذ فكروا في ارسالي لأعمل شاعرا • أنـا أعلم أن عمي محمودا يربح ارباحا غير قليلة أكثر مما اربح في المزرعة • ثم انهم يقولون إنك أنت يا رسول تنال مبالغ ضخمة •

ـ اخشى كثيرا الا استطيع ان اجعل منك شاعرا رغم كل ما املك من رغبة •

ـ كيف ، ولكني ابن أخي محمود ••• ذلك مكتوب على الشهادة •• السوفييت المحلي يرشحني لهذه الوظيفة ، ومنظمة الحزب تؤيد ترشيحي •

ـ حتى اذا كنت ابن اخي محمود ••• كنـا نعرف ان ابا محمود كان فحاما ولم يكن شاعرا •

ـ إذن أين العدل ؟•• انتم هنا في ماخاتشكلا معشر الشعراء والكتاب تتقاسمون فيما بينكم سعم الأدب ولحمه ••• فكيف لا استطيع الحصول على شيء من المصارين ؟ انا اقبل المصارين • ماذا اصنع الآن ؟ ساعدني على السكن في مكان ما ••• كل شهاداتي صحيحة قانونية •

واستطعت تخصيص مساعدة صغيرة مالية له من (ليتفوند) باعتباره ابن أخي محمود ، ثم اصدر مدير معمل الآلات الكهربائية امرا بتعيينه في المعمل بعد شفاعتي •

ورغم ذلك كله ظل المرشح لقب شاعر غير راض عن حظه ، ولم يلبث ان ارسل أبوه ، صديقنا ، كتابا غاضبا :

« كان ابوك حمزة يلبي كل ما أطلب منه • ولم يرفض لي طلبا • وأنت يابن حمزة تأبى ان تحقق لنا خدمة صغيرة : ادخال ولدي في الشعراء • يظهر يارسول انك أصبحت مغرورا وانك لا تشبه اباك • لم يحدث أن قطعت صلتي بصديق ، ولكني هذه المرة يجبرني أن اقطعها•الوداع••• »

وهكذا اضعت صديقا عزيزا حرمتني إياه العبقرية او على الصحيح غياب العبقرية • الحق ان صديقي كان رجلا جد طيب ، ولكنه لا يمكن ان يفهم ان ليس في مستطاع احد ، لا رئيس اتحاد الكتاب ولا أمين سر الحزب ، ولا رئيس الحكومة توزيع العبقرية على الناس كمـــا توزع أعضاء الشاة على الجبليين الملتفين حول المائدة ، حين تقدم الشاة ، والبخار المحرق يغطيها •

مثـلا : يمكن ان ترى في دروب داغستان عربة محملة تصعد سفح جبل واحد : يجرها من امام ، وآخر يدفعها من وراء •

مثلا : يمكن أن نجد سيارة شحن كبيرة تجر بحبل سيارة موسكيفتش وقعت في الثلج •

مثلا : يمكن ان ترى سيارة شحن ضخمة وبطيئة تسد الطريق على سيارة خفيفة سريعة ••• طريق الجبل ضيقة ، والسيارة الخفيفة ليس لها سبيل الى تجاوز السيارة الثقيلة •

حسنا ، ولكن العبقرية ليست عربة يمكن سحبها من امام او دفعها من الخلف ، العبقرية ليست سيارة موسكيفتش يمكن جرها بحبل ، العبقرية ليست سيارة لا يمكن أن تتجاوز سيارة اخرى لتندفع الى أمام •

ما من حاجة الى دفع العبقرية من خلفها ولا الى جرها باليد • انها تشق طريقها بنفسها ثم اذا هي في مقدمة الناس جميعاً •

ومع ذلك ما يزال كثير من الناس يأملون أن يسحبوا او يدفعوا •

هذه قصة صغيرة يمكن ان يكون عنوانها :

يمكن أن تكون عجوزا ، نعم ، ولكن أن تكون ذات عبقرية :

عندما كنت ادرس في معهد الآداب في موسكو لاقيت عدداً من الشعراء الروس كانوا هم ايضا طلابا في المعهد • حاولوا ترجمة قصائدي • ونشرت التراجم في عدد من الصحف والمجلات • وبفضل التراجم الى الروسية انتقلت قصائدي الى شعوب داغستان •

ودارت على بعض السنة السوء في ذلك المعهد احاديث تذكر ان رسول حمزة ، ليس قادرا في الواقع على نظم الشعر بلغة آفار ، وان بعض التراجمة الروس من اصحاب العبقرية يحاولون ان يجعلوا منه شيئا ما ، وان مايكتبه انما يستجيب فيه الى ذوق القارىء الروسي •

وبالمناسبة اتذكر دائما حكاية شاعر داغستاني • في بلادنا اقلية من السكان تسمى (تات) لا تكاد تبلغ خمسة عشر الف نسمة • ومع ذلك فهناك خمسة او ستة كتاب مرموقين من (تات) تعرفهم داغستان كلها • وقد نشرت مؤلفاتهم بلغتهم في ماخاتشكالا وترجمت الى الروسية • واريد أن اقص عليكم حكاية شاعر من (تات) لا أريد أن أصرح باسمه •

عندما اتممت دراستي في معهد الآداب عدت الى ماخاتشكالا ، وبعد ايام من عودتي دعاني الشاعر التاتي الى زيارته • وقدم لي طعامه في الهواء الطلق • وقرأ لي قصائده بلغة تات ثم ترجمها لي كلمة كلمة بالروسية لكي أستطيع فهم معانيها •

ولقد اخذت بعين الاعتبار اني ضيفه ، وانه يمكن أن يعتقد اني اريد ان اعرض عليه معلوماتي التي تلقيتها في موسكو ، وان كل الشعراء يفضلون المدح على النقد ، وان كل نقد لا يمكن ان يساعده ، وانه اخيرا يرفع الى عنان السحاب كل قصيدة من قصائدي ، وكل بيت من أبياتي ، كل ذلك حسبت حسابه فاثنيت دون حياء على كل ماقرأه لي من اشعاره •

الواقع ان بعض قصائده اعجبتني ، وتحدثت عنها بكل ما يختلج في نفسي ، ولكن قصائد اخرى لم تعجبني ، فتساهلت ووافقت • ومنذ ذلك اليوم ، وانا امد يدي ـ عقليا ـ الى امواج بحر الخزر وأركع على ركبتي اطلب منها العفو عن هذه الاكذوبة • ثم جعلت ، في خيالي ، أدير وجهي الى الجبال ، وامد يدي الى قممها البيض ، واركع امامها على ركبتي واقول لها :

ـ عفوك عن تلك الاكذوبة •

وبعد ان قرأنا أشعارنا وتبادلنا المدائح سكتنا فترة من الوقت • أصغيت الى البحر في بساطة، وكان صديقي ـ كما علمت بذلك مستغرقا في افكاره • واخيرا أستانف الحوار على الشكل الآتي :

ـ رسول • اريد ان اصرح لك بفكرة هامة ، هامة جدا • ولكن عدني الا تقولها لانسان • ووعدته بذلك • وتابع صديقي :

ـ انت تعرف اننا نحن « التات » شعب جد صغير • واشعر اني اضيق ذرعا بقصائدي ، وانت تحس اني اذا وجدت لي قراء في موسكو • اريد ان اسير على هدي خطاك ، واذهب للعيش في موسكو • ولكن ليس لي هناك اقارب ولا اصدقاء ، ولا علاقات ، وليس لي سقف آوي اليه • ماذا ترى • أيمكن اذا سافرت الى موسكو بما سأقبضه من مال لقاء كتابي الجديد ، ان اجد مأوى مناسبا ؟

ـ ولم لا ؟ اذا كنت تملك مالاً تستطيع ان تستأجر غرفة •

ـ لست أتكلم عن هـــذا • هل يمكن ان اجد زوجة ؟ لتكن عجوزا ، لتكن مشوهة ، لتكن ما تكون ، شريطة ان تكون ذات عبقرية ، شريطة ان تترجم اشعاري الى الروسية ، شريطة أن تجعل مني شخصا ما • ذلك اني اذا استطعت ان اقف على قدمي وجدت طريقي الشخصي • والا فسوف اجف وايبس في هذه القوقعة الوطنية •

وشرعت الاحظه في انتباه • انه قوقازي في الخامسة والعشرين من عمره ، ذو عضـلات ، متوقد • يدان كبيرتان ، وأصابع يغطيها الشعر • شعر صدره قاس كأنه مسامير مغروسة في حائط• في وجهــه الأسمر ـ والذي يكاد يكون كستناويا ـ شفتان غليظتان وعينان زرقاوان كالبحيرة • يمكن ان يظن رأسه رأس قنفذ • أسنانه بيض عريضة • ساقاه كأنهما عمودان ، عضلاته بارزة في كل موضع من جسده • إنه إنسان بدائي من أبناء الطبيعة • من ذا الذي يستطيع ان يجد زوجة في سهولة وفي مدينة تعد عدة ملايين من السكان ، وبعد ثلاث سنوات من نهاية الحرب ، من الذي يستطيع ذلك ان لم يكن صاحبي هذا ؟!

وقلت لــه :

ـ يكفي ان تقف في وسط الشارع وأن تصفر صفرة واحدة حتى تجد كل الزوجات اللواتي ترغب فيهن يهرعن اليك •

وفرح صاحبي كأنه طفل ، ومشى على يديه الى البحر وقبل ان يغطس في الماء سألني :

ـ بما تنصحني ؟ : هل أسافر الى موسكو بالطائرة او بالقطار ؟

ومضت ستة شهور • وذات يوم كنت أصعد الى الطابق الثالث في سلم دار نشر (الطلائع) وأنا انفض قبعتي المبللة بالثلج فالتقيت بالشاعر التاتي الذي دعاني الى وليمته في بحر الخزر • كان يهبط السلم وهو يمسك منشفة كبيرة تحت ذراعه • وقد لفت انتباهي أول الامر الطريقة التي

يحمل بها منشفته فهو لا يمسك بها في قبضة يده كما يصنع الكتاب العاديون ولكن تحت ذراعه كما يفعل المحاسبون وأمناء الصندوق • ولاحظت أيضا انه تغير تغيرا كبيرا خلال هذه الاشهر الستة • شعره الذي كان يشبه شعر القنفذ أصبح مصقولا وموزعا في جداول تتضح فيها العناية، وكانت له لحية مثل لحية (الديسمبريست)(٢٩) وظفر خنصره طويل ناحل مصقول محدد كانه حربة، وفي بنصره خاتم له فص • وهناك شيء يشبه جناحي خنفساء مثبت في ياقته كانه ربطة عنق • انيق اناقة شيطان • وبعد التحيات المعتادة أصلح لي ربطة عنقي ، وكانت منحرفة قليلا • وشكرته طبعا، وقدم لي أحمد زوجته وقدمني اليها •

قالت ومدت لي ثلاثة أصابع :

ـ تشرفنا •

عندنا في داغستان ليس من المألوف أن يقبل الرجل يد المرأة • وهكذا اكتفيت بمصافحة اليد مصافحة خفيفة ، ولكنها جعلت تصرخ صراخا عاليا ، حتى كأنني كسرت أناملها جميعا •

ـ عفوا ••• أنا جبلي غير متمدن ••• لم أكن أقصد ••••

ـ لقد آن الأوان لتصبح متمدنا •••

ثم اقتربت من المرآة ، وهي تفنج كأن المرآة يمكن أن تصلح شيئا ما من هيئتها •

نعم • لقد كانت عجوزا ومشوهة ، وتضع على وجهها مساحيق تكفي لتجصيص منزل صغير • وأشد ما أسفت له أن أبا طالب لم يكن معنا اذن لوجد لها الجواب المسكت •

يقولون : لا شيء يمكن أن يتجاوز ما يتمتع به الثعلب وذنب الثعلب من مكر • ولكن أي محجن استطاع أن يظفر به هذا الثعلب الفضي لكي يجد نفسه معلقا في عنق هذه العجوز الخبيثة • ومضت المرأة في طريقها الى كشك الجرائد وبقينا قليلا وحيدين •

ـ ماذا حدث لك ؟ وكيف أنت يا صديقي أحمد ؟

ـ أوه أشعر أني بقرة ربطت في بيدر العدس • أن امرأتي تدير أعمالي • لو عرفت ماتتمتع به من ثقافة • رأس ويأله من رأس • تعرف جيدا بلوك وماياكوفسكي • وكانت صديقة سيرجي إيسينين • وزارت باريس • وهي تتحدث بالانكليزية • لنا بيت مؤلف من أربع غرف ، وليس لنا جيران • ما عندنا أولاد ولكن لنا كلبا صغيرا اسمه طرزان • كلب ياباني أصغر من قطة •

ـ حسنا أراك محظوظا • أين تذهب الآن ؟

ـ حملت بعض القصائد الى مجلة (مورزيلكا) ولكن المحرر وجدها أشد عمقا مما يقبل الأطفال الصغار • وفكرت في ارسالها الى مجلة (للزراعيين التعاونيين الشباب) فقالت رضاهم ، ولكن يجب الالحاح قليلا لابراز كلمة (زراعي تعاوني) • وسأتمم ذلك الليلة وأحملها اليهم

(٢٩) فئة من الثوار قاموا بثورتهم في كانون الاول (ديسمبر) وسموا باسمه •

غداً ... نعم يا رسول ، هكذا حقاً يجب أن تعمل وتعيش · تقول لي زوجتي دائماً : إنه حتى الاطفال حين يتعلمون المشي يتحركون وهم يزحفون · بعد ذلك سوف أكتب قصائد جيدة ·

وعادت الزوجة الينا وقالت في صوت رقيق وآمر في وقت واحد :

ـ اليوشا هيا بنا نطعم طرزان ثم نمضي الى (التمساح) والى (الفتاة العاملة) ·

ولم نلتق مدة طويلة بعد ذلك · ثم تلقيت منه رسالة يطلب فيها أن اوصي له بصنع جرة في بالخاري تحمل هـذه العبارة : « الى زوجتي العزيزة · » وأوصيت بها وانا افكر في نفسي : « يمكن أن يكون صحيحاً انها تعمل كثيراً من اجله » كنت أشعاره التي تترجمها زوجته تنشر احياناً في (موروزيلكا) وفي (الطلائع) وفي التمساح · ولكنه لم ينشر شيئاً عندنا في مخاتشكالا بلغته الام· وطلبنا اليه مراراً أن يرسل الينا شيئاً فلم نتلق جواباً ·

ولم نلتق ثانية الا بعد خمسة عشر عاماً · كان يعقد في موسكو مؤتمر دام عشرة أيام للفن الداغستاني · وجاء اربعون شاعراً من داغستان الى موسكو · والقينا قصائدنا في لغات متعددة ، في قاعة الاعمدة ، وفي مسرح الكرملين ، وفي معمل للسيارات ، أمام جنود فرقة كانتيميروف ·

وفي الجلسة الختامية للمؤتمر جاء صديقنا احمد يبحث عنا في الكواليس يكاد يعنق الجدران، قال لي في استعطاف :

ـ رسول ! أعدني الى داغستان · لقد اردت هنا ان أصنع لي سناماً من الشحم ، ولكني اضعت آخر ما أملك من ريش ·

وهكذا عاد احمد الى داغستان · ولكنه لم يستطع تحقيق الانسجام في قيثارتـه ولا ادراك الدرب الصحيح · كان كأنه جام تصدع فسالت منه الخمر · ومهما جبرت صدع الجام لـم تكف الخمر عن مسيلها ·

وهكذا فان المترجم لا يستطيع زيادة عبقرية من ليست له عبقرية · يقول ناس : ان افندي كابيف صنع سليمان ستالسكي · ويقول آخرون ان سليمان ستالسكي هـو الذي صنع افندي كابيف · والحق انهما كليهما يمتلكان ناصية العبقرية · عبقرية افندي أبدعت افندي ، وعبقرية سليمان ابدعت سليمان ·

سأنقل ذلك الى (ايزيا) :

هكذا يمكن أن أعنون قصة اخرى تذكرتها ·

لقد درست أنا ومحمد سليمان معاً في معهد التربية في آفار ، وهو الآن كاتب داغستاني مشهور · كان منذ طفولته موهوباً مواهب مختلفة : يرسم جيداً ، ويرقص جيداً وينظم قصائد · كان يحب حتى الجنون · (اوجني اونيجين) ويكاد يحفظها عن ظهر قلب · ومن ذلك العهد كان يفكر في ترجمتها الى لغة آفار · بل انه حمل معه قصيدة بوشكين الى جبهة القتال ·

وفي نهاية الحرب وجدناه في مستشفى موسكو وقد خرقته الرصاصات وشظايا القنابل حتى كانه مصفاة • وتعرف في المستشفى الى فتاة موسكوفية تدعى فاليا • وعندما شفيت جراحه تزوج بها وبقي في موسكو •

وعندما قدمت الى موسكو لاتمام دراستي وجدت صديقي يعد الاستعانة بمكتب الاستعلامات • كنت لا امل منه ، ولا يمل مني • ولم تكن فاليا تعكر علينا حوارنا الطويل • كنا نظل طويلا نحن الثلاثة نتحلق حول زجاجة خمر • محمد يحدثني عن الحرب وانا احدثه عن داغستان والجبال وقريتنا مسقط راسنا ، واقرا له قصائد ، قصائدي وقصائد اصدقائي من شعراء آفار • ثم سألته عما ينوي ان يعمل في مستقبل ايامه •

ـ فكرت طويلا فيما ينبغي ان اشغل به نفسي • إن لفاليا عمة ، وعمتها تعرف رجلا ذا نفوذ كبير في موسكو يدعى (ايزيا) ورات العمة انني اتعذب في بطالتي ، وقالت لي : ولماذا انت مشغول البال ؟ ساعدت ايزيا عنك وسوف سيتولى هذا الامر كله • والواقع ان (ايزيا) وجد لي مركزا مرموقا في المجمع العلمي • وانا فيه اعمل منذ ذلك الحين •

ـ والرسم

ـ لقد رسم الرصاص جسدي رسما يكفيني •

ـ والشعر ؟

ـ كنا اطفالا يارسول • اما الآن فانا رجل كهل جدي ويجب ان اجد عملا جديا •

ـ واوجني اونيجين ؟

واطرق صديقي مفكرا • لقد لمست النقطة الضعيفة فيه •

ـ ولماذا لا تعود الى داغستان ؟

ـ وماذا اصنع بفاليا ؟

ـ خذها معك •

ـ بيتي في القرية ولا استطيع الذهاب مع فاليا اليها • ثم إنها لا تستطيع التحدث الى امي ، ولست استطيع ان اجد مترجما لتفهم فاليا امي ، ولتفهم امي فاليا •

وقبل أن انهي هذا الحوار الشاق مع محمد رفعت نخب صحته وصحة فاليا وصحة اوجيني اونيجين • وعدت لأرى صديقي في لقاء لاحق ، فذكرت لي فاليا ان محمدا تغير تغيرا كبيرا حتى لتكاد لا تعرفه • وهو يغتنم كل لحظة من لحظات فراغه في الليل وفي النهار لكتابة اشياء لا يلبث ان يمزقها • وهو ينسى معها ان ياكل ويشرب ويرتاح •

وبعد ان لاحظت عمة فاليا محمدا مدة طويلة سألته اخيرا عما يكتب ؟ ولماذا يمزق ما يكتب ؟ واجابها محمد :

ــ أريد أن أصبح شاعراً • أريد أن أترجم أوجيني أونيجين لبوشكين الى لغة آفار •
ــ ولماذا إذن كل هذه الحكايا ولماذا ترهق نفسك هذا الارهاق ••• سأنقل ذلك الى ايزيا ، وسيتولى هذا الأمر •
ــ كلا يا عمتي ••• لا يستطيع ايزيا ولا رئيسه ولا زوجته مساعدتي لكي أصبح شاعراً • يستطيع تحقيق ذلك إلا أنا نفسي •

وبعد قليل اطعمني محمد على الفصل الاول من ترجمته لاوجيني اونيجين ، وبعد ثلاث سنوات صار في مستطاع كل شعب آفار أن يقرأها بلغته الأم •

أي صورة أنشر ؟

يظهر أن الزوجة النشيطة يمكن أن تسهم إسهاماً مقبولاً في نجاح زوجها • نعم لقد عرفنا أمثال هؤلاء الزوجات النشيطات • وهذه على الخصوص حالة شاعر داغستاني مشهور • كل الناس في اتحاد الكتاب وفي دور النشر وفي الصحف يكتسون لحم الدجاجة حين يذكر اسم زوجته •

وأنا أيضاً أخشاها الى حد ما • ولذلك فلقد علقت في مكتبي لأكسب رضاها صورة زوجها • وتصورت أنها ستكون مسرورة بذلك وأنها ستعاملني معاملة أكثر رقة • ولكن ذلك لم يغن عني لديها الا قليلا • ذلك أن وجود صورة زوجها في مكتبي لم يزدني كوبكا واحداً •

ذات يوم الحت على دار النشر لتطبع فوراً مجموعة شعرية لزوجها ، واعترض مدير الدار في خجل وذكر أن قائمة المشاريع في السنة الحالية قد تم إعدادها وتوقيعها ، وأن الورق غير كاف ، وأن في الامكان طبع المجموعة في السنة القادمة •

وصرخت المرأة في غضب :

ــ أنت قليل الحياء • أنت تخشى في بساطة أن يرى الناس الى أي حد تتفوق قصائد زوجي على قصائدك • ولذلك فأنت تحدثني عن تلك الاساطير في الورق وفي المشاريع • أوه • إني أرى جيداً ما يدور وراء رأسك • ولن أدع لك أن تتخلص مني • سأجبرك على طبع ديوان زوجي •

قالت الزوجة ذلك ثم صفقت الباب وراءها فتزلزل • وما هي الا ساعتان حتى قرع الهاتف عند المدير • إنه أمين سر اللجنة المحلية للحزب •

وجعل يتوسل للمدير :

ــ بحق السماء ! اصنع شيئاً ما كيلا تأتي الي هذه المرأة • لم تتح لي فرصة لاستبدال زجاج مكتبي ، لقد كسرته وهي تضرب عليه بقبضة يدها •

وماذا كانت نتيجة ذلك في آخر الحساب ؟ قذفوا بالحاج مراد من تاليف تولوستوي ، ونسفوا كتابة للأطفال من تاليف حمزة تساداسا ، وكلاهما كان مقررا • وبدلا منهما حشروا المجموعة الشعرية لزوج هذه المرأة المقاتلة •

وبدا في الظاهر ان السلم قد ران على الدار (خبر) ، ولكن فضيحة جديدة لم تلبث ان ذر قرنها • إنهم لم ينشروا صورة زوجها الشاعر في مجموعته • وصرخت المرأة وهي تتميز غضبا :

ـ يالكم من أوغاد ! انتم تخافون ان يرى الناس الى اي درجة كان زوجي أكثر جمالا منكم • ولذلك فلم تنشروا صورته •

واجاب مدير دار النشر :

ـ كلا ••• ولكنا في بساطة لم نعرف ما علينا ان ننشره في هذا الديوان : أصورتك أم صورة زوجك •

واجابت الزوجة في خبث :

ـ ولم لا ؟ فليس من المؤكد تماما ان يصبح شاعرا لو لم أكن الى جانبه •

ابو طالب راى هذا الشاعر ذات يوم فقال له :

ـ اسمع يا كوسا • تنازل لي عن زوجتك اسبوعا واحدا ، وساحمل فورا وسام جائزةستالين•

ـ أتظن ذلك يا ابا طالب ؟ انا أعيش معها منذ عشر سنين ولم اتلق حتى جائزة الحاج حسون•

ـ إذن فاطلب منها شيئا من العبقرية •

حوار بين أبي طالب وخاتمة

كان ابو طالب في اول حياته راعي غنم • ثم مارس مهنة نحاس ، ولكنه ظل دائما يحمل شبابة الراعي ويعزف عليها كلما وجد دقيقة من فراغ • وكانت مهنته تقوده من قرية الى قرية ، وها هم اولئك يقولون : إنه الآن في (كوالي) ويقول آخرون انه في (كوموخي) ، وهاهو ذا في يوم من الأيام تاتيه فتاة تدعى خاتمة وتحمل اليه دلوا مثقوبا • وحثت خاتمة ابا طالب النحاس على إصلاح دلوها وهي تصرخ :

ـ لتكن سكايرك التي تلفها على اقل تقدير أكثر قصرا •

ـ فكري يا عزيزتي خاتمة اني ساجعل طولها ست اقدام لأستطيع تدخينها مدة أطول •

وأخيرا غضبت الفتاة حقا ، وكان على أبي طالب أن يرد اليها قدرها بعد إصلاحه •

كن الدلو يلمع كانه دلو جديد فقد عني به ابو طالب عناية فائقة • ولكن الفتاة لم تكد تستقي به الماء حتى نمذ منه • وبكت الفتاة غيظا وعادت الى أبي طالب •

ـ رغم كل الوقت الذي أمضته في اصلاح دلوي فهو مايزال يرشح أكثر مما كان يرشح •
ـ لعل الشباب يرمون دلوك بالعصا فيثقبونه • فلماذا تغضبين يا خاتمة ؟ لقد تركت فيه عمدا ثقبا صغيرا لتعودي الي وأراك مرة أخرى •
ـ ولكن ليت الشباب يرمون العصا على رأسك لا على دلوي • ومضت الفتاة •
وتألم أبو طالب كثيرا ، وتأججت نار حبه لخاتمة ، يوما بعد يوم • وكلما عظم اللهيب عظم الألم • ونظم أبو طالب في اثره قصيدة يغني بها خاتمة وحبه لها • ثم كتب أغنية ثانية ، ثم عشرا ثم عشرين ، وهكذا أصبح شاعرا شهيرا •

وخلال ذلك تزوجت خاتمة شخصا يسمى حاجي ، ثم طلقت وتزوجت شخصا ثانيا يدعى موسى• وذات يوم كان الشاعر الشهير أبو طالب في الطريق ، فاذا امرأة تقول له : أتستطيع اصلاح دلو ؟
والتفت الشاعر ليرى خاتمة وقد أصبحت عجوزا ناضبة مريضة •
ـ أنت تنفخ ريشك يا أبا طالب • انظروا اليه • انه نائب ، وله وسام ! أحقا أنك نسيت مهنتك عندما كنت نحاسا • ولكن فكر قليلا : في الواقع إنني أنا التي جعلت منك شاعرا يا أبا طالب • ولو لم آتك بدلوي لاصلاحه في ذلك العهد لبقيت نحاسا •
ـ اذا كانت قدرتك تصل الى هذا الحد يا خاتمة ، واذا كنت تستطيعين حقا أن تحولي الناس الى شعراء ، فلماذا لم تجعلي من زوجك الحاج شاعرا ؟ ثم أين أغاني موسى ، زوجك الثاني ، اننا لا نسمعها •

ومضى أبو طالب في طريقه وبقيت خاتمة مسمرة في مكانها ، فاغرة فاها ، لا تدري بماذا تجيب• ولم تتمالك مشاعرها الا عندما هطلت عليها القطرات الاولى من المطر فايقظتها •
كلا ما من أحد يستطيع أن يخلق شاعرا من شخص ليس هو نفسه شاعرا •

حدث أبي قال :

عندما بدأت أنظم قصائدي الاولى ، قال صديق قديم لأبي ، وهو شخص مشهور جدا ومحترم جدا في داغستان :
ـ ما يلزم الآن لرسول هو أن يصبح عاشقا وليهن • لايهم إن كان سعيدا أو غير سعيد في حبه ، أن يلقى استجابة لغرامه أولا يلقى • بل إنه إن أحب ولم يحبه من أحب كان ذلك خيرا له ، حتى اذا لم يلق من حبه الا المحن والعذاب • عندئذ يصبح شاعرا كبيرا •
بل إن صديق والدي وجد فتاة جميلة جدا كان عليها أن تجعلني شقيا لأصبح شاعرا •
وأجاب أبي :

ـ أتعرف كم في العالم من عشق ؟ فهل هم كلهم شعراء ؟ يجب أن تكون هنالك عبقرية لكي يحب الانسان حبا جميلا • ربما كانت العبقرية ضرورية للحب اكثر مما يكون الحب ضروريا للعبقرية • وليس في الامر تناقض : الحب يجري مع العبقرية ولكنه لا يحل محلها • وانا اقول مثل ذلك في عاطفة أخرى مناقضة للحب : هي الكره •

ـ ولكن خذ ، على سبيل المثال ، محمودا فهو شاعر الحب •

ـ صحيح تماما • محمود شاعر كبير • وذلك الى حد بعيد بفضل محبوبته • وانا اعتقد رغم ذلك أن هذه المحبوبة اذا لم تكن موجودة فان محمودا على كل حال سيصبح شاعرا كبيرا • ان قوى القلق والثورة التي تتمخض في روحه لا بد ان تشق طريقها كما تشق النبتة الغضة الخضراء طريقها نحو الشمس من خلال أكوام التراب الرطب الثقيل المظلم • الا ترى العشب ينجم احيانا من تحت الحجر ؟

نعم إن العبقرية تتغذى بالعواطف الانسانية القوية ، من الحب والكره ، كالنار التي تتغذى بالحطب اليابس • يمكن للقصيدة أن تبعثها بسمة مشرقة او دمعة مرة • ولكني اريد ان أضرب لك مثلين : أي ألم يعدل ألم الأم التي ثكلت ولدها ؟

ها هم هؤلاء يحملون جثته الى القبر ، والناس مجتمعون • ولكن الام تبقى خرساء • تبكي في بساطة ، إنها لا تستطيع أن تجد الكلمات التي تعبر بها عن ألمها ، هذه الكلمات التي تبكي بها الناس كما تبكي هي نفسها •

وعندئذ تأتي النائحات المبكيات • ليس في عيونهن قطرة دمع واحدة ، لأن الفجيعة لغيرهن وليست لهن • ومع ذلك تجد الناس جميعا يجهشون في البكاء في اللحظة التي تمارس فيه هؤلاء النائحات فنهن الرهيب • انا اقول إن هذا الفن رهيب • والحق انه رهيب وقاس والمسلمون يقولون ـ وليس ذلك عبثا ـ : إن النائحات محكوم عليهن بالعذاب الابدي في الحياة الآخرة كما يحكم على المنافقين والكذابين والمفترين •• ولكن هذا الفن فن إجبار الناس على البكاء ما يزال قائما •

ثم إليك مثلا آخر يناقضه تماما هل هناك فرحة تعدل فرحة الاب والأم عندما يصبح ولدهما شابا وقويا وجميلا يستعد للزواج • الزفاف من أحلى أعياد الناس يرقصون ويغنون • ولا شك في أن أبا العروس وأمه أسعد الناس •• ولكن هل في استطاعتهما ان يعبرا عن فرحهما بكلمات ، بأغان ، تجعل كل من حضر العرس سعيدا يشعر بالفرح كما لو أن هذا العرس له ؟

كلا •• إن الابوين يبحثان في كل قرية عن الموسيقيين البارعين • ويأتي الموسيقيون الى العرس ـ امس كانوا في أعراس اخرى وغدا سيذهبون الى اعراس ثالثة • كلها عندهم سواء • ولكن مواهبهم توحي الفرح الى الناس وتحمل اليهم سعادة حقيقية •

هل معنى هذا أن العبقرية تتغذى بالمشاعر المتنوعة في الحياة اليومية ؟ وأن كل ظاهرة من ظواهر العبقرية هي المحصلة الفنية لمعرفة شاملة ، لقدر معقد ، لسبب علوي ؟

إذا كان ذلك كذلك فبماذا نفسر إذن أن يستطيع فتى في الرابعة عشرة من عمره ، وأعمى زيادة على ذلك ، أن يدهش ويسحر قرى دغار بطريقته في العزف على شبابته ؟

أعرف فتى آخر هو محمود رجبوف ، إنه مقعد كسيح في سريره منذ ولادته ، أهدى إلى أمه أغنية بلغ من جمالها أنك لا تجد في بلاد أفار كلها إنساناً لا يعرفها ولا يغنيها .

وقد وضع موسيقاها أحمد سورميلوف وهو أيضاً مشلول الساقين .

لقد أهديت اليه هذين البيتين :

في أوتــار عودك الثمانيـــة

تنساب ثمانية آلاف نغمة ...

إن الأعمى الموهوب يرى ما لايرى المبصر غير الموهوب . وقد قال أحـد الحكماء : إن الرجل الذكي يرى دون أن يترك كرسيه ، مالا يراه الأحمق الذي قام بجولة حول العالم .

وأضيف الى ذلك أن هذا الأعمى محمداً لم يخطىء قط في حساب ما يتصدق به الناس عليه ، بعد يوم يقضيه وهو يتسول في السوق .

من دفتر المذكرات :

اذا كانت العبقرية تأتي من النظر فكيف استطاع الشاعر اللزجيان كوتشخورسكي الذي فقأ الخان عينيه ، أن يغني ؟ واذا كانت تأتي من الغنى فكيف بلغ الشاعر اللزجيان اليتيم أمين ، وهو الفقير اليتيم رتبة المجد ؟ واذا كانت تأتي من التعليم فكيف أصبح الشاعر سليمان ستالسكي هومير القرن العشرين ، ، وهو لا يعرف كتابة توقيعه ؟ (كان يبصم إصبعه بعد أن يغمسـها في الحبر) واذا كانت تأتي من التبحر في الثقافة فكيف عرفت كثيراً من الناس المثقفين والمتبحرين ثم هم لا يعرفون كتابة سطر واحد مقبول ؟

في الجبل كانت تقام مساجلات شعرية يقف فيها المتعلمون[٣٠] وهم يعرفون القراءة والكتابة بلغة أفار) ويقف في الجانب الثاني الرعاة الاميون الذين لا يعرفون شيئاً أبعد من عملهم . وكان هؤلاء الرعاة هم الذين يخرجون غالباً منتصرين في هذه المساجلات . إن الصوت المحسوب للشعراء المتعلمين يختنق في الاغاني الحرة مثل ريح الجبال .

ومع ذلك فان هؤلاء وأولئك يغلبهم شعراء هم متعلمون ورعاة في وقت واحد . عندما كان

---

(٣٠) بالعربية وهم طلاب مكاتب القرآن .

محمود ووالدي حمزة يشاركان في هذه المساجلات ، كان الامر ينتهي دوما الى منافسة بينهما كليهما ، ويبقى سائر الشعراء بعيدين في آخر الحلبة .

ولكن هل تأتي العبقرية في بساطة من الذكاء ؟ ومع ذلك فقد لقيت عددا كبيرا من الاذكياء جدا في موسكو وفي غيرها من البلاد . ولو ان ذكاءهم تجسد في شكل شعر أو رواية او قصة لكان لدينا مؤلفات فنية لها قدرها . ولكن شيئا ما يحول دون ان تسيل افكارهم من رؤوس اقلامهم على اوراقهم ، ثم نجد هذه الافكار الذكية تتبعثر في الهواء او تذهب الى القبر مع أولئك الذين حملوها .

إذن فهل تأتي العبقرية من عمل عنيد ، من جهد ينزف دما وعرقا ؟ طالما سمعت أن العبقرية لا توجد عفوا من نفسها ، وانها لا تظهر الا بعد عمل جبـار . ولكن تصوروا أني أحب اغنيـة العندليب الذي يقف هكذا في بساطة على غصنه ، اكثر مما أحب أغنية الحمار الذي يحمل اثقالا . إن من يجر العربة لا يغني ولكن الذي يغني هو من يركب العربة .

يا الله ، ما أكثر ما يحفل به العالم من تناقضات ؟ اذا كان الغناء ثمرة فراغ الرجل الجالس في العربة فهل يأتي الفن كله من الفراغ والبطالة ، من الرفاهية وطمأنينة البال ؟

ولكن أليست الاغاني التي تتردد في القصور الفنية هي الاغاني التي ولدت في الاكواخ الشقية؟ ان الفقراء هم الذين ألفوا الاساطير التي تروي حكايا الخانات واصحاب الثروة . السلطان كوميك امر بنفي الشاعر ارشي قازاق الى سيبيريا . ولكن ارشي قازاق ظل ينظم القصائد في سيبيريا . إننا من أشعار أرشي قازاق نعرف اليوم من كان سلطان كوميك هذا .

الجبليون الذين اختطفوا الامير الجورجي الشاب دافيد غوراميشفيلي ألقوا به في غيابة حفرة عميقة في اونتسوكول . وبكى الامير الشاب في حفرته الرطبة ، وتذكر لؤلؤته ، جورجيا الزرقاء ، وجعل ينظم الشعر . إن الجبليين هم الذين جعلوا ، الى حد ما ، من هذا الامير شاعرا .

عائشة بنت السلطان خونزاخ احبت راعيا شابا جميلا . وعندما اكتشف السلطان ذلك طرد الفتاة من قصره . كان ذلك في ليلة من ليالي الشتاء ، بردها يجمد أوصالها ، وثلجها يصل الى ركبتيها ، وكانت تلبس ثوبا خفيفا تمزقه الرياح الغاضبة . عندئذ نظمت عائشة أغنيتها الاولى .

إذن فهل تأتي العبقرية من ضعف الانسان ، من الشقاء ؟ هل يهب الشقاء والالم اجمل الاغاني ؟ من أنت أيتها القصائد ؟ وماذا تريدين ؟

جئت توسوسين الى باتيري ، وهـو عجوز مريض جائـع قبع في كوخه قرب موقده الخامد .

جئت توسوسين الى محمود عندما كان يتجمد في خنادق الكربات ، وعندما كانت حبيبته ، التي هي اغلى عنده من الشمس والارض والحياة ، تتزوج واحدا غيره .

جئت توسوسين الى ابي طالب عندما كان يدور في القرى متسولا ، وعصاه في يده ، وعندما كانت حبيبته تصد عنه لتتزوج غيره .

جئت توموسين الى الداريلاف عندما تلقي من يد قاتله كأس السم • خاط زونتي النائب ثم اسخيل مارين بالخيطان وعندئذ غني انخيل مارين أحلى أغنياته • وسلبت هذه الاغنية النائب راحته ونومه حتى نهاية عمره •

قولي إذن أيتها العبقرية من اي مصدر تأتي قوتك ؟ مـن انت ؟ : الوجدان ، الشـرف ، الشجاعة او لعلك انت الخوف ؟ لأن من يخاف يغني أيضا وهو يضرب في الليل ليهب نفسه الشجاعة •

أانت السعادة أم الشقاء ؟ المكافأة أم العقوبة ؟ أانت الجمال الذي خلق لعذاب الناس ؟ أم الالم الذي يلد فيه الجمال ؟ أانت ابنة العصر او الحادثة ؟ بنت الشرارة تلد مـن قرع الحجر بالحجر • بنت الحرب لا تزيد عدد الناس على الارض ، ولكنها تزيد عدد الابطال على الارض •

ما العبقرية ؟ انا لا اعرف ، مثلما لا اعرف ما هو الشعر • ومع ذلك يحدث لي ، وأنا في طريقي الى البيت ، او في بلد غريب ، أو خلال نومي (كان ذيل معطفي يشمر) او عندما أسير فوق العشب الاخضر (كان خضرته الحية تجري فيّ وتسري في دمي) او عندما أتناول طعامي ، او عندما أصغي الى الموسيقى ، او عندما أكون بين افراد أسرتي ، او بين اصدقائي الصاخبين ، عندما ارفع بين يدي طفلا لابارك له في حياة طويلة ، او عندما امسك بنعش صديق اسير به الى مثواه الاخير ، او عندما أرنو الى وجه الحبيبة الغالية ، في كل هذه الحالات المتباينة ، وفي غيرها من الحالات يحدث لي أن أحس أن شيئا ما يوسوس لي ، إنه شيء نادر ، مدهش عجيب قـوي • إن عروس الشعر عندي مرحة حينا ، حزينة حينا ، ولكنها دائما تحثني على العمل ،وتضطرني الى التعبير عن نفسي• إنها تجيئني دون أن أدعوها ، دون أن تقرع باب بيتي •

عندما تأتي ترفع الستار عن صورة محمود ، وهو يلبس فروته ويحمل ربابته وحبه وأغانيه اليائسة ، وعن صورة والدي بابتسامته الرقيقة الحزينة ، وصورة الداريلاف ، وكأس السم في يديه ، وصورة اسخيل ـ مارين بشفتيه الداميتين ، خاطهما النائب القاسي ؛ وهنالك ايضا تبدو صور كثيرة لفنانين العمالقة : دنتي ، تولستوي ، شيللر ، بلوك ، غوته ، بلزاك ، دوستويفسكي••• ويخيل لي أحيانا أن صورة الله تبدو خلال ضباب يخترقه شعاع مضيء من نور •

وسألتها :

ـ من أنت ؟

ـ انا عبقريتك ، شعرك •

ـ من أين جئت •

ـ أنا في كل مكان •

ـ أأنت لذتي ؟

ـ كلا ، عمري ثانية واحدة وعمري مائة قرن • في ذاتي سذاجة الطفل وعاطفته وطيش الشاب

وحكمة الشيخ • ليس لي عمر • أنا النار التي لا تخمد ، أنا الأغنية التي لم تتم • أنا الطيران الذي لاينتهي ، أنا بعيدة جدا عنك ، وأنا في ذاتك • من يحملني في روحه ير العذاب الأليم • ما من شيء أشد مني وطأة •

يكفي ان اكون ليستطيع رنين الأوتار في قيثارة ان يشق صخرة صماء • يكفي ان اكون حتى تر قص الربابة بقر الوحش في ثنايا الجبال ، يكفي أن أكون حتى يسقط الخنجر من يد القاتل ، ويتحد العاشقون في قبلة •

كنت هناك عندما نزعوا الغطاء عن رأس باتي(٣١) في قرية اندي ، كنت هناك عندما اغويت مريم وألقيت هكذا على سرج الحصان • كنت هناك عندما سلت جان دارك سيفها • كنت هناك عندما اخترع رجل ما اجنحة وقفز من قبة جرس • كنت هناك عندما نصب ماجلان وكولومب الشراع• كنت هناك عندما ولدت عذراء القديس سيكسيت •

كل العصور وكل البلاد ساحات لنشاطي • وأصحابي هم الناس • الناس لهم ذكاء ولهم أرواح • في كل مرة يعرف الناس الحب والبغض ، الشجاعة والرياء • ذكاء الناس وأرواحهم هي ساحة معركتي ، ساحة إخفاقاتي ونجاحاتي ، ساحة إنجازاتي •

– إذن فاخبريني عن حقيقتي • فيم أنا أصلح ؟ أمن الممكن ان أتعرض لخطر ما مثل ان أكون ثلجا يذوب غدا ، مثل ان احاول ملء جرة قعرها مثقوب ؟ هل وهبت روحي ولو شرارة من نارك التي لا تخمد • هل بللت شفتي ولو بقطرة واحدة من قطراتك المحرقة الملتهبة المثيرة ؟

من عيني تسيل دموع الفرح والترح • ولكن هنالك دموعا أخرى تتوارى في أعماق عيني كما يتوارى العصفور الخائف وهو يسمع خطى الصياد • ولكن هذه الدموع الخفية واحدة فيها دمعة حب ، وأخرى دمعة الم ، وثالثة دمعة شقاء ، ورابعة دمعة سعادة •

رأسي يجلله شعر أبيض وأسود ، وأنا أضع رجلا في الشباب ورجلا في الشيخوخة • والشباب والشيخوخة يتصارعان دائما ، وروحي هي ميدان المعركة •

حبي شجرة دلب لها جذعان •
جذع يجف وجذع تغطيه الاوراق
حبي نسر له جناحان
جناح يحلق وجناح يسقط

---

(٣١) علامة على التشهير •

في صدري جرحان يلتهبان ،
جرح يلمع ، وجرح يندمل ٠
هكذا عشت دائما ٠ ينتظرنا الفرح حينا
وحينا يسرع الالم ليحل محله ٠

الحياة لها حدود ، إنها قصيرة ٠ أما الاحلام فلا تنتهي ٠ ما ازال على الطريق ، وأحلامي ما تزال هنالك في البيت ٠ امشي الى حبيبتي ، واحلامي ما تزال بين ذراعيها ٠ انا اعيش في هذه اللحظة واحلامي ما تزال تطير هناك في السنوات القادمة ٠ تطير الى ما وراء الحدود التي تغرق فيها الحياة في الظلمات ٠ احلامي تطير فوق العصور ٠

أحجية تعرض على شامل :

وضع بين يدي شامل حبل فيه ثلاث عقد ٠ اثنتان منها متجاورتان في طرف الحبل ، والثالثة في طرفه الاخر بعيدة عن العقدتين ٠ وقيل له : احزر ! وأمسك شامل بالحبل وفحصه وقال :

ـ إحدى العقدتين هي أنا ، والثانية هي موتي ٠ والثالثة التي في الطرف الثاني من الحبل هي المكان الذي تعيش فيه الآن احلامي وافكاري ، الغاية التي احاول الوصول اليها في حياتي ٠

إن الحقل الذي تحرثه أحلامي أوسع بكثير من الحقل الذي أحرثه في الواقع ٠ فمن ذا الذي تريدين أن تغنيه بعبقريتي ، أأنا أم أحلامي التي تطير بعيدة أمامي ؟
نعم أنت النار التي لا تخمد ، أنت الاغنية التي لا يستطيع أحد أن يضع لها نهاية ، أنت الطيران الذي لا يحده حد ٠ ولكن هل استطيع أن امسك في اغنيتك الخالدة ولو بنغمة واحدة تكون هي نغمتي ، نغمة من آفار ٠

عندئذ يمكن أن تكون اغنيتي كلها اكثر غنى ٠
ايمكن ان اشعل على قمم داغستان نورا تبعثه نار متواضعة ، تكون شعبة من نارك التي لا تخمد ؟ ايمكن على الاقل تقدير ان احدد ، ولو من صخرة الى صخرة ، طيرانك الذي ليس لـه حـد ولا نهاية ٠

قريتي هي تسادا ، ومعناها الشعلة ٠ سألني يوما قروي من غير قريتي :
ـ من اين انت يا ولدي ؟
ـ من تسادا ٠

وقال السائل :

ـ اقرأ لي أولا شعرك ، وعندئذ أقرر إن كان شعرك هذا شعلة أو رمادا باردا .

الشك يستبد بي . ألست في سبيل ليس معطفي تماما في الوقت الذي ينتهي فيه الطقس الرديء ، وتشرق الشمس مرة أخرى من وراء السحب التي تتبدد ؟ ألست في سبيل أن أضع قفلا لباب الزريبة بعد أن سرق اللصوص بقرتي ؟ ألست أروي أشياء سمعها كل الناس عدة مرات ؟ ألست أدعو إلى بيتي جماعة تركوا الآن مائدة عامرة في منزل مضياف ؟ فهل ثمة ما يدعو إلى تأليف هــذا الكتاب ؟

ـ إذا كنت تستطيع ألا تكتب فلا تكتب .

ـ أيمكن ألا أكتب ؟ المريض الذي يتوجع كثيرا هل في إمكانه أن يكف عن الأنين ؟ السعيد هل في إمكانه ألا يبتسم ؟ العندليب هل يستطيع الكف عن الغناء في صمت الليل الذي يغمره القمر ؟ العشب هل يستطيع ألا ينجم إذا انفلقت الحبة في الأرض الرطبة الندية ؟ الأزهار هل تستطيع ألا تتفتح عندما تدفىء شمس الربيع البراعم ؟ جداول الجبل هل تستطيع ألا تجري نحو البحر عندما تذوب الثلوج ويهرع الماء مزمجرا يكب الحصا في وجهه ؟ النار هل تستطيع ألا تندلع إذا مس اللهب الأغصان اليابسة ؟

أحببت دائما نيران المعسكر . في الليل عند الرعاة ، على شاطىء النهر ، عند قدم الصخرة ، على قمة الجبل ، وخلال أحجار الموقد في المنزل . أنا أعرف أن إشعال النار ليس إلا نصف العمل ، وأن حراستها وحمايتها خلال ليل طويل ماطر أصعب كثيرا من إشعالها .

أنا أعرف أن في قلبي نارا . ولكن ماذا أعمل ؟ كيف أسلك لكيلا تخمد هذه النار ؟ كيلا تنطفىء قبل الأوان ؟ قبل أن أجد الزمان الذي أستطيع فيه إدخال الدفء على قلب إنسان أو إضاءة الطريق في الظلمات في عيني إنسان ؟ كيف أصنع لأحتفظ وأغني ما أتمتع به من عبقرية ؟

ذكريات والدي :

جاء جبلي إلى والدي وقال له :

ـ لقد حاولت ، واقتنعت أني قادر على الكتابة . ولكني لا أعرف ما يجب أن أفعله لأستطيع نظم قصائد جيدة .

وأجابه والدي :

لا يكفي أن تستطيع إصلاح الأوتار في كمان ، ولكن عليك أن تعرف كيف تعزف عليه . لا يكفي أن يكون لك حقل ، ولكن عليك أن تعرف كيف تحرثه وتبذره .

ـ وما عليّ أن أفعل لكي أنظم شعرا ؟

ـ كيف تسأل عما تفعل ؟ اشتغل واعمل .

العمـــل

إذا ظننت أن عملنا سهل على الدوام
فتعال إلى كوباتش ، تعال إليها يوما واحدا •

(كتابة على آنية من صياغة كوباتشي)

أنا عبد أشعاري طوال النهار المقدس •
أحني ظهري ، أمسح عرق العناء •
ولكن أولئك السادة ، ليس لهم ما يكفيهم •••
لا يعنيهم أن أركض حتى في الليل •••
أجد عجلتي ، وعموداها الجانبيان
يخزانني في عنف ، والعجلة تترجح دون نهاية
أثقال العربة تزداد يوما بعد يوم
وأنا أجرها إلى أبد الآبدين

حدث ذلك منذ أمد بعيد ، ولكني ما أزال أتذكر في جلاء ووضوح كأنه حدث أمس • بل إني وصفت الحادثة في قصيدة ، ولكني لا أستطيع منع قلمي من كتابتها هنا •

كنت ابن شاعر داغستاني هو حمزة ، ولكني كنت ما أزال مغمورا لا يعرفني أحد عندما غادرت قريتي لأسافر أولا الى ماخاتشكلا ثم الى موسكو • ومضت السنون ، انهيت دراستي في معهد الآداب ونشرت عشر مجموعات شعرية ، ونلت على واحدة منها جائزة ستالين • وتزوجت • واصبحت في اختصار الشاعر رسول حمزة ، وعندئذ فكرت في زيارة قريتي •

كنت أتشرد أياما كاملة هناك في الأمكنة التي ركضت فيها وانا طفل • كنت أرى الصخور والكهوف واتحدث الى الناس ، واصغي الى اغاني الجداول • وأجلس في صمت المقبرة ، وأدور مرة أخرى في الحقول •

في أمريكا زرت معامل فورد ، والارض التي تختبر فيها السيارات • إن المكان الذي ولد فيه الشاعر هو أرض اختباره وتجربته •

وذات يوم لقيت نساء عائدات الى بيوتهن بعد أن نظفن الاعشاب الطفيلية من حقول القمح • وجلسن على قارعة الطريق يسترحن ، مرهقات ، يغطيهن الغبار ، وتبدو على أيديهن علامات الوخز والجراح التي خلفتها الاعشاب الشائكة •• واقتربت منهن •

هل لاحظتني فجعلن صامدات يتحدثن عني ، او انهن كن يتابعن حديثا سابقا طويلا لا ادري ؟ وسمعت فجاة إحداهن تقول ، وهي تمسح جبهتها بقبضة من العشب :
ـ لو سألوني : ماهي امنيتك الاولى لقلت لهم : قلب رسول حمزة الخلي ، وعيشه الرغيد •
وقالت إحدى قريباتي تدافع عني :

ـ ولماذا تعتقدين ان لرسول قطعة من الجبن بدلا من القلب •
ـ لنفرض انه ليس قطعة جبن ، ولكنه على كل حال لا يضطر الى اقتلاع الاعشاب من حقول القمح• ثم إن جرس المزرعة التعاونية لا يدعوه الى العمل ، في الوقت المحدد ، ولا ينتظر قرع الجرس ليذهب الى الغداء • ثم إنه لا يعرف ماهو يوم ـ العمل ، وكيف نربحه وكيف يدفع لنا • إنه يكتب: ترا ـ لا لا ••• ترالي ، فالي ••• وماذا يشغل باله بعد ذلك ؟•• ما الذي يمكن أن يعذب قلبه ؟ ما لا أحب حظا خطرا من حظه !
ايتها المرأة الطيبة : كيف يمكن ان اشرح لك عملي ؟ وكيف اني اجده شاقا لا نهاية له ؟

كنت أعود من الحقول الى القرية احمل أفكارا حزينة • الشيوخ ذوو الشعر الابيض يدفئون احجار ندوتهم الباردة • يتحدثون في هدوء عن الارض وعن الحصاد الجديد ، وعن الجبال والمراعي ، والامراض والاعشاب ، وعن أيام القرية الخوالي •

ودنوت منهم والقيت عليهم التحية وجلست فوق حجر بارد •
أحد الشيوخ كان يمسك بيده آخر عدد من جريدة فيها قصيدة لي • ودار الحوار حولها • إن الفارس يحب ان يسمع الثناء على مزايا حصانه • ورجوت ان يثني مواطني على قصيدتي • وكنت المت المدائح في موسكو وفي ماخاتشكالا •

العجوز الذي يمسك بالجريدة لاحظ ما يأتي :
ـ أبوك حمزة كان ينظم القصائد ، وأنت يابن حمزة تنظم قصائد • متى تشرع في العمل ؟ اظن انك ستعيش طول حياتك ، وانت لا ترفع حملا اثقل من كسرة خبز ؟
وقلت له في حياء ، وقد استغرقني ما جرى في الحوار من تحول :
ـ ولكن الشعر هو عملي •

ـ اذا كان الشعر عملا فماذا تسمي البطالة ؟ واذا كانت الاغنية عملا فماذا تسمي النشوة والراحة ؟

ـ الاغاني في الواقع نشوة لمن يغنيها ، ولكنها عمل لمن يؤلفها ، عمل لا نوم فيه ولا راحة ، دون يوم اجازة ، دون عطلة ••• ان الورق عندي هو مثل الحقل عندك ، والحبوب عندك هي الاحرف عندي ، وقصائدي هي السنابل •

ــ آه • هذه كلها كلمات جميلة • إن الحقل لا يأتي الي ليستلقي على سقف بيتي • وعلي اما ان اذهب الى الحقل لكي اعمل فيه • اما الاغاني فانها موجودة حيث انت موجود ، بل إنها في سريرك • كل أغنية من أغانيك ضيف يقرع باب بيتك •• وكل اغنية عيد • اما حقلنا فهو حياتنا اليومية ، حياتنا كل يوم •

هكذا قال الشيوخ في الندوة ، او هكذا على وجه التقريب كان تعبيرهم عن افكارهم •

ــ ولكن الاغنية هي حقا حياتي •

ــ إذن فان حياتك عيد ابدي • الاغاني شان من شؤون العبقرية • والعبقري يكتب في سهولة اغنية جميلة • ومن لا يتمتع بالعبقرية فيجب عليه أن يعمل • وذلك صحيح • ولكن العمل في مثل هذه الحالة قليل الجدوى •

ــ كلا • انت مخطيء • إن صاحب الموهبة القليلة يعتبر الفن أمرا يسيرا • فهو يتنقل من أغنية الى اغنية ، وبذلك يسف في عمله ، كما يقال • اما الموهبة الكبيرة فهي تاتي مع الاحساس بالمسئولية التي تفرضها ، والرجل الموهوب حقا يعتبر قصائده عملا عسيرا وكثير الخطر • ليس كل ما يلفظ اغنية ، ولا كل ما يحكى قصة •

ــ إذن فحدثنا كيف تعمل وأين تجد الصعوبة في مهنتك ؟

كانوا فئة من الشيوخ المزارعين يجلسون حولي • وجعلت أشرح لهم ، ولكني سرعان ماادركت أن من العسير شرح أبسط الاشياء لهم ، وهي التي تبدو لي أكثر الاشياء وضوحا وفهما • وانقطع خيط حديثي ، وارتج علي فسكت • لقد انتصر علي شيوخ الندوة اليوم • لقد اخفقت في شرح السبب الذي جعل نظم القصائد قضية عسيرة على الخصوص وما معنى نظم القصائد على العموم •

ومضت سنوات كثيرة بعد هذا الحوار • ومع ذلك فلو سالوني اليوم شرح مايقوم عليه عملي، وما الذي يجعل منه عملا صعبا وبماذا يتميز عن المهن الاخرى لما استطعت الجواب •

اين مكان عملي ؟ لا شك في انه منضدة ومكتب • ولكنه ايضا درب الجبل اثناء النزهة ، عندما افكر في قصائدي فتاتي الكلمات والانغام ، فانتقي منها ما اشاء واترك ما اشاء •

إنه أيضا القطار الذي استقله الى بلد غريب ، في هذه الفترة يمكن ان تخالجك فكرة قصيدة جديدة • إنه الطائرة والحافلة ، والساحة الحمراء ، وضفة جدول ، والغابة ومكتب وزير • كل ذلك هو مكان عملي الذي أحرث واحصد •

متى اعمل ؟ أفي الصباح أم في المساء ؟ ما عدد ساعات يوم العمل ؟ ثماني ساعات او ست ، وربما اثنتا عشرة ساعة ، وقد تكون أكثر ؟

وإذا كانت ساعات العمل طويلة فلماذا لا أعلن الاضراب واطلب بتحديد ساعات العمل بثماني ساعات ؟

ذلك أني أعمل دائماً منذ عرفت نفسي • عندما آكل وعندما أكون في المسرح ، وأثناء الإجتماعات ، وفي الصيد وأنا أشرب الشاي ، وأمشي في جنازة ، في السيارة وفي الأعراس • حتى عندما أنام تنثال علي أبيات وصور وأفكار ، وأحياناً قصائد تكاد تكون كاملة • إذن فان يوم العمل عندي يستمر حتى أثناء نومي • وكان علي منذ زمن بعيد أن أعلن الاضراب !

كيف أعمل ؟ هذا هو أصعب الاسئلة • أحياناً يخيل الي أن عملي يشبه أي عمل آخر • ويخيل الي أحياناً أن عملي متميز لا مثيل له ، ولا يضارعه أي عمل يعمله الناس على ظهرالارض•

ويحين الي أحياناً أن كل الناس حولي يعملون ، أما أنا فطفيلي • وأحياناً يخيل الي أنني الوحيد الذي يعمل ، أما الناس جميعاً فلا يحركون أناملهم •

ما أشد حرارة الدم الذي يجري في عروق العصافير • تغني دائماً ، وطول حياتها ، الأغنية التي تعلمتها من أهلها • وللجدول دم حار ، فهي تغني دائماً أنشودتها منذ ألوف السنين • أما أنا فيجب علي ، خلال حياتي القصيرة ، أن أبدع أغاني‌ترضاها السنون بين السنين والأجيال بعدالاجيال• إن أول من حرث قطعة من الأرض لاقى ــ ولا شك ــ عناء كبيراً ، وكذلك من أبدع الأغنية الاولى• ولكن عندما يحرث ألف إنسان هذه الارض ، فان الانسان الواحد بعد الألف يجد حرثها أكثر سهولة• أما عندما يكتب ألف إنسان أغاني ، فان الانسان الواحد بعد الألف يجد كتابتها أكثر مشقة • نعم أيها الانسان الذي تحرث الارض إن بين عملي وعملك شيئاً مشتركاً • لا تنظر الي نظرتك الى انسان كسول ، حياته لذة دائمة ، وراحة مستمرة • إنني أفكر ليالي طويلة بيضاً في حقلي تماماً كما تفكر أنت في حقلك • أنت تنتقي أحسن الحبوب للبذار وأنا أنتقي أحلى الكلمات من بين كل مالي اللغة من كلمات • يجب علي أن أنتقي كلمة واحدة من الف كلمة • وأنا أيضاً لي المبغالي ، النجوم الاولى التي أفرح بها ، لمرات جهدي • أنا أيضاً يجب أن أزرع وأن أقتلع الاعشاب الضارة لأنها موجودة في حقلي • من الصعب أن تفصل الحبة الطيبة عن الشوفان المجنون حتى حين تستعمل الآلة • وأصعب من ذلك أن تنتقي الكلمات السيئة لتفصلها عن الكلمات النافعة الصحيحة الطيبة •

أنت تحمي حقلك من الجمد والجليد والرياح اللافحة ، وأنا ينبغي علي أن أبدع أغاني لا تخشى ألد أعدائها : ألا وهو الزمن ، لأني أريد أن أبدع أغاني تعيش مئات من السنين • وأنا لي أيضاً طفيليات : الحشرات والجراد والقوارض ••• إنها تستطيع أن تسرق نصيباً من محصولي أو تقضي عليه كله • تستطيع أن تجعله مراً لا يؤكل ، يدير الناس رؤوسهم اذا مروا

بثماري • والفرق بيننا ان القوارض عندي اكبر حجما واكثر هولا من فئرانك ، وان حربها اشد ضراوة ، بل إن حربها لا تجدي •

النار تضطرم ، والدخان يشق الفضاء فوق المنزل •
ولكن شرخا صغيرا صدع الحائط ،
والريح التي لها رأس بقرة
تسللت من هذا الشق لتجمد البيت •
قصائدي لها احيانا هذا الحظ
انا الذي ادفع من دمي ثمن الشعلة التي تلهبها
وتأتي الريح فتصيبها بالتجمد حتى القلب
وهي تنفذ دائما من بين الكلمات الدنيئة

يجب أن أوزع الثماري على الناس • في داغستان ، وفي غيرها من البلاد • وعلى الناس ان يتذوقها ، ويعرفوا حلاوتها ومرارتها ، وطعمها الخاص • من واجب هذه الاثمار ألا تشبه اية ثمرة في العالم •

ما أزال اذكر كيف كان ابي يعلمني كيف أجمع الاعشاب حزمة حزمة عندما كنت صغيراً • وعندما كنت أشد نطاق الحزمة بكل قواي ، وانا اعتمد على ركبتي كان ينصحني :
ـ انتبه يا رسول • لا تخنق العشب !

واليوم عندما تستعصي علي قصيدة ، وعندما يفر مني بيت رغم كل ما أبذل من جهود لاقراره في موضعه أراني اضرب ضربة صاعقة لانهي القصيدة مهمـا كلف الامر • عندئذ اتذكر كلمات والدي : « انتبه يا رسول • لا تخنق العشب » •

المحاصيل في الحقول تختلف كمياتها من عـام الى عـام • احيانا تجد الحنطة تضيق بهـا المستودعات والاهراء ثم تأتي ثلاث سنوات لا ينبت فيهـا شيء • وهكذا يحدث لي : لست دائما اعمل في سهولة • يبدو لي أني دخنت واشتغلت وبذرت بعض البذور ولكني مع ذلك لم احصـد مايكفيني خبزي • عندئذ اراني اهرع الى التراجم واشتري حنطتي من كندا او من اوستراليا • الكيمياء ، الكبيرة منها والصغيرة ، لاتستطيع أن تساعدني عندما يفتر الالهام الشعري ، في فترقما ، وعندما تأبى الابيات أن تنساب من روحي الى الورق •

ما العمل ؟ لو ان كل مزرعة وكل مشروع ينتهيان دائما بالنجاح لكان الناس جميعاً سعداء ومسرورين • لو كانت الارض تعطي في كل سنة غلالا وفيرة لشبع الناس في الارض جميعا • لو

أن كل ما يكتب يغدو أغنية لكان الناس من زمن بعيد لا يتحدثون حديثاً عاديا ، ولكنهم يغنون ويغنون. حقاً إن ابداع اغنية أمر جد عسير .

زرت كهوف الخمور في داغستان وجورجيا وارمينيا وبلغاريا ، ومستودعات الجعة في بيلزن . ويخيل الي أن الشعراء تربطهم بالخمارين نقاط التقاء جمة . لكل مهنة دقائقها واسرارها . كل قصيدة مثل الخمرة ، يجب ان تختمر في النفس وتهرم فيها . وكان لكل قصيدة جيدة (نكهة) تبهج النفس . وهكذا تربط بين الخمرة والقصيدة صلة وثقى .

هذه سيارة شحن تحمل براميل النبيذ تصل الى مخزن في قرية في الجبل . هذا البرميل ، لهذه القرية ، وذلك البرميل لتلك وهكذا يوزع السائق نبيذ (بوتياك) على قرى الجبل .

ولا يكاد القرويون يبصرون السيارة حتى تضج بهم كل زوايا القرية . ها هم هؤلاء يمضون الى المخزن دون عجلة ، وفي بطء ، ولكنهم في الواقع يشعرون بان صبرهم ينفد . هاهم هؤلاء يحيطون بالبرميل كما تحيط النعاج بقطعة ملح يضعها الرعاة على الأرض . وينصب النبيذ في الجرار ، ويتذوقه الناس فاذا خيبة الأمل تعمهم ، وإذا الاصوات تعلو :

ـ اهذا نبيذ ؟ هذا ماء !

ـ ولكنه من ماءالنهر !

ـ ليشربه الذين يبيعونه .

ويدافع البائع عن نفسه :

ـ لا علاقة لي بالموضوع . لقد رأيتم ان السيارة هي التي حملت البرميل . وأننا انزلناه أمام عيونكم . بل لقد ساعدتمونا على انزاله . اذن فما علاقتي بذلك ؟ أنا أبيع النبيذ الذي حملونيه ، وما عليكم الا ان تكفوا عن شرائه اذا لم يعجبكم .

والواقع أنهم قبل أن يرسلوا النبيذ من المنطقة الى الناحية يأتي مدير مستودعات المدينة فيأخذ برميلا ما دون انتقاء ، ثم يضيف اليه ماءصافيا ويقول : « في الناحية سيكون الناس سعداء بهذا النبيذ وفي مستودعات الناحية تتكرر العملية نقطة بعد نقطة ، ويقولون في الناحية : « هذا النبيذ جيد في القرى » وفي الطريق يشرب السائقون والحمالون من البرميل ليتسلوا ويقطعوا الطريق ، ثم يعوضون عما شربوه من النبيذ الرائق من ماء أول جدول يجدونه في الطريق . وتكون النتيجة أخيرا اننا نحصل على نبيذ افسده الماء ، أو ماء افسده النبيذ .

وهكذا عندما نقرأ بعض القصائد لا نعرف هل هي شعر أو رص كلمات ؟ هذا اللون من القصائد ينظمه شعراء كسالى لا يعملون في صبر ولا في جد وداب . ولكن السيل النزق قل ان يصل الى البحر ، والراجل الكسول قل ان يصل الى مكة . عندما يضطر فارسان الى امتطاء صهوة جواد واحد ، يمسك أحدهما بالآخر ، وكذلك تمتطي العبقرية والعمل حصانا واحدا .

قال أبو طالب :

على العبقرية والعمل ان يتلازما كما يتلازم الخنجر والغمد .

من دفتر المذكرات :

في ذلك العهد كنت امضي ايامي في الشارع اكثر مما اقضيها في البيت . كنت ما ازال اذهب الى المدرسة حين تعلمت الشعر . ولم اكن اصبر على تعلم الشعر، وعلى قراءة الدروس وعلى كتابة الوظائف . كنت لا اكاد استقر على مقعدي . وبدأت اتحرك ثم اقف ثم اغتنم اول فرصة ممكنة لأفر الى الشارع . وانا لا ازال حتى الآن غير كثير الدأب وغير طويل الصبر .

في يوم من الايام اجلسني ابي الى وظائفي ، او على الصحيح الى أشعاري ، وغادر المنزل دقيقة، ولم يكد يغلق الباب وراءه حتى تركت الكرسي وصعدت على سطح المنزل . ورآني ابي فصرخ ينادي امي :

ـ هاتي الحبل ، الحبل المتدلي من المسمار !

ـ ولماذا ؟

ـ اريد أن اربط رسولا بكرسيه ، والا فلن يصنع خيرا .

وربطني ابي في هدوء وعناية الى الكرسي وربت على جبيني ، وقال لي وهو يشير الى الورق :

ـ انقل على هذا الورق كل مافي هذا الراس . اوه ... ليتنا نجد الآن نحن معاشر الكتاب من يربطنا بمكاتبنا ، ولو حينا بعد حين !

الراس يعمل ولا شك ، ولكن عندما تبقى اليدان عاطلتين فذلك يشبه طاحونا تدور على فراغ بدلا من أن تطحن الحب .

أحجية شانغري وابنه والروبلات الخمسة :

كان في زمن من الازمان ، في مدينة كونزاخ رجل غني يحترمه الناس جميعا ، وكان اسمه شانغري . وكان له ولد وحيد ، إذن فهو ولد مدلل وذو نزوات . واراد الاب أن يعمل ابنه كما يعمل كل الناس ، وأن يغدو رجلا حقيقيا . ولكن الولد لم يكن يرغب في العمل ، وكان اقاربه وأصدقاء ابيه يدللونه . هذا يهديه حصانا وذلك شركسية وثالث مالا او خنجرا . ومرض شانغري ذات يوم مرضا خطيرا . ولم تجد في علاجه الادوية ، وكان اقاربه واصدقاؤه وكل اهل المدينة يحيطون بـه .

ـ ماذا نفعل لتحقق لك الشفاء ؟
ـ اما انا فاعرف ما يجعلني اقف على قدمي ، ولكنكم لا تستطيعون تلبية طلبي .
ـ وماذا تريد ؟ سنفعل كل ما نستطيع .
ـ سيتم شفائي عندما يستطيع ولدي ان يأتيني بخمسة روبلات يكسبها بعمله ، ويقول لي : « خذ يا ابي ، هذه لك » .

وبعد يومين جاء الولد الى ابيه ومد اليه يده بخمسة روبلات .
ـ خـذ يا ابي لقد اشتغلت في تعويم الشجر في النهر ، في خليج « كواسـو » وكسبتها .
ونظر الاب الى ولده ، ثم الى الدراهم والقاها في النار . ولم يتحرك الولد ، واصفر وجهه كانه تلقى صفعة على وجهه .

والواقع ان الولد لم يكسب المال وانما اعطاه إياه عمه الذي سمع ما قاله شانفري وأراد ان ينقذ الولد من ورطته .

وبعد عدة أيام جاء الولد من جديد ومد الروبلات الى ابيه وقال :
ـ اشتغلت في هونيب ، في شق الطريق الجديد وكسبت هذا المال .
ونظر الاب الى المال ثم الى ولده ودعك الاوراق المالية ثم رماها من النافذة .
ولم يتحرك الولد . كان هذا المال عطية من صديق لابيه من سكان غوتساتلي .

وجاء الولد الى ابيه مرة ثالثة ، وقدم اليه مرةالثالثة ورقة بخمسة روبلات .
ودون ان ينظر الأب الى ولده مزق الورقة قطعتين ورماهما . عندئذ أسرع الولد كانه صقر ينقض على فريسته ، والتقط القطعتين وجعل يلصق احداهما بالاخرى . وهو يصرخ :
ـ لقد نقلت ذراتب بتروفسك لا لكي تمزق هـذا المال كانه قطعة من ورق . انظر الى التمامل في يدي .
ـ هذه المرة عرفت انك كسبت المال بعرق جبينك .
واصبح شانفري اكثر فرحا وتحسنت صحته ثم ما لبث ان شفي تماما .
وهكذا فان ما نكسبه بعملنا هو وحده ذو قيمة حقيقية .
اليس يصح هذا على الشعر . إنت عانيت العذاب في نظم قصيدتك . كل كلمة فيها ، كل فاصلة فيها ، عزيزة عليك.ولكن عندما تلتقط فكرة في الطريق فلن تحصل أبدا على قصيدةثمينةحقا.
الصاغة ، جيراني
رايتهم مراراً في يسر بالغ
يستعملون معيارهم
ليميزوا الذهب من النحاس

وانت ايها القارىء الذي تعرف قيمة الاشياء
ليتك تساعدني في استعمال معيارك
لتمييز العملة النحاسية
التي تتوارى خلف زخارف الشعر وبهارجه
لتدعي انها عملة ذهبية

إذا اردت ان تكون السمكة طيبة الطعم فاذهب الى البحيرة واصطدها بنفسك • النسر يطير ضد العاصفة ، والسمك يسبح ضد التيار • والشاعر يكتب وهو يمضي الى لقاء المواطف العنيفة حتى اذا لم تكن فرحة ، بل كانت عذابا • قال لي ابو طالب مثل ذلك في يوم من الايام •

احجية صانعي الفخار في بالغار وجرارهم والمشترين الوقحين

صانعو الفخار في بالغار وضعوا جرارهم في سلال كبيرة وحملوها على حميرهم وبغالهم وذهبوا بها الى المدينة ليبيعوها • وفي الطريق صادفوا فتيانا من القرية المجاورة احبوا ان يسخروا بهم :
ـ يا صانعي الفخار ، اانتم تسافرون الى مكان بعيد ؟
ـ نذهب لنبيع جرارنا •
ـ وما ثمنها ؟
ـ الجرة الصغيرة بعشرين كوبكا ، والجرة الكبيرة بخمسة كوبكات •
ـ وكيف ذلك ؟
ـ لأن الفاخوري يلقى في صنع الجرة الصغيرة عناء أكبر من صنع الجرة الكبيرة •
والفتيان العابثون اشتروا كل الجرار •
وقال صانعو الفخار وهم يستأذنون ويديرون اعنة حميرهم وبغالهم ليعودوا الى قريتهم :
ـ ستكونون مسرورين من بضاعتنا • انـه عمل تم في وجدان • إن فخارنا يمكن ان يخدم أبناءكم وأحفادكم •

ومضى صانعو الفخار يرتقون التل ثم جلسوا ليستريحوا قليلا • كانوا يرون من هناك كل الطريق ، وفجأة أثارت انتباههم مجموعة الفتيان الذين اشتروا من بضاعتهم الجميلة الطنانة •
لقد وضع الفتيان الجرار على جانب هاوية في الجبل وتراجعوا عشرين خطوة وجعلوا يرشقون الجرار بالعصا • ويظهر انهم تراهنوا ايهم يكسر اكبر عدد منها •• وتفجرت الجرار وجعلت شظاياها تسقط في الهاوية • وسر ذلك الشباب سرورا كبيرا •

وكان صانعي الفخار صبر اليهم أمر مباغت • قفزوا من التل ، وهم يشهرون خناجرهم على الشباب الاوغاد • وهم يصرخون :

ـ ماذا تصنعون ايها الاشقياء ؟ لقد بمتاكم احسن مالدينا من جرار ••• ما الذي تصنعونه بهذا الكنز ؟ وصعق الغلمان وسألوهم :

ـ ولماذا تغضبون ؟ لقد بعتم بضائعكم واشتريناها منكم ودفعنا لكم ثمنها • والجرار الآن لنا ، فما علاقتكم بما نعمل ؟ نحن احرار في أن نكسرها ، أحرار في أن نحملها الى بيوتنا ، أحرار حتى في ان نتركها هنا على قارعة الطريق •

ـ ولكن هذه الجرار عزيزة علينا • ولقد كلفتنا جهدا كبيرا لتصبح جرارا ، ووضعنا في طينها كثيرا من الجهد وجزءا كبيرا من ارواحنا حتى اصبح الطين شيئا جميلا ، يعجب به الناس • لقد ظننا ان عملنا سوف يدخل السرور الى قلوب الناس ، وانه سوف يجمل حياة البشر • عندما قمنا ببيع جرارنا كنا نرجو أن تستعملوها ، واحد يضع فيها نبيذا يقدمه للضيوف ، وثان يملؤهـا من ماء النبع السحر ، وآخرون يزرعون فيها ازهارا رائعة • اما انتـم يا قليلي الايمان فتكسرونها وتحولونها الى شظايا ، كل جهودنا ، كل مهاراتنا ، كل احلامنا تحطمونها بالقاء الحجارة عليها على حافة هاوية • انكم حين تقذفون الحجارة على جرارنا مثل الاطفال المجانين الذين يقذفون حجارتهم على البلابل ، على الطيور الصداحة باصواتها الجميلة • وحمل صناع الفخار دون تردد كل ما لم يستطع الغلمان كسره من الفخار وعادوا به الى ديارهم •

كل من يعمل بروحه ، وكل من يحب أن يرى نتائج عمله يفهم عذاب صناع الفخار •

بهذه الكلمة انهى ابو طالب حكايته •

تذكرت حكاية ابي طالب وانا في اليابان اشاهد صيادات اللؤلؤ الصبايا • كن فتيات جميلات وقويات ، يغطسن في اعماق البحر • وقد نجحن في وضع عدد من أصداف اللؤلؤ في كيس يتدلى على خصورهن ، ثم صعدن الى وجه الماء قبل أن يختنقن • يمكن ان تكون احدى هـذه الاصداف تضم لؤلؤة • ولكن ينبغي أن تخرج الف صدفة لتحصل على هذه الصدفة السعيدة اللؤلؤية • كم مرة ينبغي ان نغوص ، كم صدفة ينبغي ان نخرج من جوف البحر حتى نحصل على عقد من اللآلىءالحقيقية•

ولكن هل تاليف اغنية كانها العقد مصنوعة من الكلمات التي يستعملها الناس في حوارهم اقل من عقد اللؤلؤ عناء ؟ ان مجموعة الكلمات العادية والحوادث والعواطف والتجربة في الحياة تؤلف محيطا تتناثر فيه الاصداف اللؤلؤية في كرم • ولكن ما احلى وما اصعب عمل صياد اللؤلؤ الذي يجب عليه ان يغطس دون هوادة في أعماق المحيط ذات الاسرار • يجب ان يكون مسلحا بكثير من الحصافة والصبر والصحـة والثبات والحماسة • ويجب أيضـا ان يكون ذا حظ • إن صبر الغواصين على اللؤلؤ وصبر الصاغة في كوباتشكي الذين يصنعون الفضة المشبكة ينمان عن عبقرية ، ولكن ذلك كله هو العبقرية والعمل معا وفي آن واحد •

لكي تعيش قصيدة الى نهاية العصور أيها الاصدقاء الذين ترونني مرحا او قاسيا اعلموا اني اتعلم الصبر والصلابة من صاغة كوباتشي •

قواعد الحياة التي يعرفها كل جبلي :

لا تزوج فتاتك قبل سن النضج !
لا تخلع نعليك من قدميك قبل ان تقترب من النهر ، لا تضع قدرك على النار لتطبخ الصيد ، والصيد ما يزال في الغابة ، لم تصطده ولم تذبحه •
الثعلب الأزرق لا يملكه اول من يراه ولكن يملكه من يمسك به •

ما أزال أتذكر :

ما كنت اريد ان اذكر هذه الحكاية لانها ليس فيها ما يدعو الى المباهاة • ولكنني مادمت بدأت في ذكر الامور حسب تسلسلها فمن المستحيل ان اقفز على حلقة منها • ليس عبثاً ما يقولونه في الجبال : « اذا غصت في الماء الى سرتك فاغمر كل جسدك • » و « اذا حللت عقدة كيسك فافرغه» •

كان من الممكن ان يتم هذا الكتاب منذ زمن لولا هذه الحكاية السخيفة التي قررت ذكرها الآن• من عادتي اذا بدأت بكتابة كتاب ثم كان علي أن أسافر ، ان احمل مخطوطته معي • ولذلك فان مخطوطاتي سافرت معي غالبة في رحلات طويلة • وطبيعي أني لا احسبها لمجرد أن أحملها • هنالك أيام أكون فيها حراً عند الصباح في الفندق ، فآخذ المخطوطة وأتأمل فيها وأكتب صفحة • وكتابي هذا قطع معي بحاراً ومحيطات وقارات •

عدت يوماً من (بروكسل) ، ونزلت في فندق (موسكو) في الطابق الثامن ، ومادمت قد ذكرت هذا الموضوع فانا أريد مباشرة ان اقول ان فندق (موسكو) ليس بالنسبة لي فندقا عاديا • إنه يكاد يكون بيتي الثاني • لقد قضيت فيه نصف حياتي الشاعرة تقريباً ككاتب عندما كنت اجيء الى موسكو في أعمال مختلفة •

كل من في هذا الطابق من اداريين وموظفين ونساء مشرفات اعرفهم جيدا ويعرفونني • ويعرف أصدقائي في موسكو اني انزل دائما في هذا الفندق ، والحق ان بعضهم تعني عندهم كلمات (رسول في موسكو) ان لهم حق الدعوة عنده إن لم يشغلهم شاغل •

ولا أكاد ادبر اموري حتى تبدأ عدة الهواتف والقرع على الباب • وبعد قليل لا تجد مكاناً تجلس فيه ، ثم لا تجد مكاناً تتحرك فيه • ليست غرفة في الفندق بيتاً في القرية • نحن معاشر

الجبليين لا نسأل عادة عن اسم ضيوفنا قبل اليوم الثالث من بدء زيارتهم ، حسب تقاليدنا القديمة.
ومع ذلك فإن قليلا من الناس يبقون ثلاثة أيام في غرفتي في الفندق ويبقى كثير منهم وأنا لا أعرفهم.
إذن فقد عدت يوما من بروكسل ونزلت في فندق (موسكو) وامتلأت غرفتي بالناس كالعادة . جاء بعضهم للتهنئة بعودتي من الرحلة ، وبعضهم يرجون سفرا سعيدا الى داغستان ، آخرون هنا هكذا دون سبب . بعضهم جاء بدعوة مني ، وبعضهم دون دعوة .

كنا نتبادل المدائح عاليا ، ونشرب نخبنا ، وكنا نلم غيرنا عاليا ونشرب نخبهم . نثرثر ونشرب ونضحك ونشرب ، ونغني ونشرب . وامتلأت الغرفة بدخان كثيف حتى خيل الينا ان هناك نارا من حطب رطب تشتعل تحت المنضدة او تحت السرير .
قال أبو طالب :
أمور ثلاثة عجلت هرمي :
الأول : أن يحضر كل الضيوف دعوتك ما عدا واحدا ، تضطر الى انتظاره .

الثاني : أن تضع زوجك الصحون على المائدة وابنك الذي ارسلته ليأتي بالفودكا مايزال غائبا.
والثالث : اخيرا ، ان يذهب ضيوفك جميعا إلا واحدا . إنه ذلك الذي سكت طوال السهرة ، فلما بلغ العتبة بدأ يتكلم ليستدرك كل ساعات الصمت التي فاتته ، وتشعر انت وهو يحدثك أن حديثه ليس له نهاية .

لقد انهك التعب قواك والقى النوم ثقله على جفونك ، وانت مضطر الى الاستماع الى حديثه السخيف ، ومضطر الى عدم معارضته شريطة ان يكف وان يذهب ، ولكنه وقد شعر بموافقتك على كلامه يسترسل في اندفاعات تتجدد دون انقطاع .
كان عندي في الواقع واحد من هذا النوع في هذه السهرة ، اريد ان اتحدث عنه وعن نهاية زيارته وكانت سيئة . ذهب الناس جميعا فامسك بي من كتفي وهو سكران ، يلقي اعقاب سكايره في اماكن لا يمكن ان تصدق ، ويطفئها على الستائر ، على ظهور الكراسي ، على حقيبتي ، وعلى الاوراق المتناثرة فوق مكتبي .
بدأ بالتغني بمآثري . ووافقت . ثم بدأ بالتغني بمآثره فوافقت . ثم تغنى بمآثر زوجته ، ووافقت . وفي آخر الحساب بدأ بشتمي واثارة كثير من السخافات ضدي . ووافقت أيضا . وقلت في نفسي في خوف : « الآن يبدأ بشتم نفسه ثم يشتم زوجته » ، ولكنه عندما بلغ النقطة التي كان ينبغي فيها ان يبدأ منطقيا بشتم نفسه كف فجأة عن الحديث واسرع في الذهاب الى غرفته ، ووعدني ، لكي يخفف عني أسفي على مغادرته غرفتي ، أنه سيعود الى زيارتي صباح غد .

يقولون أحيانا : إن الضيف جميل دائما ، ولكنه أكثر جمالا حين يدير ظهره . الآن ادركت معنى هذا المثل . إن ظهر ضيفي وهو يغادرني بدا لي رائعا . وقلت لنفسي ، وانا أتنفس

الصعداء : « حسنا استطيع الآن النوم في هدوء » . واغلقت بابي وتسللت الى سريري مثل لص ، ونمت فورا . وكان نومي هادئا كأني راع يلتف في عباءته الدافئة ، والمطر يهطل ويضج في الخارج . وحلمت انت كنت ، اتلفف في عباءة قرب نار موقدة في معسكر . والرعاة يجلسون حولها ويمدونها بالحطب حينا بعد حين . وكانت النار تدخن ، والدخان يحرق عيني ويدغدغ انفي . ثم رايتني في مخبز ، ولا ادري لماذا ؟ والحرارة في المخبز شديدة ، كان شيئا يحترق ، ثم وجدت نفسي في الريف بين اصدقائي ، في يوم من أيام الاحد ، ونحن نشوي لحما طيب الرائحة .

واستيقظت على الم في عيني لا يحتمل . ونهضت فازاعجني . الحجرة كانت ملأى بالدخان ، وظننت ان هنالك حريقا قرب الباب . واسرعت الى الردهة فاذا حقيبتي تكاد تاتي عليها النيران . كانت تغطيها لاصقات من أحسن فنادق العالم . كم من بلد قطعناه معاً . كم من جمارك اجتزناها معاً دون حرج . حقا إنها لم تضم يوما ما شيئا سيئا إلا ان يكون زجاجة فودكا مهدية الى صديق، او علبة دخان اكثر مما تسمح به أنظمة الجمارك . أو مبذلا يهدى الى زوجة .

وها هي ذي الحقيبة التي اجتازت في أمان الحرائق الجمركية تشتعل هنا في اهدأ غرفة في فندق موسكو .

وهرعت الى بقايا حقيبتي المحترقة ونقلتها الى المغطس واجريت عليها الماء . وتصاعدت من جديد سحب من الدخان الكثيف . واتيحت لي الفرصة في الوقت نفسه لاحراق يدي وحتى وجهي ؛ وكان علي ايضا ان اطفيء النار التي اصابت الكرسي الذي كانت الحقيبة فوقه ، والسجادة وحتى الستائر ، واسرعت الى الهاتف ودعوت المشرفة على الطابق .

وقلت لها : أنا احترق . أسرعي لانقاذي . والظاهر ان المشرفة ظنت ان رسولا لا يمكن ان يحرقه الا الحب ، وانني بالتالي احترق حبا لها . واجابت في هدوء ، وحنان الام في صوتها :

ـ اسمع يارسول . اذهب ونم . غدا تنسى ما عانيت . ايتها النساء . ما اعجب امركن : كم مرة قلت لكن وانا امزح اني احترق حبا ، فكنتن تصدقنني وتهرعن الى نجدتي . ولكني لم أجد واحدة منكن تصدقني حين كنت احترق فعلا .

واضطررت ان اكافح النيران وحدي ، مثل إطفائي باسل . واخيرا نجحت في إطفاء النار التي اصابت السجادة والستائر والارض الخشبية التي بدات تتفحم . نعم خرجت منتصرا من معركتي ، ولكن النار كانت قد كبدتني خسائر فادحة .

الظاهر ان ضيفي ، في سكره ، القى عقب سيكارة مشتعلة في حقيبتي ، وبـدا من هنـاك الحريق . قمصاني وبزتي والهدايا التي جئت بها من بروكسل كلها احترقت . واقامت ادارة الفندق دعوى علي تطالبني بالسجادة والكرسي والستائر وكلفتني مبلغا ضخما . اما انا فاضطررت الى الذهاب الى المستشفى وهتفت الى زوجتي اني اضطررت الى البقاء في موسكو لقضايا مستعجلة .

وبما اني لم اجد من الوقت مايسمح لي باختراع سبب ما لتاخري فقد وعدتها بارسال هاتف آخر. ذلك ما استطاع ان يفعله عقب سيكارة لعين •

ولكن علي ان اذكر ان كل ما اضعت تافه بالنسبة الى مابقي • الواقع ان المخطوطة التي عملت فيها سنتين كانت في قاع الحقيبة •

يقال : إن أكبر سمكة هي التي استطاعت ان تقطع الشبكة وإن احسن الايائل هو الذي نجا منك، وإن أحلى النساء هي التي هجرتك •

قسم كبير من المخطوطة احترق ، وانا مقتنع تطبيقا لهذا المثل انه خير ما فيها من صفحات •

واضيف أن تلك السمكة التي نجت ليست لي ، وأن الايل الذي فر ليس صيدي ، وأن المرأة التي هجرت ليست حبيبتي ، ولكن هـــذه الصفحات التي احترقت هي لي فعــلا • انـا الذي اخترعتها ، انا الذي عشتها ، انا الذي تعذبت وانا اكتبها ، انا الذي قضيت ليالي وليالي بيضا في عمل متصل دائب • لهذا اجدني أتالم لضياع مخطوطي • ولهذا عددته خير كتبي •

شعرت اني وحيد مهجور كاني حقل قاموا بتعشيبه ، او كاني سنبلة وحيدة نسيها الحصادون في الحقــل •

كل حرف خططته على هذه الاوراق التالفة اصبح عندي اغلى من لؤلؤة • وبدا لي كل خط من خطوطها ، في احلامي ، كانما هو عقد يتلألأ •

وظلمت سنتين كاملتين لا استطيع العودة الى المخطوطة ، لكثرة ما اقلقني وحزني ضياعها • وعندما استطعت اخيرا ان اصحو واهدا شعرت انني استطيع اعادة كتابتها تقريبا على نحو ما كنت كتبتها ، ولكن يستحيل علي ان اعيد صفحاتها الضائعة •

ذلك يشبه زوجين جديدين اضاعا ولدهما الاول • الزمن يمضي ، والزوجان يرزقان ولدا آخر يحبانه مثلما احبا الولد الاول ، ومع ذلك يبقى خير الولد البكر الذي مات •

يقال إن القصائد تخشى الماء • القصيدة نار ، وفن الشاعر لهب • الحق ان القصائد لاينبغي أن تكون مائية ، ولكني اسـال الله ان يصونهـا ايضـا من النار التـي التهمت مخطوطتي في غرفة الفندق •

سرقة بيت أبي طالب :

كيف حدث هذا ؟ من الذي استطاع ان يضرب هذه الضربة ؟ كيف كان البيت خاليا من سكانه في ذلك اليوم ؟ تلك امور لا اعرفها ، ولكن الذي حدث ان بيت ابي طالب سرق • واسرعوا ليروا ما اخذ منه ، واكتشفوا ان السارق اخذ ساعة ابنته الذهبية ، وخاتمها الذهبي وشنوفها وغير ذلك

من الحلي ، واخذ ايضا معطف الفرو ، والثياب والاحذية والمال ••• وكادت زوجة ابي طالب يغمى عليها ، وانهارت ابنته على المقعد وهي تبكي • اما ابو طالب فقد مضى الى غرفة ثالثة وجلس على الارض وشرع يعزف على ربابته •

وهجمت زوجته والقت نفسها عليه :

• كيف تجرؤ على العزف بعد هـذه الكارثة الفادحة ؟ يجب ان تسرع الى الشرطة ، إلى المدعي العام •

ـ اتتحدثين عن كارثة ؟ انظري هذه قصائدي ما تزال هنا ، هذه أوراقي لم تمسها يد السارقين• إذن فلماذا اغضب ؟

ـ ومن يحتاج الى قصائدك ، ولا سيما وقد كتبت فوق ذلك بلغة لاك ؟

ـ اوه ايتها الجاهلة • هناك اشخاص لا هم لهم الا سرقة الشعر ، بل انهم ربما سرقوا عناوين الشعراء • اما قصائدي فها هي ذي سليمة والحمد لله • لقد عملت فيها سنة كاملة ، لو سرقت لكانت هذه هي الكارثة • ثم انظري هاهي ذي ربابتي سليمة • فلماذا لا اعزف فرحا ؟

وظل ابو طالب يعزف على ربابته دون ان يكترث بصرخات زوجته وابنته •

حدثني افندي كابيف قال :

في يـوم من أيام الصيف الرائعة كان سليمان ستالسكي يتمدد على سطح بيته ، ينظر الى السماء • العصافير تزقزق ، والينابيع تدمدم • كل من رآه ظن انه يستريح • وذلك ما ظنته زوجته • وصعدت الى السطح ونادته :

ـ اللحم المشوي انتهى •• حان وقت الطعام •

ولم يجب سليمان ولم يلفت حتى رأسه •

وبعد فترة نادت (عينه) زوجها مرة اخرى •

ـ اللحم برد • وعما قليل لا يصلح للاكل

ولم يتحرك سليمان •

وعندئذ حملت الزوجة الطعام الى السطح لكي يستطيع سليمان تناوله هناك ، ما دامت تلك رغبته • وقدمت اليه الطعام وهي تقول له :

ـ انت لم تأكل منذ الصباح • ذق هذا اللحم الطيب الذي اعددته لك •

وغضب سليمان • وانتصب واقفا يصرخ بزوجته التي تمتني به :

ـ انت دائما تحولين بيني وبين عملي •

ـ ولكني ظننت انك لا تعمل ، فانت تستلقي على ظهرك •

ـ كلا • بل انا اعمل ••• لا تزعجيني •

والواقع ان سليمان نظم في ذلك اليوم قصيدة جديدة . وهكذا يعمل الشاعر حتى حين يكون مستلقيا على ظهره ينظر الى السماء .

الشاعر ينظم قصيدة لزوجته
« يا ضيائي ، يا نجمي ، يا صباحي
الحياة حلوة قربك ،
ومرة عندما لا أراك .

ولكن ها هي الزوجة ــ النجم والضياء ــ
تقف عند عتبة الباب
ويصرخ الشاعر : « أانت ماتزالين هنا » ؟
اذهبي ودعيني أعمل . بحق الله . »

حدثني أبي :

مغني الحب الكبير محمود ذهب يوما لزيارة رجل من الصالحين . كان هنالك ضيوف آخرون ، وبقي الشاعر يسحرهم باغانيه حتى انتصف الليل . ثم ذهبوا الى النوم . واعطي محمود احسن غرفة . ووضع له رب البيت طستا وإبريقا للوضوء وتمنى له ليلة سعيدة .

وعند الصباح خاف رب البيت أن تفوت محمودا صلاة الفجر فجاء يلقي نظرة خجلى على غرفة محمود ، فوجد الشاعر ما يزال ساهرا لم ينم ، وهو جالس على السجادة ينظم شعرا ويدندن في صوت خافت :

ليس في الجنة غناء
فاعفني منها إن اردت .
واحتفظ بجنتك
وانا احتفظ بحبيبي

ــ يا محمود ! حانت صلاة الفجر . دع قصيدتك وهيا الى الصلاة .
واجاب محمود :
ــ ولكن تلك هي صلاتي .
وهكذا يعمل الشاعر حتى في ساعات الصلاة .

من دفتر المذكرات :

والآن ساقص عليكم حكاية شاعر من آفار . لن اذكر لكم اسمه ، لانني لا أريد أن يشار اليه ويسخر منه ، ففي حكايته ما يستحق السخرية .

تزوج هذا الشاعر . وبعد حفلة الزفاف غادر المدعوون البيت وتركوا العروسين في غرفة أعدت لليلة الزفاف وتمددت العروس على الفراش في انتظار زوجها . ولكن العروس بدلا من أن يأتي ليجد زوجته ، جلس الى المنضدة ينظم قصيدة . وظل يكتب طول الليل ، وعند الصباح أتم قصيدة طويلة مهداة الى زوجته ، الى الحب ، الى ليلة الزفاف .

ايجب علينا أن نستنتج من هذه الحكاية أن الشاعر يعمل حتى في ليلة زفافه . لو فعلت كما فعل هـــذا الشاعر لكنت كتبت خمسين كتابا فوق ما كتبت ! ولكن يخيل الي ان هـذه الكتب ستكون كتبا زائفة .

إن من يجلس الى منضدته ، وعروسه تفتح له ذراعيها ، ذلك الذي لا يدع أوراقه وقلمه اذا حضرت امراة جميلة . ذلك في رايي مدع مغرور . يمكن أن يكتب عشرة مؤلفات او عشرين مؤلفا زيادة على ما يكتب غيره ، ولكن كلماته تظل ينقصها الصدق والاخلاص .

العمل . ذلك أمر لا مناص منه .

جلس حكيم تحت شجرة في انتظار ان تسقط تفاحة في فمه . ولم تسقط التفاحة .

ومع ذلك فان الصدق ، امام الاشخاص وامام الذات ، أكثر ضرورة للشاعر من العمل ، وربما من الموهبة .

يقولون : الرجل الشجاع يجب ان يظل على صهوة حصانه أو على ظهر الأرض .

يقولون :

ـ ما هو أشد مافي العالم حقارة وشناعة .

ـ الرجل الذي يرتجف خوفا .

ـ وماهو أشد من ذلك حقارة وشناعة .

ـ الرجل الذي يرتجف خوفا .

الحقيقة والشـجاعة

ينبغي ان يتصف الامام بالحكمة ، في جملة ما يتصف به •
قال ذلك نائب أبيض الشعر في المجلس •
ينبغي ان يتصف الامام بالشجاعة في جملة ما يتصف به •
هكذا اعترض نائب ثان على النائب الاول •

حكم العالم أسهل في ما اعتقد
من ان تكون شاعراً تحكم الشعر
لأن الشاعر ينبغي أن يكون شجاعا وحكيما
وان يتمتع بمائة سجية اخرى •

يقول اهل آفار :
الصدق والكذب يتراهنان منذ الازل
الصدق والكذب يتجادلان لمعرفة اي منهما اكثر نفعا
واكثر ضرورة واشد قوة •
الصدق يقول : انا ، الكذب يقول : انا •
والصراع لا ينتهي •

في يوم من الايام قرر الصدق والكذب ان يذهبا الى الناس ويسالاهم • الكذب ركض على طول الدروب الضيقة ، المتعرجة ، ونظر في كل شق ، وشم كـل ثقب • ودار في كل منعطف • ومشى الصدق رافع الراس في الطرق العريضة المستقيمة • وضحك الكذب طول الوقت ، وبقي الصدق متكرا حزينا •

وهكذا زارا كل الطرق ، والمدن والقرى ، ذهبـا الى الملوك والشعراء والخانات والبائعين والعرافين والناس البسطاء • كان الناس يشعرون انهم اكثر حرية ، أكثر راحة اذا ظهر الكذب• ينظر بعضهم الى بعض في العيون وهم يضحكون ، بينما هـم يخدعون الآخرين في الوقت نفسه • ويعرفون انهم يكذبون • ولكنهم يشعرون انهم لا يحملون حرجا ولا عبئا وانهم لا يتضايقون اذا خدع بعضهم بعضا او تبادلوا الاكاذيب •

فاذا ظهر الصدق تغيرت وجوه الناس ، وطاشت أنظارهم ، وخفضوا أبصارهم ، وأمسكو بالخناجر (باسم الصدق) وثار من اهين على من اهانه ، وهاجم المشتري البائع ، وثار الفلاح على الخان ، والخان على الشاه ، وقتل الزوج زوجته والمحب حبيبته ، وسال الدم •

وقال اكثر الناس للكذب :

ـ لا تتركنا • انت خير الاصدقاء • معك نستطيع ان نعيش في سهولة اكثر وفي بساطة أوفر • اما انت أيها الصدق فلست تحمل الينا غير القلق • انت تجبرنا على التفكير والعذاب والنزاع • كم من المحزونين الشباب والشعراء والفرسان ماتوا من اجلك •؟ أليس يكفيك ذلك ؟

وعندئذ قال الكذب للصدق :

ـ إذن فقد رأيت أني اكثر منك قيمة واجل نفعاً • في كل بيت زرناه كانوا يحتفون بي ويصيفون بك •

ـ نعم لقد زرنا بيوتاً كثيرة ماهولة • هيا الآن لنزور القمم • تعال نسأل الينابيع الباردة الصافية ما رأيها ، تعال نسأل الازهار التي تتفتح في مرتفعات الجبال ، تعال نسأل الثلج الذي يتوهج بالبياض الناصع الذي لا يزول • الالوف المؤلفة تعيش في القمم • المآثر الخالدة السامية للابطال والشجعان والشعراء والحكماء والقديسين تحيا هناك ، وتحيا هنالك كذلك افكارهم واغانيهم ومبادئهم • إن كل ماهو خالد لايخشى ما في الأرض من اضطراب تافه يعيش في القمم •

وقال الكذب :

ـ لا ••• لن اذهب الى هناك •

ـ ولم تخاف الأعالي ؟ انظر : الغربان وحدها تعشش في الحفر ، أما النسورفانها ترقى فوق قمم الجبال • اتحسب ان كونك غراباً يليق بك اكثر من ان تكون نسراً ؟ نعم • انـا اعلم انك خائف • إنك وغد على العموم • انت تجلس الى مائدة العرس وقد سالت عليها امواج الخمر ، ولكنك تخشى ان تخرج الى الساحة لتستمع الى رنين الخناجر لا إلى رنين الكؤوس •

ـ لا •• لست اخاف قممك • ولكن ليس لي فيها عمل ، لأنه ليس فيها أحد • مملكتي هنا تحت ، حيث يعيش الناس • انا اسيطر عليهم دون منازع • إنهم كلهم اتباعي ورعيتي • بعض أصحاب المبادىء الشجعان يجرؤون وحدهم على عصياني ، ويتكلمون بصوتك ، صوت الحق • ولكن هؤلاء الناس يعدون على أصابع اليد الواحدة •

ـ حقاً إنهم يعدون على أصابع اليـد ، ولكن الناس يدعونهم أبطالا ، والشـعراء يخصونهم باحلى اغانيهم •

أحجيــــة :

هذه الأحجية قصها علي ابو طالب • عاش في أحد البلاد شعراء كثيرون يذهبون من قرية الى قرية وينشدون اغانيهم • بعضهم على الربابة وآخرون على الدف ، أو الكران او القيثارة • وكان الخان ـ اذا لم تشغله اعماله او نساؤه ـ يحب ان يستمع الى اغاني الشعراء •

وفي يوم من الأيام سمع اغنية تتحدث عن قسوة الخان واستبداده وجشعه • فأمر الخان وهو غضبان ، بالبحث عن الشاعر الذي الف هذه الاغنية التي تحض على عصيانه ، وان يؤتى به الى القصر •

ولم يستطع احد العثور على مؤلف الأغنية • وعندئذ امر الخان وزراءه وجنوده بالقبض على جميع الشعراء • وهجم حراس الخان مثل كلاب الصيد على القرى ، والطرقات ودروب الجبال ، والشعاب الموحشة ، وقبضوا على كل من الف اغنية ، والقوا بهم في سجون القصر •

وفي صباح اليوم التالي جاء الخان ليرى الشعراء المساجين :

ـ حسنا • على كل واحد منكم ان يغني اغنية واحدة •

وبدأ الشعراء يغنون واحدا بعد واحد ، يمجدون الخان ، وفكره النير ، وقلبه الطيب ، ونساءه الجميلات ، وقوته وعظمته ومجده •

وقالوا في اغانيهم إن الارض لم تشهد قط مثل هذا الخان في عظمته وعدله •

واطلق الخان سراح من غناه من الشعراء • ولم يبق في السجن غير ثلاثة شعراء لم يستمع الى اغانيهم • وتركوهم في السجن ، وظن الناس ان الخان نسيهم •

ومع ذلك فقد جاء الخان بعد ثلاثة أشهر ليرى الشعراء المساجين :

ـ حسنا • على كل واحد منكم ان يغني اغنية واحدة • وجعل شاعر منهم يغني ويمجد الخان ، وفكره النير ، وقلبه الطيب ونساءه الجميلات وقوته وعظمته ومجده • وقال في اغنيته إن الارض لم تشهد قط مثل هذا الخان في عظمته وعدله •

واطلق الخان سراح الشاعر • وبقي شاعران رفضا الغناء ، فأمر الخان بنقلهما الى محرقة اعدت في الساحة العامة •

وقال الخان :

ـ سنلقيكما في النار • هذا إنذار نهائي : غنياني احدى اغانيكما •

ولم يستطع واحد منهما ان يتماسك • وجعل يغني ويمجد الخان وفكره النير وقلبه الطيب ونساءه الجميلات وقوته وعظمته ومجده • وقال في اغنيته إن الأرض لم تشهد مثل هذا الخان في عظمته وعدلـه •

وافرجوا عن هذا الشاعر ، ولم يبق الا واحد ، هو الاخير الذي ابى في عناد ان يغني •

وأمر الخان :

ـ اربطوه بالجذع واشعلوا النار •

وعندئذ انشد الشاعر ، وهو مربوط بالجذع ، اغنيته الشهيرة عن قسوة الخان واستبداده وجشعه ، تلك الاغنية التي كانت سببا في كل ما حدث •

وصرخ الخان :
ـ فكوا حباله • اخرجوه من النار • انا لا اريد ان افقد الشاعر الوحيد الحقيقي في بلدي •

وقال ابو طالب معلقا على الحكاية :
الحق اني لا اعتقد كثيرا ان هنالك خانات في مثل هذا الذكاء وفي مثل هذا النبل ، ولكن الواقع أن وجود بعض الشعراء من هذا النوع ضروري •

حدثني أبي قال :

سألت الشيخ شاملا العظيم يوماً بطانته :

ـ يا إمام • قل لنا لماذا منعت نظم الاشعار وتاليف الاغاني ؟

واجاب شامل :
ـ اريد أن يبقى الشعراء الحقيقيون وحدهم هم الشعراء • لأن الشعراء الحقيقيين يستمرون في نظم الشعر مهما حدث ، اما الكاذبون ، اما المنافقون الذين يدعون انهم شعراء فسيخافون ويسكتون لانهم جبناء • وهكذا يكفون عن خداع الشعب وعن خداع انفسهم •

ـ يا إمام • قل لنا لماذا القيت في النهر بقصائد سعد آراكان ؟

ـ يستحيل أن تلقى في النهر قصائد حقيقية • إنها تعيش في قلوب الناس • ولكن عندما تكون القصائد لا تساوي الورق الذي كتبت عليه ، عندئذ يحدث لها ما يجب ان يحدث • وعوضاً عن ان يكتب سعيد آراكان شعراً خفيفاً يحمله النهر معه يجب أن يشرع في كتابة شيء مفيد •

قالــوا :

عندما مات الشاعر الكبير محمود ، اخذ والده ، وقد سحقته المصيبة ، الحقيبة التي تضم مخطوطات محمود والقى بها الى النار •
ـ احترقي ايتها الاوراق اللعينة التي كانت السبب في موت ولدي قبل اوان موته •
واحترقت الاوراق ولكن قصائد محمود بقيت على قيد الحياة • لم تنس من أغانيه كلمة واحدة• لا تزال اغانيه تعيش في قلوب الناس ، لا سلطان للنار ولا للماء عليها •

كان أبي يسخر :

من هؤلاء الذين يخافون العين فيسافرون في الليل سراً ، من هؤلاء الذين يملؤون معاجنهم

بالحصا ليظن الناس ان فيها خبزا ، من الصيادين الذين يرجعون من الصيد يحملون زاغا عوضا عن حجل .

حدثني أبو طالب قال :

هذه حكاية الفقير الذي يتخذ مظهر الغني .

كان احدهم يأتي كل يوم الى الندوة وهو مسرور ، يبتسم ، وشارباه يلمعان من الدهن كأنه قام الآن عن اكل حمل صغير طري اللحم . وكان يتبجح في صوت عال :

ـ آه . ما أسمن هذا الحمل الذي ذبحته اليوم عند الغداء . ما أطرى لحمه وما أطيبه .

وتعجب اهل القرية وتساءلوا .

ـ ومن اين يأتي كل يوم بحمل ؟ يجب ان نتحقق . وتسلق بعض الفتيان المهرة سطح بيته ونظروا اليه من ثقب في السقف معد لانطلاق الدخان ، ورأوا الرجل الفقير يغلي في قدر عظما قديما كان عنده من زمن بعيد ، ثم يأخذ من سطح القدر شيئا من الدهن ويمسح به شاربيه . ثم يمضغ قليلا من الصعتر لأنه لا يملك غيره مما يمكن أن يؤكل في البيت .

وهبط الفتية سريعا من السطح ودخلوا الى منزله :

ـ السلام عليكم . كنا نمر من هنا فاغتنمنا المناسبة لنكون ضيوفا عند رجل غني .

ـ لقد تأخرتم . الآن فرغت من اكل حمل سمين . كنت اهم بالخروج من البيت .

ـ قل لنا شيئا خيرا من ذلك . من اين تقطف مثل هذا الصعتر الزكي ؟

وأدرك الرجل الفقير أن الفتيان عرفوا كل شيء ، وفقد شجاعته ، ومنذ ذلك اليوم لم يره الناس وشارباه يلمعان بالدهن .

أتــذكر :

عندما كنت صغيرا فرض علي ابي ذات يوم عقوبة قاسية . لقد نسيت طعم السوط منذ زمن بعيد ، ولكني ما أزال أتذكر سببه .

تركت البيت صباحا كأني ذاهب الى المدرسة ، ولكني في الواقع عرجت على درب صغير ثم على درب آخر ثم لم أصل الى المدرسة . ولعبت طول النهار بالطرة والنقش . مع اولاد الشارع . أعطاني أبي بضعة قروش لاشتري كتبا ، فضربت بها عدة ضربات ونسيت كل شيء في العالم . ورأيتني أضيع نقود ابي ، وبدأت افكر : كيف أستعيدها ؟

اللاعبون في لعبة المصادفة عندما يضيعون آخر قرش معهم يشعرون أنهم لو وجدوا قطعة واحدة

ذات خمسة قروش لكانت لهم الغلبة ولاستردوا كل ما فقدوا ، بل لربحوا ربحا وفيرا • وشعرت الشعور نفسه ، لو وجدت قروشا قليلة لكانت لي الكرة عليهم •

وطلبت من الاولاد الذين العب معهم ان يدينوني • ولم يقبل احد • ذلك ان الاسطورة تقول : اذا اقرضت مالا في اللعب للاعب خاسر اضعت نفسك •

عندئذ اخترعت الحل الآتي : درت على منازل القرية وقلت : إن فرقة بهلوانية ستصل قريبا وإنها كلفتني جمع مال لها •

ماذا يكسب كلب متشرد جائع يجري من بوابة الى بوابة ؟ عصا أو عظما ، هذا أو ذاك • وانا ايضا لم الاق الا الاعراض ، ولكن بعض الناس دفعوا لي ، ولا شك ان ذلك كان احتراما لأبي •

وبعد ان طفت في القرية عددت ما حصلت وعلمت اني استطيع استئناف اللعب • ولكن المال الجديد لم يلبث أن لحق بصاحبه القديم • وزاد الطين بلة ان سروالي تمزق وتجرحت ركبتاي، لأن من شروط اللعبة ان من يخسر فقد وجب عليه ان يسير قافزا على ركبتيه •

وفي اثناء ذلك افتقدني اهلي في البيت • وذهب اخوتي الكبار للبحث عني في كل القرية ، ورجال القرية الذين حدثتهم عن وصول البهلوانات الى القرية جاؤوا الى البيت واحدا بعد واحد يطلبون مزيدا من التفاصيل • وبكلمة واحدة كانت كل مغامراتي قد انتشرت ، بكل دقائقها ، عندما عثروا علي وقادوني وهم يجرونني من اذني الى البيت •

وقدمت الى ابي • كنت اخشى محاكمته اكثر من كل ما اخشاه في العالم • ووازنني أبي من رأسي الى قدمي ، وبدت ركبتاي العاريتان ، الحمراوان وقد اصابهما الورم من الجراح كأنهما وسائد من ريش تسد بها النوافذ في المنزل •

وسألني والدي ، وسحنته هادئة في الظاهر :

ـ ما هذا ؟

واجبت وانا احاول ستر الخروق بيدي :

ـ ركبتاي ؟

ـ انا ارى انهما ركبتان ، ولكن لماذا هما مكشوفتان للهواء ؟

حدثني قليلا عما مزق سروالك ؟

ونظرت الى سروالي كاني أكتشف الآن بعض مافيه من سوء • تلك نفسية الكاذب المخادع : يعرف تماما ان الكبار قد فهموا كل شيء ، وان من العبث ومن المضحك ان ينكر ، ومع ذلك يحاول ان يتملص من الاجابة وان يخترع ما لايعرفه الا الله •

وجعل صوت أبي يأخذ لهجة تهديد ووعيد • وجاء كل من في البيت لنجدتي وتحلقوا حولي ، وهم يعرفون طباع رب البيت • ولكن أبي أوقفهم بحركة من يده وسألني ؟

ـ إذن فأين مزقت سروالك ؟

ـ في المدرسة ••• علق بمسمار •••

ـ كيف •• كيف •• أعد •

ـ علق بمسمار •

ـ أين ؟

ـ في المدرسة •

ـ ومتى ؟

ـ اليوم •

وصفعني أبي صفعة رنانة •

ـ قل لي الآن كيف مزقت سروالك ؟

ولزمت الصمت فصفعني والدي صفعة ثانية على الخد الآخر •

ـ قل الآن •

وجعلت أبكي •

ـ اخرس • ومد يده الى السوط •

وتوقفت عن البكاء ورفع أبي ذراعه :

ـ اذا لم تقص علي فوراً كل ما حدث في الواقع أخذت السوط •

أنا اعرف هـــذا السوط ، وهذه العقدة في طرفه ، قاسية كأنها الحجر • وكان الخوف من السوط أكبر من الخوف من الصدق وقصصت بالتتابع كل مغامراتي منذ الصباح •

وحوكمت وحكم علي • وظللت ثلاثة أيام أتشرد كأني روح قضي عليها بالعذاب • كانت الحياة في المدرسة وفي البيت تجري في مجراها العادي في الظاهر ، ولكن قلبي كان في غير موضعه • كنت أشعر أن يوم التفسير الكبير بيني وبين والدي سيأتي لا محالة • ومع ذلك فقد كنت أتمنى في أعماق قلبي أن يتم هذا الحوار ، بل كنت أتمناه في لهفة • ولكن أصعب ما علي أن والدي كن لا يريد الحديث معي ، كان صخرة حقيقية تنتصب على رأس جبل •

وفي اليوم الثالث استدعاني أبي وأجلسني قربه ، وداعب شعري ، وسألني عدة أسئلة عن عملي في المدرسة وعلاماتي التي أحرزتها ، وفجأة سألني :

ـ أتعرف لماذا ضربتك ؟

ـ نعم أعرف •

ـ ولماذا ضربتك في رأيك ؟
ـ لأني لعبت بالدراهم ٠
ـ كلا ، ليس هذا هوالسبب ٠ من ذا الذي لم يلعب منا عندما كان طفلا ؟ أنا أيضا لعبت ، وأخوتك الكبار لعبوا ٠
ـ لأني مزقت سروالي ٠

ـ كلا ، ليس هذا هو السبب ٠ من منا لم يمزق سرواله أو قميصه عندما كان صبيا ؟ بحمد الله أننا نفقد صوابنا حتى الآن ! ثم إنك لست بنتا لتمشي دائما في منتصف الطريق ٠
ـ لأني لم أذهب الى المدرسة ٠

ـ لقد كان ذلك خطأ كبيرا ، كل مصيبتك في ذلك اليوم أتتك من هنا ٠ انت تستحق من أجل هذا تقريعا عنيفا ، وكذلك من أجل سروالك الممزق ، ولعبك بالمال ٠ ولكني في مقابل ذلك كان من الممكن ان اكتفي بشد اذنيك ٠ ولكني ضربتك لغير هذا كله ، ضربتك يا ولدي بسبب كذبك علي ٠ الكذب ليس أمرا يقع مصادفة ، وليس خطأ ولا هفوة ، انه سيماء تدل على خلق يمكن أن يكون له جذور ٠ إنه عشب ضار في حقل روحك ٠ اذا لم ينتزع في الوقت المناسبة من جذوره يمكن ان يملأ الحقل كله ، ثم لا يبقى فيه مكان صالح تنبت فيه حبة طيبة ٠ ليس في العالم كله شيء أكثر هولا من الكذب ، إنه لا يمكن أن يطرد ولا ان يضرب ٠ اذا كذبت مرة أخرى قتلتك ٠ منذ هذه اللحظة لا تقل ابدا غير الحق والصدق ٠ تسمي الحديد الاعوج حديدا اعوج ٠ وتسمى عروة الجرة العوجاء عروة الجرة العوجاء ، والشجرة الملتوية شجرة ملتوية ٠

هل فهمت هذا ؟
ـ نعم ٠ فهمت ٠
ـ إذن فاذهب ٠

وخرجت وانا اقسم إني لن اكذب ابدا ٠ وفوق ذلك فقد عرفت أبي إن لم أنفذ ما وعدت به ، فان ابي سينفذ وعيده ويقتلني مهما كان مقدار حبه لي ٠

وانقضت سنوات طويلة وقصصت قصتي هذه على صديق لي ٠
وصرخ بي :
ـ كيف ٠ الم تنس هذه الكذبة الصغيرة ، هذه الكذبة التافهة ؟

واجبته :
الكذب هو الكذب ، والصدق هو الصدق ٠ لا يمكن ان يكونا صغيرين ولا كبيرين ٠ هناك الحياةوالموت٠لايمكن لهما ان تتعايشا معا٠احدهما يطرد لأخر٠وكذلك الامر بالنسبةللصدق والكذب٠

الكذب هو العار ، والطين ، والقذر • والصدق هو الجمال والبيض والسماء الصافية •
الكذب هو النذالة والجبن ، والصدق هو الشجاعة • هذا أو ذاك ، ليس بينهما حد وسط •
واليوم عندما اقرأ مؤلفات كاذبة لمؤلفين كاذبين أتذكر سوط أبي • كم كان هـذا السوط مفيدا ؟ وكم كان هؤلاء في حاجة الى أب قاس يتوعدهم في اللحظة الحاسمة : « اذا كذبت قتلتك » •

اوه هل الكذب هو وحده الذي لا يحل به عقاب ؟ أليس هناك حالات عوقب بها الصدق نفسه ؟ هـل هي قليلة في التاريخ الأمثلة التي تتحدث عن أناس نالـوا باسم الصدق ؟ والذين هددوا بالسوط بسبب الصدق ؟
في طفولتي كنت احتاج الى كثير من الشجاعة لأتخلى عن الكذب وانحاز الى الصـدق • ولكني كنت أشعر كلما فعلت ذلك أن عبئا ثقيلا ينزاح عن صدري ونحن نحتاج الى قسط أوفر من الشجاعة لكيلا نتخلى عن كلمات الصدق • لأننا اذا فعلنا ذلك لم نشعر بالراحة ، بل شعرنا بالآلام المخيفة ، بالام الضمير •

إن الرجال الحقيقيين لا يبدلون أبدا قناعاتهم • يعرفون أن الارض تدور • يعرفون أن الشمس ليست هي التي تدور حول الارض ، بل ان الارض هي التي تدور حـول الشمس • يعرفون أن الصبح يعقب الليل حتما ، ثم ياتي النهار ثم يعود الليـل ••• وان الربيع يحـل محل الشتاء ثم ياتي الصيف الجميل •
نستنتج من ذلك أخيرا أن سوط الضمير ، سوط الشـرف ، سوط الصدق يقرع الكاذبين والمنافقين ، وأن الكذب لا يمكن أن ينتصر على الصدق مدى الدهر •

سمعت ذلك في ندوة القرية :

ـ ماهي المسافة الفاصلة بين الصدق والكذب ؟
ـ مقدار أنملة •
ـ وكيف كان ذلك ؟
ـ لأن مسافة ما بين الاذن والعين أنملة •
إن ما تراه بعينيك هو الصدق ، وما تسمعه باذنيك هو الكذب •
كل ذلك صحيح • ومن الخير للانسان أن يرى مرة واحدة من أن يسمع مائة مرة • ولكن على الكاتب أن يغترف الصدق من كل مكان ، مما رآه ومما سمعه ومما قرأه ، ومما عاشه هو نفسه •

---

(٣٢) الاصل : غيركوك ، وفي الحاشية مقياس يساوي طوله ٤٫٤ سم •

هل يمكن للانسان أن يثق بعينيه وحدها ؟ انه يرى الحياة بعينيه ، ولكنه يصغي الى الموسيقى، يقرا تاريخ بلاده ، اما بعض الكتاب فلا يضعون في المقام الاول عيونهم ولا اذانهم ، ولكنهم يولرون عليها حاسة الشم لديهم •

يجب أن يكون للكاتب يدان قويتان قادرتان على القيام بكل عمل ، وفمان واسختان واسنان متينة ولكن عليه أيضا أن يمتلك الذكاء والمعرفة ليستطيع أن يميز بين الكذب والصدق • بين الذهب والرقائق الرخيصة ، بين الحبة والحصوة في كل مايسمعه أو يقرؤه • والانسان دون ذكاء ولا معرفة لا يمكن أن يطمئن الى ما تراه عيناه •

سكان بعض القرى الجهلاء ، الذين لم يروا الذهب قط ولكنهم طالما سمعوا الحديث عنه ، وجدوا ذات يوم صندوقا ثقيلا جدا • فقال بعضهم لبعض « انه من الذهب ما دام ثقيلا الى هذا الحد» وتنازعوا على الغنيمة وقتل بعضهم بعضا لم تبين لهم أن الصندوق من نحاس • العبقرية نار • ولكن النار في يد الأحمق يمكن أن تاتي على كل شيء • الذكاء هو الذي يديرها • الذكاء يسرج حتى الجمال ، كما يسرج الفارس الماهر الحصان الثائر •

سالوا جبليا : ايهما تفضل ؟ جمال الوجه أو حكمة الكهل ؟

الأحمق يختار وجها جميلا ويبقى أحمق • والخطيبة تهجر الأحمق وان كان جميلا • الذكي يختار الحكمة ويعرف بفضل حكمته كيف يحتفظ بزوجته الى جانبه • وهذا ما حدث في الحكاية التي ذكرت أن من اختار الحكمة نجح في وضع جميلته على سرج حصانه البحري • ويتحدثون في الحكايات أيضا عن ثلاثة اخوة ، وثلاث طرق وثلاث نصائح حكيمة • فمن سمع هذه النصائح عاد الى بيته والى أهله ، ومن لم يسمعها ترك رأسه في ديار الغربة •

اوه يا سمكتي الذهبية : هبي لي بعض العبقرية • هبي لي بعض الذاب ، هبي لي قلبا صدوقا نشيطا مثل قلب شاب ، وحكمة باردة مثل حكمة شيخ ، ساعديني على اختيار طريقي الصحيحة، لتكن هذه الطريق ملأى بالحصا ، كثيرة العثر ، خطرة ، ولكني لا اريد أن ازحف كالحية من طرق الى طرق •

يتساءل الجبليون : « لماذا ذنب الافاعي ملتوية ؟ » ويجيبون أنفسهم : « لأن الجحور والثقوب التي تضطر الأفاعي الى المرور فيها ملتوية » • انا انسان لا أفعوان ، أحب الاعالي ، الصفاء ، الطرق المستقيمة •

احفظيني من المرض والرعب ، والحقد والافكار الخفيفة •

احميني من النشوة لأن الانسان يرى في النشوة ماهو جيد جيدا أكثر مما هو مائة مرة •

احميني أيضا من البلادة لأن الانسان يرى في البلادة ماهو سيء سيئا أكثر مما هو مائة مرة •

أعطيني إحساساً بالحق والصدق حتى أستطيع دائماً التمييز بين الامور الملتوية والامور المستقيمة ، ثم ان اقول ذلك دون خوف .

ـ « كل ما في العالم شر ، كل ما في العالم فوضى »

قال ذلك الشاعر قبل أن يغادر هذه الدنيا .

ـ « العالم رائع » . قال ذلك شاعر آخر .

وهو يغادر الدنيا في زهرة العمر .

شاعر ثالث ، وهو يغادر هذا العصر الخبيث

وكان يحمل اسم الشاعر الكبير الخالد ،

كان يسمي ماهو سيء جداً سيئاً

وماهو جميل ، جميلا

ذات يوم علق جبلي في اذني بقرته قرطين ليستطيع بهما تمييزها عن سائر البقرات . وذات يوم علق جبلي في عنق حصانه اجراساً لكيلا يختلط بحصان جيرانه . ولكن الفارس الذي لا يعرف حتى في الليل الأليل حصانه المفضل فارس سيء جداً .

هذا هو كتابي ، لا اريد أن اعلق عليه قروطاً ، ولا اجراساً ولا زخارف . فانا لا يمكن أن اخلطه بكتب اخرى كتبتها انا او كتبها غيري . ايمكن ألا يختلط على غيري من الناس . ايمكن ان يقول من يقرؤه فوراً ، حتى اذا كان غلافه منزوعاً ، إن هذا الكتاب كتبه رسول ، ابن حمزة ، من قرية تسادا .

يقولون :

الشجاعة لا تحتاج الى صخرة عالية .

★ ★ ★

ترجمها إلى الفرنسية .

سفيتلانا وماكس ليون

عدد تشرين الاول ١٩٦٨

من مجلة آثار وآراء

« الآداب الأجنبية »

من خلال المجلات والصحف والقراء

لقاء مع الدكتور أحمد سليمان الأحمد

حول مجلة « الآداب الأجنبية »

منذ امد بعيد شرع اتحاد الكتاب العرب في دمشق باصدار مجلة فصلية جديدة من نوعها ، هي مجلة « الآداب الاجنبية » التي يشرف على تحريرها الدكتور أحمد سليمان الاحمد • وصدور هذه المجلة حدث ثقافي له أهميته دون شك ، فهي اول مجلة عربية تتخصص في نقل الادب الاجنبي بصورة منتظمة الى القراء العرب وتحاول أن تكون مرآة لحركة الادب والفكر الجمالي والنقدي في العلم المعاصر • وقد صدر من هذه المجلة حتى الآن عددان ، وبين أيدينا عددها الثاني الذي يضم اكثر من ثلاثمائة صفحة ويشمل اعمالا لادباء وباحثين من مختلف الجنسيات •

وفي بهو فندق بوريفاج ، حيث تنعقد ندوة المجلات الادبية والثقافية الآسيوية ـ الافريقية ، التقينا رئيس تحرير المجلة ، الدكتور احمد سليمان الاحمد ، وادرنا معه هذا الحوار :

● متى ظهرت فكرة هذه المجلة الى الوجود وما هي الدوافع التي حدت باتحاد الكتاب العرب الى اصدارها ؟

ـ فكرة صدور هذه المجلة ألحت علي منذ فترة بعيدة ، وكنت في كل مرة ازور فيها بعض البلدان التي تصدر مثل هذه المجلة اتحدث الى العاملين فيها حول جميع ما يتعلق بها من قضايا انتقاء المواد وترجمتها والخطة المعتمدة في العمل ، ولما كنت مؤمنا بالمهمة التي يمكن للترجمة أن تنهض بها ازاء قارئنا العربي بشكل عام ، فقد اقترحت على المكتب التنفيذي لاتحاد الكتاب العرب هذه الفكرة بعد أن قدمت دراسة تفصيلية بشأنها وجاءت الموافقة سهلة ، وهكذا تم صدور العدد الاول، ولا شك أنه كانت هناك نواقص ما تزال قائمة ، ولكننا نجتهد في تلافي ما امكن في كل عدد جديد •

ولضرورات متعددة فان المجلة تصدر

حالياً مرة كل ثلاثة اشهر ، على امل ان يصدر منها في عامها الثاني - اي بعد صدور العدد الرابع - عدد كل شهرين مع طموحنا الى جعلها شهرية في بداية عامها الثالث .

● المجلة لا تستوعب طبعا الا جزءا يسيرا مما يصدر في العالم من اعمال ادبية ودراسات نقدية جديرة بالنقل الى العربية ، وهذا يعني بالتالي أن مواد المجلة تخضع لانتقاء دقيق ، فما هي الاسس والمقاييس التي يتم بموجبها انتقاء المادة للترجمة ؟

- صدور مثل هذه المجلة لا ينفي ضرورة الترجمة في غيرها من المجلات ، ولكن مجال اختصاصها يملي عليها واجبات دقيقة وكثيرة، فعليها أن تحسن الاختيار موضوعيا وجماليا ، وعليها ان تهتم كثيرا بالامانة للنص وبدقة نقله . وباستطاعتي القول اننا اجتزنا مرحلة الامتحان العسير بما يمكن له ان يجعلنا نواصل مسيرتنا بمزيد من الثقة . للمجلة بالطبع سياستها الثقافية فهي تنفتح على جميع آداب العالم ويهمها ان تنقل منها ما يكون مفيدا من حيث فكره وفنيته . وقد لا تتجاهل احيانا بعض البدع الادبية ، ولكنها لا تحاول ان تجعل من نفسها بوقا او وسيلة لهذه البدع، كما انها تهتم بالتراث العالمي وبالدراسات التي تعالج هذا التراث من وجهة نظر تقدمية وعلمية ، لاننا لا نؤمن بالانفصال في الثقافة وانما باستمرارية التطور الثوري ، فثقافتنا الفنية التقدمية المعاصرة ستغدو يوما ما تراثا، وبهذا المفهوم ننظر الى التراث العالمي السابق.

المجلة والتراث العالمي

● الملاحظ في الحياة الادبية المعاصرة ان الادب والفنون ذات المضمون التقدمي تميل الى التشبث باشكال التعبير التقليدية ،وبالمقابل فان قادة الثورة الشكلية في الفن المعاصر ينتسبون اجمالا الى الفكر البورجوازي المنحل، وفي مضمار الادب بالذات يمكن الاستشهاد بصمويل بيكيت ويونسكو مثلا . فما هو موقف مجلة « الآداب الاجنبية » في هذا الصدد ؟

- لا أريد ان اكون توفيقيا في عالم الفن او الادب ، ومع ذلك فانا شخصيا لا اؤمن الآن بوجود هذه المدارس المتمايزة تماما ، ذاك عهد انقضى مع انقضاء القرن التاسع عشر ، فهل يعني هذا اننا نعمد الآن في ادبنا الى نوع من التوفيق بين هذه المدارس ؟ الحق ان قوة جذب الثورة الشكلية في الادب المعاصر قوة طاغية في المرحلة الحالية على الاقل .. وتعرف الاوساط الرجعية في الفكر - لكي لا نقول ، وفي السياسة ايضا - كيف تمهد السبل لمثل هذا « اللمعان » إلا انه لا بد للفكرة المفيدة من ثوب عصري . كذلك كانت رسالة من تقدمنا في آدابنا العربية وفي الآداب العالمية عموما ، وهكذا يجب ان تكون رسالتنا . ولكن الفكرة هي التي تملي شكلها ضمن عوامل المحيط والعصر . هذا رايي الشخصي في الابداع ومع ذلك فانا لا احاول ان افرض منظوري الخاص على ما ينشر في المجلة ، وان كانت هناك سياسة عامة لا محيد عنها للمجلة ، وهي ان يكون للشكل الجديد محتوى اجتماعي وانساني تقدمي .

حول الشعر المترجم

■ لدي سؤال فيما يخص ترجمة الشعر، وانا اعرف انك شخصيا نقلت اعمالا شعرية

اجنبية الى العربية ، ومن المؤكد انك لاحظت ان الترجمة تتضمن في كل الاحوال شيئا من الجور على النص الشعري الاجنبي .. فما هو منهج المجلة في نقل الشعر الاجنبي ؟

— في العدد الاول من المجلة كتبت مقالا حول هذه الفكرة نفسها كمقدمة لترجمة شعرية لقصيدة طويلة كتبها شاعر رومانيا الكلاسيكي الاكبر ميخائيل ايمينسكو . وخلاصة رأيي ان الترجمة الشعرية من الافضل ان تتم على يد شاعر . ومن الاسف حقا ، ومن خلال تجربتي في مجلتنا وغيرها ، ان المترجمين عموما يستسهلون الترجمة الشعرية فيقدمون عليها وكأنهم يقدمون على ترجمة خبر سياسي في جريدة . وكم من مرة انتقيت قصة او بحثا واعطيتهما لمن اتوسم فيه الخير في الترجمة فعاد الي بعد أسبوع او اكثر ، وهو يحمل ترجمات شعرية معتذرا من ترجمة ما أعطيته اياه ، وبالطبع يكون ردي رفض ما قدمه ، لانه انما نظر الى القصيدة باعتبارها مجموعة صغيرة من الكلمات . وبهذا المفهوم فان ترجمتها تكون اسهل .

ان الترجمة الشعرية عملية صعبة ، ولا اقصد بها نقل الشعر شعرا . ولكن نقله بصيغة لها من الشعر جرسه ولفظته المناسبة . وقد قمت بتجربة في المجلة عمدت فيها الى قصيدة رومانتيكية مشهورة للشاعر الفرنسي لامارتين ، وهي « البحيرة » ، فقدمتها مترجمة شعرا على الطريقة الخليلية بعد ان قام بترجمتها احد شعرائنا السوريين ، ثم عمدت الى تقديم هذه القصيدة نفسها في ترجمة نثرية لها من الشعر مزاياه الاساسية . وتركت للقراء مجالا للحكم على ذلك . وبالطبع انا من انصار الترجمة الثانية . ولكن من المؤسف ان بعض النقاد لم يفهموا من هذه التجربة الا اني اقدم ترجمة جديدة لقصيدة قديمة استهلكتها الترجمات .

جريدة « المحرر » البيروتية
٧/١٢/١٩٧٤

● وكتبت جريدة « لوريان — لوجور » في عدد السبت المتنزل عن سورية ، ٢٥—١—١٩٧٥ ، ما يلي :

« الآداب الاجنبية » مغامرة تدعو للاهتمام ستتحسس اثرها ، بلا شك ، في مستقبل قريب . صدر منها حتى الآن ثلاثة اعداد بأربعة آلاف نسخة ، كل عدد . والقدر انا ، انه اخذا بالانفتاح السياسي والاقتصادي لسوريا على العالم ، قرر اتحاد الكتاب تأسيس مجلة مكرسة فقط لترجمات الشعر والقصص والدراسات الاجنبية . وقد وجدت فيها كثيرا من الاشياء الهامة : آخر أشعار فرلنغيتي ، وقصائد مترجمة عن البلغارية ، والروسية ، والرومانية ، ونصوص انكليزية ، وأعمال من الادب الالماني ، ووليم فاس ، وجورج امادو (من البرازيل) .

والمترجمون هم اما اساتذة من جامعة دمشق ، واما شعراء وكتاب يعرفون ادبا او عدة آداب اجنبية .

واعداد المجلة كما قيل تنفد بسرعة . وستصدر المجلة عما قريب مرة كل شهرين . انها ، اذ تضع الكتاب الشباب والطلاب على صلة مع اكثر النصوص تنوعا ، ستسهم في تجديد الادب السوري .

ايتيل عدنان

تجربة « الآداب الأجنبية »

العدد الاخير من مجلة « الآداب الاجنبية » الصادرة عن اتحاد الكتاب العرب ، يقدم نموذجا متميزا لما ينبغي ان تكون عليه المجلة الثقافية، فقد استكملت « الآداب الاجنبية » باعدادها الثلاثة التي ظهرت حتى الآن ملامح خطة عمل تحاول الالمام بجميع الثقافات العالمية ، وعلى صعيد الاجناس الادبية المختلفة من قصة وقصيدة ومقالة ، بحيث يمكن بعد فترة من الزمن ان يجد القارىء العربي المعاصر نفسه في داخل تجربة الادب العالمي بوجهه التقدمي والانساني، دون ان يحتاج الى الاستعانة بلغة اجنبية لا يتقنها الاتقان الكافي في معظم الاحيان •

واذا كان من معاني المعاصرة الاساسية ، الاتصال بثقافة العصر بمعناها الزمني والفني، فان من المؤكد ان هذه المعاصرة ماثلة ـ بمقادير متفاوتة طبعا ـ في مجمل الاعداد التي صدرت من (الآداب الأجنبية) • وبعبارة أخرى فان المعاصرة بهذا المفهوم تشتمل على معنى الحداثة الزمنية بالاضافة الى الحداثة الفنية •ويصبح (هوميروس) على هذا الاساس معاصرا كل المعاصرة ، ما دامت (الالياذة) تطبع من قبل دور النشر القائمة حاليا باعداد تتجاوز الملايين•

ان التعايش بين التيارات الفنية يغدو مثلا لتواصل مفترض في الادب العالمي •فليس في الادب قدم او جدة وانما هو وحدة فنية تطرد خارجها كل ما هو رديء وتحتفظ بكل ما هو جيد • وبالتالي فان التنهيج في تجربة (الآداب الاجنبية) قد اخذ بالاعتبار هذا المفهوم للادب، بحيث يستوعب جميع آفاق هذه التجربة الشاملة على مر العصور ، دون الانحياز الى تيار دون تيار آخر • ان القارىء من هذا المنطلق هو الحكم • ان الادب موجه اليه ، وما دام يقبل على قراءة (المتنبي) مثلما يقبل على قراءة (السياب) و (اليوت) و (ماياكوفسكي) فان من العسف كل العسف الزام القارىء بتيار فني معين او القيام بدور الوصاية عليه •

وهكذا تتجاور افضل منجزات التيارات الأدبية المختلفة على مر العصور ، وتبرز نقاط التقاطها ونقاط تمايزها ونقاط تعارضها لتقدم للقارىء مفهوما متصل الجذور بتجربة الأدب الشاملة ، ويتحقق بذلك معنى المجلة التقدمية المتميزة •

وعندما يتحقق هدف (الآداب الاجنبية) الذي يرمي الى تقديم اعمال ادبية كاملة ، ولتكن أعمالا روائية على سبيل المثال ، فان تجربة المجلة تكون قد استقرت وتبلورت على أسس تكفل لها اداء رسالتها على النحو المطلوب •

« المحرر الثقافي »
لجريدة « البعث » ١٩/١/٧٥

« الآداب الأجنبية »
في عددها الثالث

في العدد الثالث الصادر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق من مجلة الآداب الأجنبية قفزة جديدة وخطوة وضاءة على طريق التطور ضمن التخصص الذي التزمت به المجلة منذ عددها الاول • يبشر بكثير من الخير • ويدعو الى كثير من الغبطة والتفاؤل •

صار الجميع يعلمون ان الآداب الأجنبية مجلة فصلية تصدر كل ثلاثة شهور ويرأس تحريرها الشاعر المعروف الدكتور احمد سليمان الأحمد الذي اصر كما يبدو ومن هذا العدد بالذات على ترسيخ اسس مجلة مفردة وذات صبغة أدبية تسمح لها بان تكون الاولى من نوعها على امتداد وطننا العربي كله• وقد تستقطب قراءها وتشدهم من بين ركام المجلات الكثيرة جدا والتي لا يحصرها عد في لغتنا •

من هذا العرض السردي لمحتويات العدد تبين لنا أن المجلة لا تنوي التوقف عند حدود التحققات الاولى التي انجزتها في عدديها السابقين • وان طموحها كبير جدا يشغل القائمين عليها لبذل المزيد من الجهد والسهر لتكون فعلا أول مجلة من نوعها تقدم للقارىء العربي جانبا من الفكر الادبي العالمي بفرعيه الابداع والنقد • فهي مقسومة كما رأينا لتوصيل هذين الجانبين الهامين أو جناحي الادب كما يقول توفيق الحكيم من الابداع والنقد• فحسن الاختيار والانتقاء واضح الى حد أن القارىء لا يستطيع أن يمر على مادة دون ان يقراها •

والتنوع واضح في تقديم مواد المجلة حيث يلم القارىء باطراف منوعة من اداب العالم المعاصر بين اليابان شرقا وامريكا غربا • مع الحرص على النقل من عدد من اللغات – الانكليزية – الفرنسية – الروسية – الالمانية – الاسبانية – البورتغالية – •

ولعل اهم ما يميز هذه المجلة في عددها الاخير هو الحياد اي انها حرصت على تقديم وجبات ادبية دسمة من عدد من اقطار العالم المعاصر دون ان تتدخل وهذا اقصى ما يطالب به المثقف العربي الذي زكمت انفه الاقلام الجاهمة وغير المسؤولة في تشويه ادب العالم عن طريق نقد فج لا يعتمد على اية ثقافة او معرفة ادبية •

تظل لنا ملاحظة لعل طموحنا بتطوير المجلة يدفعنا الى ابدائها • ولتكن الى الشاعر الدكتور احمد سليمان الاحمد وهي : لماذا تهمل المجلة التي نعتبرها فاتحة خير كبير لماذا تهمل المسرح ؟ وهل يخالفنا احد في أن حاجة الاديب العربي المعاصر الى قراءة نماذج مسرحية عالمية متطورة اكبر من حاجته الى قراءة الشعر والقصة والنقد ؟ لا نظن ذلك • ونعلم أن المسرح اصبح يشكل طرف الثالوث الابداعي – الشعر – القصة – • خاصة وان الادب العربي يمر بمرحلة تدجين فن المسرح ليصبح كما في ادب العالم طرفا من اطراف ادبنا الرئيسية •

مجلة « الرسالة » الكويتية
العدد ٦٥٢

هـذه المجلة قفزت بهذا العـدد الثاني الى ان تصبح اهم المجلات الادبية العربية التي صارت نافذة مشرعة للمثقفين العرب ويطلون منها عـلى اعمال الكتاب الاوروبيين رغم ان الدور الاساسي في اهميـة الترجمة يعود الى المترجم الذي قـد يتصرف بالموضوع المترجم عـلى هواه •

مجلة « افكار » ـ الاردن
العدد (٢٩)
كانون الثاني ١٩٧٥

وقد كتب المحرر الثقافي لصحيفة «البلاغ» اللبنانية في العدد « ١٦٢ » تاريخ١٧/٢/١٩٧٥ مـا يلي :

عن اتحـاد الكتاب العرب في دمشـق صدر العدد الثالث من المجلـة الفصلية « الآداب الأجنبية » التي يرأس تحريرها الدكتور احمد سليمان الاحمد •

● « الآداب الأجنبيـة » استطاعت بعد صدور ثلاثة اعداد منها فقط ان تفرض نفسها كاحدى ارقى المجلات الادبية في العالم العربي، فقد بدأت تلعب الدور المنوط بها على اكمل وجه • ويتمائل هـذا الدور بشكل اساسي بتعريفنا على الآداب الأجنبية من خلال رؤيـة عربية وتقدمية صافية لا اثر فيها لعقد النقص والغربة والتقليد •

« علينا ان نلجأ الى الاختيار الموضوعي ـ الجمالي الى تقديم مافيه فائدة • • • • • • وهذا الجمهور الثقافي هو الذي يلعب دوراً متعاظما أوليا خاصة في بلداننا ••• »

هذا ما جاء على لسان رئيس التحرير في مقدمة العدد الثالث وهو يرسم الخط الذي تحاول أن تسير عليه هذه المجلة الناشئة •

وقـد ضم العدد عـددا من الدراسات الجيدة من بينها دراسة حول «الروايةوالمجتمع» لميشيل زيرافا ، ودراسات اخرى في « الواقعية ـ جوهر النموذجيـة واشكالها في الواقعية » ودراسة ثالثة حول النقد المقارن اعدها يوسف اليوسف ، ودراسـة رابعة بقلم كرابشنكو تعالج موضوع « التقدمية في الادب والفن » •

ومن المواد الادبية دراسة حول « شعراء الكومونة » وترجمات شعرية من كندا وامريكا وقصص من بلغاريا واليابان والمانيا وهنغاريا والبرازيـل وتحليـل للتراجيديـا الافريقية القديمة ومواد اخرى متنوعة •

وتحت عنوان شمعة من عمر « الآداب الأجنبية » كتب الاستاذ خالد محي الدين البرادعي في العـدد ٦٦٣ مـن مجلة « الرسـالة » التي تصـدر في الكويت يقـول :

في الكتاب الرابـع الذي انتهت بصدوره مجموعة السنةالاولى من مجلة الآداب الاجنبية الجديدة والمتفردة ، علامة واكثر من علامات الغبطة والرضا والتفاؤل ، واشارة واكثر الى أن يمضي مثقفينا على امتداد رقعة هـذا

الوطن الاخضر ينثرون ثقافاتهم دون ادخار الخاص منها لخدمة المجتمع كله ، وانهم متحفزون دائما لتحمل مسؤولياتهم التاريخية كحملة مشاعل ونثر ربيع‌وورسل خير وناشري كلمة طيبة .

وكانما قدر لهذا العدد الكتاب بالذات والذي يحمل الرقم ٤ وبه تنتهي السنة الاولى .. ان ياتي متكاملا او قريبا من الكمال ، ونضع اشارات التقريب لا الجزم حتى لا نقع في مغبات المبالغات ، ونحن نمقتها .

كان آخر عدد صدر من الآداب الاجنبية ، فيه تواشج‌الاجناس الادبية ، وتلاحم المنازع والمناهج وتعدد الاصول والمنابع في مجال‌الادب العالمي من قصة وشعر ونقد وتاريخ -منقولا كله عن خمس لغات وأكثر . وبعد قراءة العدد ذاك المحنا الى النوع المفقود من المجلة ، باشارة لوحنا بها أمام رئيس تحريرها الشاعر المجدد والناقد المثقف الدكتور أحمد سليمان الاحمد . وكان النوع المفقود منها هو المسرح نصا ونقدا .

وجاء العدد الاخير من السنة الاولى بصفحاته الثلاثمائة ليوجد النوع المفقود ، ويسترد النفس الضائع . ويغلق الدائرة على شبه التكامل التام في مجال نقل الشوامخ أو بعض الشوامخ من اداب العالم الذي نحن جزء من تكوينه وتاريخنا بعض من حركته وشعبنا فصيلة من انسانه .

فهو بالاضافة الى الشعر الذي نقله المهتمون في دفع « الآداب الأجنبية » عن اليوت ممسك سندات التجدد في الشعر الانكليزي والعالمي المعاصر ، وعن ميشيل دي غيه أحد شوامخ القريض الفرنسي المعاصر ، والقصة عبر حركات تجددها وتطويرها بين الشرق والغرب فنقل الناقلون انماطا منها . والنقد في منازعه ومشارب أهله بين تفسير وتحليل نفسي وسرد تاريخي وتاريخ واضاءات ملتهبات امام الابداع الادبي . بالاضافة الى كل هذا تقدم لنا المجلة مسرحية للكاتب الالماني « جورج‌كايزر » وبانتزاع هذا العمل المسرحي عن أصله الى صفحات الآداب . تتكامل ابوابها وتتالف اغصانها لتغيب شمعتها الاولى ولها في ذاكرتناالنصيب الاوفى من التقدير .

وخلال قراءتنا لاعدادها السالفة ، واكتشافنا بديهة لا تغيب ، هي وحدانية هذه المجلة وتفردها بين عشرات مجلات الضاد بنزوع خاص ونفس خاص ونكهة لا تقاربها الاخريات ..

جال في الذهن سؤال ما كنا لنجرؤ على طرحه ، لماذا لا تكون هذه المجلة شهرية تخترق مثل السهم صفوف المجلات المتراصة طولا وعرضا على أرض هذا الوطن .. ما دامت واحدة لا تغيب في زحام المجلات الكثيرة؟ بل الذي ايقظ هذا السؤال هو حاجتنا المرحلية الملحة لمثلها . فالمترجمون كثروا بين الامين الذي ضاع صوته ، والمزور الذي

راجت بضاعته ، واصبح متذوق الادب ملهوفا اكثر الى قبس يضيء له اوسع مساحة ممكنة من آداب العالم ، خاصة ونحن ابناء عصر لا تجدي العزلة فيه . وبكثير من الامانـــة التي تمنح الثقة او تجتذبهـا من الاخرين فيقـراون وهم مطمئنون الى ان ما يلقـى امامهم من اعمال الثافات صرف كما ابدعه اهله . لا خمرا افسدها الماء المكر .

وفي مقدمة هذا العدد يقول الدكتور الشاعر أحمد سليمان الاحمد ما معناه : ان التفاف القراء حول المجلة ومسؤوليات اصحابها امام ثقة قرائها فيها دفعتهم الى الامام دفعة اوسع ليقدموهـا مرة في الشهرين بدلا مـن المـرة الواحدة في الشهور الثلاثة .

اذن بعض الامل الذي راودنا قد تحقق ، والمجلة التي جاءت تسعى الينا اصبحنا نحن نسعى اليهـا وايدينـا عـلى الصـدور كمن استرد نفسه بعد لهفة الضياع والخوف من الضياع .

مجلة الاداب الاجنبية مولود تخطى عامـه الاول ، لنبـاركه لـه .. وننتظر الشمعـة الثانيـة .

« كان صدور مجلة تعنى بالآداب الاجنبية عملا ثقافيا بارزا واطلالة مشرقة على العالم . وكانت الخشية ان يصاب المولود الجديد بعدوى التهافت على الجديد لجدته وحسب ، وحرمان القارىء من الدراسات الجيدة النافعة عن الآداب الاجنبية ، حديثها وقديمها ، والآثار الادبية الخالدة من كافة الاقطار والعصور سواء اكانت تمثل (موضة) او (تقليعة) ام لا .

... ان الدعوة الى اهمال روائـع أدب الانسانية بداعي الحداثة هي دعوة الى الجهل . وكيف يا تـرى تكـون الحداثـــة . اليست بالدراسة الجادة المتعمقة لروائع الآداب العالمية في كافة عصورها وتفاعلها مع الذات والبيئة .

أتـراه الكسل الذي يدفـع بالبعض الى اللهاث وراء التيارات الحديثة محاولين تقليدها مع جهالة كاملة عن الأدب . ولماذا تغدق الاموال إذن على ترجمة روائع تولستوي ودوستويفسكي وشكسبير ثم لا نريد من مجلة «الآداب الاجنبية» ان تغنينا بكتابات نقدية جادة دالة على حسن تذوقها وفهمها .

.. وحقا ان المعجزة الادبيـة هي التـي تتخطى حدود الزمان والمكان واني ارى أن مجلة « الآداب الاجنبية » لا يمكن ان تعزف عن تقديم الروائع الادبية لتتحول الى مجلة ازياء فتعنى بكل جديد وتلاحق من بعده الأجد منه لتكون دائما عـلى صلة بآخر « تقليعة » تفرزهـا تفسخات بعض اوساط المجتمعات الغربية .

محمد الجيرودي
جريدة « البعث » ـ دمشق
صفحة « الاسبوع الثقافي » ١٩٧٤/٩/٣٠

.. في العصر العباسي عاشت حركة الترجمة عصرها الذهبي وكان (انتقاء) الكتب القيمة التي تغني الفكر الانساني اول خطوة لكل مترجم لا بد منها ، تتم بعد دراسة عميقة لمدى النفع الادبي والفكري للكتاب المترجم ، بحيث يشكل رافدا ثرا لحركة الادب والفكر ، والترجمـة كما وصفها بوشكين « أصعب الفنون الادبية واكثرها جحودا » لما تتطلبه من وعي كامل بالمادة المترجمة ، وتفهم عميق لنفسية الكاتب و « ارضيته الفكرية » اي ان « الدافع » الى

ترجمة الاثر الادبي أو الفكري هو اغناءحركة الادب والفكر ورفدها بنتاج جديد • واذا نظرنا الى الترجمة في نهضتنا الادبية المعاصرة نلمس غياب الدافع المذكور لدى بعضهم فالمترجم أحيانا لا ينظر الى اغناء عقول الناس بادابجديدة بقدر ما يتطلع الترجمة مايناسب ميوله الذاتية التي قد لا تتفق مع المصلحة الفكرية للمجموع الذي وجدت من اجله اصلا الحركة الادبية والترجمة •

ويصر بعض الكتاب على الابتعاد فكرا وقلما عن مجرى التغيير الاشتراكي والنهضة القومية فيكرسون وقتهم وعقلهم وقلمهم في انتاج او ترجمة ماهو بعيد عن مجرى التغيير الثوري ، ورغم ان الأدب الاشتراكي يعيش تجددا خلاقا كل يوم وينطلق بكافة اللغات الحية فهو في حركتنا الادبية لم يثبت حتى الآن وجوده الفعال •

مجلة الآداب الأجنبية رفدت فكرنا الاشتراكي واغنته بالرواية البلغاريةالرائعة (الأرض) •

عبد الحميد قصيبجي

«الثورة ـ العدد ٣٥٥٢ الخميس١٩ـ٩ـ١٩٧٤»

• مجلة الآداب الأجنبية التي برزت فيخضم الحركة الادبية رافدا ثرا يمدها بروائع الفكر والادبوالفلسفة •• مترجمة عن شعوبولغات اجنبية ، تشكل هذه المجلة وشاجا انسانيا رائعا نحن في أمس الحاجة اليه في معركة التغيير والبناء الحضاري الذي يشكل الأدب والفلسفة ركنا أساسيا من أركانه •

ومن الطبيعي ونحن ننتهج الخط الاشتراكي في عملية التغيير والبناء ان نتسلح بالفكر الاشتراكيالعلمي الذي اثبت فعاليته الفكرية والحضارية في كافة اللغات التي ترجم اليها، وكان المحرك لعقول الشعوب المسحوقة يدفعها الى التحرك النضالي ضد الاستعمار •

عبد الحميد قصيبجي

الثورة ٢٦ـ١٠ـ٧٤

• سرورنا لصدور العدد الاول من مجلة الآداب الاجنبية ، ونتمنى لها عمرا مديدا في عهدكم الزاهر•وقد تصفحت العدد المذكور فاحببت أن اقدم بعض الملاحظات لاعتقادي برحابة صدركم في الاعتناء بها والأخذ بالصالح منها •

١ ـ أن يتصدر المقال بصورة للمترجم •

٢ ـ كلمة عن المترجم وعن اهم انتاجه المطبوع والمخطوط •

٣ ـ في الهامش : كلمة عن صاحب الترجمة المترجم عنه وعن انتاجه ، المطبوع والمخطوط •

٤ ـ تخصيص زاوية للنشاط الثقافي في العالم ولاسيما في البلدان التيتستقي المجلة مادتها الادبية منها •

٥ ـ اختيار مقال جيد ينشر باللغةالانكليزية في نهاية كل عدد •

٦ ـ تخصيص زاوية خاصة بالاخبار الأدبية وبالانتاج الأدبي خلال الفصل السنوي•

٧ ـ ثبت بالمجلاتالأجنبية باللغتين الانكليزية والفرنسية ، ومحتواتها واتجاهها ، ولاسيما الادبية منها » •

حلب ـ عبد القادر حافظ
ماجستير في الآداب